أ.د. محمّد سهيل طقّوش

تاريخ المغول العظام والإيلخانيين

دار النفائس

13937

مكتبة جامعة عباد الرحمن
930,46

تاريخ

المغول العظام والإيلخانيين

بسم الله الرحمن الرحيم

إهداء إلى
الأستاذ الدكتور أحمد محمد علم الدين
مع تمنياتي بدوام الصحة والعافية
بيروت في ٥/٦/٢٠٠٧
د. محمد طقوش

تاريخ

المغول العظام والإيلخانيين

N

جديد

(٦٠٢ ـ ٧٧٢هـ/ ١٢٠٦ ـ ١٣٧٠م)

(٦٥١ ـ ٧٥٦هـ/ ١٢٥٣ ـ ١٣٥٥م)

تأليف

13816

الدكتور محمّد سهيل طقّوش

أستاذ التاريخ الإسلامي في جامعة الإمام الأوزاعي

كلية الدراسات الإسلامية

دار النفائس

تاريخ المغول العظام والإيلخانيين
تأليف: الدكتور محمد سهيل طقوش
© جميع الحقوق محفوظة
الطبعة الأولى: ١٤٢٨هـ ـ ٢٠٠٧م
ISBN 9953 - 18 - 434 - 8

نشر
Publisher

دار النفائس
للطباعة والنشر والتوزيع
شارع فردان - بناية الصباح
وصفي الدين - ص.ب 5152 ـ 14
الرمز البريدي: 2020 ـ 1105
فاكس: 009611861367
هاتف: 803152 ـ 009611810194
بيروت - لبنان

DAR AN-NAFAES
Printing-Publishing-distribution
Verdun Str - Safiedine bldg.
P.o.Box 14-5152
Zip code 1105-2020
Fax: 009611 861367
Tel: 00961 1 803152 - 810194.
Beirut - Lebanon

Email: alnafaes@alnafaes.com
Web Site: WWW.alnafaes.com

المقدمة

الحمد لله ربِّ العالمين والصلاة والسلام على سيِّد المرسلين محمد بن عبد الله خاتم النبيين وعلى آله وأصحابه أجمعين، ومن دعا بدعوته إلى يوم الدين، وبعد:

تتناول هذه الدراسة موضوعاً مثيراً يُعدُّ من بين الموضوعات المهمة التي تجذب أنظار المؤرِّخ والباحث والمثقف؛ هو تاريخ المغول العظام والمغول الإيلخانيين، ولا شك بأن حملات المغول الذين انطلقوا من منغوليا في جوف آسيا، على مراكز الحضارة في الصين وإيران والعراق وآسيا الصغرى وبلاد الشام وشرقي أوروبا ووسطها؛ تمثِّل مرحلة هامة في تاريخ البشرية، ذلك أن هذا الشعب ومض في تاريخ العالم مثل شرارة حارقة مذهلة، وعندما خرج من بلاده تحت قيادة جنكيز خان على خيوله القصيرة ليتوجه جنوباً نحو الصين، وغرباً نحو منطقة غربي آسيا وأوروبا، نشر الرعب والفزع والذهول بين الشعوب التي قهرها ودمَّر بلادها، وشغلت حملاته على تلك المناطق حيِّزاً هاماً في تاريخ القرنين السابع والثامن الهجريين، الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين.

والمعروف أن غارات البدو على مراكز الحضارة هو أمر مألوف، إلا أن سرعة تنفيذ هذه الغارات ضد تلك الأقطار التي بلغت درجة عالية في السلم الحضاري، تُعَدُّ ظاهرة ملفتة.

ولا شك بأن سيطرة المغول على تلك البقعة الواسعة، وما تبع ذلك من ضروب القسوة البالغة التي أدَّت إلى حدوث كوارث متنوعة ومروعة، مثل انقراض دول، وقتل آلاف عديدة من السكان، وتخريب أمهات المدن، ما يشبه الأساطير؛ إنما جرت وفق خطة موضوعة كيما يثير هذا الشعب من الخوف والرعب ما يشلُّ حركة الذين يفكرون بالتعرض لهجومه، ورأى أن ما يحدثه بالمدن من خراب ودمار تندلع فيها النيران، يكفل لجيوشه الأمن والسلامة، ويُجنِّبه تمرُّد الذين ينجون من القتل. وكلما حاز نجاحاً اشتد

تعطُّشه لسفك الدماء، ولم يُظهر شيئاً من الرحمة والرفق بالبلاد والعباد الذين خضعوا له، وهو أمر سهل يسير من وجهة نظره، ذلك أن الحرب عنده إنما تستبيح كل شيء في سبيل النصر.

وبعد أن وحَّد جنكيز خان منغوليا بما تحويه من قبائل مختلفة تحت سلطانه، نودي به خاناً أعظم، فنظَّم الدولة والجيش، وباشر في التوسع على حساب الدول المتحضرة، وبدأ بالصين الشمالية ثم اندفع غرباً ضد القراخطاي وخوارزم، وسيطر على كل المناطق الخاضعة لرقابة هذه الدولة الأخيرة في مناطق ما وراء النهر وأفغانستان والقسم الأكبر من إيران، وأرسل اثنين من خيرة قادته إلى مناطق قزوين، فاجتاحا الكرج وأذربيجان، وأحرقا مدينة همذان، واصطدما بالقبجاق والروس. وأسَّس الفاتح المغولي في أقل من عشرين عاماً امبراطورية شاسعة امتدت من بكين إلى الڤولغا، ثم جاء ابنه الثالث أوكتاي، الذي كان قد عيَّنه خلفاً له، فتابع بدوره توسيع رقعة الدولة، فأنجز القضاء على قبيلة الكيتات في مناطق الصين الشمالية الشرقية، وسيطر على كوريا، ودخل في حرب طويلة الأمد ضد السونغ في جنوبي الصين، سيجني ثمارها خلفه الثاني، وتولى استعادة غربي إيران التي كان قد انتزعها جلال الدين منكبرتي، وريث الدولة الخوارزمية. وبلغ بعض قادته في اندفاعهم، الكرج وأرمينيا، وأرسل غيرهم إلى أوروبا، وشهدت بلغاريا وروسيا وأوكرانيا وبولندا ومورافيا وكرواتيا حتى شواطئ البحر الأدرياتيكي، أعمالهم الوحشية والتدميرية وقساوتهم التي لا توصف.

وحملت وفاة أوكتاي المغول على التنازع على خلافته، فارتدوا إلى الوراء حتى الڤولغا، ولكنهم كانوا قد وسَّعوا الامبراطورية حتى أبواب أوروبا الوسطى. وحالت ولاية الخان كيوك القصيرة دون تحقيق السيطرة على الدول النصرانية في أوروبا، وهو مشروع قد راوده على ما يبدو. ثم تركَّزت جهود المغول على السيطرة على الشرق الأقصى، فتولى ابن عمه منكوخان أمر إصلاح الإدارة المغولية، إلا أن عمله لم يحل دون تصدعها بعد وفاته. وأنهى أخوه قوبيلاي الحرب ضد السونغ، وتخلّى المغول هذه المرة عن أساليبهم في التدمير، ونهجوا أسلوباً جديداً نظَّموا بموجبه البلدان المحتلة تنظيماً منطقياً وحموا الزراعة، واهتموا بتنظيم الشؤون الإدارية والاجتماعية متأثرين بحضارة المغلوبين.

وأسس قوبيلاي خان بعد انهيار السونغ سلالة يُوان، وتبنَّى سياسة أباطرة الصين ونظمهم التقليدية، ووطَّد السيادة المغولية على كوريا، وحاول الاستيلاء على اليابان، لكنه اضطر إلى العدول عن مشروعه بعد أن تعرَّض أسطوله البحري للدمار بسبب عاصفة هوجاء.

كان واضحاً أن الامبراطورية المغولية بلغت حدودها القصوى، وكانت الحروب الأهلية من جهة ثانية قد اندلعت في منغوليا نفسها، فاضطر قوبيلاي إلى تأديب أبناء جلدته حتى يعيدهم إلى النظام، وأضحت بكين في عهده عاصمة امبراطورية شاسعة امتدت حتى الدانوب والفرات. وبقيت هذه الامبراطورية تحت سلطة الخان الكبير الذي يقيم في الصين، ولكن الحكم المباشر في كل ولاية أسند إلى خان أيضاً، فقد حكم إيران مثلاً هولاكو، أخو قوبيلاي، وأفراد ذريته من بعده.

أدَّت هذه الوحدة المغولية إلى إقامة علاقات اقتصادية مباشرة مع جميع أرجاء آسيا، وأن التسامح الديني والسياسي الذي اشتهرت به هذه الامبراطورية، مكَّن لعدد من المرسلين من رهبانيات الدومينيكان والفرنسيسكان، أن يتوغَّلوا بعيداً في جوف آسيا، وأن يقيموا لهم مراكز للتبشير، وأبرشيات تناثرت من شواطئ البحر الأسود حتى مشارف بحر الصين، حتى أن قوافل من التجار الإيطاليين انضموا، لأول مرة في التاريخ، إلى القوافل الآسيوية التي كانت تجوب أقطار الهند والصين. وتَمَّ تبادل الممثلين السياسيين بين بلاط المغول والدول النصرانية في الغرب، وقد نتج عن ذلك بنوع خاص اتساع الأفق أمام الاتصالات البشرية، كما وضع كثيرون من الرحَّالة الغربيين أوصافاً مثيرة لهذه البلدان الجديدة التي وطأتها أرجلهم لأول مرة، والتي يجهلون عنها كل شيء، فظهرت لأول مرة في التاريخ كتب وصفية منها كتاب «جامع التواريخ» لرشيد الدين.

ولا بدَّ من الإشارة، في هذا المقام، إلى أن هذه التجربة لم تُعمِّر طويلاً، فلم يمر ثلاثة أرباع القرن حتى عادت آسيا إلى الانقسام، وأوصدت أبوابها في وجه الغربيين.

ومن ناحية أخرى، كان العالم الإسلامي الشرقي مكشوفاً أمام هجمات المغول، إذ إن ما حدث وقتذاك من التنازع والتصادم بين القوى الإسلامية المتعددة، ما أدّى إلى أن تسعى بعض هذه القوى إلى تأييد المغول

ومساندتهم، فاستطاع هؤلاء بذلك أن ينفذوا إلى الأراضي الإسلامية ويُقهروا هذه القوى جميعها، الواحدة بعد الأخرى، هذا في الوقت الذي كان فيه الشرق الإسلامي في صراع آخر مع القوى الصليبية في المنطقة؛ فبات القلق والخوف عنواناً على الوجود الإسلامي ذاته.

وعندما اعتلى منكو العرش المغولي في قراقورم عهد إلى أخيه الأصغر هولاكو بقيادة الجيش الذاهب إلى منطقة غربي آسيا، فحطم قلاع الإسماعيلية، الحشاشين، وقضى على الخلافة العباسية بقتل الخليفة وأهل بيته وتدمير عاصمته بغداد، ثم واصل توغله في بلدان الشرق الإسلامي، فسيطر على الجزيرة الفراتية، وديار بكر وآسيا الصغرى، واستمر في زحفه نحو بلاد الشام، فاستولى على حلب وفتحت دمشق أبوابها أمام قواته، حتى بات يسيطر على ممالك إيران والعراق وآسيا الصغرى وبلاد الشام بالإضافة إلى الإمارات المحلية، وقد كوَّن منها الدولة الإيلخانية، ثم شرع يطرق أبواب مصر في محاولة لاحتلالها حتى يسهل عليه تثبيت أقدامه في بلاد الشام، لذا كان عليه أن يتغلب على قوة إسلامية فتية هي قوة المماليك المسيطرين على هذا البلد. لكن هؤلاء استطاعوا بقيادة السلطان قطز، أن يتغلّبوا على قواته في معركة عين جالوت التي شكَّلت انعطافة إيجابية في تاريخ المنطقة من واقع وقف الزحف المغولي الجارف، ومن ثَمَّ فقد تولَّت دولة المماليك، بعد ذلك، مهمتها التاريخية لتصفية الوجود الصليبي في الشرق الإسلامي من ناحية، والتصدي للمغول وكسر شوكتهم من ناحية أخرى.

وشكَّل هذا الوضع التاريخي عامل إغراء للغرب الأوروبي لمحاولة تكوين حلف مغولي ـ نصراني لتطويق العالم الإسلامي الشرقي وإنهاء الوجود الحضاري والسياسي للأمة الإسلامية، لكن مشروعات التحالف فشلت، ولام بعض المؤرخين المحدثين، اللاتين، لأنهم لم يحسنوا الاستفادة من تحالفهم مع المغول لسحق الإسلام أو تحجيمه على الأقل، وقد جهل هؤلاء، أو تجاهلوا أن المغول إنما أقدموا على تدمير كل حضارة أو مدنية اعترضت تقدمهم، وأنهم في الوقت الذي كانوا فيه يستغلون نصارى الغرب للقضاء على الدول الإسلامية، كانوا يقومون بمذابح جماعية هائلة ضد شعوب روسيا وشرقي أوروبا ووسطها.

لقد خلق الغزو المغولي فجوة في تاريخ الشرق الإسلامي الذي استسلم

للغزاة الجدد باستثناء مصر، ويمكن أن نجد سر هذا الخضوع في الهلع الذي استحوذ على السكان، والوهن الذي أصابهم، بحيث استسلموا لأسياد العالم الجدد عندما أطلّت جحافلهم.

تعاقب على عرش إيلخانية إيران بعد وفاة هولاكو، مؤسس هذه الأسرة، أبناؤه وأحفاده وغيرهم من غير سلالته، كان أولهم أباقا الذي نجح في الدفاع عن الإيلخانية أمام هجمات الجغتائيين في بلاد ما وراء النهر والقبيلة الذهبية في حوض نهر الفولغا، لكن أفراد هذه الأسرة عجزوا عن مدِّ نفوذهم إلى المناطق الجنوبية الغربية، إذ تعرَّضوا لهزائم متكررة على يد المماليك الذين أدركوا أن لا سبيل إلى صدِّ الغزاة والتغلُّب عليهم إلا بالتآزر والاتحاد وجمع الكلمة، هذا في الوقت الذي تعرَّضت فيه الأسرة الإيلخانية لانشقاقات داخلية صدَّعت كيانها، ما أتاح للجيوش المملوكية أن تسترد بلاد الشام. وتعيَّنت الحدود نتيجة ذلك بين العالم الإسلامي والعالم المغولي انطلاقاً من أرمينيا الصغرى في قيليقيا والتي تقاطعت عند منتصفها مع الطرق المؤدية إلى الهلال الخصيب عند أعالي دجلة والفرات الأوسط. وكان من شدَّة الصدمة وعنفها أن أُصيبت جميع بلدان الشرق الأدنى، الواقعة على طرفي هذه التخوم، بهزة زعزعت أركانها وصدَّعتها.

وهكذا ظهرت فجوة قامت سداً منيعاً بين العالمين الإسلامي والمغولي. فالعراق العربي الذي دخل ضمن الامبراطورية المغولية أصبح منذ ذلك الحين فلاة باعدت بين قطبي العالم الإسلامي، إذ ذاك، تبريز والقاهرة. وقد حمل الغزاة معهم الخراب ونشروا الدمار وأسالوا أنهاراً من الدماء أينما مرُّوا، بحيث كان السلام المغولي أعجز من أن يُزيل معالم هذا الدمار الشامل.

وأقام الإسلام في البلدان التي وقعت تحت السيطرة المغولية نشاطات متنوعة، فهؤلاء المغول الغزاة الذين تناغموا مع جميع الأديان، في بداية أمرهم، أخذوا، منذ أواخر القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي، يعتنقون الإسلام بتأثير مزدوج من النسبة العالية للسكان المسلمين الذين خضعوا لهم، وبدافع الأتراك الذين تمازجوا معهم وانصهروا في بوتقتهم، وقد برهنوا عن تساهل كبير أمام جميع الأديان والمعتقدات من دون أن يُفرِّقوا عند اعتناقهم الإسلام بين المذاهب الإسلامية.

ولم ينتج عن الغزو المغولي أي تغيير يُذكر في البلاد التي سيطر عليها

المغول من الوجهة الإثنية، لكن تبرز بعض الخصائص والمميزات التي حملها هؤلاء معهم من مواطنهم الأولى، إلا أننا لا نستطيع أن نميِّز جيداً، في النظام الذي وضعته الدولة الإيلخانية، ما هو من أصل إيراني، وما هو من أصل مغولي أو صيني، وما هو من إبداع أصيل.

وشهدت الدولة الإيلخانية حركة تجارية نشطة على الطرق التجارية القديمة، إلا أنها عجزت عن أن تعيد إلى نشاطها السابق الحركة التجارية في المحيط الهندي بعد أن أخذت مصر تسيطر عليها تدريجياً. فإلى جانب مرفأ طرابزون على الساحل الجنوبي للبحر الأسود، نشأ الآن مرفأ أياس الواقع على البحر الأبيض المتوسط في أرمينيا الصغرى الخاضعة آنذاك للمغول. ومن بين الطرق التي فتحت أبوابها للتجارة، هذا الطريق الذي يصل بين البحر الأسود والصين والذي يجتاز شمالي بحر قزوين والتركستان ماراً بالأقطار الخاضعة للقبيلة الذهبية.

وكانت المنافسة بين تلك الطرق على أشدها تماماً كما كانت بين الممالك المغولية نفسها التي تسيطر عليها. وحالت هذه المنافسات من دون حصول المماليك في مصر على ما يرغبون فيه من الرق من أسواق القوقاز، ولذا راحوا يحاولون الاتصال مباشرة بالبحر الأسود وما يقع حوله من الأقطار عن طريق المضائق، بالاتفاق مع بيزنطية، وعلى أساس من التفاهم والتعاون مع الجاليات التجارية الإيطالية المقيمة في شبه جزيرة القرم.

وكغيرها من الدول المغولية الأخرى، باستثناء القبيلة الذهبية ومغول الهند التي عمَّرت وقتاً أطول، فلم تتجاوز الدولة الإيلخانية القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي. فإلى جانب الانقسامات الداخلية التي وقعت في قلب هذه الدولة فعطَّلت كل نشاط فيها، وشلَّت كل حركة، برزت المطالب «القومية» في الولايات يغذيها فريق من ذوي الأطماع، وسرعان ما تجزَّأت ولاياتها إلى دويلات وإمارات وتوزَّعت بين أبناء البلاد وأمراء أتراك ومغول. فقد سيطر الأتراك على الولايات الغربية، وأضحى شمالي العراق وأذربيجان وأرمينيا، طوال أكثر من قرن، مسرحاً لنزاعات بين الإمارتين المتخاصمتين، الخروف الأسود والخروف الأبيض، فكانت الإمارة الأولى على المذهب الشيعي، والإمارة الثانية على المذهب السني، واحتدمت المنافسة بينهما واستطالت، فأثَّرت في بعض النواحي على تكوين الدولة العثمانية وعلى إنشاء

إيرن الحديثة على يد السلالة الصفوية، أما ما تبقَّى من إيران، فقد ظل سائراً وفقاً للتقاليد التي عُمل بها من قبل، ولم يخرج عن الحدود التي رسمتها له الدولة الإيلخانية إلا في التقسيم السياسي الذي أصاب البلاد آنذاك.

إن الدراسات العربية عن تاريخ المغول قليلة جداً، ولم يحظَ هذا التاريخ بالعناية الكافية، لذلك فإن كل محاولة للإقدام على دراسة هذه المرحلة المغولية سوف تكون شيقة ومثمرة، وبخاصة أنها تُعدُّ جزءاً من تاريخ عالمنا الإسلامي يجب أن نذكره دائماً، هذا في الوقت الذي اهتم فيه الغرب الأوروبي بتاريخ المغول، اهتماماً زائداً فاق الاهتمام بتاريخ الدول الشرقية في العصور الوسطى.

اعتمدتُ في هذه الدراسة على مصادر أساسية ومراجع متنوعة مبيَّنة في ثبت المصادر والمراجع، وآمل، بما اعتمدت عليه، أن يخدم الحقيقة التاريخية ويُذخر المكتبة العربية بالمعلومات الجديدة والمفيدة.

أما تشكيل الموضوعات التي يراها القارئ بعناوينها فقد قسَّمتها إلى بابين يتضمنان عشرة فصول. خصَّصت الباب الأول لتاريخ المغول العظام والباب الثاني لتاريخ المغول الإيلخانيين.

عالجت في الفصل الأول ظهور جنكيز خان على المسرح السياسي في منغوليا من واقع الحديث عن أصل المغول وتوحيد منغوليا بما تحويه من قبائل مغولية وغير مغولية، حيث نودي به خاناً أعظم. وبيَّنت تنظيمات هذا الخان المدنية والعسكرية وختمته بشرح قانون الياسا.

وتضمَّن الفصل الثاني سجلاً حافلاً بالتوسع المغولي في عهد جنكيز خان في الصين الشمالية وبلاد ما راء النهر وخراسان، وقد خاض معارك دامية مع حكام الدولة الخوارزمية الذين يسيطرن على تلك النواحي في وسط آسيا، وتسرَّب المغول في عهده إلى جنوبي روسيا والكرج وأرمينيا.

وتطرقت في الفصل الثالث إلى الأحداث السياسية والعسكرية في عهد كل من أوكتاي بن جنكيز خان وكيوك بن أوكتاي. وقضى الأول نهائياً على الدولة الخوارزمية، وطاردت قواته السلطان جلال الدين الخوارزمي الذي لقي حتفه في جبال كردستان. واستولى المغول في عهده على أذربيجان والكرج وأرمينيا وطرقوا أبواب العراق وأخضعوا آسيا الصغرى، وسيطروا على القبجاق والبلغار وبعض الإمارات الروسية وغزوا المجر، واستكمل هذا الخان التوسع في الأراضي الصينية، ولعلّ أهم إنجازات هذا الخان المدنية بناء العاصمة

قراقورم. وخلف أوكتاي بعد وفاته ابنُه كيوك، فابتدأت في عهده الاتصالات بين المغول والغرب الأوروبي بهدف قيام تحالف ضد المسلمين وانتزاع الأراضي المقدسة في فلسطين منهم، من جهة، واستقطاب المغول لاعتناق الديانة النصرانية من جهة أخرى، وقد أتاح التوسع المغولي في الغرب ووصولهم إلى أوروبا، انخراطهم في السياسة الدولية.

وحوى الفصل الرابع الأحداث السياسية والعسكرية في عهد منكو بن تولوي بن جنكيز خان، وأبرزها استكمال التوسع باتجاه غربي آسيا. فاستولى أخوه هولاكو على معاقل الحشيشية وقضى على الخلافة العباسية، فقتل الخليفة وأهل بيته ودمَّر عاصمته بغداد، ثم تابع زحفه باتجاه بلاد الشام، فاستولى على حلب ودخل دمشق، وراح يستعد للزحف نحو مصر للاستيلاء عليها، لكن وفاة منكو أجبرته على العودة إلى قراقورم، وترك، قبل رحيله، قوة عسكرية مؤلفة من عشرة آلاف مقاتل بقيادة كتبغا.

وعالجتُ في الفصل الخامس أوضاع المغول العظام في عهد قوبيلاي بن تولوي الذي يُعدُّ آخر الخانات الكبار من حيث الأهمية. فاستأنف القتال على الجبهة الغربية ضد المماليك، وخسر المغول، لأول مرة، في تاريخهم معركة عسكرية أمام هؤلاء، هي معركة عين جالوت التي أوقفت المد المغولي الجارف على مصر وأتاحت للمماليك العمل على استرداد بلاد الشام. وأخضع قوبيلاي الصين الجنوبية وأسس سلالة يُوان وتبنّى النظم الصينية، وكان امبراطوراً صينياً أكثر منه خاناً مغولياً. ووطّد السيادة المغولية على كوريا وحاول الاستيلاء على اليابان. وتصدَّعت في عهد خلفائه امبراطورية المغول العظام من واقع نمو حركة اليقظة الصينية. وقام الصينيون بطرد المغول من بلادهم بوصفهم عنصر أجنبي دخيل وطمسوا معالم السيطرة المغولية.

وخصَّصت الفصل السادس لتسطير أعمال هولاكو، مؤسس الدولة الإيلخانية في إيران، وابنه أباقا. تعرَّض هولاكو لعداء الجغتائيين في وسط آسيا ومغول القبيلة الذهبية في القبجاق، واستولى على الموصل وهاجم شمالي بلاد الشام، واستؤنفت في عهده الاتصالات مع الغرب الأوروبي لتحقيق الأهداف التقليدية، وخلفه بعد وفاته ابنه أباقا الذي كانت له علاقات عدائية مع المماليك في مصر، وقد واجه سلطاناً صلب العود، هو الظاهر بيبرس، الذي أفشل كل خططه، وكان شمالي بلاد الشام وآسيا الصغرى محور الصراع بينهما. وحاول

التحالف مع الغرب الأوروبي لضرب المماليك ولكنه فشل في ذلك، واستمرت في عهده الخلافات مع مغول القبيلة الذهبية والمغول الجغتائيين.

وعالجت في الفصل السابع الأوضاع السياسية لإيلخانية إيران في عهد كل من أحمد تكودار وأرغون وكيغاتو وبايدو. وقد شهدت هذه الإيلخانية في عهدهم، صراعات داخلية حادة على السلطة والنفوذ، الأمر الذي أدَّى إلى زعزعة كيانها. وكان تكودار أول إيلخان مغولي اعتنق الإسلام، وتسمّى باسم أحمد، ثم بدأ هذا الدين يتفشى في المجتمع المغولي حيث استطاع دعاته أن يجتذبوا المغول إليه.

وتضمَّن الفصل الثامن سجلاً بالأحداث السياسية والعسكرية في عهد الإيلخان غازان بن أرغون الذي اعتنق الإسلام وتسمّى باسم محمود. ولكن إسلام المغول لم يكن دافعاً للتفاهم مع المماليك بسبب الصراع السياسي بين الدولتين الذي تحوَّل إلى صراع حول زعامة العالم الإسلامي، واستمرت في عهده صراعات الأمراء التي أنهكت الدولة. وهاجم غازان بلاد الشام في محاولة لطرد المماليك منها إلا أنه تعرَّض لهزيمة منكرة، وكانت معركة شقحب إيذاناً بأفول نجمه، وكانت له بعض الإصلاحات الداخلية.

واشتمل الفصل التاسع على معالجة الأحداث السياسية والعسكرية في عهد كل من أولغايتو، أخي غازان، وابنه أبو سعيد بهادور، واستمرت في عهدهما المشكلات الداخلية في التفاقم من واقع صراع الأمراء. أما على الصعيد الخارجي، فقد استمرت أيضاً سياسة التقارب مع الغرب الأوروبي بالإضافة إلى العلاقات العدائية مع المماليك، واقتربت الدولة في عهد أبي سعيد من نهاية رحلتها.

وعالجت في الفصل العاشر أوضاع الدولة التي تدهورت بشكل حاد في ظل خلفاء أبي سعيد، الذين لم يكونوا مؤهَّلين للحكم. والمعروف أن هذا الإيلخان توفي من دون عقب ما فتح باب الصراعات الداخلية على السلطة، والتي استمرت حتى سقوط الإيلخانية، ثم بسَّطت الكلام على أسباب زوالها.

وأنا على ثقة بأن القارئ سيجد في هذه الدراسة متعة وفائدة، كما سيلمس موضوعية في معالجة الأحداث.

وأسأل الله أن يجعلها خالصة لوجهه الكريم وأن ينفع بها القارئ العربي والمسلم، إنه سميع مجيب.

أ.د. محمد سهيل طقوش

الباب الأول

المغـــول العظـــام

(٦٠٢ ـ ٧٧٢هـ/ ١٢٠٦ ـ ١٣٧٠م)

الفـصـل الأول: ظهور جنكيز خان.

الفصل الثاني: التوسع المغولي في عهد جنكيز خان.

الفصل الثالث: أوكتاي بن جنكيز خان ـ كيوك بن أوكتاي.

الفصل الرابع: منكو بن تولوي.

الفصل الخامس: قوبيلاي بن تولوي.

الفَصْلُ الأولُ

ظهور جنكيز خان

تمهيد

ثمة حقيقة ظاهرة برزت في القرون الأولى للميلاد هي أن المجتمعات في آسيا الوسطى[١] قبيل ظهور المغول على المسرح السياسي، كان يسودها جوٌّ من التشاحن والحروب القبلية. فقد كانت تحكمها قوى مختلفة ومتناقضة، وكثيراً ما كان الصراع سمة ذلك التناقض من أجل البقاء أو السيطرة.

وقامت تلك القبائل الرعوية التي تنتمي من الناحية اللغوية إلى ثلاث مجموعات: المجموعة التركية، والمجموعة المغولية، والمجموعة التونغوزية ـ المنشورية ـ منذ القرن الرابع الميلادي، ولأول مرة في تاريخها، بتأسيس ممالك مستقلة على الرغم من اختلاف عروقها، فقد جمعتها خصائص مشتركة بعد أن صهرتها ظروف البيئة القاسية، وطبعتها بخشونتها، ودفعتها لمهاجمة المناطق الحضرية المستقرة، للاستيلاء على المدن والأرياف طمعاً في ثرائها وغناها، متخطية ما اعترض تقدمها من حواجز، وكانت الصين الهدف الأسمى لها، بفضل ما كانت تنعم به من ازدهار ورخاء وحضارة متقدمة.

هذا وقد جابت جماعات البدو الرُّحل، المتفرعة من أصول تركية ـ مغولية[٢]، منذ القرن الثاني قبل الميلاد، المناطق الغربية والشمالية الغربية

---

(١) يُفهم من المصطلح الجغرافي آسيا الوسطى تلك المناطق الشاسعة التي تشغل منغوليا والتركستان الصيني والتيبت وتفرُّعاتها السياسية العرقية واللغوية مما يجاور الهند، أو يشارف إيران، وهي على شكل شبه منحرف، تحدها من الجنوب جبال الهمالايا، ومن الجنوب الغربي هضبة البامير، ومن الغرب جبال تيان شان، ومن الشمال جبال ألتاي وبابلونوي وستانوفوي، ومن الشرق جبال كنجان وكوكونور.

بارتولد: تاريخ الترك في آسيا الوسطى: ص٧.

(٢) يشير كثير من المؤرخين القدماء والمحدثين إلى الأصل المشترك للمغول والأتراك، وهناك عدد من السمات العرقية من جهة اللغة بخاصة تبيِّن أن المغول أنسباء قريبون من الأتراك. =

للصين، وقد نزحت من جبال آسيا الوسطى المسماة جبال ألتاي، وانتشرت في منطقة الأراضي القاحلة والشاسعة التي تؤلف شطراً هاماً من أوراسيا، وقد انتسبوا بلهجاتهم إلى الأسرة اللغوية الألتائية، أي التركية ـ المغولية، وقد فرضت عليهم البيئة نمطاً حياتياً رعوياً اتسم بطابع بدائي، إلى جانب الحضارات التي عاصرتهم، إلا أن تجاورهم مع المناطق الزراعية، ومعرفتهم بطرق الحملات العسكرية المؤدية إليها، سهَّلا لهم الاتصال بالسكان المقيمين، واستهوتهم ثروة البلاد المتحضرة فتأثروا بنظمها، كالمغول الذين تأثروا بالحضارة الصينية، والأتراك الأويغور الذين نهلوا من الحضارة الإيرانية، فاعتنقوا المانوية وتعلَّموا أصول الأدب فغدوا المربين الحقيقيين للدول التركية ـ المغولية الأخرى، ورفضوا العودة إلى الحياة البدوية.

وشكَّل هؤلاء البدو تهديداً خطيراً ودائماً للدول الكبرى آنذاك، فقد أتاحت لهم خيولهم الصغيرة، ومهارتهم في الفروسية؛ القيام بهجمات خاطفة على أراضي تلك الدول، واعتادوا على ألا يتركوا وراءهم إلا الخراب والدمار، فكانوا أعداء مرعبين. وعلى الرغم من أنهم لم يتوصَّلوا إلى توحيد جماعاتهم القبلية المشتَّتة في الصحاري؛ فقد أسَّسوا امبراطوريات كانت سريعة الزوال، وكثيراً ما قوَّضوا أركان أكثر الدول تحضراً، لذلك بات لزاماً علينا إلقاء نظرة سريعة على هذا التاريخ بعد غزوات القرن الرابع الميلادي الكبرى التي بلغت امتداداتها أوروبا مع أتيلا[1]، ومن شأن ذلك أن يساعد على استيعاب نشأة وعمل جنكيز خان وطابعه المميز.

= ويذكر مؤرخو الأتراك أن أحد ملوك الأتراك القدماء وُلد له ولدان توأمان هما تتار خان ومغول خان. انظر: الجويني، عطا ملك: تاريخ جهان گشاي: جـ١ ص١٤. ابن الأثير، أبو الحسن علي: الكامل في التاريخ: جـ١٠ ص٣٣٥. ابن خلدون، عبد الرحمٰن محمد: تاريخ ابن خلدون: جـ٥ ص٥١٥ ـ ٥١٨. القلقشندي، أحمد بن علي: صبح الأعشى في صناعة الإنشا: جـ١ ص١٢٧، ٤٢٠. بارتولد: تاريخ الترك في آسيا الوسطى: ص١١٤، ١٧٠ ـ ١٧١. فامبري، أرمينيوس: تاريخ بخارى: ص١٦١. الرمزي: تلفيق الأخبار وتلقيح الآثار في وقائع قزان وبلغار وملوك التتار: جـ١ ص٤٤. Howorth, Sir Henry: History of the Mongols, I pp34-35.

(١) أتيلا: زعيم قبائل الهون البربرية الآسيوية وهم من الجنس التركي. انطلق من جوف آسيا باتجاه الغرب، فاجتاز نهر الڤولغا، وهاجم أراضي الامبراطورية الرومانية الشرقية في أوائل القرن الخامس الميلادي، ونفَّذ غارات مدمرة على ولاياتها الواقعة في حوض نهر الدانوب الأدنى. وبعد أن هدَّد القسطنطينية تحرك نحو الغرب فعاث فساداً في البلقان واستنزف الدولة الرومانية =

استقرت، في القرن السادس الميلادي، فيما بين الصين ومصب نهر الدون، ثلاثة شعوب كبرى هي: الجوان جوان[1] في منغوليا، والهون الهفتاليون من شمالي منطقة قره شهر إلى مرو[2] ومن الآرال إلى البنجاب، والهون الأوروبيون، وهم من العرق التركي، حول بحر آزوف ومصب الدون. إلا أن الجوان جوان والهون الهفتاليون في تركستان[3]، رُدُّوا إلى الوراء في عام ٥٥٠م على يد الـ تو ـ كيو مؤسسي الامبراطورية البدوية الأولى التي عرفت تنظيماً على شيء من الاستقرار[4]. غير أن هؤلاء انقسموا إلى مملكتين امتدت أراضيهما من منشوريا إلى خراسان، وكان هذا الانقسام، بالإضافة إلى فوضويتهم، سبباً لضعفهم. وكان للمقيمين منهم في الغرب حدود مشتركة مع فارس الساسانية، وقد التمست بيزنطية مساعدتهم في صراعها مع الامبراطورية الفارسية، فحافظوا على استقلالهم حتى اليوم الذي استطاعت فيه أسرة تانغ الصينية القوية احتلال منغوليا، فبسطت حينذاك سيطرتها عليهم ما بين عامي (٩ و٣٩هـ/ ٦٣٠ و٦٥٩م)، ثم حلَّت محلهم دولة تركية أخرى هي دولة

= الشرقية بكثرة طلباته، وبعد أن جرى التنازل له عن الأراضي الواقعة جنوبي الدانوب تقدم بحذاء نهر الدانوب في عام ٤٤٧م فخرب مواشيا وتراقيا وإليريا وبانونيا ثم عبر الراين وهاجم غاليا ونهب كثيراً من مدنها الهامة، ولم يوقف تقدمه الجارف سوى القائد أيتيوس الذي هزمه في معركة قرب شالون في عام ٤٥١م، فتحول عندئذٍ نحو إيطاليا في عام ٤٥٢م، ووجدت روما نفسها تواجه خطره الداهم ما دفع البابا ليو العظيم أن يخرج بنفسه لمفاوضته، ثم اضطر أن يخلي إيطاليا عندما علم بأن جيشاً رومانياً بقيادة أيتيوس كان في طريقه لإنقاذ روما، ولم يلبث أن توفي في بانونيا في عام ٤٥٤م.

(١) الجوان جوان: شعب مغولي أسس في القرن الخامس الميلادي دولة مترامية الأطراف امتدت من سهول منشوريا مروراً بالصين الشمالية وحتى أقاصي تركستان غرباً، وتلقَّب حكامها بالخاقانات.

(٢) مرو: أشهر مدن خراسان وقصبتها. الحموي، شهاب الدين، أبو عبد الله ياقوت: معجم البلدان: جـ٥ ص١١٢.

(٣) تركستان: اسم جامع لجميع بلاد الترك، وأوسع بلاد الترك بلاد التغرغز، وحدُّهم الصين والتيبت والخرلخ والكيماك والغز والجفر والبجناك والبذكش وأذكس وخفشاق وخرخيز، وأول حدِّهم من جهة المسلمين فاراب. المصدر نفسه: جـ٢ ص٢٣.

(٤) أسَّس الأخوان: تومين، الذي توفي في عام ٥٥٢م، وأستامي، الذي توفي في عام ٥٧٦م في القرن السادس الميلادي دولتين مستقلتين امتدتا من منغوليا وشمالي الصين حتى البحر الأسود، عُرفت الأولى باسم دولة الترك الشمالية، وعُرفت الثانية باسم دولة الترك الغربية.

الأويغور[١] الذين أقاموا إلى الجنوب من بحيرة بايكال، واتخذوا من قرة بلاساغون عاصمة لهم، وسيطروا على شطر من تركستان. وضعف الأويغور بعد ذلك بفعل تحضُّرهم، فانتزع القيرغيز الأتراك منهم عاصمتهم في عام (٢٢٥هـ/ ٨٤٠م). وكان الآڤار، في هذه الأثناء، قد خلفوا الهون في الأراضي الروسية وأقاموا بين الدنيستر والدانوب، في حين استفاد الشاتو الأتراك، النازلون حول ها - مي، من ضعف التانغ ليستولوا على شمال غربي الصين في عام (١٩٢هـ/ ٨٠٨م)، وعادت منغوليا في عهد القيرغيز وحتى عام (٣٠٨هـ/ ٩٢٠م) إلى همجيَّتها الأولى، بينما تمكَّن الأويغور، على الرغم من ضعفهم، من تثبيت أقدامهم في تركستان.

وطُرد القيرغيز بدورهم في القرن العاشر الميلادي وأُبيدوا على أيدي الكيتات، وهم من العرق المغولي. وكان هؤلاء قد حاولوا التسرُّب إلى الأراضي الصينية، غير أن التانغ صدُّوهم بضراوة، لكنهم استفادوا بعد ذلك من ضعف القوة الصينية وانهيارها ودخلوا وراء الجدار الكبير ونصَّبوا قائداً صينياً فرضوا حمايتهم عليه، فكان ذلك مقدمة لاستيطان العديد من البدو في الصين التي ستتولى جماعاتهم الاستيلاء عليها. وقد دامت إقامة الكيتات مدة طويلة من الزمن، فاندمجوا في الحضارة الصينية وأسسوا أسرة حملت اسم كين، أي الذهب، وحاولوا التمدد مراراً نحو الجنوب الصيني.

ونجح الأتراك الغربيون، القراخانيون[٢]، في هذه الأثناء، من اجتياز بلاد فارس وانتزعوا منطقة ما وراء النهر[٣]. واحتفظوا بأراضيهم طيلة القسم الأكبر من القرن الحادي عشر الميلادي قبل أن يندمجوا في عام (٤٦٣هـ/ ١٠٧١م)

---

(١) أويغور: كلمة تركية معناها الارتباط والتعاون. وشغل الأويغور المنطقة الواقعة شمالي منغوليا وشمال شرقي تركستان على نهر سلنجا، ويلقب رئيس دولتهم بـ«إيدي قوت» أي السعادة المقدسة، انتقل الحكم إليهم من الأوغوز في عام (١٢٧هـ/ ٧٤٥م).

(٢) ينتمي القراخانيون إلى قبيلة القارلوق على الأغلب، وسكنوا المناطق الوسطى من حوض نهر سيحون، وتمتد شرقاً حتى السهوب الغربية لجبال ألتاي، وجنوباً إلى المناطق الواقعة بين واديي نهري سيحون وإيل ومناطق حوض وادي نهر جو في الشمال، ويحمل زعيمهم لقب إيلك وهو اسم أويغوري معناه الأمير أو الحاكم، وعُرفت إمارتهم باسم الإيلك خانية، واعتنق القراخانيون الإسلام.

(٣) ما وراء النهر: يُراد به نهر جيحون بخراسان، فما كان في شرقيه يقال له بلاد الهياطلة، وما كان في غربه فهو خراسان وولاية خوارزم. الحموي: جـ٥ ص٤٥.

في الدولة السلجوقية. وأقام شعب تيبتي في الأوردوس والألاشان، فأخضعوا البدو الرُّحل، الذين عُرفوا باسم سي - هيا، في شمال غربي الصين بينما احتفظ الكيتات بشمالها الشرقي. غير أن هؤلاء، السي - هيا والكيتات، هدَّدوا، خلال القرن الثاني عشر الميلادي، أسرة سونغ الصينية، ما دفع الامبراطور الصيني هواي - تسونغ إلى محاولة إخراج الكيتات من بكين بالاستعانة بالجورشيت، وهم شعب تونغوزي قدموا من غابات منشوريا، مقابل منحهم منغوليا الداخلية ومنشوريا. وبعد أن قوَّضوا دولة الكيتات، بسطوا سيادتهم على كافة أنحاء الصين الشمالية، واندفعوا بحملاتهم حتى بلاد السونغ، ووصلوا في تمددهم إلى نهر يانجتز، وشملت سيطرتهم، عند بداية القرن الثالث عشر الميلادي، وقبل ظهور جنكيز خان، كافة نواحي منشوريا والصين الشمالية، بينما احتفظ السي - هيا بالمناطق الشمالية الغربية.

وعاش القراخطاي[١] المتنصِّرون في الشطر الغربي من التركستان حتى الآرال وخوجند باسطين حمايتهم على المنطقة الممتدة بين أعالي نهر ينيسايي ونهر جيحون، وحلَّت وراء هذا النهر إمارة الخوارزميين، وهم أتراك اعتنقوا الإسلام، محل السلاجقة، في منطقة واسعة ضمت بالإضافة إلى خوارزم، خراسان وكابل وغزنة وإيران حتى بلاد الكرج[٢].

هذه هي الفسيفساء الغريبة التي كوَّنها السكان الرُّحل من الترك والمغول، والواقع أنه لو اقتصر تاريخ هذه الجموع على ما يشنونه من غارات، وعلى ما يحدث أثناء انتقالاتهم وهجراتهم من نزاعات؛ لما حوى إلا شيئاً قليلاً. فالحقيقة الأساسية في تاريخ البشرية هي ما كانت تمارسه هذه الأقوام البدوية من ضغط على الامبراطوريات المتمدنة الواقعة إلى الجنوب منها. وقد تطور هذا الضغط من اعتداءات انتقامية إلى غارات بهدف التوسع، ذلك أن هبوط

---

(١) القراخطاي: هم خليط من المغول والتانغوت، تقع منازلهم في أقصى الشرق في شمالي الصين وجنوبي منشوريا في الإقليم المعروف باسم ليائو، فنسبوا إليه واستولوا في بداية القرن العاشر الميلادي على شمال الصين ومنشوريا ومنغوليا. وفي عام (٥١٩هـ/ ١١٢٥م) تعرَّضوا لضغط شعب تنقوزي بزعامة أسرة جورجين فنزح قسم منهم باتجاه الغرب، في حين بقي القسم الآخر في الصين وخضع لحكم جورجين. وانقسم النازحون إلى قسمين، توجَّه القسم الأول نحو التركستان مباشرة، واتخذ القسم الثاني طريقاً أبعد نحو الشمال عبر بلاد القيرغيز.

(٢) برّوي، إدوارد: القرون الوسطى، وهو الجزء الثالث من تاريخ الحضارات العام ص٣٥٥ - ٣٥٨.

الرعاة من منازلهم وارتحالهم، كان قاعدة تكاد تكون طبيعية أملتها حياة الرعي. ولا شك بأن أولئك الترك ـ المغول، الذين أقاموا في منطقة الغابات، حول بحيرة بايكال ونهر عامور، ظلوا متبربرين يعيشون على الصيد في الغابات وصيد السمك من الأنهار والغدران حتى زمن جنكيز خان[1]، من دون أن يربط بينهم تلاحم حقيقي. والحقيقة أن الروابط السياسية والاجتماعية تمزَّقت في منتصف القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي بسبب الفوضى التي استمرت زمناً طويلاً، ولم يكن لأي قبيلة مغولية خاناً، فعاشوا في فوضى شاملة، لكنهم أسَّسوا ممالك غير واضحة الحدود وسريعة الزوال نسبياً. وكان يحدث أحياناً أن تتوحَّد بعض القبائل في اتحاد عشائري أو في دولة بدوية صغيرة ـ أولوس ـ، إما بفعل بروز قائد عسكري أو بضغط قبيلة بلغت قوة ذات بأس، فصهرت في وحدة سياسية عدداً من القبائل الأخرى، كما أن عدداً من القبائل وثيقة القربى، تشكل اتحاداً قبلياً لا يتخذ بالضرورة شكلاً سياسياً محدداً. يضاف إلى ذلك أن القبائل الصغيرة أو الضعيفة، تقدم على الانتماء إلى القبائل القوية من أجل الحماية. ولم تُعوِّض وحدة اللغة عن تعدد المعتقدات والكيانات السياسية المتأثرة بالحضارة الصينية أو بالحضارة الإيرانية، أو بقيت مخلصة للتقاليد التركية ـ المغولية، واهتدت صدفة، نتيجة التنقل والترحال، إلى البوذية أو الكونفوشيوسية أو النصرانية النسطورية أو المانوية أو اليهودية أو الإسلام.

أصل المغول

يحيط الغموض بالتاريخ المبكر للمغول، والمعروف بأن هذه اللفظة مشتقة من كلمة مونغ الصينية، وهي بمعنى باسل وشجاع. وقد وردت أول إشارة عابرة عنهم، في تاريخ أسرة تانغ الصينية منذ عام (٦٠هـ/ ٦٨٠م)، وفي مصادر متفرقة عند الإشارة إلى أحداث عام (٣٧٤هـ/ ٩٨٤م)، ويتضح منها أنه لم يكن لهم سوى تأثير ضئيل في السياسة الدولية. وبدأت شهرتهم في الظهور مع فاتحة القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي. وكانت مضاربهم في الهضبة المعروفة باسم هضبة منغوليا شمالي صحراء جوبي، وهي أراضٍ

(١) العريني، السيد الباز: المغول ص١٢.

واسعة تنعدم المياه في بعض نواحيها. وعاشوا على روافد نهر عامور، واحتلوا الأراضي الواقعة بين بحيرة بايكال في الغرب وجبال كنجان على حدود منشوريا في الشرق[1].

وسبق خضوع عالم البدو المشوَّش لإرادة جنكيز خان، عدة محاولات تمهيدية لتوحيد القبائل المغولية، غير أنها لم تفلح. فمنذ القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي، تحرَّر المغول من الوصاية التركية بفضل تغلُّب القراخطاي على الأتراك القيرغيز التي فُرضت عليهم منذ سقوط الجوان جوان في منغوليا، أضف إلى ذلك أن تأسيس دولة القراخطاي، في الربع الأول من القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي، قد مثَّل سلفاً، على الرغم من ضعف زعمائها، موجة الغزوات البدوية الظافرة، قبل مائة عام من حصولها. فهي الامبراطورية المغولية الأولى التي قامت بعيداً عن مواطنها الأصلية، ولكن كانت قبائل مختلفة ما تزال تتنازع على البلاد المغولية آنذاك ضمن رقعة غير محدَّدة تماماً مثل الكرايت[2] والنايمان[3]، وارتسمت عند هؤلاء البدو الرُّحل تأخراً في منغوليا الداخلية، فقامت بعض محاولات التوحيد على أيدي جدود جنكيز خان.

إن جد المغول الذي ينتمي إليهم جنكيز خان هو بودانستار أوبوزنجر، اشتهر بالجرأة، واستطاع أن يُخضع قبيلة تعيش في الجهات المجاورة لمنازله على الشاطئ الشرقي لبحيرة بايكال[4]، وخلفه بعد وفاته ابنه قايدو، وكان طرازاً فريداً من القادة في ذلك الوقت، فاستقطب القبائل المجاورة في خطوة للاتحاد والتوسع على الأرض، والتفَّت حوله عشيرته البوريجين، والتمست

(١) الجويني: جـ١ ص١٤، ١٥. غروسيه، رينيه: جنكيز خان قاهر العالم: ص١٣. العريني: ص٣٩، ٤٠. Howorth: I p31.

(٢) الكرايت: قبيلة مغولية غير أن كثيراً من زعمائها كانوا أتراكاً، ما أدّى إلى التباس المؤرخين بشأن أصلهم المغولي أو التركي. استوطنت هذه القبيلة الواحات الشرقية الداخلة في صحراء جوبي، وجنوبي بحيرة بايكال حتى سور الصين العظيم، واعتنق أفرادها الديانة النصرانية على المذهب النسطوري.

(٣) النايمان: قبيلة تركية غلب على أفرادها الطابع المغولي، تقع منازلها في الحوض الأعلى لنهر أورخون ومنحدرات جبال ألتاي، اعتنق بعض أفرادها الديانة النصرانية على المذهب النسطوري وبقي البعض الآخر على الشامانية.

(٤) الرمزي: جـ١ ص٣٤٧. Howorth: p39.

حمايته، فتزايد بذلك عدد رعاياه، واتخذ لقب خان، أي ملك، وأسس الدولة المغولية الأولى، وبنى المدن على ضفاف نهر أونون، وربطها بجسر فوق هذا النهر، ويُعدُّ المؤسس الحقيقي لقوة المغول، وعندما توفي كان له ثلاثة أولاد هم: بايسنقر، الذي خلفه على زعامة المغول، وهو جد أسرة قيات التي ينتمي إليها جنكيز خان، وجوجين، وأوروكي. وعندما توفي بايسنقر خلفه ابنه تومنة خان الذي أنجب كابل خان، وقد خلفه على عرش المغول، وهو جدُّ جنكيز خان.

دخل المغول في عهد كابل خان في غمرة السياسة العالمية، بعد أن كانت آفاقهم السياسية لا تتعدى جبل كنتي، فأضحوا قوة لا يُستهان بها، وأخذ بلاط الصين في بكين يحسب حسابهم، فدعاه الامبراطور الصيني لزيارته. والواقع أن أسرة كين التي تحكم شمالي الصين (٤٩٨ ـ ٦٥٨هـ/ ١١٠٥ ـ ١٢٦٠م) عمدت إلى مد يد الصداقة لكابل خان الذي تجمَّعت حوله قبائل كنتي؛ لتأمين ظهرها ضد الخطر المغولي المنطلق من منغوليا، والذي أضحى مصدراً من مصادر التهديد لسلطتها(١). وبلغت الملكية الأولى للمغول ذروتها في عهده، وبخاصة بعد أن توطدت علاقة الصداقة بينه وبين أسرة كين(٢)، غير أن هذه العلاقة الطيبة بين الطرفين لم تستمر طويلاً بفعل تقلبات السياسة الصينية التي جهدت على الدوام في تحريض مجموعة من الرُّحل ضد أخرى بدا لها أنها أكثر خطورة، ولكنها لا تلبث أن تجد نفسها مضطرة عند انتهاء النزاع، إلى انتهاج الأسلوب نفسه ضد حلفائها بالأمس، وسرعان ما تحوَّلت هذه العلاقة إلى عداء وحرب. وحلَّت الهزيمة بالجيش الصيني في عام (٥٣٣هـ/ ١١٣٩م)، ويُعدُّ هذا التاريخ بداية لنهوض المغول(٣). وعُقد الصلح بين الجانبين في عام (٥٤٢هـ/ ١١٤٧م)، واضطر الصينيون للتنازل للمغول عن عدة مقاطعات حدودية، وشرع الامبراطور الصيني في إرسال الهدايا للقبائل المغولية من المواشي والأغنام والحبوب، وذلك بمثابة جزية لتأمين السلم على الحدود بين البلدين.

وبدأت أسرة كين، التي تسيطر على منشوريا وشمالي الصين، تشعر بضغط

(١) غروسيه: ص٢١.
(٢) Howorth: I pp40-43.
(٣) Ibid: p42, 43.

المغول بعد أن امتد سلطانهم إلى الشمال الغربي من منغوليا، وأخضعوا التتار(١) النازلين على الضفة الجنوبية لنهر كيرولين، فسعى الامبراطور الصيني ألتان خان أن يثير العداء بينهم وبين التتار، والمعروف أن العداء بين الطرفين كان يتمحور حول السيادة(٢).

واشترك يسوكاي بن برطام بهادور، وهو من سلالة كابل ووالد جنكيز خان، في الحروب التي نشبت بين الطرفين بوصفه رئيساً لعشيرة بوريجين وأسرة قيات، وقَتَل في إحدى المعارك حوالي عام (٥٥٠هـ/ ١١٥٥م) أحد زعماء التتار ويدعى تيموجين، وعندما عاد إلى مضارب قبيلته وجد زوجته قد ولدت له ولداً، فسماه تيموجين تخليداً لهذا الانتصار، وهو الذي عُرف بـ«جنكيز خان». وتدخل يسوكاي في خلافات الكرايت الداخلية وفاز بصداقة خانهم وانغ طغرل الذي ساعده على استعادة سلطته على شعبه.

وتوفي يسوكاي مسموماً إثر مؤامرة دبَّرها له التتار في عام (٥٧٠هـ/ ١١٧٥م) في الوقت الذي لم يتجاوز ابنه البكر تيموجين التاسعة من عمره، وفي رواية الثالثة عشرة، وترك من الأولاد، باستثناء هذا الأخير، جوجي كسار،

(١) التتار من الأقوام غير التركية التي ورد ذكرها في نقوش أورخون والتي سكنت المنطقة التي يحدها شمالاً نهرا أورخون وسلنجا ومملكة القيرغيز، وشرقاً إقليم الخطا ـ الصين الشمالية ـ وغرباً ممالك الأويغور، وجنوباً إقليم التيبت ومملكة التانغوت، وهم من أشد قبائل الجنس الأصفر بطشاً وجبروتاً في أقاليم آسيا الشمالية، ويتشعبون إلى شعب كثيرة. وقد أخضعوا أغلب القبائل المجاورة لهم، بحيث أن قبائل الأتراك، على اختلاف مراتبهم وطبقاتهم، تسموا باسمهم، فأُطلق على الجميع اسم تتار، ولهذا السبب أطلق سكان الخطا والهند والصين ومنشوريا وبلاد القيرغيز والبلغار والباشغر والقبجاق وولايات الشمال وأقوام الأعراب والشام ومصر والمغرب، اسم تتار على أقوام الأتراك، وعُرف مغول جنكيز خان في القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي باسم التتار، ولم تلبث هذه اللفظة أن أطلقت على أسلافه وعلى النايمان بالإضافة إلى الشعوب التي خضعت له، على الرغم من أن التتار كانوا قبيلة أو قبائل مستقلة عن المغول. من هنا فإن لفظ التتار والمغول اسمان لقبيلين يعيشان في الشطر الشرقي من آسيا وفي الشمال الغربي من الصين. وأطلق المؤرخون المسلمون في العصور الوسطى، على كل موجة بشرية قذفتها آسيا الوسطى باتجاه الأراضي الإسلامية، اسم الترك حيناً والتتار أحياناً من غير تحديد، حتى أنهم سمَّوا الزحف المغولي الكبير باسم زحف التتار، والمعروف أن التتار كانوا يتكلمون اللغة المغولية. وبعد ظهور جنكيز خان غلب اسم المغول على جميع الشعوب القبلية، فاشتهروا في التاريخ بهذين الاسمين. انظر: رشيد الدين، فضل الله بن عماد الدولة: جامع التواريخ: جـ١ ص٥٧ ـ ٦١.
(٢) غروسيه: ص٢٦، ٢٧.

وكاجيون أوتشي، وتيموجة أتشكين، وشقيقة تدعى تيمولين، بالإضافة إلى ولدين من أم أخرى هما بكتر وبلكوتاي(١).

بروز جنكيز خان على المسرح السياسي

عندما توفي يسوكاي انفضَّ أكثر أتباعه وأقاربه عن أسرته، بعد نقاش حاد تقرَّر بنهايته الانفصال عن راية الخان المتوفى. فقد رفض وجهاء القبيلة الانضواء تحت زعامة صبي أو امرأة، وآل حال أفراد الأسرة إلى البؤس والشقاء، غير أن الجَلَدَ الذي اتصفت به امرأته هولون، بالإضافة إلى رجاحة عقلها، وبُعد نظرها، وما اشتهرت به من النشاط؛ حفظ لابنها تيموجين قدراً من السيطرة على ما تبقّى من قبائل أبيه، ولكن طفولته كانت عاصفة بسبب المعاناة وغارات قبائل التانغوت، الذين حرصوا على إذلاله وعائلته، كما أنه تعرَّض، في إحدى مراحل حداثته، للأسر على يد زعيم قبيلة الطارجيت، تاركوتاي كيريلتوك، الخصم التقليدي لأسرته، وهو ينحدر من البوريجين، غير أنه تمكَّن من الهرب، واضطر إلى الدخول في تبعية وانغ طغرل خان، زعيم الكرايت وحليف والده، للاحتماء به(٢).

وعندما بلغ تيموجين السابعة عشرة من عمره، بدأ نجمه يسطع في سماء منغوليا، واستطاع بذكائه وحنكته أن يستقطب كبار رجال القبائل من أتباع أبيه، كما انضوت عشيرته تحت سلطانه، فاختاروه جميعاً خاناً على المغول، فأحيا بذلك اسم أسرة المغول الذي كان قد اندثر في منغوليا نفسها بعد كوتولة خان بن كابل. وباتخاذه اسم المغول علماً على قبيلته، فإن تيموجين يكون قد أعلن نفسه خلفاً لكوتولة خان، وأكَّد في الوقت نفسه، ادعاءه الانتساب إليه(٣).

وضع تيموجين نصب عينيه هدفاً آنياً، وهو أن يكون صاحب قوة تخيف الأعداء، وتحمل الأقرباء والأتباع على طاعته والانقياد له، وهذا تفكير بدوي بطبيعة الحال، ولم يفكر مطلقاً في بداية حياته السياسية بتأسيس دولة للمغول وإنما دفعته الأحداث والتطورات السياسية والعسكرية إلى التوسع على حساب

(١) الرمزي: جا ص٣٤٧، ٣٤٨. Howorth: I pp46-48.
(٢) Howorth: I p51.
(٣) بارتولد: تركستان من الفتح العربي إلى الغزو المغولي: ص٥٤٥.

جيرانه، واضعاً بذلك نواة لقيام دول مغولية في القارتين الآسيوية والأوروبية، عمِّر بعضها حتى منتصف القرن التاسع عشر الميلادي. أما التنظيم الوظيفي والديني الذي ابتدعه لتسيير شؤونه فلم يكن سوى نتيجة حتمية لهذا التوسع.

كان على تيموجين أن يتغلَّب أولاً على منافسيه، وكان جاموكا، ملك الجاسيرات، معادياً له على الرغم من موقفه المؤيد لانتخابه، غير أن الرجلين لم يكونا راغبين في صدام الواحد منهما بالآخر، ولكن الاختلاف والفرقة بينهما سبَّبها الآخرون من واقع الحادث الذي قام به تايشار، الأخ الأصغر لجاموكا، من جهة، وجوجي درمالا، من قبيلة الجلائر التابعة لتيموجين، من جهة أخرى. ويتمحور هذا الحادث حول سرقة تايشار قطيع خيول لجوجي، وقيام هذا الأخير باستعادته بعد أن قتل السارق. فنهض جاموكا ليثأر لدم أخيه، فاستنفر رجال قبيلته وحلفاءه، الذين بلغ عددهم ثلاثين ألف مقاتل، وانطلقوا جميعاً عبر جبال ألا أوت وتورقا أوت لمباغتة تيموجين الذي كان يعسكر أمام جبل جوريلجو في وادي نهر سنجور الأعلى حيث اجتمع حوله ثلاثون ألف مقاتل من قومه. ونشبت المعركة بينهما في موقع آلان بالغوت(١) قرب منابع نهر أونون، وأسفرت عن انتصار جاموكا، واضطر تيموجين للتراجع والانسحاب تجاه منطقة جيرين، ولم يجرؤ جاموكا على مطاردته ولكنه أنزل أقسى أنواع الانتقام بأتباع خصمه الذين أسرهم، فقد وضعهم في سبعين مرجلاً من الماء المغلي، وقد اقتبس هذه الطريقة من أشكال التعذيب مما كان متبعاً في الصين في العهود القديمة(٢).

وتورد بعض المصادر التاريخية معلومات مشوشة عن هذه الحوادث، وتقول إنه في معركة آلان بالغوت كان تيموجين هو المنتصر، وأنه هو الذي وضع الأسرى المهزومين في مراجل الماء المغلي(٣).

ومهما يكن من أمر، فإن هذه الأعمال الوحشية المروعة التي قام بها جاموكا سبَّبت ضعف شعبيته، وباعدت بينه وبين أتباعه، الأمر الذي أفاد تيموجين وحوَّلت هزيمته إلى ما هو أفضل من النصر، ألا وهو تدفق

(١) آلان بالغوت: السبعين مستنقعاً. (٢) غروسيه: ص١١١، ١١٢.
(٣) Edermann, M: The Life of Jingis khan, under the Title Temudschin der unerschutterliche: pp261-263.

المتطوعين والرجال المؤيدين، إلى جيشه، وانضمت إليه قبيلتا أوروت، بزعامة جورشيداي، ومانغوت، بقيادة قويدار، بالإضافة إلى صديق والده مونجليك. وشاعت شهرته بين قبائل المغول والترك بعامة، وبدأ يبرز كأقوى رجل في المنطقة، وعلى الرغم من ذلك، فقد كان لا يزال من أتباع طغرل خان ملك الكرايت، وتعاونا في قهر القبائل المغولية ـ التركية التي اعترضتهما. ففي عام (٥٩٣هـ/ ١١٩٧م) جهَّزا حملة ضد قبيلة المركيت[١] وتغلَّبا على زعيمها توقوتو الذي فرَّ إلى الشواطئ الشرقية لبحيرة بايكال، وصادر تيموجين كل معسكره وأهداه إلى حليفة طغرل خان. وهاجما في عام (٥٩٥هـ/ ١١٩٩م) ذلك القسم من قبيلة النايمان بقيادة تايانغ الذي اعترضهما، وأجبراه على الفرار إلى مدينة كم كمدجت. والمعروف أن هذه القبيلة انقسمت إلى قسمين بفعل التنازع الأسري بين الأخوين بويوروق، الذي انسحب مع أتباعه إلى جبال قيزلتاش، وتايانغ، الذي فضَّل البقاء في منازل القبيلة[٢].

وعمدت أسرة كين، منذ النصف الثاني من القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي، إلى انتهاج سياسة تأليب القبائل المختلفة ضد بعضها البعض لاتِّقاء خطرها. والمعروف أن التتار النازلين في بوير نور كانوا يزعجون سلطان الصين الشمالية بهجماتهم المتكررة على الأراضي الصينية، كما أسهموا في مصرع كثير من الأمراء المغول، ومنهم يسوكاي، والد تيموجين، وأضحوا من القوة ما أعجز الصينيين عن مقاومتهم، لذلك حرص امبراطور الصين الشمالية على أن يضربهم بالمغول والكرايت، فتحالف معهما، وتعاون الجميع في محاولة ناجحة تغلَّبوا فيها على هؤلاء التتار، وأدرك تيموجين ثأره لمقتل والده. وأنعم الامبراطور الصيني بعد هذه الأحداث، على طغرل بلقب «أونغ خان» وهو ما يقابل لقب ملك باللغة الصينية، وعلى تيموجين بلقب «قائد ضد العصاة» وهو لقب متواضع أقل قيمة من لقب طغرل، ويدل ذلك على أن الصينيين كانوا ينظرون إلى قبيلة الكرايت كأهم قبيلة في منغوليا[٣].

بدا واضحاً أن تيموجين، بعد أن انتصر على شعب النايمان، وأصبح

(١) المركيت: قبيلة مغولية سكنت المنطقة الواقعة شمالي منازل الكرايت في حوض نهر سلنجا وجنوبي بحيرة بايكال.

(٢) غروسيه: ص١٢٧، ١٢٨. Edermann: p271.

(٣) المرجع نفسه: ص١١٩ ـ ١٢١.

مدعوماً من قِبل ملك الكرايت، كان على وشك فرض سلطته على الشعوب المختلفة التي سكنت منغوليا العليا، ولكن الحقيقة أن ذلك كان سابقاً لأوانه، فحتى القبائل المغولية لم تكن كلها متفقة على التعاطف معه. وسرعان ما ظهرت بعض القبائل التي انضمت إلى خصمه وعدوه اللدود جاموكا زعيم الجاسيرات، نذكر منها المركيت والتانغوت والتتار، واختاروا جاموكا كورخاناً أي امبراطوراً على القبائل المغولية ـ التركية، وذلك في عام (٥٩٧هـ/ ١٢٠١م)[١].

وعلم تيموجين بنوايا الحلفاء المعادية له، فأرسل رسالة إلى ملك الكرايت، أونغ طغرل خان، يطلب منه المساعدة، فأسرع هذا لنجدة حليفة ونزلا في وادي كيرولين، وأرسلا فرقة عسكرية لاستكشاف الطريق إلى أطراف السهل المحيط ببحيرة كولين حيث عسكر الحلفاء. وجرى اللقاء بين الطرفين عند هذا الموقع وأسفر عن انتصار تيموجين وحليفه، وفرَّ الحلفاء بكل اتجاه عائدين إلى منازلهم[٢].

عند هذه المرحلة من الصراع بين تيموجين وجاموكا، حاول هذا استقطاب أونغ طغرل خان، زعيم الكرايت، وفصله عن تيموجين، ليضعف موقفه قبل أن ينقضَّ عليه، منتهزاً فرصة فتور العلاقة بين الرجلين بسبب مشكلة عائلية تتعلق بالتقارب الأسري بالزواج، واستخدم سنجوم بن أونغ طغرل خان من أجل ذلك. والمعروف أن هذا الرجل وإخوته وخاصته والمقربين منه، حسدوا تيموجين على ما بلغه من قوة وجاه، فحذَّروا الخان من طموحه وخطره على دولة الكرايت. والمعروف أن لتيموجين أعداء كثراً في ديار الكرايت، ومنافسين يسعون إلى تجريده من سلطته وحرمانه من صداقة زعيم القبيلة، فدأبوا على وشاياتهم حتى تغيَّر موقفه، وراح يعمل على التخلص منه[٣].

وأدرك تيموجين، من خلال التجارب المريرة التي مرَّ بها، أنه عند وفاة أونغ طغرل خان، سوف تنشب الحروب الداخلية بين الجماعات المتنافسة داخل القبيلة، لذلك آثر البقاء بعيداً عن الأحداث وتعزيز مركزه في شرقي منغوليا، والعمل على الحفاظ على صداقة أونغ طغرل خان ريثما تغدو قبائل

(١) غروسيه: ص١٣٣، ١٣٤.

(٢) D'ohsson: Histoire des Mongols: I p63.

(٣) الجويني: جا ص٢٧.

المغول المنضوية تحت سلطته من القوة بحيث تصبح مساوية لقوة الكرايت، ما يُعدُّ فشلاً سياسياً ذريعاً، حيث كان من حسن السياسة أن يواجه أعداءه قبل أن يهاجموه. وإذ تخلَّى عنه حلفاؤه الكرايت كان لزاماً عليه أن يلجأ مع أتباعه إلى بحيرة بالديوتا. وعندما هاجم الحلفاء معسكره في وقت السحر وجدوه خالياً، فاقتفوا أثره والتقوا به في مكان يدعى كوبتا. ودارت بينهما رحى معركة ضارية أسفرت عن انتصار الحلفاء، وفرَّ تيموجين من أرض المعركة ناجياً بنفسه.

كانت النتيجة الفورية لمعركة كوبتا، تعزيز صفوف قوى التحالف، وأرسل تيموجين رسالة عتاب إلى أونغ طغرل خان، وأخذ يستعد لمعركة الثأر. فاستدعى القبائل المجاورة والموالية له، فأتوه مسرعين، فعبَّأهم وباغت أعداءه بقيادة جاموكا في مكان يدعى أد كيورخان في عام (٥٩٩هـ/ ١٢٠٢ ـ ١٢٠٣م) وانتصر عليهم، وجُرح أونغ طغرل خان وابنه سنجوم في المعركة، غير أنهما لاذا بالفرار لينتهي أمرهما بالقتل. فقد لقي الأول حتفه في غربي منغوليا، وكان قد التجأ إلى النايمان، وقتل الثاني في المنطقة الواقعة بين كاشغر وختن. ونجا جاموكا واحتمى بالصحراء، والتحق من نجا من الكرايت بتيموجين وصاروا يُعرفون منذ ذلك الوقت باسم المغول[(١)].

ازدادت قوة تيموجين بعد هذا الانتصار، وأضحى أقوى شخصية في منطقة السهوب، حيث لم يسبقه زعيم بدوي من المستوى نفسه، فأسرعت القبائل التي كانت مترددة إلى تقديم الولاء والطاعة له، كما انضم الأويرات والجنجرات إلى صفوفه، وأضحت له نواة مملكة على أنقاض مملكة الكرايت.

أضحى تيموجين الآن سيد منغوليا الوسطى والشرقية بعد أن ضمَّ إليه بلاد الكرايت، ولم يبقَ عليه سوى منغوليا الغربية التي كان يحكمها شعب النايمان، وهي تمتد من سلسلة جبال خانقاي إلى جنغاريا وحول نهر ألتاي ووديان إيرتش السوداء والإميل في طار باغاتاي.

كان حكم تايانغ النايماني مزعزعاً وغير مستقر، ولم يكن يتمتع بالهيبة والاحترام التي تمتع بهما والده إنانش بلج، واشتهر باللامبالاة والضعف، ومع

(١) الجويني: جا ص٢٧، ٢٨.

ذلك فإنه اشتمَّ رائحة الخطر على حياته من سلطة تيموجين المتزايدة يوماً بعد يوم، وتوقع هجوماً من قِبله يقضي عليه، كما فعل بأونغ طغرل خان، لذلك بدأ الاستعداد للحرب. وحتى يقوي موقفه راح يبحث عن حلفاء، فأرسل مبعوثاً إلى ملك الأنغوت التركي ألاقوس ـ تجين يعرض عليه التحالف ضد المغول، ويبدو أن هذا الملك كان يميل إلى تيموجين، فأرسل إليه يخبره بنوايا تايانغ ويحذِّره منه، وكان آنذاك في منغوليا الشرقية في رحلة صيد، فترك المنطقة على عجل، في منتصف (شوال ٦٠٠هـ/ حزيران ١٢٠٤م)، وتوجه نحو نهر أورخون عبر جبال خانقاي في طريقه إلى مضارب عدوه. وفي الوقت الذي كان الجيش المغولي يتقدم نحو الأورخون نجد تايانغ يتقدم بجيوشه من منطقة ألتاي إلى جبال خانقاي حيث عسكر هناك، وبدا لأول وهلة أنه واثق من نفسه وقوته بعد الإمدادات الضخمة التي تلقاها من جميع أعداء تيموجين، أمثال توقتو آبيكي زعيم المركيت وألنيناشي، ومعه عدد من الكرايت الذين لم يخضعوا بعد، ثم قوتو بيكي زعيم الأويرات بالإضافة إلى جاموكا، والتي جعلت عديد جيشه يفوق بكثير عديد جيش عدوه، بالإضافة إلى أن هذا الجيش كان متعباً بفعل المسافة الطويلة التي قطعها عبر منغوليا، من نهر الكالكا إلى جبال خانقاي، والتي كانت كافية لإنهاكه.

وجرى اللقاء الدامي بين الطرفين في سهل تشاكيرما أوت عند السفوح الشرقية لجبل ناقو، واستمر يومين وأسفر عن انتصار واضح لتيموجين. ولقي تايانغ مصرعه في المعركة بعد أن أُثخن بالجراح، وفرَّ ابنه كوشلوك صوب الغرب ملتجئاً عند عمه بويوروق في جبال ألتاي ثم ذهب إلى بلاط كورخان زعيم القراخطائيين. واستسلم النايمان بعد أن فقدوا قادتهم وزعماءهم، وحلَّت الكارثة بسائر المتحالفين، ووقع جاموكا في الأسر، فجيء به إلى تيموجين الذي قتله.

تُعدُّ معركة تشاكيرما أوت بالغة الأهمية إذ إنها أتاحت لتيموجين أن يسيطر على منطقة السهوب، وخضع له أكثر الشخصيات جموحاً في آسيا الوسطى، وتوقفت الحروب القبلية. وتزوج تيموجين كوربيسو، زوجة تايانغ، بعد أن وقعت في أسره، وضمَّها إلى زوجاته[(١)].

(١) رشيد الدين: جا ص٩٧. Edermann: pp299-306. D'ohsson: I pp81, 190, 191.

وفي عام (٦٠٢هـ/١٢٠٦م) جمع تيموجين القوريلتاي، وهو مجمع رؤوساء القبائل والقادة، عند منابع نهر أونون، لاتخاذ القرار بشأن خلافة أونغ طغرل خان، فمنحه الشامان، وهو الكاهن الأعظم، لقب جنكيز خان[١]، ووافقه المجتمعون على ذلك، فملَّكوه عليهم وقرروا أن يكون حكمه خلفاً لأبيه، وأن تكون الخانية إرثاً في أولاده من بعده، واتخذ من حصن قراقورم مقراً له[٢].

تنظيمات جنكيز خان

التنظيمات الخاصة بالبلاط

أحاط جنكيز خان نفسه بمجموعة من الرجال المخلصين، الذين وضع كل ثقته بهم واعتمد عليهم في إدارة شؤونه الخاصة وتنفيذ أوامره. وترد الإشارة، في المصادر المغولية، إلى وظيفة الأشخاص الذين شغلوا المناصب المدنية والعسكرية التي ابتدعها في بلاطه وهي:

- أربعة رجال، وظيفتهم حمل القسي والسهام، وهو ما عُرِف فيما بعد باسم منصب قورجي، أي رامي السهام.
- أربعة مشرفين على الطعام والشراب، وعُرِف الواحد منهم باسم باورجي.
- مشرف على رعي الماشية، وعُرِف باسم أختجي.
- مشرف على تجهيز العربات، وعُرِف باسم تركين، وقد عُيِّن فيما بعد قائداً لألف، ويُشرف على الخيل.
- مشرف على موظفي الخاصة، وعُرِف باسم چربي.
- أربعة رجال وظيفتهم حمل السيوف في مكان واحد.
- مشرفان على تدريب الخيل.
- ثلاثة مشرفين على قطعان الخيل في المراعي.
- أربعة أسهم قريبة وبعيدة، وهم أشخاص شغلوا وظيفة الاضطلاع بمهام شخصية للخان كمنصب السفارة.

---

(١) إن كلمة جنكيز مشتقة من اللفظة الصينية ـ المغولية تشينغ ومعناها القوي. إنها لفظة أويغورية مكوَّنة من مقطعين: الأول جنك بمعنى قوي، والثاني جيز بمعنى جبار، فيكون معنى اللفظة الإجمالي: الشديد القوي أو الجبار.

(٢) غروسيه: ص٢١١. Howorth: I p64.

- مستشاران من النبلاء، الشيوخ أو المحافظين، لحفظ النظام أثناء الاجتماعات[١].

ونظَّم جنكيز خان حرسه الخاص عقب انتصاره على الكرايت في عام (٥٩٩هـ/١٢٠٣م)، فاختار سبعين رجلاً للحراسة النهارية وثمانين لحراسة الليل، وضمَّ إليهم ألف رجل شجاع ـ بهادور ـ كحرس شخصي، وتشكل هذه المجموعة طليعة الحرس أثناء القتال وقسماً من حرس البلاط في وقت السلم.

وفي عام (٦٠٢هـ/١٢٠٦م)، أجرى تنظيماً جديداً للحرس، بعد التغلب على النايمان وقتل جاموكا، فرفع عديده أولاً إلى ثمانمائة رجل ثم إلى ألف، وضم إليهم ستة آلاف ثم رفعه إلى عشرة آلاف رجل[٢].

تمتع رجال الحرس بامتيازات كبرى بوصفهم مقربين من الخان، منها:

- يحتل الجندي المقاتل من رجال الحرس رتبة أعلى من قائد ألف في الجيش، أما الجندي غير المقاتل فيحتل رتبة أعلى من قائد مائة.
- لم يكن من حق قادة الحرس معاقبة مرؤوسيهم كما يشاؤون، بل عليهم رفع جميع تصرفاتهم إلى الخان.
- لا يشارك الحرس في القتال إلا إذا كان الخان طرفاً في الحملة.
- يتمتع رجال الحرس بالاحترام والتوقير أكثر من غيرهم.
- يحيط رجال الحرس بخيمة الخان أثناء العمليات العسكرية.

التنظيمات العسكرية

قام تنظيم الجيش المغولي على وحدات قتالية مؤلفة من عشرات ومئات وألوف وعشرات الألوف من العساكر، لكل منها قائد، وشكّل أمراء النويان، أو النوين، وهي الوحدة التي تضم عشرة آلاف مقاتل، أعلى طبقة «أرستقراطية»، وحمل تولوي، أصغر أبناء جنكيز خان، لقب النوين الأكبر، والمعروف أنه كان اليد اليمنى لأبيه في الشؤون العسكرية، كما حمل هذا اللقب أخوا الخان الأصغران، تيموغا وبلغوطاي، وحمل أفراد الأرستقراطية العسكرية لقب طرخان كما هو عند الترك.

وتمتَّعت هذه الطبقة العسكرية بامتيازات خاصة نذكر منها:

---

(١) بارتولد، ف.ف: تركستان من الفتح العربي إلى الغزو المغولي: ص٥٤٦، ٥٤٧.

(٢) المرجع نفسه: ص٥٤٨، ٥٤٩.

- الإعفاء من الضرائب.
- الاحتفاظ بالغنائم التي تقع في أيديهم في الحرب وفي الصيد.
- يدخلون البلاط في أي وقت يشاؤون، ومن دون إذن خاص.
- غير مسؤولين عن جريمة يرتكبونها إلا عند الجريمة التاسعة.
- يتبوَّؤون أماكن الشرف في المآدب، ويُقدَّم لكل منهم كأس من النبيذ.

كان على أفراد الجيش أن يكونوا جاهزين للقتال في كل وقت، وعلى رؤسائهم أن يدرِّبوهم في وقت السلم على القتال والصيد، وأن يسهروا على أن تظل أسلحتهم وخيولهم في حالة جيدة وفي جهوزية تامة. وما اشتهر به القوم من سرعة التعبئة وشدتهم التي لا تُقهر، ملأت قلوب ضحاياهم خوفاً ورعباً، فكانوا يبادرون بالهجوم قبل أن يبلغ العدو التحذير والإنذار، يضاف إلى ذلك، أن ما اشتهر به الزعيم المغولي من استقصاء الأخبار من التجار ومن استخدام العملاء والجواسيس ومدبري المؤامرات؛ هيَّأ له الاطلاع مسبقاً على أوضاع عدوه، ووضْع الخطط الكفيلة بالانتصار عليه. وبفضل الرعايا الذين خضعوا له قهراً، استطاع أن ينقل كميات ضخمة من آلات الحصار التي لم تعرفها الشعوب البدوية من قبل، ولم يكن أمام الشعوب المغلوبة سوى الاختيار بين القتل والإذعان(1).

استعمل المغول الرماح والدروع الثقيلة والتروس، ووضعوا هذه الأدوات العسكرية في ترسانة خاصة بعهدة ضباط يعتنون بها، وتُوزَّع على المقاتلين عندما يُستدعون إلى الحرب، وتُستعرض مع حامليها بعد التوزيع.

انبثقت خطط المغول العسكرية من أساليب الصيد وممارساته في السهوب، وهي على مثال عصبة الصيد مع قيادتها المركزية والإذعان للانضباط الصارم، وكان لخلفية الصيد أثر حاسم في تكوين العسكرية المغولية.

ويبدو أن المغول قد تعوَّدوا أساليب أعدائهم العسكرية، وأنهم قبلوا في الدرجة الأولى بالمعركة بين جيشين متقابلين، ولكننا لا نعلم الشيء الكثير عن تقنية المعركة نفسها، غير أن هناك نوعاً من قانون مثالي يفرض الاقتراب، في الأعشاب الكثيفة، وإعداد الجنود للمعركة بشكل بحيرة، وشن الهجوم بغية اختراق صفوف الأعداء كالمثقب، ويعتلي الخان مرتفعاً يراقب منه حركات

(1) Brown, Edward. G: A literary History of Persia: VII p433.

المقاتلين. وتقوم التعبئة على ثلاث وحدات عسكرية أقلها عدداً يوضع تحت قيادة الخان المباشرة، وتتألف من أشد المحاربين مقاومة، وتشكل القلب أو الوسط، وتنتشر الوحدتان الرئيستان على جانبي القلب يميناً وشمالاً، وتُعطى الإشارة قبل المعركة بدق طبول الخان، وينشد المحاربون ويعزفون على آلة شجية ذات وترين، ولا يحارب المغول إلا في النهار، ويتوقف القتال في الليل.

التنظيمات المدنية

كان جنكيز خان أمياً يحتقر التربية الحضرية وثقافة جيرانه الصينيين، كما كان شعبه على مستوى منخفض جداً من الحضارة، بالمقارنة مع القبائل الأخرى من الكرايت والنايمان، ولم يعرف الكتابة، ولهذا برزت عنده، عقب توحيد منغوليا وقبل الانطلاق لفتح البلاد المتحضرة، أهمية الإفادة من خبرة الشعوب التي خضعت للمغول، وعندما اتخذ المغول الأبجدية الأويغورية، كان هدفهم الأول:

- تدوين تعاليم جنكيز خان، أي العرف والتقاليد الشعبية التي أكسبها هذا الزعيم صبغة القانون، والتي كان احترامها مفروضاً على جميع سكان الامبراطورية وعلى الخانات أنفسهم.
- تسجيل أمجادهم الماضية وبطولات أسلافهم حتى لا يطويها النسيان.

كان أول ممثلين للحضارة في بلاط جنكيز خان بعض التجار من المسلمين، ويبدو أنهم ساهموا في وضع نظام الحرس الملكي. وقد شاعت الكتابة في مجتمع الطبقة الحاكمة عقب إخضاع النايمان، فقد كان في خدمة خان النايمان كاتب إيغوري يدعى تاتا أونجا، فجعله جنكيز خان في خدمته، وأضحى مستشاراً له، وكلَّفه بتعليم أطفاله وأطفال الطبقة الراقية من المغول القراءة والكتابة، لذا فإن أول معلمين للمغول، وأول عمّال للدولة في الامبراطورية المغولية، كانوا من الأويغور(1).

لم تتأثر الامبراطورية المغولية في هذه المرحلة بنظام الإدارة المدنية المعروف عند الصينيين، ولم يكن في بلاط جنكيز خان ممثل للثقافة الصينية إلا بعد زمن طويل من حكمه. ويُعدُّ يي ـ ليو ـ تشوتساي من أهالي الصين

(1) بارتولد: ص٥٥٣، ٥٥٤.

الشمالية، الأشد تأثيراً في حياة جنكيز خان، إذ اشتهر بما حصل عليه من ثقافة عالية من الحكمة وعلوم الفلك والجغرافيا والأدب، وتولى إدارة مدينة بكين بعد أن سيطر عليها جنكيز خان في عام (٦١٢هـ/١٢١٥م)، وكان قد وقع أسيراً في يد المغول حين سقطت المدينة، فأمر جنكيز خان بإطلاق سراحه وأدخله في خدمته.

القانون المغولي: الياسا

كان من الطبيعي أن تكون أولى نتائج اتخاذ المغول الكتابة الأويغورية، هي تدوين القانون المغولي المعروف بالياسا[1]، الذي كان لعهود طويلة المرجع الأعلى في التشريع لخانات المغول، إلى جانب تعاليم جنكيز خان المستندة على العرف والتقاليد الشعبية التي أكسبها صبغة قانونية، والتي كان احترامها مفروضاً على الخانات والشعب. وبهذا برزت الياسا الكبرى إلى الوجود، التي تُحدِّد العلاقة بين الحاكم والمحكومين وتنظم علاقة هؤلاء بعضهم ببعض، وعلاقة الفرد بالمجتمع، وتشتمل على الأحكام التي تتعلق بالجزاء والعقاب، وغالباً ما يكون ذلك بإعدام الشخص المذنب، لذلك أضحى أحد معاني هذه الكلمة ـ ياسا ـ القتل والموت، وتتلخَّص أحكامها في ثلاثة أمور هي:

١ ـ الخضوع لجنكيز خان.

٢ ـ الاتحاد في قبيلة واحدة.

٣ ـ العقاب الصارم لكل مخطئ[2].

دُوِّنت الياسا في طوامير، وحُفظت في خزائن كبار أمراء الأسرة الحاكمة. ويتقيد المغول بنصوصها في الأحوال التالية:

ـ عندما يعتلي خان جديد عرش المغول.

ـ عندما يُعقد مؤتمر عام يحضره الأمراء لمناقشة السياسة العامة للدولة.

ـ عند تعبئة الجيوش والاستعداد للقتال[3].

(١) الياسا: لفظة مغولية معناها: الحكم، أو القاعدة أو القانون، وتطلق على الحكم الذي يصدره الملك أو الأمير.

(٢) حمدي، حافظ: الدولة الخوارزمية والمغول: ص١٢٨.

(٣) الجويني: جا ص١٧، ١٨.

وقد أصدر جنكيز خان الياسا في عام (٦٠٣هـ ـ ١٢٠٦م) عقب انتخابه خاناً أعظم.

جاء تقدير أحكام الياسا نتيجة التجارب التي عاشها جنكيز خان، والشدائد التي عاناها، وما تعرَّض له من خضَّات سياسية، وما صادفه في حياته من متاعب، وما قام به من حروب، كما كان حريصاً على أن يجمع كلمة القبائل الخاضعة له، ويكبح جماح أفرادها، ويجبرهم على النزول على حكمه، ويقضي على الفوضى، ويعيد الأمن إلى نصابه. والواقع أن أحكام الياسا تُعدُّ أول خطوة لإضعاف النزعات والميول الإقطاعية الضارَّة بالوحدة، وتزويد الامبراطورية بأوليات تنظيم «بيروقراطي»، لذلك ضمَّنها أحكاماً بالغة القسوة، وجرى تطبيقها بصرامة، وقد حقَّق جنكيز خان هدفه فأضحى المغول من أكثر شعوب العالم طاعة لرؤوسائهم. ولكن إذا كانت الياسا قد فضَّت النزاع والخصام بين المغول، الذين كانوا يعيشون من قبل في فوضى عارمة لا ضابط لها، فإنها من جهة أخرى قد حوَّلتهم إلى جيوش منظمة تعرف كيف تضع الخطط وتنتصر، وتغير على الشعوب المتحضرة[1].

ظلَّت أحكام الياسا موضع اهتمام الأقوام التركية والمغولية حتى بعد أن زالت دولة الإيلخانيين في إيران، وسار عليها التيموريون في شؤون السياسة والحكم وفي المواكب والحفلات، وتسرَّبت بعض مبادئها وقواعدها إلى النظم المملوكية والعثمانية[2].

وفصَّل المؤرخ الفارسي عطا ملك الجويني مضمون الياسا[3]، غير أن المقريزي، المؤرخ لعصر المماليك، أعطانا خلاصة وافية عن هذا المضمون فقال: «إن جنكيز خان القائم بدولة التتر في بلاد الشرق، لما غلب الملك أونك خان، وصارت له دولة، قرر قواعد وعقوبات أثبتها في كتاب سماه ياسه، ومن الناس من يسميه يسق، والأصل في اسمه ياسه. ولما تمم وضعه، كتب ذلك نقشاً في صفائح الفولاذ، وجعله شريعة لقومه، فالتزموه بعده حتى قطع الله دابرهم. وكان جنكيز خان لا يتدين بشيء من أديان أهل الأرض، كما تعرف هذا إن كنت أشرفت على أخباره، فصار الياسه حكماً باتاً بقي في

(١) الصياد: ص٣٣٩. (٢) العريني: ص٦١، ٦٢.

(٣) تاريخ جهان گشاي: جا ص١٦ ـ ٢٥.

أعقابه لا يخرجون عن شيء من حكمه». «...ومن جملة ما شرعه جنكيز خان في الياسا قتْل الزاني ولم يفرق بين المحصن وغير المحصن. ومن لاط قُتِل، ومن تعمَّد الكذب، أو سحر أو تجسَّس على أحد، أو دخل بين اثنين وهما يتخاصمان، وأعان أحدهما على الآخر قُتِل، ومن بال في الماء أو على الرماد قُتِل، ومن أعطى بضاعة فخسر فيها، فإنه يُقتل بعد الثالثة، ومن أطعم أسير قوم أو كساه بغير إذنهم قُتِل، ومن وجد عبداً هارباً أو أسيراً قد هرب، ولم يرده على من كان في يده قُتِل، وأن الحيوان تُكتَّف قوائمه ويُشقُّ بطنه ويُمْرس قلبه إلى أن يموت، ثم يؤكل لحمه، وأن من ذبح حيواناً كذبيحة المسلمين ذُبِح، ومن وقع حمله أو قوسه أو أي شيء من متاعه، وهو يكرُّ أو يفرُّ في حالة القتال، وكان وراءه أحد؛ فإنه ينزل ويناول صاحبه ما سقط منه، فإن لم ينزل، ولم يناوله قُتِل. وشرط أن لا يكون على أحد من ولد علي بن أبي طالب ﵁ مؤنة ولا كلفة، وأن لا يكون على أحد من الفقراء ولا القرّاء ولا الفقهاء ولا الأطباء، ولا من عداهم من أرباب العلوم وأصحاب العبادة والزهد والمؤذنين ومغسلي الأموات كلفة ولا مؤنة، وشرط تعظيم جميع الملل من غير تعصب لملَّة على أخرى، وجعل ذلك كله قربة إلى الله تعالى. وألزم قومه أن لا يأكل أحد من يد أحد حتى يأكل المناول منه أولاً، ولو أنه أمير، ومن يناوله أسير، وألزمهم أن لا يتخصَّص أحد بأكل شيء وغيره يراه، بل يشركه معه في أكله، وألزمهم أن لا يتميز أحد منهم بالشبع على أصحابه، ولا يتخطّى أحد ناراً ولا مائدة، ولا الطبق الذي يؤكل عليه، وأن من مرَّ بقوم وهم يأكلون فله أن ينزل ويأكل معهم من غير إذنهم، وليس لأحد منعه، وألزمهم أن لا يدخل أحد منهم يده في الماء، ولكنه يتناول الماء بشيء يغترفه به، ومنعهم من غسل ثيابهم، بل يلبسونها حتى تبلى، ومنع أن يُقال لشيء إنه نجس، وقال: جميع الأشياء طاهرة، ولم يفرق بين طاهر ونجس. وألزمهم أن لا يتعصَّبوا لشيء من المذاهب، ومنعهم من تفخيم الألفاظ ووضع الألقاب، وإنما يخاطب السلطان ومن دونه، ويدعى باسمه فقط، وألزم القائم بعده بعرض العساكر وأسلحتها إذا أرادوا الخروج إلى القتال، وأنه يعرض كل ما سافر به عسكره، وينظر حتى الإبرة والخيط، ومن وجده قد قصَّر في شيء مما يحتاج إليه عند عرضه إياه عاقبه. وألزم نساء العساكر بالقيام بما على الرجال من السخر والكلف في مدة غيبتهم في القتال، وجعل العساكر إذا قدمت من

القتال كلفة يقومون بها للسلطان، ويؤدونها إليه. وألزمهم عند رأس كل سنة بعرض سائر بناتهم الأبكار على السلطان ليختار منهن لنفسه وأولاده. ورتَّب لعساكره أمراء، وجعلهم أمراء ألوف وأمراء مئين وأمراء عشراوات. وشرع أن أكبر الأمراء إذا أذنب، وبعث إليه الملك أخسَّ من عنده حتى يعاقبه؛ فإنه يلقي نفسه إلى الأرض بين رجلي الرسول، وهو ذليل خاضع حتى يمضي فيه ما أمر به الملك من العقوبة، ولو كانت بذهاب نفسه. وألزمهم ألا يتردَّد الأمراء لغير الملك، فمن تردَّد منهم لغير الملك قُتِل، ومن تغيَّر عن موضعه الذي يرسم له بغير إذن قُتِل، وألزم السلطان بإقامة البريد حتى يعرف أخبار مملكته بسرعة». «وجعل الياسه لولده جغتاي بن جنكيز خان، فلما مات التزم من بعده أولاده وأتباعهم حكم الياسه، كالتزام أول المسلمين حكم القرآن، وجعلوا ذلك ديناً، لم يُعرف عن أحدٍ منهم مخالفته بوجه»[1]. وورد في الياسا أيضاً ما يدل على أن جنكيز خان يكره السرقة والفحش، وجعل عقوبة مرتكبيها الإعدام، وأنكر عصيان الولد لأوامر أبويه، ومخالفة الأخ الصغير لأخيه الأكبر، وافتقار الزوج إلى الاعتماد على زوجته، ومخالفة المرأة زوجها، وامتناع الغني عن مساعدة الفقير، وعدم احترام المرؤوسين لرؤسائهم، ونهى أتباعه عن الإسراف في شرب الخمر.

وزاد الجويني في الحديث عن مباريات الصيد، وهي بالغة الأهمية في حياة المغول العسكرية، وتُعدُّ جزءاً لا يتجزأ منها، ويحرصون على ممارستها منذ الصغر، إذ كانت رياضتهم المفضَّلة والمحببة إلى نفوسهم، واتخذوها وسيلة لإعداد أنفسهم لخوض الحرب، فهم يدرِّبون أنفسهم في حلباتها على ما سيفعلونه في وقت الحرب من تعبئة وإعداد نفسي وجسدي، والتدريب على الركض والكرِّ والفرِّ والعطف والفروسية، والرمي بالنشاب والضرب بالسيف والدبوس، والاعتياد على القتل وسفك الدماء واختيار الخيل ومعرفة سبقها وصبرها على دوام الركض، وتسقُّط أخبار العدو والتجسس عليه[2].

والجدير بالذكر أن المغول لم يحافظوا بشكل كامل على ما جاء في الياسا من نصوص وأحكام لا سيَّما في وقت الحروب، فقد لجأوا، خلال معاركهم،

---

(١) المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، المعروف بالخطط المقريزية: جـ٣ ص٣٨٤، ٣٨٥.

(٢) تاريخ جهان گشاي: جـ١ ص١٩، ٢٠.

إلى الكذب والخديعة والتفرقة بين المتحاربين من الأعداء، وتحلّلوا من المواثيق ونكثوا العهود.

الدين في المجتمع المغولي

اعتنق المغول الديانة الشامانية، وهي ديانة قائمة على الوثنية، وترتكز على عبادة عوامل الطبيعة، على عادة المجتمعات البدوية. «إنهم يسجدون للشمس عند طلوعها»[1]. وتشير هذه العبارة التي أوردها مؤرخنا إلى أن الشمس هي المعبود الوحيد للمغول، والحقيقة أن الشمس تُمثِّل واحداً من عدة أشياء عبدها المغول، كالقمر والنار والرعد والبرق.

واعترف المغول، إلى جانب هذه المعبودات، بوجود إله واحد، خالق الأشياء وموجد الضيق في العيش والحرمان، والمشاق، وما يتعرَّض له الإنسان من أضرار في هذه الحياة، وهو يتربع فوق السماء الزرقاء، فعبدوه ودعوه باسم تنكري، غير أنهم لم يتخذوا أمكنة خاصة للعبادة[2]. وعلى الرغم من اعترافهم بالوحدانية، إلا أن ذلك لم يمنعهم من اتخاذ أوثان وتماثيل مجسَّدة في أشكال مختلفة، وبخاصة صور الآدميين، مصنوعة من اللبود وغيرها من الحرير، فيقومون بوضعها على جانبي مدخل المنزل يلتمسون منها حماية أبنائهم وحيواناتهم، كما كانوا يصنعون تماثيل لخاناتهم ورؤسائهم، ولرب الأسرة بعد وفاته توضع أيضاً أمام المنزل، وتُقدَّم إليها القرابين، وذلك احتراماً لذات الشخص المتوفى[3].

وجاءت عبادتهم للنار وتقديسهم لها من واقع أنها عنصر مُطهِّر، إنها إله مُنقٍّ لكل شيء ومن كل شائبة حتى الضرر الناتج عن الأعمال السحرية، لذلك عمد المغول إلى إجبار كل شخص من خارج مجتمعهم، قدم إليهم بمهمة ما، أن يمر بين نارين متقدتين لتنقيته من أي شائبة عالقة به، أو أي عمل قد يُراد به إلحاق الضرر بالخان أو بأي فرد من أفراد المجتمع، وحتى الإضرار بحيواناتهم.

---

(١) ابن الأثير: جـ١٠ ص٣٣٥.

(٢) DeBrida, C. Friar: The vinland map and Tartar Relation: p88. Rubruck, W: The Journey of william Rubruck: p195. Saunders, J,I: The History of the Mongol Conquest: p14.

(٣) Polo, Marco: The Description of the world: P140.

ويقوم الإنسان المغولي بتنفيذ الشعائر الدينية بطريقته الخاصة مباشرة وبدون وسيط، ومع ذلك فإن العرّاف المغولي، وما يقوم به من أعمال شعوذة، يؤدي دوراً بارزاً في حياته، لأن العرافة والسحر والشعوذة والرقية والتعاويذ، كانت تسيطر على أفكاره، حيث يقوم العرّاف بالوساطة بينه وبين الإله تنكري، وهو يعتقد أن هذا الإله على اتصال دائم به، ويوصل تعليماته إليه، وهو ينقلها بدوره إليه، أي إلى الإنسان المغولي، ويُسمّى هذا الكاهن بـ«تب تنكري»[1]، وعُرف هذا النوع من العرافة في التاريخ المغولي بـ«الشامانية»، ويدعى الشخص الذي يمارسها: شامان، ويسميه المغول: كام[2].

اشتهر المغول بالتسامح الديني مع شعوب البلدان التي سيطروا عليها، فلم يجبروهم على اتِّباع دين معين من أديان الأمم التي كانت خاضعة لهم، بل تركوهم يعتنقون الدين الذي يرتضونه، وقد تأثَّروا هم أنفسهم بديانات تلك الشعوب، فتركوا دين الآباء والأجداد، واعتنقوا دين البلد الذي حلوا فيه بالغزو.

واكتظَّت العاصمة المغولية قراقورم بأتباع الديانات المختلفة، الإسلامية والنصرانية واليهودية والشامانية والبوذية والمانوية والزرادشتية والكنفوشيوسية، وخُصِّص لكل ملَّة مكان للعبادة الخاصة بها، وحُظِّر على أتباع أي دين أن يلحقوا الضرر والأذى بأتباع دين آخر. وكان الخانات يعقدون مجالس دينية للمناقشة الهادئة بين الأديان، حيث يحاول كل طرف إقناع الطرف الآخر بالحجج والبراهين على صحة معتقده. ونظر جنكيز خان إلى أتباع كل الديانات بعين التبجيل والتوقير[3].

وتأثَّر قادة المغول ورجالهم بغيرهم من الأمم والشعوب التي خضعت لهم، فاعتنقوا ديانة البلاد التي سيطروا عليها، فاعتنق أولئك الذين فتحوا الأراضي الصينية والهند الصينية الديانة البوذية والكنفوشيوسية وغيرهما، كما أن أولئك

---

(١) الجويني: جـ١ ص٢٨، ٢٩. تب تنكري: كلمة تركية ـ مغولية تعني: الشخص المقدس أو المعظم.

(٢) Caprini, J.P: The Mongol's History, Ed. Dawson: p12. Spuler, B: History of The Mongol: P26.
الغامدي، سعد بن محمد حذيفة: المغول: بيئتهم الطبيعية وحياتهم الاجتماعية والدينية: ص١٣٥.

(٣) Rubruck: pp189-195.

الذين أخضعوا أجزاء واسعة من الأراضي الإسلامية اعتنقوا الدين الإسلامي، وشكّلوا دولاً إسلامية في أقاليم القبجاق، أسرة جوجي خان، الابن الأكبر لجنكيز خان، وهي التي عُرفت في التاريخ باسم القبيلة الذهبية، وفي إيران والعراق، أسرة تولي، الابن الأصغر لجنكيز خان وهي التي عُرفت بدولة الإيلخانيين، وفي إقليمي ما وراء النهر وتركستان، أحفاد جغتاي بن جنكيز خان، وفي شبه القارة الهندية. واعتنق أولئك الذين حكموا أواسط آسيا الديانة النصرانية على المذهب النسطوري المنتشر هناك، وظلّت فئة قليلة العدد على دين آبائها وأجدادها، فلم تنحرف عن ياسا جنكيز خان[1].

(١) الجويني: جا ص١٨، ١٩.

الفصل الثاني

التوسع المغولي في عهد جنكيز خان

التمدد المغولي باتجاه الصين

تمهيد

تطلّع جنكيز خان، بعد أن وحّد منغوليا، إلى التوسع على حساب الصين، لكن كان عليه قبل أن يُقدم على هذه الخطوة، أن يخضع بعض الأمراء الخارجين على حكمه أو المعادين له من المركيت والنايمان، فاصطدم بأميري هاتين القبيلتين، توقتا وكوشلوك، على نهر إميل في عام (٦٠٤هـ/١٢٠٨م) وانتصر عليهما، فقتل الأول وفرَّ الثاني باتجاه الغرب ناجياً بنفسه، وأثناء عودته إلى المعسكر قدم عليه كل من أرسلان خان، أمير القياليغ، وأوزار، أمير الماليغ في الشمال الشرقي من منغوليا، ودخلا في طاعته، كما انضوى الأويغور تحت سلطانه بعد أن انقلبوا على حكم القراخطائيين[1].

وأخضع جنكيز خان التانغوت في إقليم كانسو حيث مملكة هسيا الصينية غربي النهر الأصفر، وقد خشي أن يهاجم هؤلاء أراضيه أثناء غيابه في غزو الصين، ووافق ملكهم على أن يدفع الخراج ويبذل ابنته زوجة لجنكيز خان[2].

وجد جنكيز خان نفسه قوياً بعد هذه الأحداث لدرجة تسمح له بالتدخل في الشؤون الصينية. والمعروف أن الصين كانت منقسمة آنذاك إلى قسمين: القسم الجنوبي وعاصمته هانغ ـ شو أو كين ـ ساي، وتحكمه أسرة سونغ الوطنية، والقسم الشمالي وعاصمته بكين وتحكمه أسرة كين، وهذه الأسرة من أصل تونغوزي جاءت من منشوريا، كما ذكرنا، ويُسمى أباطرتها بملوك الذهب، وكانت تسيطر على القبائل البدوية الضاربة شمالي المملكة ومنها المغول.

(١) الجويني: جا ص٣٢ ـ ٣٤، ٤٦ ـ ٥٣، ٥٦ ـ ٥٨.

(٢) D'ohsson, C.: Histoire des Mongols: I p106.

دوافع التمدد المغولي

تكمن أهم دوافع جنكيز خان للتمدد على حساب الصين في العوامل التالية:

- السياسة التقليدية للبدو بمهاجمة المناطق الحضرية للاستفادة من خيراتها.
- أراد أن يحمي دولته الناشئة من هجوم قد يقوم به التانغوت والجورشيت على الرغم من أنه أخضعهم، لكن هؤلاء لم يطمئنوا إلى وجود دولة قوية على حدودهم.
- وضع حدّ لتدخل أباطرة كين في شؤون البدو، والمعروف أن هؤلاء لم يكفُّوا عن تحريض القبائل الواحدة ضد الأخرى لكي يظلوا سادة الموقف وليأمنوا شرَّ غاراتهم.
- كان الاستيلاء على الصين الشمالية جزءاً من خطته في القضاء على قوتها العسكرية ومحو آثار هيمنة أسرة كين على سكان السهوب، وإرغام الامبراطور الصيني الشمالي، الذي يُعدُّ الأقوى في المنطقة، على دفع الخراج له والاعتراف بتبعيته.
- الانتقام من أسرة كين بسبب ما لقيه آباؤه وأجداده من معاملة سيئة على أيدي حكامها.
- إشباع رغبة أتباعه من البدو بسلب ثروات الصين، ما يزيد من شعبيته.

حملات جنكيز خان ضد الصين الشمالية ونتائجها

كان من حسن حظ جنكيز خان أن الامبراطور الصيني الشمالي شانغ - تونغ هو الذي استدعاه إلى أراضيه لمساعدته في حروبه ضد امبراطورية سونغ الجنوبية، والمعروف أن البدو في منغوليا كانوا لا يزالون من أتباع امبراطورية كين، ويُحكمون بواسطة مراقب مسؤول عن التخوم الغربية، وكان جنكيز خان مسجلاً في الوثائق الصينية بصفة قائد ضد العصاة، كما ذكرنا، وقد أتاح له هذا المركز الاطلاع على معالم الامبراطورية، فاستفاد من ذلك عندما هاجمها.

وحدث آنذاك أن توفي شانغ - تونغ في عام (٦٠٥هـ/١٢٠٨م) وخلفه ابنه واي - وانغ الذي لم يكن على مستوى والده بتحمل المسؤولية، وهو رجل أبله، فأرسل رسالة إلى جنكيز خان يعلمه بجلوسه على العرش ويطلب منه دفع

الخراج الذي كان يدفعه لأبيه، فرفض الزعيم المغولي الطلب، الأمر الذي عُدَّ رفضاً بالاعتراف بالامبراطور الجديد، فتوترت العلاقات بينهما، وكان لا بدَّ من الحرب لتقرير المصير.

قام جنكيز خان بثلاث حملات عسكرية ضد الصين الشمالية، نُفِّذت الأولى في عام (٦٠٧هـ/١٢١١م) وأسفرت عن سيطرته على مدينة تيتونغ - فو الحصينة، وقد أخفقت القوات الصينية، التي حشدت لحراسة طرق التوغل، في إيقاف المغول، واستطاع هؤلاء تشتيتها وبعثرتها وسحقها بالسهام. وتابع جنكيز خان طريقه نحو العاصمة بن - كنغ، بكين. وكان الدمار الذي أحدثه المغول، واقترابهم من العاصمة قد ملأ الامبراطور واي - وانغ ذعراً، وعزم أن يهرب لو لم يردعه وزراؤه.

استولت الفرق المغولية على عدد من المدن، وحطمت أول مقاومة للصين بسرعة مدهشة، إلا أن العاصمة لم تسقط واستمرت صامدة، ثم رأى أن يتوقف عند هذ الحد من الإنجازات التي تحقَّقت بفعل حلول فصل الخريف، وهو موسم جمع الخيول المرتاحة، كما أن فصل الشتاء في شمالي الصين لا يوفر طعاماً كافياً لجميع أفراد الجيش البالغ عددهم مائة ألف مقاتل، وتراجع باتجاه الشمال إلى صحراء جوبي[1].

ابتدأت الحملة الثانية في (أواخر ٦٠٨هـ/ربيع ١٢١٢م) وهي مرتبطة بما جرى من مهاجمة الصينيين أسرة ليائو الخطائية، حليفة جنكيز خان، والتماس أفرادها المساعدة من الخان المغولي. والمعروف أن بكين كانت قبل أن تخضع لملوك الذهب تُحكم من قبل شعب قبلي آخر هو شعب الخطاي الذي قضى عليه أجداد ملوك الذهب. وكان الخطاي من أصل مغولي ويسكنون إقليم ليائو - يانغ في جنوبي منشوريا، ويمتون بصلة القرابة إلى شعب جنكيز خان، لكنهم أصبحوا، بعد أن سكنوا ثلاثة قرون في أراض صينية، وقد طغى عليهم الطابع الصيني، إنما رغم ذلك لم ينسوا أمجادهم وأمجاد أجدادهم المغول السابقين، ولا شك أنهم كانوا يرغبون بالانتقام من قاهريهم. وهكذا حدث أن ثار، في التاريخ المذكور أعلاه، أحد أمرائهم ضد ملوك الذهب الذين أرسلوا جيشاً تعداده ستين ألفاً للقضاء على الثورة،

(١) صفا: ص١٩٣، ١٩٤.

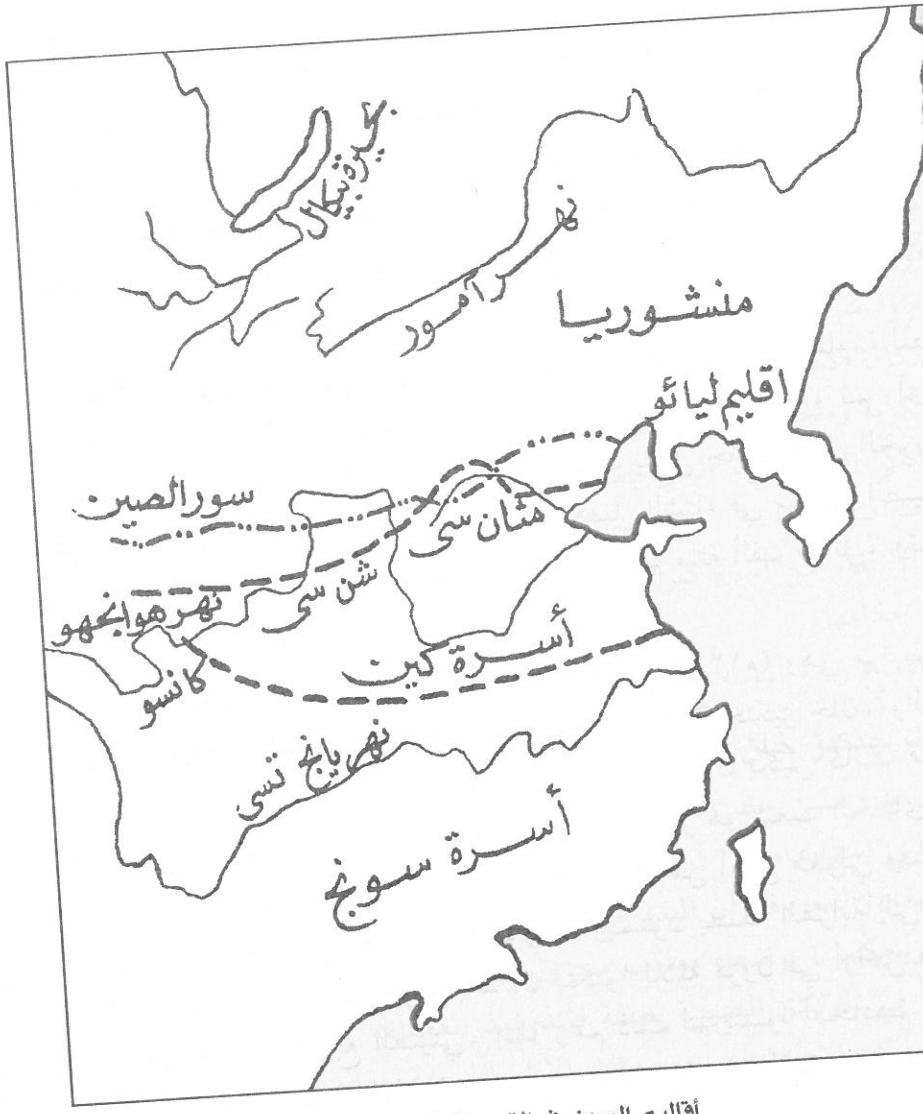

أقاليم الصين في القرن السادس

عن فؤاد عبد المعطي الصياد: المغول في التاريخ ص٣٩٥

فالتمس المساعدة من جنكيز خان الذي استغل هذه الفرصة وأسرع للاستفادة من هذا التمرد، فأرسل قائده جيبي إلى هناك ومعه قوة استطلاع. وقام هذا القائد النشط بحصار ليائو ـ يانغ في مؤخرة القوات الصينية، لكنه فشل في تحقيق كسب محسوس، فعمد عندئذ إلى الحيلة، فتظاهر بالانسحاب كمن يتخلَّى عن القتال، طوال يومين، ومن ثَمَّ عاد إلى مكانه السابق عند المدينة في غضون ليلة واحدة. وكان الصينيون في هذه الأثناء قد اقتنعوا حقيقةً بانسحاب المغول فخرجوا من المدينة وانهمكوا بنهب الأمتعة المغولية التي تركها جيبي ونقلها إلى داخل المدينة التي كانت أبوابها مشرَّعة، وإذ فاجأهم القائد المغولي فأُسقط في أيديهم وكانت النتيجة مجزرة رهيبة واحتلال ليائو ـ يانغ.

وفيما يتعلق بحصار العاصمة، فقد جُرح جنكيز خان أثناء الاشتباك مع حاميتها واضطر إلى الانسحاب والعودة من حيث أتى، وبخاصة أنه دخل فصل الخريف الذي يتوقف خلاله القتال(١).

وقام جنكيز خان بحملته الثالثة إثر حادث قتل الامبراطور واي ـ وانغ واعتلاء هسوان ـ تسنغ العرش الامبراطوري في عام (٦١٠هـ/ ١٢١٣م)، فانتهز فرصة الفوضى الناتجة عن هذه الثورة، ووجَّه هجومه الكبير إلى قلب الصين الشمالية ودخلها من ثلاثة محاور في أوائل العام التالي. والواقع أنه لم يحدث من قبل أن وُضعت حملة بمثل هذا الوضوح ونُفِّذت بشكل أكثر مثالية ونجاح.

قاد جنكيز خان الجيش الأوسط ورافقه ابنه الأصغر تولوي، واتخذ طريقه نحو السهل العظيم في وسط الصين، ورفض اقتراح بعض قادته بمهاجمة العاصمة بكين وأخذها بالقوة بفعل أن المدينة محصَّنة تحصيناً جيداً، ولم يكن لدى المغول من التجهيزات الضرورية لدكها، إلا أنه اكتفى بوضع فرق عسكرية حولها، ثم توجَّه مع فرسانه نحو الجنوب، فاقتحم جميع المدن الصغيرة من باو ـ تنغ جنوباً حتى بكين إلى وي ـ هوى، ونهبها، ولم يتوقف إلا عند ضفاف النهر الأصفر حيث تعذَّر على خيوله عبوره بفعل اتساعه، فتوجَّه عندئذ إلى المنطقة الجنوبية الشرقية حيث سهل شانتونغ الخصيب، واستولى على المدينة الرئيسة الموجودة هناك وهي تسي ـ نان، وتوقف عند مرتفعات هذه المقاطعة بفعل الإعياء والتعب.

(١) غروسيه: ص٢٤٣. Howorth: I p69.

وقاد أبناء جنكيز خان الثلاثة، جوجي وجغتاي وأوكتاي، الجيش الثاني الذي شكَّل الجناح الأيمن، وزحفوا إلى القطاع الغربي وصولاً إلى إقليم شانسي الزراعي، فاستولوا على المدن الرئيسة المتناثرة على طول ضفتي نهر فن مثل بنج ـ يانغ وفن ـ تشن وهسن ـ تشو، ودخلوا تاي ـ يوان، عاصمة الإقليم، وكانت مركزاً للتعدين وزراعة الكروم. والواضح أن السهولة التي سقطت بها هذه المدن المحصَّنة تظهر إلى أي مدى وصلت إليه الخطط العسكرية المغولية في إدارة المعارك، حتى أبطلت مفعول الدفاع الصيني.

وكان جنكيز خان قد عهد إلى أخيه كسار بقيادة الجيش الثالث، فسار من منطقة بكين متبعاً الطريق الساحلي شمالاً، وقد أخضع خلال زحفه المدن الواقعة بين ممر شان ـ هاي ـ كوان وجيهول، ثم ذهب لإخضاع منطقة منشوريا العليا في إقليم نهري نوتي وسنجاري بعيداً حتى نهر عامور، وهي المنطقة التي تُعدُّ مسقط رؤوس الأباطرة الصينيين.

وفي (ذي الحجة ٦١٠هـ/نيسان ١٢١٤م) جمع جنكيز خان قادته أمام بكين، وقد رغب هؤلاء بمهاجمة تلك المدينة فوراً، لكن جنكيز خان كان أكثر إدراكاً منهم بالصعوبات ومقدِّراً النقص في تجهيزات الجيش المغولي، الأمر الذي لا يؤهله، في ذلك الوقت على الأقل، لشن مثل هذا الهجوم، ولهذا لم يوافق، بل على العكس أرسل رسولاً إلى الامبراطور الصيني يعرض عليه السلام مقابل:

- الاحتفاظ بما استولى عليه من أراضي شمالي النهر الأصفر.
- بذل الهدايا لقادته لتخفيف حنقهم وغضبهم عليه.
- عدم مهاجمة أسرة ليائو الخطائية.

لم يسع الامبراطور الصيني إلا أن يبادر إلى قبول هذا العرض لإقرار السلام تفادياً لاستمرار الحرب التي اتسمت بالعنف والشراسة والوحشية، وتجنباً لخسارة مزيد من الأراضي، ثم إن وضعه العسكري أضحى حرجاً بفعل التحاق كثير من ضباطه، مع فرقهم، بالمغول.

غير أن هذا الامبراطور ما لبث أن نكث بتعهداته، فالسلم الذي اشتراه غالياً لم يكن أكثر من مدة زمنية للاستراحة والتقاط الأنفاس في الوقت الذي كان بإمكانه الاحتفاظ بما تبقَّى من امبراطوريته، بما فيها العاصمة، أمام قوة المغول الطاغية، وهو الذي لم يكن يملك شيئاً من مقوِّمات الصمود أو النصر، لكن ما دام المغول قد تعلَّموا كيف يهاجمون الحصون الواقعة على

السور العظيم، فليس من المستبعد أن يعودوا، في أية لحظة، وبخاصة أن بكين باتت قريبة جداً من أماكن تواجدهم، لذلك قرَّر مغادرة العاصمة إلى كاي ـ فونغ، في إقليم هونان الواقع فيما وراء النهر الأصفر، معتقداً أن حواجز ما وراء هذا النهر كفيلة بصد الغارات المغولية، وقد ترك مهمة الدفاع عن العاصمة إلى ابنه الأكبر، وقد عدَّ شعبه وجيشه هذا الانسحاب ضعفاً وخيانة، فدبَّت الفوضى في المدينة، وراحت تعمل في تحطيم عرى القوات الصينية المسلحة، وقد تمردت بعض القوى التي كانت برفقة الامبراطور والتحقت بالمغول. وعلى الرغم من ذلك، اجتمع أعيان المدينة وجدَّدوا ولاءهم للأسرة الحاكمة وقرَّروا متابعة الحرب، لكن المفاجأة وقعت عندما استدعى الامبراطور ابنه ليلحق به إلى الجنوب، وعيَّن مكانه القائد ين ـ وانغ مرتكباً خطأً سياسياً وعسكرياً آخر، وهو ما أدى إلى تفاقم اضطراب الجيش.

وما إن وصلت أنباء هذه التطورات إلى مسامع جنكيز خان، لم يدع هذه الفرصة تفلت منه، فبادر في (ذي القعدة ٦١١هـ/آذار ١٢١٥م) إلى إرسال أفضل فرقه العسكرية إلى الجنوب باتجاه النهر الأصفر لمطاردة الامبراطور الصيني الذي اضطر إلى عبور النهر إلى أراضي السونغ، أعدائه القدامى، للاحتماء بهم والتماس المساعدة منهم، وتقدم هو على رأس الجيش باتجاه العاصمة التي دبَّت فيها الفوضى، وعسكر بالقرب من السور العظيم، وأرسل قوة عسكرية بقيادة موقلي، وهو من أسرة ليائو، لاقتحامها.

كان باستطاعة بكين أن تصمد مدة طويلة في وجه الحصار المغولي، وبخاصة أن مخازنها مليئة بكميات كبيرة من الأسلحة، لكن سكانها كانوا في حال فوضى عارمة، ولم يكونوا مؤهلين للصمود. وعندما بدأ القتال في الضواحي، فرَّ معظم القادة العسكريين تاركين المدينة تواجه مصيرها المحتوم. ولم يتمكن القائد ين ـ وانغ من إعادة النظام والهدوء وتنظيم عملية المقاومة، وإذ عدَّ نفسه مسؤولاً، بشكل أو بآخر، عما حدث؛ فضَّل الانتحار.

ودخل موقلي المدينة في (محرم ٦١٢هـ/أيار ١٢١٥م) واستولى عليها، وتعرَّض السكان للقتل، وقبض على عدد كبير من الحرفيين والفنيين والعلماء، وأرسلهم إلى جنكيز خان الذي حملهم معه إلى بلاده للاستفادة من خبراتهم، وعهد إليه الزعيم المغولي، قبل أن يغادر الصين عائداً إلى منغوليا، بمهاجمة امبراطورية السونغ، ومنحه راية مزركشة بتسعة ذيول

بيضاء من ذيل ثور التيبت الضخم(١).

كان جنكيز خان يرغب في أن يتابع بنفسه توسعاته في هذه البلاد، غير أنه فضَّل العودة إلى منغوليا في عام (٦١٣هـ/ ١٢١٦م) ليتعقَّب أعداءه الذين فرُّوا إلى الممالك الغربية.

التمدد المغولي باتجاه الغرب

القضاء على كوشلوك خان

بعد أن هزم جنكيز خان قبائل النايمان وقضى على ملكهم تايانغ، فرَّ ابنه كوشلوك مع أتباعه باتجاه الغرب، كما ذكرنا، ولجأ إلى بلاط كورخان زعيم القراخطائيين، وكان لزاماً على الزعيم المغولي أن يتوقف عن مطاردته حين اشتدَّت الحاجة إلى حشد كل القوات المغولية لغزو الصين.

كان القراخطائيون يتعرضون آنذاك لضغط السلطان علاء الدين محمد خوارزمشاه الذي ثار على كورخان وتوقف عن دفع الجزية له، كما فقد الزعيم القراخطائي بعض أملاكه في بلاد ما وراء النهر أمام المسلمين هناك، فأضحى في موقف ضعيف، يضاف إلى ذلك أنه عجز عن معالجة مشكلاته الداخلية، وبخاصة تلك التي أثارها ولاته من المسلمين، فرأى أن يتخذ من كوشلوك حليفاً يتقوَّى به للتغلب على محنته، لذلك استقبله بحفاوة بالغة وزوَّجه ابنته.

ويبدو أن كوشلوك، الذي لمس مدى ما يعانيه عمه من ضعف، وما وصلت إليه دولته من تفكك وانهيار، طمع في وراثته، فتآمر عليه، بالاتفاق مع السلطان الخوارزمي وتوقتا خان زعيم قبيلة المركيت، وإذ تعرَّض كورخان للهزيمة وقع في الأسر وزُجَّ به في السجن حيث توفي بعد عامين(٢).

أدَّى هذا الصراع السياسي على النفوذ في بلاد ما وراء النهر إلى ثلاث نتائج:

الأولى: اعتلاء كوشلوك خان عرش دولة القراخطاي.

الثانية: أضحت أملاك كوشلوك خان تجاور أراضي الدولة الخوارزمية.

الثالثة: أن كوشلوك خان، بعداوته القديمة لجنكيز خان، وجَّه أنظاره نحو

(١) انظر فيما يتعلق بحملة جنكيز خان الثالثة ضد الصين: D'ohsson: I p140. العريني: ص٦٦. الصياد: ص٥٣. Howorth: I pp70, 71. غروسيه: ص٢٥٠ ـ ٢٥٥.

(٢) رشيد الدين، فضل الله بن عماد الدولة: جامع التواريخ: جـ١ ص٣٠٨، ٣١٠، ٣٣٥. الجويني: جـ١ ص٤٨.

الأقاليم الغربية في آسيا رغبة في الانتقام من عدوه القديم، وأدَّى هذا إلى الكوارث التي حلَّت بالدولة الخوارزمية بخاصة والعالم الإسلامي في غربي آسيا بعامة، على أيدي المغول(١).

وقام كوشلوك خان، خلال الأعوام السبعة التي حكم فيها (٦٠٨ ـ ٦١٥هـ/ ١٢١١ ـ ١٢١٨م)، بتوسيع رقعة أراضيه على حساب القوى المتناثرة هناك، فأخضع عدداً من القبائل كان بعضها تابعاً للمغول، ومدَّ سلطانه من بلاد التيبت حتى حدود الدولة الخوارزمية، ولم يحترم الشعور الديني للسكان في دولته، فتأثر بديانة زوجته البوذية، وقد أقنعته بالارتداد عن النصرانية واعتناق البوذية، واضطهد المسلمين وأجبرهم على الارتداد عن دينهم واعتناق النصرانية أو البوذية أو أن يتزيوا بزي القراخطائيين، فارتضوا بهذا الحل الأخير(٢).

كان جنكيز خان يراقب أعمال كوشلوك خان وتوسعه على الأرض، وأزعجه ما أقدم عليه من الإطاحة بدولة القراخطائيين واستيلائه على ممتلكاتهم، كما أن لجوء المسلمين، المضطهدين في بلاد ما وراء النهر، إليه وطلبهم منه أن ينقذهم من تعسُّفه؛ شكَّل سبباً آخر لكي يُبرِّر الخان المغولي تدخله العسكري في المنطقة، فأرسل القائد جيبي لحربه. ويبدو أن الزعيم النايماني خشي الدخول في مواجهة مسلحة مع عدوه فلاذ بالفرار، فطارده جيبي، وقبض عليه، أثناء فراره، جماعة من المسلمين الذين كانوا يجوبون المنطقة بحثاً عن الصيد في جبال بدخشان، فقتلوه واحتزُّوا رأسه وسلموه للمغول، فانتهت بمقتله سلالة النايمان الحاكمة ودخلت جميع أراضي القراخطائيين، سلماً، تحت حكم المغول، وأضحى هؤلاء يجاورون أملاك الخوارزميين(٣).

الاستيلاء على بلاد ما وراء النهر

تأسيس الدولة الخوارزمية

ما حدث في آسيا الوسطى من اضطرابات، بفعل تحركات المغول التوسعية، امتدت آثارها إلى غربي آسيا، ومن هذه التأثيرات ما أدى إلى

(١) حمدي، حافظ: الدولة الخوارزمية والمغول: ص٧٨.

(٢) ميرخواند: روضة الصفا: جـ٥ ص٧٤، ٧٥.

(٣) رشيد الدين: جـ١ ص٣٣٨. الجويني: جـ١ ص٤٩ ـ ٥٢. وصّاف الحضرة، شرف الدين عبد الله: تاريخ وصّاف: ص٣١١.

القضاء على القراخطائيين وبروز قوة الخوارزميين. وبفعل ارتباط تاريخ هؤلاء بتاريخ المغول فإن العلاقة بينهما كانت من بين أسباب التمدد المغولي باتجاه الغرب.

ينتسب الخوارزميون إلى أنوشتكين، أحد الأتراك في بلاط السلطان ملكشاه السلجوقي حيث كان يشغل وظيفة ساقي، واشتهر ابنه محمد بالعلم والأدب، فعيَّنه أحد قادة السلطان بركياروق حاكماً على إقليم خوارزم ولقَّبه خوارزمشاه، وهو مؤسس الدولة الخوارزمية[(١)].

بدأت قوة الخوارزميين تظهر منذ عام (٥٢٢هـ/ ١١٢٨م) في عهد أتسز بن محمد الذي كانت له جولات عسكرية مع السلطان السلجوقي سنجر، فاستولى على مرو ونيسابور[(٢)]. وبعد أن توسَّعت الدولة على حساب السلاجقة العظام في إيران قضت على دولتهم بعد وفاة سنجر في عام (٥٥٢هـ/ ١١٥٧م).

وخلف علاءُ الدين تكش بن شاه أرسلان خوارزمشاه أباه في عام (٥٦٨هـ/ ١١٧٢م)، وبدأت الدولة الخوارزمية في عهده تبرز تدريجياً على المسرح السياسي، فاستعان به الخليفة العباسي الناصر لدين الله للقضاء على سلاجقة العراق، وكانت هذه فرصة نادرة استغلها الزعيم الخوارزمي لمدِّ نفوذه نحو الغرب وتكوين دولة ذات كيان سياسي. وفعلاً التقى تكش بالسلطان السلجوقي طغرل بالقرب من الري في عام (٥٩٠هـ/ ١١٩٤م)، وانتصر عليه، وقُتل طغرل في المعركة، وأرسل تكش رأس غريمه إلى الخليفة العباسي[(٣)]. وبذلك حلَّت الدولة الخوارزمية محل الدولة السلجوقية في العراق.

وهكذا صارت الدولة الخوارزمية تتسع شيئاً فشيئاً على حساب الأقاليم المجاورة حتى بلغت أقصى اتساعها في عهد السلطان علاء الدين محمد خوارزمشاه، الذي خلف أباه تكش في عام (٥٩٦هـ/ ١١٩٩م)[(٤)]، والسلطان محمد هو الذي كان يعاصر جنكيز خان، وقد اتصف بالطموح والشره، وانتهج سياسة قائمة على الشقاق والنزاع مع الدول الإسلامية المجاورة ومحاولة ضمِّها الواحدة بعد الأخرى.

---

(١) ابن الأثير: جـ٨، ص٤١٠، ٤١١.

(٢) نيسابور: مدينة عظيمة بينها وبين مرو سبعون فرسخاً. الحموي: جـ٥ ص١١٣.

(٣) ابن الأثير: جـ٩ ص٣٧٢، جـ١٠ ص١٢٧، ١٢٨.

(٤) المصدر نفسه: ص١٧٠، ١٧١.

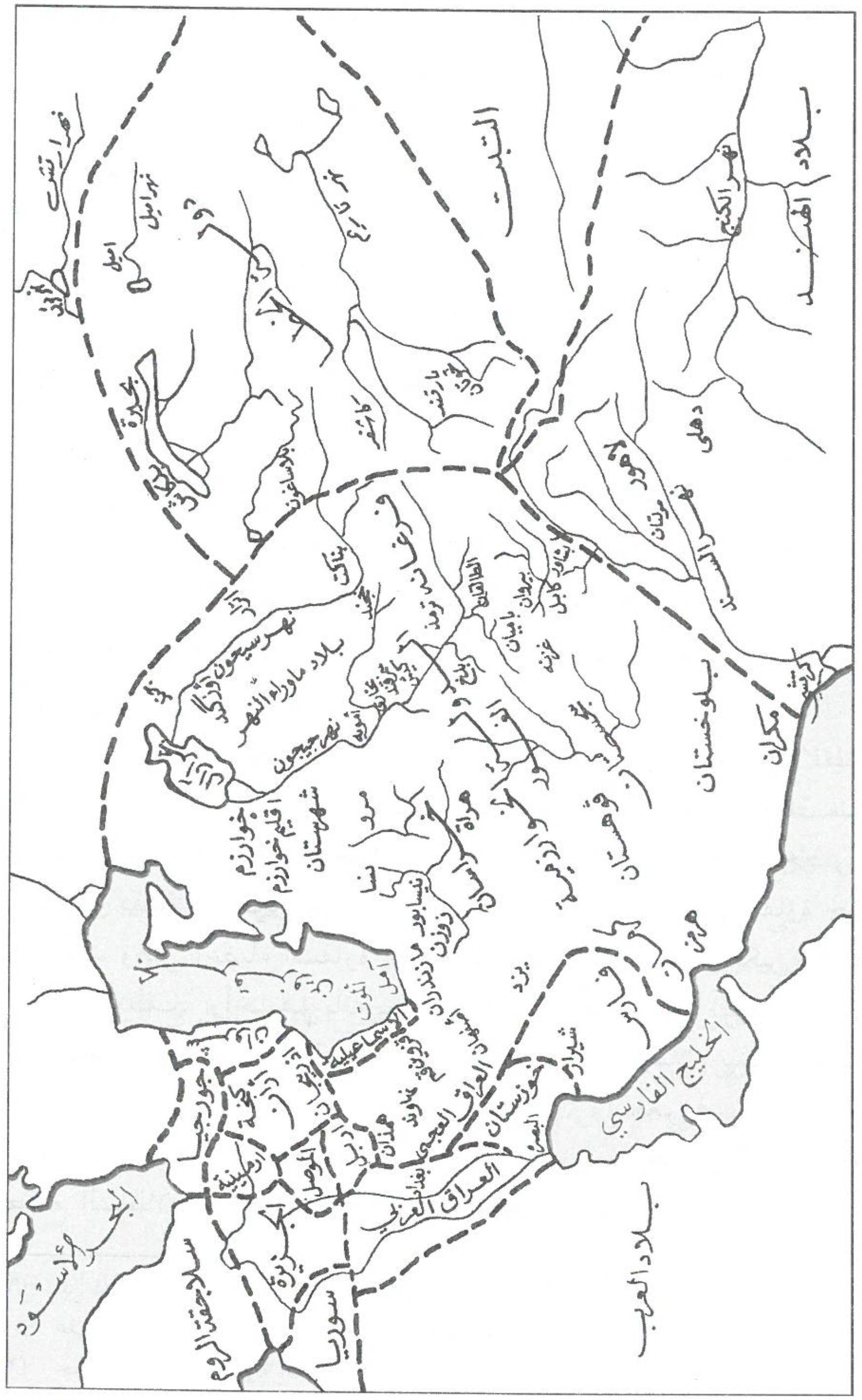

الدولة الخوارزمية في أقصى اتساعها

عن فؤاد عبد المعطي الصياد: المغول في التاريخ ص٣٩٩.

تدهور العلاقات بين المغول والخوارزميين

أخذ الخوارزميون، في عهد السلطان علاء الدين محمد، يتدخلون في شؤون الخلافة العباسية للسيطرة عليها، لكن الخليفة العباسي الناصر لدين الله تصدَّى لطموحاتهم، وهداه تفكيره إلى الاستعانة بالمغول[1]، فكتب إلى جنكيز خان يعرض عليه مهاجمة الدولة الخوارزمية من الشرق في الوقت الذي يهاجمها هو من الغرب[2]، ولكن على الرغم من وصول هذه الرسالة إلى المغول، فإنها لم تكن السبب في غزو جنكيز خان للدولة الخوارزمية، إذ في الوقت الذي وصلت فيه، كان الخان المغولي قد توسَّع لجهة الغرب حتى تاخمت أراضيه حدود الدولة الخوارزمية، كما ذكرنا.

والواقع أن جنكيز خان لم يشأ أن تكون علاقته بجيرانه الخوارزميين قائمة على القوة، ورأى أن مشكلاته في شرقي آسيا، واضطراره إلى توطيد نفوذه في الصين، تحول بينه وبين إشعال الجبهة الغربية، لذلك هداه تفكيره إلى عقد معاهدة تجارية مع الدولة الخوارزمية، وردَّ المبعوث الخليفي خائباً بقوله: «إني لست في حرب مع السلطان محمد»[3].

وكان السلطان علاء الدين محمد قد اجتذبته ثروة الصين، فطمع في الاستيلاء على هذا البلد وضمِّه إلى أراضي دولته، لكن جنكيز خان سبقه إلى ذلك. وكانت رغبته في التحقق من صدق هذه الأنباء، وفي الحصول على معلومات دقيقة عن قوة المغول هي السبب الأبرز في إرسال سفارة خوارزمية إليه. وقد وصل أعضاء السفارة إلى جنكيز خان عقب سقوط بكين، فاستقبلهم بمظاهر العطف، وأخبرهم بأنه يعدُّ محمد خوارزمشاه سيد المغرب في الوقت الذي يعدُّ نفسه سيد المشرق، وأنه يرغب في إحلال السلام بينهما، وأن يتمتع التجار بحرية الانتقال من بلد إلى بلد آخر. والمعروف بأن التجارة مع الشعوب الحضرية كانت دائماً ذات أهمية قصوى للرُّحل، لكن لم تتوفر بين مطامع السلطان الخوارزمي السياسية، من جهة، ومصالح تجار بلاده، من جهة

(١) ابن الأثير: جـ١٠ ص٢٨٧، ٢٨٨، ٢٩٢، ٢٩٣، ٢٩٩ - ٣٠١. النسوي، محمد بن أحمد بن علي: سيرة جلال الدين منكبرتي: ص٥٣، ٥٤.
(٢) حمدي، حافظ: الدولة الخوارزمية والمغول: ص٨١.
(٣) المرجع نفسه.

أخرى، هذه الروح التجارية مع البدو، ولم يضع في حسابه، حين أرسل السفارة إلى جنكيز خان، المصالح التجارية لبلاده على الرغم من أنها كانت واسعة جداً[1].

وتنفيذاً لهذه السياسة التي رأى جنكيز خان انتهاجها مع السلطان محمد خوارزمشاه، أرسل سفارة وقافلة تجارية إلى الغرب رداً على سفارة الزعيم الخوارزمي على رأسها ثلاثة من التجار المسلمين هم محمود الخوارزمي وعلي خواجة البخاري، ويوسف كتكا الأتراري، وحمَّلهم الهدايا الثمينة. وفي ربيع عام (٦١٥هـ/١٢١٨م) وصل هؤلاء التجار إلى بلاط السلطان في بخارى[2] بعد عودته خائباً من العراق وفشل حملته، التي جرَّدها للقضاء على الخلافة العباسية، وسلموه الرسالة[3].

عدَّ السلطان الخوارزمي المعتد بنفسه أن الرسالة تحمل في طياتها طابع التهديد والوعيد، وشعر بالإهانة عندما طلب منه جنكيز خان، بوصفه خاناً على الشعوب المغولية والتركية، أن يعدَّه كابنه «... وأنت عندي مثل أعز أولادي»، ويعني ذلك التبعية له[4]. غير أن كياسة محمود الخوارزمي الذي اجتمع بالسلطان بدَّدت حال الغضب عنده، وأعادته إلى حالته الطبيعية من الهدوء والاتزان، فَقَبِلَ أن يعقد معاهدة تحالف وصداقة مع جنكيز خان، وعاد أعضاء السفارة إلى البلاط المغولي وهم يحملون الردَّ بقبول الاتفاق[5].

وربما تأثر السلطان بما أسرَّه إليه محمود الخوارزمي عن قوة جنكيز خان واستيلائه على الصين وقضائه على كوشلوك خان وما تبقَّى من النايمان، فوافق على إبرام المعاهدة[6].

سُرَّ جنكيز خان بالمعاهدة، وراح يعمل على تأمين الطرق التجارية بين شرق أسيا وغربها، وإخضاع القبائل التي كانت تقطعها وتسلب ما يحمله التجار، وتزويد الطرق الرئيسة بحراسة دائمة لتأمين وصول التجار سالمين إلى

(١) بارتولد: ص٥٦٣، ٥٦٤.
(٢) بخارى: أعظم مدن ما وراء النهر وأجلُّها. الحموي: جـ١ ص٣٥٣.
(٣) انظر نص الرسالة في سيرة جلال الدين منكبرتي للنسوي: ص٨٣، ٨٤ مع التعليق الوارد في ذيل ص٨٤.
(٤) D'ohsson: I pp202, 203.
(٥) النسوي: ص٣٣.
(٦) الصياد: ص١٠١.

المعسكر المغولي[١].

والواقع أن الأطماع السياسية لمحمد خوارزمشاه، المتمثلة بالقضاء على المغول ووراثتهم، بدَّل هذه العلاقة الطيبة بعلاقة عدائية. فهو حين أرسل السفارة إلى جنكيز خان كان هدفه الاستطلاع، ولم يرغب بأي حال الدخول في علاقات تجارية مع منغوليا. وفي ظل هذه النظرة السياسية قام ثلاثة من التجار الخوارزميين من سكان بخارى برحلة إلى ممالك المغول للتجارة فأكرمهم جنكيز خان، ولما عزموا على العودة، أرسل معهم قافلة تحمل أمتعة مختلفة لتصحبهم إلى ممالك السلطان لتبادل التجارة هناك، وقد بلغ عدد أفرادها أربعمائة وخمسين رجلاً بقيادة أربعة من كبار التجار المسلمين، وقد كلَّف الخان المغولي أحد هؤلاء التجار بحمل رسالة خاصة إلى السلطان[٢].

وعندما وصلت القافلة إلى مدينة أوترار على الساحل الغربي لنهر سيحون[٣]، وهي أول بلدة تقع في مناطق نفوذ السلطان؛ أجهز عليهم ينال خان حاكم المدينة وابن خال السلطان، وقتل جميع أفراد البعثة التجارية بتهمة أنهم جواسيس، وسَلَبَ البضاعة[٤].

هناك روايات متناقضة عن مدى مسؤولية السلطان، إنما يمكن القول بأن قرائن الحادثة تشير إلى أن التجار كانوا ضحية جشع الوالي وارتياب السلطان[٥].

لم يكن بوسع جنكيز خان أن يتجاهل هذه الإثارة، غير أن ما اتصف به من الاتزان والتعقُّل، حمله على أن يرسل سفارة مؤلفة من ثلاثة رجال، إلى محمد خوارزمشاه للاحتجاج، وطلب منه تسليمه حاكم أوترار، لكن السلطان رفض الطلب، وتمادى حين أقدم على قتل أحد أفراد السفارة، ولم يُطلق سراح زميليه، وهما من المغول، إلا بعد أن حلق لحيتيهما، فقطع بذلك كل أمل في التفاهم مع المغول، وأضحت الحرب بيْن الطرفين أمراً لا مفر منه[٦].

(١) الجويني: جا ص٥٨، ٥٩.
(٢) المصدر نفسه: ص٥٩، ٦٠. النسوي: ص٨٥. وهؤلاء التجار هم عمر خوجا الأوتراري، وجمال المراغي، وفخر الدين الديزكي البخاري، وأمين الدين الهراثي.
(٣) تُعدُّ أوترار نقطة التقاء الطرق التجارية بين شرق آسيا وغربها.
(٤) الجويني: جا ص٦٠، ٦١. النسوي: ص٨٦. ابن الأثير: جـ٩ ص٢٣١.
(٥) المصادر نفسها.
(٦) الجويني: المصدر نفسه: ص٦١.

يبالغ بعض المؤرخين حين يضعون اللوم مطلقاً على السلطان محمد خوارزمشاه، فهو الذي سبَّب، بعمله هذا، الخراب والدمار، لنفسه وللممالك الإسلامية، وأن كل قطرة من دماء هؤلاء التجار، قد أجرت نهراً من دماء المسلمين، وكان القصاص لكل شعرة، مئات الآلاف من الرؤوس، وعوضاً عن كل دينار أخذه سيخسر القناطير[١].

الواقع أن الكارثة كانت آتية، إذ لم يكن هناك ما يحول دون وقوع غارة للمغول ضد الممالك الإسلامية، وأنه كان في نية جنكيز خان أن ينقضَّ على تلك الممالك حتى ولو لم تقع هذه الكارثة، وقد أعدَّ العدة بعد أن استولى على الصين الشمالية وقضى على النايمان؛ لإخضاع آسيا وأوروبا لسلطته، إذ لا يعقل أن المغول بعامة كانوا يكتفون بمركزهم في آسيا الوسطى، والقرائن تؤيد ذلك، فإن كل غازٍ لإقليم التركستان كان لا بد من أن يغير عاجلاً أو آجلاً على الهضبة الإيرانية[٢]، لكن تيسَّر حدوثها بواسطة ما عُرف عن السلطان الخوارزمي من طمع وتهور، فهو لم يبدِ اهتماماً بالتحقيق في هذه الكارثة، ورفض تسليم حاكم أوترار المسؤول المباشر عنها، كما أنه أقدم على قتل أحد رسل جنكيز خان وأهان الآخرين، ما أعطى هذا الأخير مبرراً للهجوم عليه.

استعدادات الحرب

جرت استعدادات الحرب من جانب جنكيز خان بعناية تامة. فقد كان فيما يبدو، يغالي في تقويم الطاقة العسكرية للسلطان الخوارزمي، ولعل مرد ذلك يعود إلى أنه استقى معلوماته عن الدولة الخوارزمية من التجار المسلمين الذين كانوا يظهرون السلطان محمد بأقوى مما كان عليه في حقيقة الأمر.

والواضح أنه كانت هناك مسألتان يتوجب على جنكيز خان معالجتهما قبل أن ينطلق للحرب.

الأولى: كان عليه أن يؤمِّن خطوطه الخلفية، وقد خشي من قيام بعض حكام المقاطعات باستغلال غيابه، للثورة عليه والاستقلال بما تحت أيديهم، لذلك استدعى الحكام الذين يعلم بطموحهم ومطامعهم للالتحاق بالجيش

(١) الجويني: جا ص٦١. (٢) الصياد: ص١٠٦.

بحجة أنه بحاجة إلى خدماتهم، كما أمر سائر الحكّام التابعين له بإرسال قوات للانضمام إلى جيشه، فأفرغ دولته من الجنود باستثناء ما أبقاه تحت قيادة موقلي الذي كان يتابع احتلال الصين الشمالية بالإضافة إلى أمراء ليائو الذين انهمكوا في إعادة الاستقرار خلف خطوط هذا القائد.

الثانية: كيفية نقل هذه القوات، التي بلغ عديدها نحو مائتي ألف جندي، من جوار بحيرة بايكال عبر جبال أواسط أسيا، إلى تركستان وفارس. والواقع أنه لم يساوره أي شك في قدرتها على السير إلى حيث تشاء[١].

وضع جنكيز خان خطة عسكرية تقضي بدخول بلاد ما وراء النهر من أربعة محاور، والانتشار في أوسع رقعة ممكنة، فقسَّم قواته من أجل ذلك إلى أربعة جيوش.

الأول: بقيادة ابنيه جغتاي وأوكتاي، ويبلغ عديده بين ثلاثين وأربعين ألف جندي، ووجهته مدينة أوترار.

الثاني: بقيادة ابنه الأكبر جوجي، ويبلغ عديده نحو ثلاثين ألف جندي، ومهمته الاستيلاء على المدن الواقعة على نهر سيحون، وبخاصة مدينة جَنَد إحدى الحصون الهامة الواقعة على هذا النهر.

الثالث: تألَّف من خمسة آلاف جندي بقيادة ثلاثة من قادة المغول هم آلاق نويان، وسُقُتر وثغاي، ومهمته الاستيلاء على مدينتي بنكت وخجند، وهما من المنافذ المهمة على نهر سيحون، بالإضافة إلى المناطق الواقعة وسط وجنوبي مجرى النهر.

الرابع: يتكوَّن من معظم أفراد الجيش بقيادة جنكيز خان نفسه، ومعه ابنه الأصغر تولوي، ومهمته الاستيلاء على وسط بلاد ما وراء النهر وبخاصة بخارى وسمرقند، بالإضافة إلى قطع الاتصالات بين السلطان القابع في عاصمته سمرقند وفرقه المنتشرة في المنطقة[٢].

سقوط أوترار

تحركت الجيوش المغولية في (أواخر عام ٦١٥هـ/ خريف عام ١٢١٨م) في طريقها إلى بلاد ما وراء النهر. ولما لم يتمكّن السلطان محمد خوارزمشاه من

(١) صفا: ص٢٢٢.

(٢) المستوفي القزويني، حمد الله: تاريخ گزيدة: ص٤٩٤. D'ohsson: I pp217-219.

معرفة المكان الذي ستتوجَّه إليه، وزَّع جيشه البالغ أربعمائة ألف جندي على المدن الهامة مثل بخارى وسمرقند، وعلى القلاع الرئيسة المنتشرة على طول نهر سيحون شرقاً وممرات فرغانة في الغرب، وقد أضعف هذا التوزيع قدرة الجيش الخوارزمي على الرغم من تفوقه العددي.

كانت مدينة أوترار أول مدينة هاجمها المغول، فقد ضرب الجيش الأول حصاراً مركَّزاً عليها. كان يدافع عن المدينة حامية مؤلفة من خمسين ألف جندي بقيادة ينال خان بالإضافة إلى عشرة آلاف بقيادة قراجة، حاجب السلطان محمد[١]. وعلى الرغم من أن هذه القوة المدافعة على جانب كبير من الكفاءة القتالية والقدرة على الصمود، إلا أن الذعر الذي استولى على السكان حين ظهر المغول، بالإضافة إلى نشوب الخلاف بين القادة بشأن استمرار المقاومة؛ أضعف القدرة على الصمود. فقد غادر قراجة المدينة مع أتباعه، وذهب إلى المعسكر المغولي، فشك كل من جغتاي وأوكتاي بنواياه وقتلاه مع جنوده جميعاً[٢].

عمد ينال خان إلى تحصين المدينة والدفاع عنها، لأن القضية كانت بالنسبة له قضية حياة أو موت، فهو يعلم مصيره جيداً إذا ما اقتحم المغول المدينة وقبضوا عليه. استمر حصار المدينة خمسة أشهر تخلَّلته مناوشات بين الطرفين كانت عنيفة أحياناً، غير أن المغول ما لبثوا أن استولوا عليها عنوة، فنهبوها وقتلوا جميع سكانها انتقاماً. واحتمى ينال خان بقلعتها، ولما وجد نفسه وحيداً ومحاصراً من كل جانب قذف بنفسه إلى سطح أحد المنازل، فتبعه جنديان مغوليان، وهو لا يملك أن يدافع عن نفسه إلا بقذفهما بالحجارة، إلى أن وقع في أيديهما. وقاده الأخوان جغتاي وأوكتاي إلى معسكر أبيهما أمام سمرقند، فنكَّل به، وأمر بأن تُصهر الفضة وتُسكب في عينيه وأذنيه حتى مات بهذه الطريقة الشنيعة[٣].

سقوط جند

توجَّه الجيش الثاني بقيادة جوجي إلى المدن الواقعة على نهر سيحون لاقتحامها وتطهير الطرف الشمالي من النهر، فاستولى على سغناق

(١) الجويني: جا ص٦٤. (٢) المصدر نفسه: ص٦٥.

(٣) المصدر نفسه: ص٦٦. D'ohsson: I pp219-221. Howorth: I p76.

عنوة[1]، وتبعد أربعة وعشرين فرسخاً عن أوترار، ثم زحف باتجاه مدينة جَنَد، إحدى الثغور الهامة على هذا النهر، واستولى في طريقه على كثير من الحصون والمواقع. وما إن اقترب من المدينة حتى تخلَّت حاميتها الخوارزمية عنها وغادرتها تاركة للسكان أمر الدفاع عن مدينتهم. وأرسل جوجي رسولاً إليهم يدعوهم إلى الاستسلام، فانقسموا بين مؤيد ومعارض. وحاصرهم المغول وهم على هذا الحال حتى سقطت المدينة في (صفر ٦١٧هـ/ نيسان ١٢٢٠م) بعد أسبوع، فأخرجوا السكان منها ودمَّروها وقتلوا الذين عارضوا الاستسلام، وعفوا عن الباقين، وسار جوجي بعد ذلك قاصداً إقليم خوارزم[2].

سقوط بنكت وخجندة

في الوقت الذي كان فيه الجيش المغولي الثاني يستولي على المدن الواقعة في الحوض الأسفل لنهر سيحون، اندفع الجيش الثالث إلى القسم الأعلى للنهر للاستيلاء على منطقة فرغانة[3]، فحاصر مدينة بنكت الواقعة على هذا النهر، مدة ثلاثة أيام، ثم دخلها صلحاً بعد استسلام سكانها، فقتل قادته كل الذين حملوا السلاح ضد المغول واسترقوا من بقي منهم، وضموا إليهم أصحاب المهن والحرف والفنانين والمثقفين للاستفادة من خبراتهم[4].

وتلقى هذا الجيش تعزيزات عسكرية قبل أن يزحف نحو مدينة خجندة الواقعة إلى الجنوب من بنكت. وكانت هذه المدينة قد أُقيمت في مكان يتفرع عنده نهر سيحون إلى فرعين، وقد أبدت مقاومة غير متوقعة بفعل موقعها الطبيعي من جهة وشجاعة حاكمها الخوارزمي تيمور ملك من جهة أخرى، غير أن الضغط العسكري كان شديداً بحيث اضطر هذا الأخير إلى مغادرتها مع ألف من أتباعه إلى جزيرة نائية وسط النهر. وحاول المغول بناء جسر يربط البر بالجزيرة للعبور إليه والقبض عليه، إلا أنهم فشلوا في ذلك بفعل المقاومة الضارية التي واجهوها. وأدرك تيمور ملك أخيراً عدم جدوى المقاومة،

(١) بارتولد: ص٥٨٩. وسغناق هي مدينة تركستان الحالية.
(٢) الجويني: جـ١ ص٦٧ ـ ٧٠.
(٣) فرغانة: مدينة وكورة واسعة بما وراء النهر متاخمة لبلاد تركستان. الحموي: جـ٤ ص٢٥٣.
(٤) الجويني: جـ١ ص٧٠، ٧١.

واضطر تحت ضغط القتال والحصار إلى الفرار، فسار إلى خوارزم ومنها توجه إلى خراسان، فانضم إلى قوات السلطان في شهرستان بالقرب من نسا، وسقطت المدينة في أيدي المغول[1].

سقوط بخارى

وسار الجيش الرابع بقيادة جنكيز خان من أوترار جنوباً إلى بخارى، فاستولى في طريقه على بعض المدن، منها زرنوق، إلى الشمال من بخارى، وقد غيَّر اسمها إلى قتلق بالق، أي المدينة السعيدة، ونور، ولما وصل إلى بخارى ضرب عليها حصاراً مركزاً، وقد دافعت عنها حاميتها المؤلفة من عشرين ألف جندي، وبرز من قادتها إينانغ خان الحاجب، وسونغ خان، واختيار الدين كشلي أمير آخور السلطان المسؤول عن الاصطبلات وكوك خان[2].

وبعد ثلاثة أيام من الحصار قرَّر أفراد الحامية مغادرة المدينة، فخرج أفرادها تحت قيادة إينانغ خان، وشقوا طريقهم وسط القوات المغولية، غير أنهم تعرَّضوا للمطاردة ولم ينجُ منهم إلا إينانغ خان في شرذمة قليلة[3]، وكوك خان الذي احتمى بالقلعة.

ولما وجد السكان أنفسهم بلا جيش يحميهم ويدافع عنهم، دبَّ الذعر بينهم وقرروا الاستسلام، فأرسلوا وفداً إلى المغول، برئاسة القاضي بدر الدين، فأجابهم جنكيز خان إلى طلبهم. ودخل المغول المدينة في (٤ ذي الحجة ٦١٦هـ/ ١٠ شباط ١٢٢٠م)[4]، أما القلعة فقد استمرت تقاوم مدة اثني عشر يوماً على الرغم من أن عدد أفراد حاميتها لم يزد على أربعمائة جندي، كان من بينهم كوك خان الذي أظهر ضروباً من البسالة. وبعد سقوط القلعة تمَّ القضاء على كل المدافعين عنها، وأُجبر جميع التجار والأغنياء، بعد ذلك،

(١) ترك تيمور ملك، بعد مدة، السلطان محمد الخوارزمي ورحل إلى الشام متنكراً بزي درويش، وعندما هدأت الأوضاع عاد إلى فرغانة وأقام بها عدة أعوام، وكان يتردَّد على خجندة، فشاع أمره وقُتل على يد رجل مغولي انتقاماً. الجويني: جـ١ ص٧١ ـ ٧٤.
(٢) المصدر نفسه: ص٧٥ ـ ٨٠. ابن العبري، أبو الفرج جمال الدين: تاريخ الزمان: ص٢٥٨.
(٣) الجويني: جـ١ ص٨٠. ابن الأثير: جـ١ ص٣٣٩.
(٤) ابن الأثير: المصدر نفسه.

على ردِّ الفضة التي اشتروها من خوارزمشاه عقب كارثة أوترار. وأخيراً اضطر السكان إلى مغادرة المدينة، ونُهبت ممتلكاتهم على أيدي المغول[1].

ولفت نظر جنكيز خان مسجد المدينة الضخم، فدخله بفرسه ووقف بإزاء المنبر، وظَّنه، في بادئ الأمر، قصر السلطان، قبل أن يُخْبَرَ بأنه دار عبادة، فنهبه وداست سنابك خيله على أوراق القرآن الكريم، ثم جيء بالمغنيات والنبيذ، وأقيمت في المسجد حفلات السكر والعربدة، وأُجبر الأئمة والمشايخ والعلماء والأعيان بعلف الخيول والمحافظة عليها. وبعد الانتهاء من نهب المدينة أُضرِمت فيها النيران ولم يسلم منها سوى المسجد الجامع وبعض القصور المشيدة من اللبن المحروق[2].

والواقع أن بخارى تعرضت لمعاملة بالغة القسوة، ومرَّت بتجارب مريرة خلال هذه الغزوة، وأصبحت خاوية على عروشها كأن لم تُغنِ بالأمس. وعندما رأى الإمام علي زندي القرآن الكريم تدوسه خيول المغول بحوافرها صرخ بحزن ومرارة شاكياً لإحدى الشخصيات المسلمة، وهو ركن الدين إمام زادة، فما كان من ركن الدين إلا أن أجابه: «إصمت! إن غضب الله هو الذي نزل علينا وليس لنا من حول ولا قوة»، ثم اختار الموت على ذلك، فقاتل مع ابنه حتى قُتلا[3].

سقوط سمرقند

توجَّه جنكيز خان، بعد أن استولى على بخارى، إلى سمرقند، قصبة بلاد ما وراء النهر، وساق معه عدداً كبيراً من الأسرى من سكان بخارى لتسخيرهم في الأعمال العسكرية، وقد أجبرهم على السير راجلين وراء الفرسان، وكان القتل مصير كل من أعياه السير منهم بسبب مشقة الطريق، وأضاف إليهم الفلاحين وسكان القرى على طريق زحفه، ولم يصادف مقاومة تذكر سوى في قلعتين هما بوسي وساري بول، وهذا يعني أن القوات المغولية سارت على ضفتي نهر زرفشان[4].

كان السلطان محمد الخوارزمي يُعلِّق أهمية خاصة على الدفاع عن سمرقند،

(١) ابن الأثير: جـ١٠ ص٣٣٩. الجويني: جـ١ ص٨٠، ٨١.
(٢) المصدران نفساهما: ص٨٢، ٣٤٠. ابن العبري: ص٢٥٨، ٢٥٩.
(٣) ابن الأثير: جـ١ ص٣٤٠.
(٤) الجويني: جـ١ ص٩٢. ابن الأثير: جـ١٠ ص٣٤٠. بارتولد: ص٥٨٥.

كبرى مدن بلاد ما وراء النهر، فترك فيها جيشاً جراراً، بقيادة طغاي خان، بلغ تعداده مائة وعشرة آلاف مقاتل، كان منهم ستون ألفاً من الأتراك وخمسون ألفاً من التاجيك[1] ومعهم عشرون فيلاً[2]، وكانت المدينة جيدة التحصين وحولها سور محكم. وعلم جنكيز خان، وهو بأوترار، بهذه التفصيلات وتوقع مقاومة شديدة. وعلى هذا، فقد وضع خطة عسكرية تقضي:

- بتجميع كل قواته المتفرقة، عند سمرقند.
- إخضاع المناطق المحيطة بها لعزلها.
- قدَّم الفرسان ثم المشاة ثم الأسرى، الذين نظَّمهم على هيئة صفوف مجهزة للقتال، وأعطى كل عشرة منهم علماً ليعطي انطباعاً لسكان المدينة أنهم جزء لا يتجزأ من الجيش فيتسرَّب اليأس إلى نفوسهم ويدبُّ الذعر بينهم، فيسارعوا إلى الاستسلام.

وعندما وصل جنكيز خان إلى المدينة، ضرب حصاراً حولها، وراح يتفقَّد حصونها واستحكاماتها لمدة يومين. وخرجت في اليوم الثالث قوة خوارزمية من المدينة واشتبكت مع القوات المغولية، وانتهى الاشتباك بكارثة، إذ إن المغول كمنوا لأفرادها خارج المدينة ثم انقضوا عليهم وقتلوهم عن آخرهم، وعددهم سبعين ألفاً[3].

أدَّت هذه الضربة القاسية إلى إقدام من تبقَّى من الحامية على وقف القتال والاستسلام، وذهبوا إلى المعسكر المغولي. وعندما رأى السكان خلوَّ مدينتهم ممن يدافع عنها اضطروا بدورهم إلى الاستسلام على أن يؤمنهم جنكيز خان على حياتهم، وهكذا حضر شيخ الإسلام وقاضي المدينة لمقابلة جنكيز خان ومعهما رسالة الاستسلام، ثم فتحوا أبواب المدينة، ودخلها المغول في (١٠ محرم ٦١٧هـ/ ١٧ آذار ١٢٢٠م)، إلا أنهم لم يراعوا العهود والمواثيق. فأمر جنكيز خان السكان بالخروج من المدينة التي تعرَّضت للنهب، وقتل الذين لم يخرجوا، وأحرق قلعتها، وأبقى على حياة شيخ الإسلام وقاضي المدينة ومن

(١) التاجيك: لقب أطلقه الفرس على الأتراك، وفيما بعد على العرب، بمعنى اللصوص والمغيرين.
(٢) الجويني: جـ١ ص٩١. ابن العبري: ص٢٦٤، وقارن بابن الأثير الذي يذكر خمسين ألفاً من الخوارزمية: جـ١٠ ص٣٤٠.
(٣) ابن الأثير: المصدر نفسه.

كان تحت حمايتهما، ومعظمهم من رجال الدين، ثم سمح لخمسين ألفاً بالعودة إليها بعد أن دفعوا مائة ألف قطعة ذهبية، وقدَّر ابن العبري هذه الفدية بمائتي ألف دينار، وأجهز على الباقي كما قتل طغاي خان وأتباعه[١].

وهكذا استطاع جنكيز خان أن يستولي على بلاد ما وراء النهر كلها التي اتخذ منها الخوارزميون مركزاً هاماً للدفاع، ولم يترك لهؤلاء فرصة لالتقاط أنفاسهم، ما سهَّل للمغول بعد ذلك الاستيلاء على أقاليم الدولة الخوارزمية الأخرى من دون عناء.

نهاية السلطان محمد خوارزمشاه

ركَّز جنكيز خان جهوده، بعد أن استولى على بلاد ما وراء النهر، على مطاردة السلطان محمد الخوارزمي، فأرسل جيشاً للقبض عليه يتكوَّن من عشرين ألف جندي بقيادة جيبي وسوبوتاي. لم يكن بوسع السلطان أن يُبدي أية مقاومة، وبخاصة بعد أن ساءت أوضاعه السياسية والعسكرية بفعل الانهزامات المتتالية والصراع الداخلي بينه وبين بعض القادة العسكريين، ففرَّ هارباً مبرهناً عن عدم ثقته بنفسه وبقواته، وبدا عليه اليأس الذي ما لبث أن تسرَّب إلى قواته، فقصد نيسابور ثم توجَّه نحو العراق العجمي[٢] وبسطام[٣]، واجتاز الري[٤]، ثم ذهب إلى قلعة فرزين[٥]، حيث كان يعسكر ابنه ركن الدين غوشانجي في جيش قوامه ثلاثون ألف جندي، وبهذا سنحت له الفرصة للوقوف في وجه القوات المغولية التي تطارده، ولكنه لم يغتنمها بفعل الفزع الذي استولى عليه، ولم يمكث فيها أكثر من يوم، فغادرها سالكاً طريق بغداد، وأرسل نساءه مع ابنه غياث الدين إلى قلعة قارون، وقد راودته أفكار باللجوء إلى الخليفة العباسي الناصر لدين الله الذي كان عدوه بالأمس القريب

(١) الجويني: جـ١ ص٩٣ ـ ٩٦. ابن الأثير: جـ١٠ ص٣٤٠، ٣٤١. ابن العبري: ص٢٦٤. بارتولد: ص٥٨٧ ـ ٥٨٩. D'ohsson: I pp236-239.

(٢) عراق العجم هي منطقة الجبال المعروفة، باصطلاح العجم، بالعراق، وهي ما بين أصفهان إلى زنجان وقزوين وهمذان والدينور وقرميسين والري. الحموي: جـ٢ ص٩٩.

(٣) بسطام: بلدة كبيرة بقومس على جادة الطريق إلى نيسابور بعد دامغان بمرحلتين. الحموي: جـ١ ص٤٢١.

(٤) الري: هي طهران الحديثة.

(٥) فرزين: اسم قلعة على باب الكرج بين همذان وأصفهان. الحموي: جـ٤ ص٢٤٩.

علَّه يجد مخرجاً من هذا المأزق، غير أنه اضطر للعدول عن ذلك بفعل اقتراب مطارديه.

والواقع أن القوات المغولية المكلَّفة بمطاردته سارت من هراة[١] إلى خراسان[٢] ثم إلى طوس[٣]، واستولت في طريقها على الري، فأدرك القادة الخوارزميون أن لا فائدة من الدفاع، وانفضوا من حول السلطان، كلٌّ يريد النجاة بنفسه.

واختار السلطان اللجوء إلى إقليم مازندران[٤] جنوبي بحر قزوين، والتجأ إلى إحدى جزره، وكان السكان يزودونه بما يحتاج إليه من ضرورات الحياة، ولكن كان الإعياء قد بدا عليه والمرض اشتد به، فعاش شهراً في هذه الجزيرة في محنة وبلاء. وعندما شعر بدنو أجله، وعلم أن والدته تركان خاتون قد وقعت في أسر المغول، استدعى ابنه جلال الدين منكبرتي، وقد توسَّم فيه الرجل الوحيد القادر على لمِّ شعث الدولة الخوارزمية وحمايتها، وعيَّنه خلفاً له، ثم قضى نحبه ودفن في الجزيرة في (٦١٧هـ/ ١٢٢٠م)، تاركاً لابنه ملكاً غير واضح المعالم[٥].

وعلى هذا الشكل كانت نهاية هذا السلطان الذي كان دوره ضعيفاً ومتخاذلاً في مواجهة المغول، بحيث أن هؤلاء نسوه تماماً، ولم يكن بمقدوره كحاكم أن يقاوم إلا كمغامر، غير أنه من المؤكد أن طبيعته لم تكن تؤهله للقيام بمثل هذا الدور، وهو دور توافق إلى حد كبير مع طباع ابنه وخليفته جلال الدين منكبرتي.

(١) هراة: مدينة عظيمة مشهورة من أمهات مدن خراسان. الحموي: جـ٥ ص٣٩٦.

(٢) خراسان: بلاد واسعة، أول حدودها مما يلي العراق، وآخر حدودها مما يلي الهند، وتشتمل على أمهات المدن منها نيسابور وهراة ومرو وبلخ وطالقان ونسا وأبيورد وسرخس وغيرها. المصدر نفسه: جـ٢ ص٣٥٠.

(٣) طوس: مدينة في خراسان بينها وبين نيسابور نحو عشر فراسخ، وهي مشهد الحالية. المصدر نفسه: جـ٤ ص٤٩.

(٤) مازندران: اسم لولاية طبرستان، وهي بلاد واسعة، والغالب عليها الجبال، وقصبتها آمل، وهي بين الري وقومس والبحر وبلاد الديلم والجبل. المصدر نفسه: ص١٣.

(٥) الجويني: جـ٢ ص١١٢ الذي يذكر حادثة الوفاة في عام ٦١٨هـ، وقارن بابن الأثير الذي يذكرها في حوادث ٦١٧هـ: جـ١ ص٣٤٣. النسوي: ص٤٨. ابن العبري: ص٢٦٥. بارتولد: ص٦٠٣. حمدي: ص١٥٢.

سقوط خوارزم

كانت خطوة جنكيز خان التالية، السيطرة على إقليم خوارزم. فتقدم في خريف (٦١٧هـ ـ ١٢٢٠م) صوب ترمذ[١] واستولى عليها بعد حصار، وقتل جميع سكانها، وأمضى شتاء (٦١٧ ـ ٦١٨هـ/ ١٢٢٠ ـ ١٢٢١م) على ضفاف نهر جيحون[٢].

الواضح أن العمليات العسكرية التي جرت، حتى ذلك الوقت، كان مسرحها الأقاليم التي ضُمَّت إلى مملكة خوارزم في عهدي تكش ومحمد، ولم تمس خوارزم نفسها. لكن ما وقع من التنازع الأسري على الحكم، بالإضافة إلى معارضة الجيش لاعتلاء جلال الدين منكبرتي العرش؛ أدَّى إلى التشرذم. وتعذَّر تشكيل جبهة موحدة لمواجهة المغول والدفاع عن البلاد، ما دفع جنكيز خان إلى الإسراع بإرسال ما يزيد على مائة ألف جندي بقيادة ثلاثة من أبنائه هم، جوجي وجغتاي وأوكتاي، لاجتياح العاصمة الخوارزمية جرجانية، الواقعة قرب دلتا نهر جيحون على بحر آرال، وقد تعرَّضت لأسوأ أنواع المحن والشدائد والقتال الضاري، واقتحمها المغول أخيراً في (صفر ٦١٨هـ/ نيسان ١٢٢١م)، فقتلوا كل الرجال بوحشية بالغة وسبوا النساء والأطفال، ثم حطَّموا السد الذي يمنع ماء جيحون عنها، فانسابت المياه إلى داخلها وهدَّمت الأبنية، وأغرقت من أفلت من السكان أو هلك تحت الأنقاض. وساق المغول نحو مائة ألف من أصحاب الحرف والمهن إلى منغوليا، وعلى هذا الشكل سيطر المغول على إقليم خوارزم، ومنحه جنكيز خان لابنه جوجي[٣].

سقوط خراسان

أحاط المغول بإقليم خراسان بعد أن استولوا على إقليمي ما وراء النهر وخوارزم، وكان جنكيز خان حريصاً على الاستيلاء على بقية الأقاليم التي تكوَّن منها الدولة الخوارزمية، ومطاردة من بقي من زعمائها. فبعد أن استولى على ترمذ، عبر نهر جيحون، وتوجَّه نحو مدينة بلخ[٤]. لم تكن المدينة جيدة

(١) ترمذ: مدينة مشهورة من أمهات المدن، راكبة على نهر جيحون من جانبه الشرقي. الحموي: جـ٢ ص٢٦.
(٢) الجويني: جـ١ ص١٠٣ ـ ١٠٥. حمدي: ص١٥٢.
(٣) الجويني: جـ١ ص٩٦ ـ ١٠١. ابن الأثير: جـ١٠ ص٣٦٠، ٣٦١. ابن العبري: ص٢٦٤، ٢٦٥.
(٤) بلخ: مدينة مشهورة بخراسان.

التحصين، فاستسلمت طوعاً، ولم يتعرَّض جنكيز خان لها بنهب ولا قتل، إلا أنه نكث بوعده فيما بعد وأمر بقتل جميع سكانها عقاباً لهم على تمرُّد أعقب الاستسلام[١].

سار جنكيز خان، بعد استيلائه على بلخ، نحو الطالقان[٢] بهدف إخضاع المدن الواقعة في أعالي نهر جيحون، وعهد إلى ابنه تولوي بمهمة الاستيلاء على خراسان، ووضع تحت إمرته جيشاً مؤلفاً من سبعين ألف جندي[٣].

اتخذت الأوضاع في خراسان، عقب رحيل السلطان محمد الخوارزمي، الاتجاه ذاته الذي اتخذته في خوارزم؛ فقد سيطر الطامحون والمغامرون على السلطة في المدن المختلفة. وفي ظل هذه الظروف استطاع تولوي أن يستولي على المدن الثلاث الكبرى في خراسان، مرو في (محرم ٦١٨هـ/ شباط ١٢٢١م) ونيسابور في (صفر/ نيسان)، وهراة، وبعد ثمانية أيام من سقوط المدينة الأخيرة، تلقَّى أمراً من والده ليلحق به عند مدينة الطالقان في أعالي نهر جيحون[٤].

الحرب بين جنكيز خان والسلطان جلال الدين منكبرتي

وجَّه جنكيز خان، وهو في طريقه إلى الطالقان، فرقة عسكرية للاستيلاء على المعاقل الواقعة في الأطراف الشمالية لجبال هندوكوش، بينما تولى بنفسه حصار حصن منصور كوه، القريب من الطالقان، واقتحمه بعد عشرة أشهر، فقتل المشاة وسبى النساء والأطفال ونهب الأموال والأمتعة، ونجا الخيالة الذين سلكوا الجبال والشعاب[٥].

لم يستغل السلطان جلال الدين منكبرتي المقاومة التي أبداها المسلمون في الحصن لكي يتصدَّى للمغول، ويبدو أن لذلك علاقة بمدى ما نشب من نزاع بين الترك والأفغان في جيشه، ووجد نفسه عاجزاً عن الاصطدام بهم بجيوشه

(١) الجويني: جـ١ ص١٠٣ ـ ١٠٥. ابن الأثير: جـ١٠ ص٣٥٧.
(٢) الطالقان: بلدتان إحداهما بخراسان بين مرو الروذ وبلخ، والأخرى في طخارستان. الحموي: جـ٤ ص٦.
(٣) الجويني: جـ١ ص١١٧.
(٤) المصدر نفسه: ص١٤٠. ابن الأثير: جـ١٠ ص٣٦٠، ٣٦٢. D’ohsson: I p292.
(٥) ابن الأثير: جـ١٠ ص٣٥٧، ٣٥٨. Ibid: p293.

المفكَّكة والمنقسمة على نفسها، وفَضَّل الذهاب إلى غزنة، حاضرة الإقليم المسمى بهذا الاسم، فرَّحب به السكان والتفوا من حوله، وقدم عليه الجنود الخوارزميون المشتَّتون في النواحي، فكوَّن من الجميع جيشاً بلغ تعداده ستين ألفاً من المشاة وسبعين ألفاً من الفرسان[١].

وأخضع جنكيز خان، في غضون ذلك، مدينة الطالقان وقتل سكانها لأنهم قاوموه، وعلم وهو فيها بأن السلطان جلال الدين منكبرتي وصل إلى غزنة وهو مرابط فيها، فسار إليه، وحاصر في طريقه قلعة باميان، الواقعة على أحد فروع نهر جيحون، فقاتله سكانها قتالاً شديداً، وحدث أن قتل حفيده ماتيكان بن جغتاي أثناء القتال، وكان يؤثره ويحبه حباً جماً، فعظمت المصيبة في نفسه، وملأ الغيظ قلبه، وعندما اقتحم المدينة عنوة انتقم من سكانها بأن قتلهم جميعاً، وطال القتل الدواب، ثم دكَّها ودعاها موباليق أي المدينة الملعونة[٢].

وفي الوقت الذي كان فيه جنكيز خان ينعم بثمرة انتصاره في باميان، تلقَّى خبراً بانتصار السلطان جلال الدين منكبرتي على إحدى فرقه العسكرية في السهول المحيطة بمدينة بروان شمالي غزنة، وكانت تحاصر قلعة واليان في طخارستان[٣]. وعندما علم بنبأ هذا الهجوم، أرسل جيشاً على وجه السرعة يُقدَّر بثلاثين ألف جندي، بقيادة شيكي كوتولا، لحرب السلطان الخوارزمي. واشتبك الطرفان في رحى معركة ضارية على بُعد فرسخ من بروان استمرت يومين وأسفرت عن انتصار السلطان. وتشتَّت الجيش المغولي إثر المعركة التي تُعدُّ أكبر انتكاسة أصابت المغول في هذه الحرب، وانتقم الخوارزميون من المغول انتقاماً شديداً[٤].

كانت النتيجة الفورية لانتصار المسلمين أن رفع المغول الحصار عن قلعة واليان، كما ثار سكان بعض المدن ضد الحكم المغولي، فقتلوا الولاة المغول وصبوا جام غضبهم على الأسرى، لكن المغول سرعان ما استعادوا زمام السيطرة وانتقموا من المسلمين[٥].

(١) ابن الأثير: جـ١٠ ص٣٦٢. النسوي: ص٦٣ ـ ٦٥، ٨٠. D'ohsson: I pp297-300.
(٢) الجويني: جـ١ ص١٠٥. Ibid: pp294, 295.
(٣) المصدر نفسه. النسوي: ص٨١.   (٤) النسوي: ص٨٠، ٨١.
(٥) المصدر نفسه: ص٨١. ابن الأثير: جـ١ ص٣٦٠، ٣٦٢. D'ohsson: I pp311-314.

وإذ سقطت الطالقان، أضحى بوسع جنكيز خان أن يزحف بكل قواته لمواجهة السلطان جلال الدين منكبرتي، غير أن ما حدث من نزاع بين قادة هذا الأخير، بشأن اقتسام الغنائم عقب معركة بروان، منعه من أن يلتقي بالمغول في معركة حاسمة، إلا أنه كان بوسعه إعاقتهم في دروب جبال هندوكوش، ومع ذلك لم يلجأ إلى تنفيذ هذه الخطة، واكتفى بالارتداد أمام زحفهم حتى بلغ شاطئ نهر السند[١].

ودخل جنكيز خان مدينة غزنة بعد أن أخلاها السلطان وعيَّن عليها حاكماً من قبله، ثم مضى مسرعاً يتعقبه، وحين وصلت طلائعه إلى نهر السند كان السلطان يُعدُّ السفن لعبور النهر، فاضطر إلى خوض معركة لم يكن مستعداً لها، وذلك في (شوال ٦١٨هـ/ تشرين الثاني ١٢٢١م)، ومع ذلك نجح في أن يشق له طريقاً وسط الجموع المغولية، فعبر النهر ويمَّم وجهه صوب الهند مع عدد من أتباعه، وانتقم جنكيز خان من سكان غزنة فقتلهم جميعاً باستثناء أرباب الحرف والصناعات، ودمَّر المدينة[٢].

لم يشأ جنكيز خان أن يعبر السند وراء السلطان، ولكنه أرسل، في العام التالي، فرقة عسكرية مؤلفة من عشرين ألف جندي لتعقُّبه، غير أنها لم تتجاوز الملتان[٣] ثم عادت على أعقابها بفعل شدة الحر، واقتصرت العمليات العسكرية خلال عام (٦١٩هـ/ ١٢٢٢م) على حصار القلاع الجبلية وإخضاعها[٤].

كان إقليم غزنة آخر الأقاليم التي خضعت للمغول، لأن جنكيز خان آثر العودة إلى منغوليا بسبب ثورة التانغوت في شمالي الصين والتيبت. وهكذا غادر الأقاليم الغربية في عام (٦١٩هـ/ ١٢٢٢م) وهي خاوية على عروشها بعد موجة التدمير والقتل التي أحدثها، من دون أن يخضعها بشكل نهائي، غير أن الحكم المغولي في إقليمي ما وراء النهر وخوارزم قد استقر نهائياً، وقد نصَّب عليهما حكاماً مدنيين[٥].

(١) ابن الأثير: جـ١٠ ص٣٦٣.
(٢) المصدر نفسه. الجويني: جـ١ ص٨٣ ـ ٨٦. ابن العبري: ص٢٦٦.
(٣) الملتان: مدينة من نواحي الهند قرب غزنة. الحموي: جـ٥ ص١٨٩.
(٤) D'ohsson: I pp309, 310.   (٥) حمدي: ص١٢٢.

التسرب المغولي إلى أوروبا

حملة المغول ضد الأقاليم الشمالية الغربية وجنوبي روسيا

ذكرنا أن جنكيز خان أرسل حملة لمطاردة السلطان محمد الخوارزمي بقيادة القائدين جيبي وسوبوتاي، ورأينا كيف استطاع السلطان أن يفلت من قبضتيهما، هذا وقد فتحت هذه الحملة أعينهما على الغرب وإمكان التوغل فيه، فاستمرا في السير غرباً في حملة كانت حتى الآن استكشافية، إنما ذات فائدة مستقبلية.

وفي أثناء سيرهما استخرجا الجزية من المدن التي خضعت لهما، ولكن كل مدينة لم تستسلم تعرضت للنهب والسلب، وهكذا اقتحما مازندران، الواقعة جنوبي بحر قزوين، والري وهمذان وزنجان وقزوين، فسيطروا بذلك على العراق العجمي[(١)].

تطلع القائدان المغوليان بعد ذلك إلى الاستيلاء على أتابكية أذربيجان، وهي تحت حكم الأتابك أوزبك بن البهلوان الطاعن في السن، ففضّل مسالمة المغول وغمرهم بالهدايا. ودخل هؤلاء العاصمة تبريز، وقبل أوزبك أن يكون تابعاً لهم، وقاومتهم مدينة بيلقان من بلاد أرّان فاقتحموها وقتلوا جميع سكانها[(٢)].

توَّجه المغول بعد ذلك شمالاً باتجاه سهول موقان على الساحل الغربي لبحر قزوين، وكان من المتوقع أن يمضوا فصل الشتاء في هذه الجهات لأن الجو أكثر اعتدالاً، وبفعل غنى المنطقة بالمراعي، غير أنهم ساروا إلى بلاد الكرج في (ذي الحجة ٦١٧هـ/ شباط ١٢٢١م) فخرج عشرة آلاف من الفرسان الكرجيين وعلى رأسهم الملك جورج الثالث، لمقاتلتهم بهدف الدفاع عن العاصمة تفليس. وجرى اللقاء في سهل خوتان جنوبي العاصمة، وأسفر عن انتصار واضح للمغول وتعرَّض الجيش الكرجي للدمار. ومكث المغول هناك بانتظار انقضاء فصل الشتاء[(٣)].

أدرك الكرجيون أن المغول سوف يستأنفون حملاتهم في الربيع، وأنهم لا طاقة لهم بمقاومتهم منفردين، لذلك سعوا إلى عقد حلف بينهم وبين أتابكية

---

(١) ابن الأثير: جـ١٠ ص٣٤٤، ٣٤٥. D'ohsson: I p325. Howorth: I p93.

(٢) المصدر نفسه: ص٣٤٦، ٣٥٢.

(٣) المصدر نفسه: ص٣٤٦. D'ohsson: I p326.

أذربيجان والملك الأشرف ابن العادل الأيوبي صاحب خلاط[(١)] وديار الجزيرة الفراتية، واتفقوا جميعاً على مهاجمتهم عند حلول فصل الربيع، غير أن الملك الأشرف اضطر إلى مغادرة المنطقة إلى مصر لصدِّ الصليبيين الذين نزلوا في دمياط وشكَّلوا خطراً مباشراً على قلب الدولة الأيوبية، وأشار إلى أنه انتدب أخاه غازي، صاحب الرها[(٢)]، للدفاع عن خلاط، وإذا دعت الحاجة، فإنه سينهض لمواجهة المغول[(٣)].

ويبدو أن القائدين المغوليين تنبها لما يُحاك ضدهما، فهاجما أذربيجان للمرة الثانية لينتقما من سكانها الذين ساعدوا الحلف الذي كان يهدف إلى القضاء عليهما، فاستسلم سكان تبريز وتعهدوا بدفع جزية كبيرة، وقاوم سكان مراغة، فحاصرهم المغول واقتحموا المدينة في (٤ صفر ٦١٨هـ/ ٣٠ آذار ١٢٢١م) وقتلوا كل سكانها، ثم عادوا إلى همذان التي رفضت دفع الغرامة المفروضة عليها، فاقتحموها ونهبوها وقتلوا كل سكانها، وكذلك فعلوا بأردبيل[(٤)]، ثم توجهوا إلى أتابكية إربل[(٥)].

أثارت أعمال المغول الانتقامية قلق الخليفة العباسي الناصر لدين الله الذي خشي أن يتحول هؤلاء إلى العراق العربي، لذلك سعى إلى عقد حلف إسلامي يقف في وجههم[(٦)].

توجَّه جيبي وسوبوتاي بعد ذلك إلى بلاد الكرج لتأديبهم، فباغتوهم وتوغلوا في أراضيهم حتى وصلوا إلى مدينة تفليس حاضرة الإقليم[(٧)].

الانسياب المغولي باتجاه روسيا

وضع القائدان المغوليان خطة في منتهى الجرأة، فقد قرَّرا الاندفاع إلى أراضي مجهولة بالنسبة إليهما هي الأراضي الأوروبية. وإذ انحازت إليهما بعض جماعات التركمان والأكراد بقيادة أقوش، وهو مملوك تركي من مماليك

---

(١) خلاط: قصبة أرمينيا الوسطى، ولها بحيرة مشهورة. الحموي: جـ٢ ص٣٨٠، ٣٨١.

(٢) الرها: مدينة بالجزيرة بين الموصل والشام، بينهما ستة فراسخ. المصدر نفسه: جـ٣ ص١٠٦.

(٣) ابن الأثير: جـ١٠ ص٣٤٦، ٣٦٤، ٣٦٥.

(٤) أردبيل: من أشهر مدن أذربيجان. الحموي: جـ١ ص١٤٥.

(٥) إربل: مدينة من أعمال الموصل، بينهما مسيرة يومين. المصدر نفسه: ص١٣٨.

(٦) ابن الأثير: جـ١٠ ص٣٤٨ ـ ٣٥٠. (٧) غروسيه: ص٣٤٤.

أوزبك، شقًّا طريقهما وسط ممرات القوقاز، فعبرا دربند شروان، وهو باب الأبواب الواقع بين سلاسل جبال داغستان التي تؤلف آخر الحاجز القوقازي، واصطدما بالشعوب القوقازية الجبلية من الشركس واللان والآس والليسغينيين والقبجاق، التي تصدَّت لهما، وتغلبا عليهم[١].

عند هذه النقطة من الزحف المغولي باتجاه الشمال الغربي بدت أراضي روسيا أمام الجيش المغولي، وكانت هذه البلاد منقسمة إلى إمارات عدة فيما وراء فاركوف وكييف حتى كانيف، ولم يكن الروس يعلمون شيئاً عن المغول قبل ذلك، وإن الانطباع الأول لديهم أن الله أرسلهم لتخليصهم من قبائل القبجاق في شمالي القوقاز الذين كانوا يغيرون عليهم، وأطلقوا عليهم اسم تارتار وتورمان ـ تركمان ـ وبشناق[٢].

والواقع أن الخطر المغولي وحَّد شعوب المنطقة، فتعاون الروس مع القبجاق للتصدي لزحف المغول. وبفضل مصاهرة الأمير الروسي ميتسلاف، أمير كييف، لكوتان خان، الزعيم القبجاقي[٣]، حصل القبجاق على مساعدة ثلاثة من الأمراء الروس هم أمير كييف وأمير تشيرنيكوف وأمير غاليسيا، وحاول القائدان المغوليان فكاك هذا التحالف إلا أن الأمراء الروس لم يقتنعوا بما حمله رسلهما العشرة من اقتراحات بالمصالحة والسلم والتحالف مع المغول وانتهاز الفرصة للانتقام من القبجاق لما تسببوا به من السلب والنهب في السابق. وأثار الرسل المغول حتى النعرة الدينية بأن أوضحوا أن المغول لهم الأفضلية في المحالفة لأنهم يعبدون رباً واحداً وليسوا وثنيين كالقبجاق؛ فأعدموهم جميعاً[٤]. وهكذا تكرَّر الخطأ نفسه الذي اقترفه السلطان الخوارزمي قبل أربعة أعوام والذي أدَّى إلى نزول الكوارث بالدولة الخوارزمية.

وتشكَّل جيش روسي ـ قبجاقي مشترك، بلغ تعداده اثنين وثمانين ألف جندي، وعسكر في جنوب وادي الدنيبر. تقدم ميتسلاف على رأس عشرة آلاف مقاتل متعجِّلاً الاصطدام بالمغول، وتغلَّب على فرقة عسكرية مغولية

(١) ابن الأثير: جـ١٠ ص٣٥٣، ٣٥٤. الرمزي: جـ١ ص٢٢٨. Howorth: I p94.

(٢) The Chronicle of Novgorod: Trans. by Robert Michell and N. Farbes xxv, p64.
Cheshire, Harold: The Great Tartar Invasion of Europe, Vol 5, pp84-90.

(٣) تزوج الأمير الروسي ميتسلاف ابنة الزعيم قوتان خان.

(٤) غروسيه: ص٣٤٦. Howorth: I p95.

وقتل قائدها حما بك، وكانت هذه الجولة الأولى لصالح الروس.

والحقيقة أن جيبي وسوبوتاي كانا يخططان لانسحاب تدريجي تكتيكي لاستدراج الفرسان الأوكرانيين إلى فخ. واستمر المغول في هذا الانسحاب الوهمي مدة تسعة أيام، والجيش الروسي يطاردهم بعد أن عبر أفراده نهر الدنيبر، وفجأة توقف المغول عند نهر كالكا أو كالاك، وهو نهر ساحلي صغير يصب في بحر آزوف قرب ماريوبول، حيث اختار القائدان المغوليان هذا المكان لخوض المعركة، وكرَّا على أعدائهما. فوجئ الروس بهذا الهجوم المعاكس، فلم يستطيعوا أن يُنسِّقوا العمل العسكري، فقد هجم أمير غاليسيا ومعه جنود تشيرنيكوف والقبجاق من دون أن يعطي علماً لأمير كييف لكي يواكبه بالهجوم، الأمر الذي سبَّب الفوضى والارتباك في صفوفهم. وإذ تعرَّض للهزيمة انسحب من أرض المعركة كما انسحب ميتسلاف أمير كييف قبل أن يشترك في القتال، وتوجَّه نحو معاقله المحصنة. وطارد المغول أعداءهم من دون رحمة، فقتلوا ستة أمراء وسبعين نبيلاً، وقبضوا على أمير كييف وقتلوه بعد أن أمَّنوه على حياته، وجرت المعركة في (٢٧ ربيع الآخر ٦٢٠هـ/ ٣٠ أيار ١٢٢٣م)[١].

كان من المتوقع أن يتابع جيبي وسوبوتاي زحفهما بعد هذا الانتصار الكبير باتجاه كييف وتشيرنيكوف، ولكنهما لم يفعلا ذلك واكتفيا بتلقين الروس درساً، وهدما بضع مدن روسية على الحدود الروسية القبجاقية، وتوجَّهت مفرزة مغولية إلى بلاد القرم، فنهبت السوداك، المركز التجاري المهم، حيث كان يأتي التجار الجنويون لشحن فراء الشمال وجلود السنجاب والثعلب الأسود والعبيد، وقد عُدَّ هذا العمل تحدياً صريحاً وعملاً عدائياً موجهاً للعالم اللاتيني الذي كان يسيطر تجارياً على المنطقة[٢].

توجَّه جيبي وسوبوتاي، بعد ذلك باتجاه الشمال الشرقي، فهاجما البلغار على نهر كاما ووسط الفولغا حيث اغتنت المنطقة بسبب الأعمال التجارية، وقتلا زعيمهم هوتوسا خان[٣].

الواقع أن المغول لم يمكثوا مدة طويلة في الأراضي الروسية، وعادوا إلى معسكر زعيمهم جنكيز خان في بخارى، وقد صبَّ ذلك في مصلحة الروس.

(١) ابن الأثير: جـ١٠ ص٣٥٥، ٣٥٦. غروسيه: ص٣٤٦ ـ ٣٤٨. Howorth: I p96.

(٢) المصدر والمراجع نفسها.

(٣) ابن الأثير: جـ١٠ ص٣٥٦. Howorth: I p96.

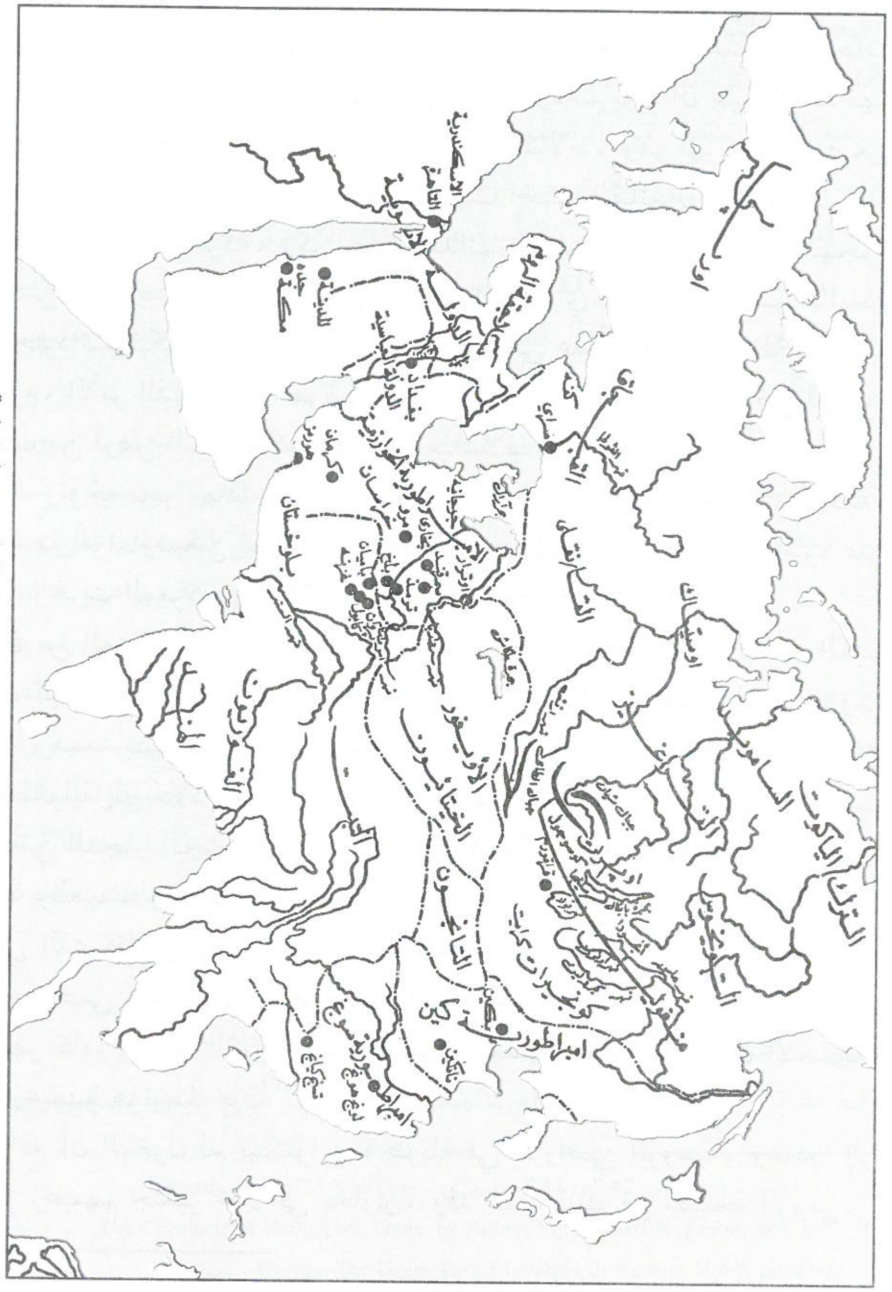

أوراسيا حوالي سنة ١٢٦٠ - بداية الفتوح المغولية

عن السيد الباز العريني: المغول ص٣٢.

ويمكن وصف هذه الحملة بمثابة حملة استكشافية تمهيداً للاجتياح الواسع المقبل لهذه البلاد، والذي سينتج عنه استقرار مغولي وقيام دولة القبيلة الذهبية، لأن القائدين المغوليين حملا معهما معلومات قيِّمة عن أوضاع البلدان التي مرا بها وما تعانيه هذه المناطق من ضعف، وكانت هذه المعلومات ضرورية حيث استفاد منها المغول بعد عشرين عاماً عندما غزا باطو أوروبا.

الحرب الأخيرة ضد التانغوت - وفاة جنكيز خان

أمضى جنكيز خان صيف عام (٦٢١هـ/ ١٢٢٤م) في المنطقة المحيطة بنهر إريتش، ولم يعد إلى منغوليا إلا في العام التالي، وهو العام الذي قام فيه بحملته الأخيرة ضد التانغوت في شمالي الصين والتيبت.

والواقع أن الأوضاع السياسية والعسكرية في تلك المنطقة تحوَّلت، خلال غياب جنكيز خان، لغير صالحه، فبالإضافة إلى ثورة التانغوت في مقاطعة هسي - هسيا المتاخمة للتيبت، استعادت الصين الشمالية قسماً كبيراً من أراضيها. وكان القائد المغولي موقلي، الذي كلَّفه جنكيز خان بإخضاع المناطق الصينية، قد واجه صعوبات كثيرة خلال قتاله مع الصينيين. وأدرك جنكيز خان أنه من المستحيل توجيه ضربة قاضية للصين الشمالية في الوقت الذي لم تكن فيه السيطرة المغولية على بلاد التانغوت، إلا سيطرة مزعزعة. وكان ملك التانغوت قد رفض إرسال جيشه للاشتراك في الحرب ضد الخوارزميين، وكان جنكيز خان يوم تحرَّك باتجاه الغرب قد قطع على نفسه عهداً بمعاقبته على ذلك الرفض على الرغم من أنه تابع له، وقد جاء الوقت الآن للوفاء بهذا العهد. وكان اهتمامه بهذا الأمر من الشدة بحيث لم يلجأ لتحقيقه إلى أي من قادته، وإنما عمد، على الرغم من تقدمه في السن، إلى قيادة الجيش بنفسه، واصطحب معه ولدين من أولاده هما أوكتاي وتولوي.

بدأت الحرب في (أواخر عام ٦٢٣هـ/ خريف عام ١٢٢٦م)، وقد حقَّق جنكيز خان في بدايتها انتصارات مهمة، فاستولى على عدة مدن تانغوتية، منها لينغ - شو، وحاصر العاصمة ننغ - هسيا، لكنه في إحدى مناورات الصيد، جمح به حصانه وألقاه أرضاً، فأصيب على إثر ذلك بمرض شديد، الأمر الذي دعا ولديه وقادته إلى الاتفاق على العودة إلى منغوليا، على أن تُستأنف الحرب ضد التانغوت عندما يستعيد الخان عافيته. وتبادل العاهلان، المغولي

والتانغوتي، خلال ذلك، الرسائل التي اتسمت بالإهانة الشديدة لكليهما[١].

واشتد المرض على جنكيز خان، ولما شعر بدنو أجله استدعى أولاده وأوصاهم أن يخلفه ابنه أوكتاي بفعل رجاحة عقله وبُعد نظره، فوافقوا على اختياره. توفي العاهل المغولي في مكان غير بعيد عن مدينة تسن ـ جو الصينية على ضفاف نهر سي ـ كيانغ في (١١ رمضان ٦٢٤هـ/ ٢٨ آب ١٢٢٧م)[٢]، وقد حُمل جثمانه إلى منغوليا ودُفن في المنطقة التي ينبع منها نهرا أونون وكيرولين. وحدث بعد وفاته بمدة قصيرة أن سقطت العاصمة التانغوتية ننغ ـ هسيا، فجرى قتل سكانها استجابة لرغبة الخان المتوفى، وقد ترك لخلفائه امبراطورية واسعة تمَّ الاستيلاء عليها بحد السيف، كما ترك المبادئ الموجِّهة التي قام عليها هذا البناء الامبراطوري.

وفاة جوجي بن جنكيز خان

توفي جوجي بن جنكيز خان قبل وفاة هذا الأخير بستة أشهر، وكان في بلاد القبجاق. ويبدو أن محاولته إقامة مملكة مستقلة عن مركز الامبراطورية، تسبَّبت في نشوب نزاع بينه وبين أبيه، كما أن إعجابه بهذه البلاد، جعله يُقدم على إنقاذها من التدمير الذي أصاب بقية الأقاليم على يد والده. وتجري الرواية بأنه لم يرضَ عن الوحشية التي ارتكبها والده بحق الشعوب التي أخضعها واستولى على بلادها، فقرَّر الانضمام إلى المسلمين والعمل معهم على التخلُّص من والده. وعلم جغتاي بما كان يدور في خلد أخيه، فأخبر والده بذلك، فدسَّ له جنكيز خان السم سراً[٣]. وفي رواية أخرى، أن جنكيز خان كان يسيء الظن بجوجي، وعندما عاد إلى منغوليا استدعاه للمثول بين يديه، فاعتذر بأنه مريض، لكن نُمي إلى والده أنه شوهد في وادي القبجاق وهو في رحلة صيد وبصحة جيدة، فقرَّر جنكيز خان عندئذ أن يمضي لقتاله، ولكنه قبل أن يصل إلى تنفيذ قراره توفي جوجي[٤].

تقسيم امبراطورية جنكيز خان

أنجب جنكيز خان تسعة أولاد، من بينهم أربعة من زوجته المفضَّلة يسونجين بَيْكي، وهم جوجي وجغتاي وأوكتاي وتولوي، فقدَّمهم على أبنائه الآخرين، وعهد إليهم ببعض المهمات العسكرية والإدارية ليدربهم على فن

---

(١) الجويني: جـ١ ص١٤٣، ١٤٤. رشيد الدين: جـ١ ص٣٨٥. غروسيه: ص٣٦٠ ـ ٣٦٥.

(٢) المصدران نفساهما. المرجع نفسه: ص٣٧٢.

(٣) الجوزجاني: ص٣٧٩. (٤) رشيد الدين: جـ١ ص٥٢٢، ٥٢٣.

الحكم وفقاً لميولهم الشخصية. فعهد إلى ابنه الأكبر جوجي بالإشراف على شؤون الصيد وتنظيم القصور وتزيينها، وأوكل إلى ابنه الثاني جغتاي تنظيم شؤون القضاء والسهر على تنفيذ القوانين والأحكام، وعهد إلى ابنه الثالث أوكتاي إدارة الشؤون المالية وتنظيم شؤون الملك وتدبير مصالح الناس، واختص ابنه الرابع تولوي بتولي شؤون الدفاع وإعداد الجيوش، ثم خطا خطوة أخرى عندما رأى أن الوسيلة الفضلى لتدريبهم على مباشرة الحكم وتحمُّل المسؤوليات هي تقسيم أراضي الامبراطورية بينهم، بحيث يختص كل واحد منهم بموطن يشتمل على مساحة من الأراضي وتعيش فيه بعض القبائل.

والواقع أن فكرة التقسيم هذه تتوافق مع المبدأ السائد في المجتمعات البدوية الذي يُعدُّ أن ما يجري امتلاكه من أراضٍ هو ملك جميع أفراد الأسرة الحاكمة، والمعروف أن جنكيز خان تأثر بفكرة العمل لنفسه ولصالح أسرته ولأنصاره المقرَّبين. لكن هذه القسمة رسمت حدود ومعالم الدول المغولية التي ستنشأ في المستقبل وتستقل عن الحكومة المركزية في قراقورم، وقد تمت على الشكل التالي:

- اختص جوجي بالبلاد الواقعة بين نهري إريتش والسواحل الجنوبية لبحر قزوين وحتى حدود البلغار والڤولغا، وعُرفت تلك البلاد بعامة: القبجاق، وأطلق عليها، فيما بعد، اسم القبيلة الذهبية، نسبة إلى خيم معسكراتها ذات اللون الذهبي، والغالب على سكانها الأتراك والتركمان. وكان جوجي ينوي أن يضمَّ إلى حصته إقليم خوارزم والمدن الواقعة في الوادي الأدنى لنهر جيحون، مدركاً أهمية الاتحاد بين مناطق الڤولغا والمناطق المجاورة للمجرى الأدنى لهذا النهر، تحت إدارة حكومة واحدة، نظراً لما كان بين هذه المناطق من علاقات حضارية وثيقة، بدليل أنه حاول أن يجنِّب العاصمة الخوارزمية جرجانية ما كانت تنتظره من تدمير في عام (٦١٨هـ/ ١٢٢١م)[١].

- نال جغتاي بلاد الأويغور وأقاليم ما وراء النهر وكاشغر وبلخ وغزنة، واتخذ مقره في جنوبي نهر إيللي.

- حصل أوكتاي على ما يقع إلى الشمال والشمال الشرقي من بحيرة بالكاش من أقاليم، إيميل وثارباجاي وإريتش وأورنوجو.

- وكان نصيب تولوي الشطر الشرقي من منغوليا، بما فيها وديان كيرولين وأونون وأورخون ومنطقة قراقورم.

---

(١) العريني: ص١٥٧.

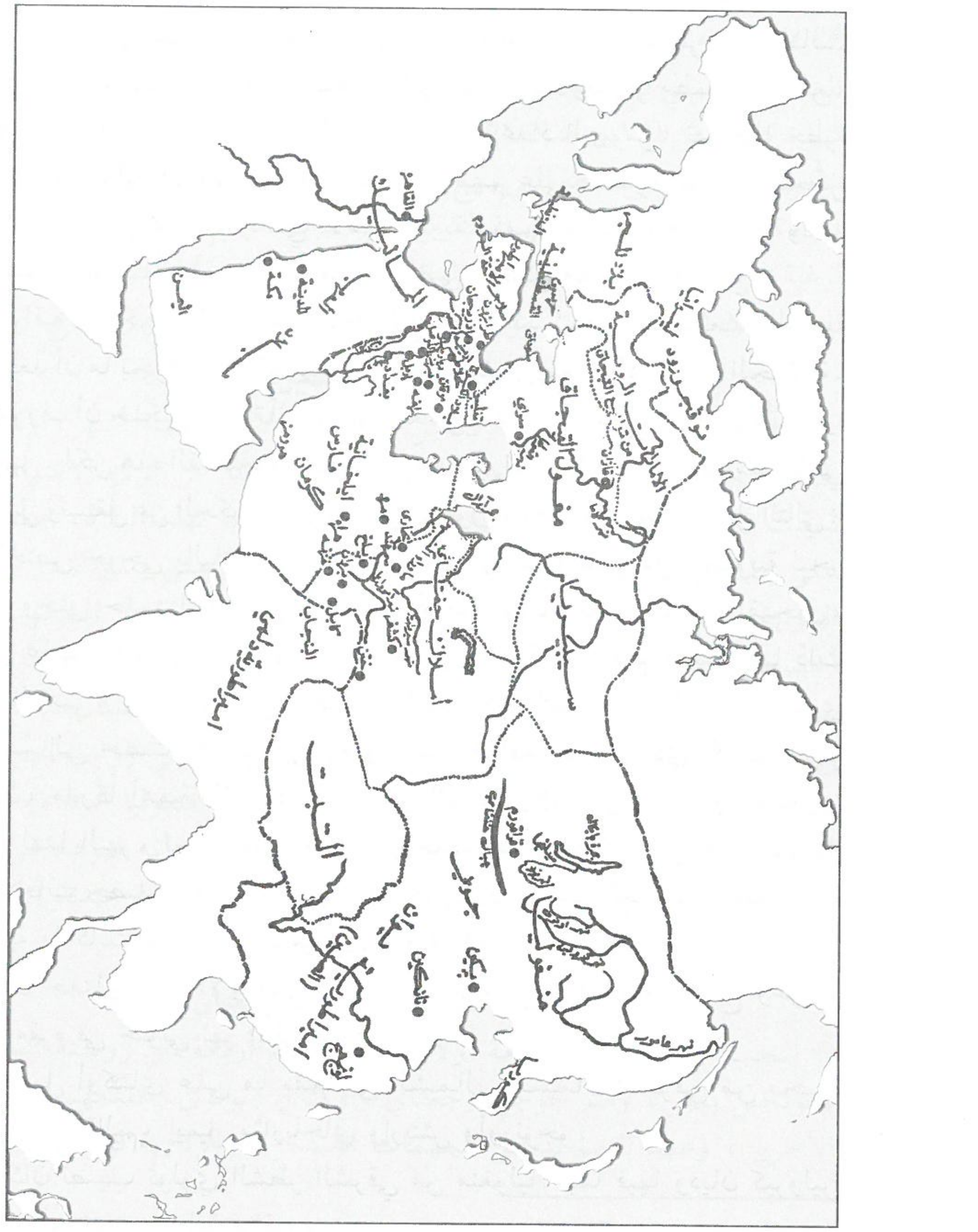

أوراسيا بين ١٢٦٠ – ١٢٨٠م (ممتلكات المغول)

عن السيد الباز العريني: المغول ص١٥٦.

شخصية جنكيز خان

ثمة ظاهرة تدل على ما اشتهر به جنكيز خان من البطش بدم بارد والتدمير، ما أثار الرعب والفزع في قلوب أعدائه. وبغضِّ النظر عن التبريرات لهذا السلوك، التي يمكن استنتاجها من قرائن الأحداث مثل:

- منع قيام ثورة من جانب سكان المدن التي يخضعها، ما يؤثر سلباً على تحركه وخططه القتالية.

- إرهاب سكان المدن الأخرى وحملهم على الاستسلام بتأثير الخوف.

- قلَّة عدد المغول بالمقارنة مع كثرة عدد أعدائهم، ما يتعذَّر وضع حاميات عسكرية كثيرة العدد في المدن التي يستولي عليها، لتأمين خطوط مواصلاته وتحقيق الأمن.

- تأثير البيئة، إذ إن قسوته كانت انعكاساً لقسوة الطبيعة التي وُلد ونشأ فيها، حيث كانت القبائل تجري وراء المياه القليلة في الصحراء، وتعتلي المرتفعات وراء العشب والمرعى.

فإن جيوشه لم تصادف مقاومة ضارية في الأقاليم الغربية مثلما صادفته في بلاد الصين، إلا أن ما أثاره من الرعب في العالم الإسلامي، بوصفه كافراً ووثنياً، يفوق ما أثاره في العالم الصيني المجاور، يضاف إلى ذلك، فإن ما لجأ إليه من الاستفادة من سكان الأقاليم الإسلامية التي استولى عليها يفوق أيضاً على ما استفاده من الصينيين. وأضحى نظام الرعب الذي أسهم في اكتماله ما اشتهر به المغول من النظم الصارمة، أمراً شائعاً وأسلوباً وهدفاً في خططهم العسكرية.

يشبِّه بعض المؤرخين جنكيز خان بالمطرقة التي ابتليت بها البشرية، ويشبِّهون جيشه بالطوفان والسيل الجارف، فهو حين يتقدم يترك الأرض وراءه قاعاً صفصفاً، وما تعرَّضت له الحضارات القديمة نتيجة غزوات البدو على مدى اثني عشر قرناً؛ اجتمعت كلها فيه. ينقض على فريسته كالإعصار المدمر، متجرِّداً من كل شفقة ورحمة، وكانت المذابح نظاماً ثابتاً في تفكيره وواقعه لازمه حتى آخر حياته. وكغيره من الغزاة، فقد كان باستطاعته أن يستأصل، وبهدوء تام، الناس بالآلاف متى رأى ذلك ضرورياً لتوطيد سلطانه، إذ إن الحرب باعتقاده تُبيح كل شيء في سبيل النصر، والغاية تبرر الوسيلة

مهما بلغت حدَّة قسوتها، وأن الدم الذي سفكه، والعمران الذي دمَّره، قد يندر أن يحدث مثله في أية مرحلة تاريخية، وهو لا يصل إلى سعادته ورضاه إلا عندما يسحق عدوه سحقاً حتى يجثو خاشعاً عند قدميه، ثم يسلبه كل ما يملك، ومن حوله نساؤه وأطفاله يبكون وينتحبون.

كان جنكيز خان حريصاً على المحافظة على كيان المغول وتقاليدهم لأن ذلك يكفل لهم الانتصار على أعدائهم، فهو يكره الحياة المترفة الناعمة، ويُفضِّل الحياة الجافة الغليظة التي تدعو إلى الحرب والسعي الدائم. وما اشتهر به من قدرة على التنظيم والإدارة، يرجع إلى نظرة البدو وسيطرتهم على الشعوب المتحضرة التي خضعت لهم كيما ينتزعوا من هؤلاء مواردهم مقابل حمايتهم والدفاع عنهم، كما أدرك أهمية اقتصاد سكان الحضر والتجارة معهم، لذلك حرص على إعادة فتح الطريق التجاري بين الصين وإيران، وخاض حروباً من أجل تأمين مرور قوافل التجار.

وإلى جانب ما اشتهر به من العنف، كان جنكيز خان رجلاً متَّزناً، بعيد النظر، كريماً، عطوفاً، يرتاع من الخونة والسارقين والكذابين، يضبط نفسه، ولا يفقد السيطرة على عواطفه مهما كانت الظروف، وإن المواهب التنظيمية الفذَّة التي تمتع بها تستحق كل اهتمام، لأنه ظل، حتى آخر أيام حياته، غريباً عن كل الحضارات، ولم يتحدث إلى جانب المغولية لغة أخرى، ولم يرَ في امبراطوريته سوى أداة لسيادة الرعاة الفاتحين على الشعوب المتحضرة التي أعطاها الله للمغول ليفيدوا من ثمرة عملها، ولذا فإن على المغول بسط حمايتهم عليها.

هل لنا أن نصدر حكماً على جنكيز خان ونضعه في المرتبة التي يستحقها؟ إن الحقيقة تبقى ماثلة أمامنا، وهي أنه إذا كانت الناحية الإدارية قد أفادت من بعض الوجوه، إلا أن ذلك قد تمَّ بعد تضحيات كبيرة، وبعد أن قضى على كثير من مظاهر الحضارة في البلدان التي استولى عليها، كما أن محاولة التوفيق بين أمرين متناقضين، كالحياة الرعوية من جهة والحضارة الفكرية من جهة أخرى، شكَّلت أضعف حلقة في البناء الشامخ الذي شيَّده، وكانت السبب الرئيسي في تقويض أركانه على الرغم من أنه استمر مدة أربعين عاماً بعد وفاته.

الفَصْلُ الثَّالِث

أوكتاي بن جنكيز خان ـ كيوك بن أوكتاي

أوكتاي بن جنكيز خان

(٦٢٦ ـ ٦٣٩هـ/ ١٢٢٩ ـ ١٢٤١م)

اعتلاء أوكتاي عرش المغول

ذكرنا، من قبل، أن جنكيز خان عهد بالملك من بعده إلى ابنه أوكتاي. ووفقاً لقانون المغول انتقلت الوصاية في المرحلة الانتقالية، بين وفاة الخان وانتخاب خلفه، إلى ابنه الأصغر تولوي بوصفه حاكم منغوليا، واستمرت نحو عامين ظل خلالها العرش خالياً[١]. ويبدو أن سبب طول هذه المدة يرجع إلى ما جرى من تدبير مؤامرات لإقصاء أوكتاي عن حقه في الحكم، واضطر تولوي أخيراً إلى دعوة القوريلتاي[٢] للانعقاد في (أوائل عام ٦٢٦هـ/ ربيع عام ١٢٢٩م) لاختيار خان أعظم خلفاً لجنكيز خان، ناقش المجتمعون فيه مسألة تخطي جنكيز خان العرف المغولي في الوراثة، وأعلن أوكتاي خلاله عن تنازله لمصلحة أخيه الأصغر تولوي بفعل إنه يقوم مقام الأب ويتعهد داره وفقاً لتقاليد المغول ورسومهم، ولأنه كان ملازماً لأبيه ليلاً ونهاراً ويعلم الأصول والقوانين، لكن المجتمعين رفضوا مخالفة الخطأ، وأصرُّوا على احترام وصية جنكيز خان على الرغم من أن تولوي فتح باب الترشيح أمام المجتمعين[٣].

وهكذا تمَّ اختيار أوكتاي خاناً أعظم على المغول، وكانت أولى قراراته:

ـ أن تبقى كل الأحكام التي أصدرها جنكيز خان سارية المفعول.

ـ أصدر عفواً شاملاً عن جميع الأشخاص الذين ارتكبوا ذنوباً قبل جلوسه على العرش، وهدَّد بإنزال العقاب الصارم بحق كل من يخالف القوانين بعد ذلك.

(١) D'ohsson: III p9.

(٢) القوريلتاي: مجلس الشورى المؤلف من أمراء الأسرة الحاكمة.

(٣) الجويني: جا ص١٤٥ ـ ١٥٠.

- اهتم باستكمال التوسع المغولي بغزو إيران والصين وأوروبا.

التوسع المغولي في عهد أوكتاي

التمدد باتجاه الغرب

إعادة إحياء الدولة الخوارزمية

رحل جلال الدين منكبرتي إلى الهند بعد أن خسر معركة السند أمام جنكيز خان في عام (٦١٨هـ/ ١٢٢١م)، والتجأ إلى شمس الدين إلتتمش، سلطان دلهي[١]، فأجاره وعرض عليه أن يُزوِّجه ابنته لتمتين أواصر الصداقة بينهما، غير أن ما لجأ إليه السلطان الخوارزمي من التآمر، فضلاً عما اشتهر به من البسالة؛ أثار شكوك إلتتمش، كما خشي هذا عاقبة الأمر عندما علم بأن القوات المغولية تجدُّ في البحث عنه، فحاول عندئذ إبعاده، وتحالف مع أمراء الهند الآخرين لطرده من البلاد.

لم يسع جلال الدين، تجاه هذا الضغط، إلا أن يغادر الهند، وتوجَّه على رأس أربعة آلاف مقاتل من أتباعه إلى كرمان، وصادف لدى وصوله أن قُتل أميرها على يد بوراق الحاجب الذي استبدَّ بالحكم، فاستقبل جلال الدين بالمودة والترحاب، غير أنه لم يلبث أن انقلب عليه وحاول اغتياله، ما حمل السلطان على مغادرة كرمان إلى فارس. والمعروف أن أخاه غياث الدين بن خوارزمشاه قد وطَّد سلطانه في خراسان ومازندران والعراق العجمي بعد توجه المغول إلى بلاد القبجاق، وعندما عاد هؤلاء إلى الري والبلاد المجاورة خرَّبوا أصفهان وهمذان والري التي كانت تحت حكمه ما دفعه إلى التعويض بضم أجزاء من أتابكية فارس بالاتفاق مع صاحبها سعد بن زنكي، واتخذ من شيراز مقراً لحكمه وذلك في عام (٦٢١هـ/ ١٢٢٤م).

ولما لم يكن بوسع غياث الدين أن يسترد ما انتزعه وخرَّبه المغول من البلاد، بالإضافة إلى قوة موقف أخيه بفعل انضمام الجيش إليه، بات لزاماً عليه أن يعلن ولاءه له، فأضحى بذلك سيداً على شمالي فارس، ولم تنته سنة (٦٢٢هـ/ ١٢٢٥م) حتى سيطر على الهضبة الفارسية وأذربيجان واتخذ أصفهان عاصمة له.

وإذ استطاع السلطان الخوارزمي أن يسيطر، إلى حين، على بعض أقاليم

(١) النسوي: ص١٧٤ - ١٧٩.

الدولة الخوارزمية، فقد كان ذلك عائداً إلى عدم اهتمام المغول، في المدة التي أعقبت عودته من الهند، بأمور الدولة الخوارزمية بخاصة وشؤون غربي آسيا بعامة، كما أتاح له ذلك الفرصة للتوسع غرباً[١].

وبدلاً من أن يعمل هذا الزعيم الخوارزمي، في ذلك الوقت، على حماية العالم الإسلامي من خطر المغول، قام بمهاجمة الخليفة العباسي، الناصر لدين الله، كما هاجم أذربيجان واحتل تبريز واتخذها قاعدة للوثوب على بلاد الكرج[٢]. والواقع أنه لم يحاول أن يقيم لدولته الجديدة نظاماً ثابتاً ومتيناً يقيها ضربات أعدائه المغول، كما أن افتقاره إلى الروح السياسية أوقعه في عداء مع حلفائه الطبيعيين في غربي آسيا. والواضح أنه أراد أن يتوسع على حساب القوى المتعددة القائمة في المنطقة، وينتقم من أعداء الخوارزميين الذين لم يساعدوا أباه خلال الغزو المغولي، وعندما فشل في دخول بغداد توجَّه نحو الشمال، فانتزع تبريز، كما ذكرنا، وهاجم بلاد الكرج ودخل العاصمة تفليس في عام (٦٢٣هـ/ ١٢٢٦م)[٣].

وإذ جاورت أملاكه أراضي الأيوبيين[٤] وسلاجقة الروم[٥] في آسيا الصغرى، راح يتدخل في شؤون هاتين الدولتين، غير أنه تعرَّض للهزيمة أمام تحالف أيوبي - سلجوقي في مكان قريب من خلاط في (٢٨ رمضان ٦٢٧هـ/ ١٠ آب ١٢٣٠م)، وعاد إلى أذربيجان[٦].

القضاء على الدولة الخوارزمية

يبدو أن تدمير المدن الخوارزمية لم يشجع المغول على الإقامة فيها باستثناء مدن إقليم ما وراء النهر، كما لم يشجع جلال الدين منكبرتي، بعد عودته من

(١) حمدي: ص١٧٤. (٢) ابن الأثير: جـ١٠ ص٣٩٣ - ٣٩٥.

(٣) المصدر نفسه: ص٣٩٥ - ٣٩٧، ٤٠٨، ٤٠٩.

(٤) ينتسب الأيوبيون إلى أيوب بن شادي من بلدة دوين في أرمينيا، وأصله من الأكراد.

(٥) سلاجقة الروم، أسرة تركية سلجوقية، أسست دولة إسلامية في آسيا الصغرى بين عامي (٤٧٠ - ٧٠٤هـ/ ١٠٧٧ - ١٣٠٤م)، وسميت بذلك الاسم لأن البيزنطيين في العصور الوسطى، الذين عرفهم العرب باسم الروم، كانوا يحكمون هذه المنطقة، ولم تلبث أن سُميت باسمهم فعُرفت باسم بلاد الروم. وعندما استقر السلاجقة فيها أطلق عليهم المؤرخون المسلمون اسم سلاجقة الروم.

(٦) ابن الأثير: جـ١٠ ص٤٤٠، ٤٤١. الجويني: جـ٢ ص١٧٤ - ١٨٢ حيث تفاصيل مسهبة. ابن العبري: ص٢٧٥، ٢٧٦.

الهند، على الاهتمام بإعادة تعميرها، لذلك تركَّز الصراع بين الطرفين في الأقاليم الغربية للدولة الخوارزمية، لكن ذلك لم يمنع المغول من غزو الأقاليم شبه المهجورة بين الحين والآخر على شكل عصابات، فاقتربوا أحياناً من الري وأصفهان، وفي مطلق الأحوال كانوا يعودون مسرعين إلى بلاد ما وراء النهر(١).

وقرَّر أوكتاي الاهتمام بشؤون الغرب مرة أخرى بعد أن علم بمحاولة جلال الدين منكبرتي إعادة إحياء الدولة الخوارزمية، فأرسل في عام (٦٢٨هـ/ ١٢٣١م) جيشاً لقتاله قوامه ثلاثون ألف جندي، بقيادة جرماغون وصحبه القائد بايجو، فتقدم إلى تركستان حيث طلب مدداً من أمراء المغول وحكّامهم في خوارزم، وضمَّ إليه قوات أخرى غير نظامية من أسرى الحرب حتى بلغ تعداد جيشه ما يقارب المائة ألف(٢).

سار هذا الجيش الضخم إلى إيران، فاستولى أفراده على الري وهمذان، وواصل زحفه حتى حدود أذربيجان، واستفاد مما خلّفه المغول في حروبهم السابقة في خراسان من الخراب والدمار والخوف، فلم يصادف أية مقاومة أثناء اختراقه لهذا الإقليم إلى أن وصل إلى الأقاليم الغربية.

اقتصر اهتمام المغول، في هذه المرحلة، على مطاردة جلال الدين منكبرتي والقضاء عليه، لأن هذا يكفل لهم إحكام سيطرتهم من جديد على أقاليم الدولة الخوارزمية. وإذ عاد إلى تبريز بأذربيجان بعد معركة خلاط مطمئناً إلى أن المغول سيقضون فصل الشتاء في إقليم العراق العجمي، إذا بهم يفاجئونه وهم يطاردونه ويرغمونه على التقهقر إلى سهول مراغة وموقان عند مصب نهري الرس وكور في المنطقة المجاورة للساحل الغربي لبحر قزوين، وقد مُلئ رعباً وخوفاً، ولم يكد يستقر في موقان حتى علم بمسير المغول إليه، فاضطر للعودة ثانية إلى أذربيجان(٣).

وإذ شعر بتعقب المغول له توجَّه إلى خلاط للاحتماء بها، والتمس المساعدة من الخليفة العباسي والأمراء المسلمين للوقوف صفاً واحداً في وجه

(١) D'ohsson: III p27.

(٢) الجويني: جـ٢ ص١٨٢. ابن الأثير: جـ١٠ ص٣٨٣، ٣٨٤. Howorth: I p130.

(٣) الجويني: المصدر نفسه.

المغول، وحذَّرهم عاقبة إهمالهم، لكن أحداً لم ينهض لمساعدته، فاضطر أن يغادر خلاط وتوجَّه إلى آمد(١) في أعالي نهر دجلة، فلحق به المغول واصطدموا به وتغلَّبوا عليه وقتلوا كثيراً من جنوده، وتفرَّق من نجا في النواحي، وكان السلطان نفسه من ضمن من فرَّ. وإذ لم يعلم المغول الموقع الذي قصده، أو الطريق الذي سلكه، فإنه واصل سيره هائماً على وجهه حتى بلغ إحدى قرى ميافارقين(٢). واحتمى أخيراً بجبال كردستان حيث قتله أحد الأكراد في (١٥ شوال ٦٢٨هـ/ ١٦ آب ١٢٣١م)(٣).

وبمقتل السلطان جلال الدين منكبرتي، آخر حكام الدولة الخوارزمية، زالت هذه الدولة عن مسرح الحياة السياسية.

الغزو المغولي لديار بكر والجزيرة الفراتية

بعد أن تخلَّص المغول من أخطر عدو لهم، أضحى الطريق مفتوحاً أمامهم لاستئناف التوسع. فأقام القائد المغولي جرماغون في الطرف الشمالي الغربي لإقليم إيران نحو عشرة أعوام (٦٢٨ ـ ٦٣٩هـ/ ١٢٣١ ـ ١٢٤١م)، واتخذ مضاربه في سهول موقان وأرَّان في المجرى الأدنى لنهري الرس وكور، بفعل ما توافر فيها من المراعي الغنية ما يسدُّ حاجة الخيول، وراح يشن منها حملاته العسكرية ضد الأراضي الإسلامية المشرفة على العراق بالإضافة إلى أرمينيا والكرج، وينشر فيها الخراب والدمار على عادة المغول. وهاجمت فرقه العسكرية ديار بكر وأرزن الروم(٤) وميافارقين وماردين(٥) ونصيبين(٦) وسنجار(٧)، وتقدَّمت حتى بلغت ساحل الفرات، وارتكب أفرادها من الأعمال

(١) آمد: أعظم مدن ديار بكر وأجلُّها قدراً وأشهرها ذكراً. الحموي: جـ١ ص٥٦.

(٢) ميافارقين: من أشهر مدن ديار بكر. المصدر نفسه: جـ٥ ص٢٣٥.

(٣) ابن الأثير: جـ١٠ ص٤٤٧، ٤٤٨. النسوي: ص٢٤٥، ٢٤٦. الجويني: جـ٢ ص١٩٠، ١٩١.

(٤) أرزن الروم: مدينة مشهورة قرب خلاط، ولها قلعة حصينة. الحموي: جـ١ ص١٥٠.

(٥) ماردين: قلعة مشهورة على قمة جبل الجزيرة مشرفة على دُنَيْسر ودارا ونصيبين. المصدر نفسه: ص٣٩.

(٦) نصيبين: مدينة عامرة من بلاد الجزيرة على جادة القوافل من الموصل إلى الشام، بينها وبين سنجار تسعة فراسخ. المصدر نفسه: ص٢٨٨.

(٧) سنجار: مدينة مشهورة من نواحي الجزيرة بينها وبين الموصل ثلاثة أيام. المصدر نفسه: جـ٣ ص٢٦٢.

الوحشية ما أثار الخوف والرعب في قلوب الناس[١].

استيلاء المغول على أذربيجان

وأرسل جرماغون قوة عسكرية إلى أذربيجان، فاستولى أفرادها على المدن، واحدة بعد أخرى، منها مراغة والعاصمة تبريز التي استسلمت من دون مقاومة في (أوائل ٦٢٩هـ/ أواخر ١٢٣١م).

والواقع أن ثلاثة عوامل ساعدت المغول على السيطرة على هذه المنطقة بسهولة تامة:

الأول: الهزيمة التي حلَّت بالسلطان الخوارزمي، وما حدث من تفرُّق جيشه في النواحي.

الثاني: انقطاع أخبار السلطان الخوارزمي آنذاك، إذ لم يكن محققاً المصير الذي آل إليه.

الثالث: قيام حكام المدن بالثورة على الحكم الخوارزمي بعد أن علموا باختفاء السلطان، كما أقدموا على القبض على الجنود الفارين والمشرَّدين، فقطعوا رؤوسهم وأرسلوها إلى المغول[٢].

المغول على أبواب العراق

وما حدث من ظهور المغول في أعالي الفرات أثار الذعر والخوف في العراق وبلاد الشام حيث أضحى من المتوقع أن يهاجموا العراق. وفعلاً ظهر المغول في منطقة إربل ودخلوا العاصمة المسماة بهذا الاسم، وذلك في عام (٦٣١هـ/ ١٢٣٤م)، وافتدى السكان أنفسهم بمبلغ كبير من المال، ثم غادروا المدينة بعد أن تناهى إلى أسماعهم أن قوة عسكرية خرجت من بغداد للتصدي لهم[٣].

وهاجم المغول العراق في عام (٦٣٤هـ/ ١٢٣٦م) وبلغوا مدينة سامراء، فأعلن الخليفة المستنصر بالله الجهاد، فخرج جيش كبير من بغداد بقيادة مجاهد الدين الدواتدار[٤] واصطدم بهم بالقرب من تكريت، ما بين دجلة

---

(١) ابن الأثير: جـ١٠ ص٤٤٨ ـ ٤٥٠. (٢) حمدي: ص٢٢٧. D'ohsson: III p52.

(٣) ابن كثير، الحافظ: البداية والنهاية: جـ١٣ ص١٤٥. Howorth: III p132.

(٤) الدواتدار: كلمة مؤلفة من لفظين، دواة العربية ودار الفارسية، وكان هذا اللقب يُطلق على من يحمل دواة السلطان ويتولى أمرها، بالإضافة إلى ما تقتضيه من الحكم وتنفيذ الأمور، إنه الكاتب.

وجبل حمرين، وهزمهم، وحرَّر الأسرى المسلمين الذين كانوا قد وقعوا في أيديهم أثناء القتال في إربل[١].

وكرَّر المغول هجماتهم على العراق في العام التالي، وهزموا المسلمين في خانقين، فالتمس الخليفة المساعدة من السلطان الأيوبي الكامل محمد فأمدَّه بعشرة آلاف جندي من مصر والشام، غير أن المغول غادروا المنطقة عائدين إلى أذربيجان[٢].

استيلاء المغول على الكرج وأرمينيا

تابع جرماغون مخططه التوسعي باتجاه الشمال، فهاجم بلاد الكرج واستولى على معظم مدنها بما فيها العاصمة تفليس، وفرَّت الملكة روسودان إلى قوتيس، والمعروف أن هذه الملكة كانت قد استردت عاصمتها عقب زوال الدولة الخوارزمية. وعلى الرغم من الوحشية التي عامل بها المغول الكرجيين، فإن هؤلاء أذعنوا لهم ودفعوا الجزية. وأعاد جرماغون الملكة روسودان إلى الحكم، واعترفت بالمقابل بسيادة المغول. والجدير بالذكر أن هذا القائد المغولي كان متساهلاً مع النصارى نظراً لأن من أجداده مَن كانوا نصارى على المذهب النسطوري، كما أرسل إليه الخان الأعظم أوكتاي، سمعان النصراني السرياني ليتولى أمور النصارى ويقوم على رعاية شؤونهم الدينية[٣].

وخرَّب المغول آني، عاصمة أرمينيا، وقتلوا عدداً كبيراً من سكانها لأنهم قاوموهم، كما عاملوا سكان مدينة قارس معاملة سيئة، على الرغم من أنهم استسلموا لهم سريعاً، ولم ينج من المذبحة التي ارتكبوها بحقهم سوى الأطفال والصنَّاع[٤].

الغزو المغولي لآسيا الصغرى

الفوضى في شمالي الشام وإقليم الجزيرة

اختلَّ ميزان القوى من جديد في شمالي بلاد الشام وإقليم الجزيرة بعد مقتل السلطان الخوارزمي جلال الدين منكبرتي واختفائه عن المسرح السياسي.

---

(١) ابن الفوطي، كمال الدين عبد الرزاق: الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة: ص٨٩، ٩٠.

(٢) المصدر نفسه: ص٩٦ ـ ٩٩. Howorth: III p132.

(٣) العريني: ص١٧٦. Ibid. (٤) Ibid.

وكان من المفروض في ذلك الوقت أن يستمر التحالف السلجوقي ـ الأيوبي لمواجهة الخطر المغولي، ولكن السلطان السلجوقي كيقباد الأول (٦١٦ ـ ٦٣٤هـ/ ١٢١٩ ـ ١٢٣٧م) أراد أن يستغل الموقف الناجم عن مقتل السلطان الخوارزمي وقيام جنوده المتفرقين في النواحي، بالعبث وقطع الطرق، والتعدي على الآمنين، بالإضافة إلى فراغ الساحة السياسية من أي منافس له في شرقي الأناضول؛ ليتوسع في الحوض الأوسط لنهر الفرات على حساب الأيوبيين، فأرسل جيشاً إلى بلاد الأرمن، بقيادة كمال الدين كاميار، استولى على خلاط وبدليس، وكل الحصون الشرقية[١].

أثار التوسع السلجوقي في بلاد الأرمن وسيطرة السلاجقة على خلاط التابعة للسيادة الأيوبية، وضمُّ السلطان كيقباد الأول فلول الخوارزميين إلى جيشه؛ الخوف في نفوس الأيوبيين، والمعروف أنه ما لم يكن ثمة باعث للتعاون بين الطرفين، تصادمت أطماعهما[٢]، لذلك نهض الأيوبيون لمحاربة السلاجقة ووضع حد لأطماعهم.

وشكَّل الكامل محمد الأيوبي، صاحب مصر، حلفاً مكوَّناً من الملوك والأمراء الأيوبيين لمحاربة كيقباد الأول. وزحف المتحالفون باتجاه بلاد الروم، لكنهم واجهوا ثلاث مشكلات أوقفت زحفهم، تمثَّلت بتناقص الأقوات وامتناع الدربند بسبب الاستحكامات التي أقامها السلاجقة، ونشوء خلافات حادة بينهم بسبب تصرف الكامل محمد اللامسؤول، وهو الذي أراد أن يتفرَّد بحكم بلاد الشام ويضمها إلى أملاكه في مصر، فانسحب الأشرف موسى صاحب دمشق مع بني عمه وأقاربه من التحالف، كما عاد الكامل محمد إلى مصر[٣].

نتيجة لهذه المتغيرات السياسية، هاجم كيقباد الأول حرَّان[٤] والرقة[٥]

(١) ابن بيبي، ناصر الدين يحيى بن محمد: الأوامر العلائية في الأمور العلائية: ص١٨٥، ١٨٦.
(٢) العريني: ص١٧٧.
(٣) اليونيني، موسى بن محمد: ذيل مرآة الزمان: جـ١ ص١٣١. ابن واصل، جمال الدين محمد بن سالم: مفرج الكروب في أخبار بني أيوب: جـ٢ ص٧٧.
(٤) حرَّان: قصبة ديار مضر بينها وبين الرها يوم. الحموي: جـ٢ ص٢٣٥.
(٥) الرقة: مدينة على الفرات، بينها وبين حران ثلاثة أيام، معدودة من بلاد الجزيرة. المصدر نفسه: جـ٣ ص٥٩.

وحارم[١] والرها، والبيرة[٢] وضمَّها إلى أملاكه. وجاء رد الفعل الأيوبي سريعاً، فهاجم الكامل محمد مدن الجزيرة في عام (٦٣٣هـ/ ١٢٣٦م) واستعاد الرها وحران وخرَّب دُنَيْسر[٣]، وأخذ قلعة السويداء، وأسر من كان في هذه المدن من السلاجقة وحملهم مقيدين إلى مصر.

لم يركن السلطان السلجوقي إلى الهدوء، ونهض لينتقم من الأيوبيين، فأرسل جيشاً حاصر آمد، وخرَّب دارا، الواقعة بين نصيبين وماردين، وأحرق نصيبين، ونفَّذ هجمات شديدة ضد سنجار.

وحدث في عام (٦٣٥هـ/ ١٢٣٧م) أن توفي الأشرف موسى، صاحب دمشق، وخلفه أخوه الصالح إسماعيل، صاحب بصرى، بعهد منه، فتجدَّدت الخلافات داخل الأسرة الأيوبية. فأعاد الصالح إسماعيل تكوين الحلف القديم المعادي للكامل محمد، غير أن هذا الأخير استطاع أن يقضي على هذه الحركة المعادية، وعزل الصالح إسماعيل من حاكمية دمشق[٤]. إلا أن الكامل محمد ما لبث أن توفي في (٢٠ رجب ٦٣٥هـ/ ٧ آذار ١٢٣٨م)، ما كان نذيراً بتجدُّد الخلافات داخل البيت الأيوبي، وبروز خطر الحرب الأهلية.

وكان السلطان كيقباد الأول قد توفي قبل ذلك في (٣ شوال ٦٣٤هـ/ ٣٠ حزيران ١٢٣٧م) وخلفه ابنه غياث الدين كيخسرو الثاني (٦٣٤ ـ ٦٤٤هـ/ ١٢٣٧ ـ ١٢٤٦م) فاستغل فرصة الفوضى التي دبَّت في شمالي بلاد الشام، وإقليم الجزيرة، وتوسَّع على حساب الصالح نجم الدين أيوب، صاحب دمشق، فضمَّ سميساط[٥] وآمد وهاجم ميافارقين، ولم يوقف اندفاعه سوى رسالة الخليفة العباسي تتمنى عليه أن يُجمِّد نشاطه العسكري بسبب الخطر المغولي الذي أخذ يدق أبواب العاصمة العباسية.

(١) حارم: حصن تجاه أنطاكية، وهي من أعمال حلب. الحموي: جـ٢ ص٢٠٥.
(٢) البيرة: بلد قرب سميساط بين حلب والثغور الرومية. المصدر نفسه: جـ١ ص٥٢٦.
(٣) دُنَيْسر: بلدة من نواحي الجزيرة قرب ماردين بينهما فرسخان. المصدر نفسه: جـ٢ ص٤٧٨.
(٤) ابن بيبي: ص٢٠٣ ـ ٢٠٦، ٢١٥، ٢٣١ ـ ٢٣٣.
(٥) سميساط: مدينة على شاطئ الفرات في طرف بلاد الروم على غربي الفرات، ولها قلعة في شقٍّ منها يسكنها الأرمن. الحموي: جـ٣ ص٢٥٨.

التسرب المغولي إلى آسيا الصغرى

كان للصراع الدائر في منطقة إقليم الجزيرة بين الملوك والأمراء المحليين، وقيام الحروب المتواصلة بينهم، وتفاقم الخلافات، وتفتيت وحدة المنطقة نتيجة لذلك، الأثر الكبير في تمهيد الطريق أمام المغول لشن هجماتهم على المنطقة والنفاذ إلى آسيا الصغرى، والاستيلاء على بعض المواقع المهمة فيها، واتخاذها قواعد انطلاق لاحتلال ما تبقّى من العالم الإسلامي، وبخاصة العراق وبلاد الشام ومصر.

وصل المغول في أواخر عهد السلطان كيقباد الأول إلى منطقة حدود السلطنة السلجوقية، وظهروا في نواحي سيواس[1]، فقتلوا كثيراً من السكان واستاقوا الماشية، وعندما علم السلطان السلجوقي بذلك انتابه القلق، فأمر كمال الدين كاميار بالتصدي لهم، ولما وصل إلى سيواس كان المغول قد غادروها[2]، لكن هؤلاء أرسلوا رسالة إلى السلطان حملها إليه شمس الدين عمر القزويني يطلبون منه الدخول في طاعتهم ويحذِّرونه عاقبة العصيان. وإذ أدرك السلطان بثاقب بصره، أن من حسن السياسة مهادنة المغول في هذا الوقت، وافق على طلبهم، وجهَّز الهدايا لأمرائهم، غير أنه توفي قبل مغادرة الوفد المغولي بلاد الروم، فقام ابنه وخليفته السلطان غياث الدين كيخسرو الثاني بإتمام ما بدأه، وغادر القزويني مدينة قيصرية[3] حاملاً الرسالة الجوابية، وتتضمن الطاعة التامة للمغول.

ويبدو أن المغول لم يكتفوا بما أعلنه سلاجقة الروم من التبعية لهم، بل أرادوا بسط سيطرتهم المباشرة على البلاد بسبب موقعها المؤثِّر في سياستهم التوسعية المقبلة. وحدث، آنذاك، أن عُيِّن بايجو نويان قائداً للقوات المغولية في موقان وأرَّان خلفاً لجرماغون الذي أصيب بالشلل، ومن أهم أعمال القائد الجديد ما أجراه من القتال مع سلاجقة الروم وإخضاعهم لسلطة المغول[4].

(١) سيواس: مدينة في آسيا الصغرى حسنة العمارة واسعة الشوارع، غاصَّة بالناس.
(٢) ابن بيبي: ص١٨٢، ١٨٣.
(٣) قيصرية أو قيسارية: مدينة كبيرة عظيمة في بلاد الروم، وهي كرسي ملك بني سلجوق ملوك الروم. الحموي: ج٤ ص٤٢١.
(٤) باشي، منجم: صحائف الأخبار: ج٢ ص٥٦٨. D'ohsson: III pp79, 80.

شنَّ بايجو هجوماً على أرزن الروم في عام (٦٤٠هـ/١٢٤٢م) وحاصرها مدة شهرين تعرَّضت المدينة خلالهما للضرب المتواصل بالمجانيق. وتزعَّم قائد الحامية السلجوقية سنان الدين ياقوت عملية المقاومة التي كانت ناجحة في بادئ الأمر، فاشتبك مع القوات المغولية المقدَّرة بثلاثين ألف جندي في معارك جانبية خارج أسوار المدينة، كما عطَّل هطول الأمطار الخطط المغولية الهجومية. ولم تسقط المدينة إلا نتيجة خيانة شحنتها، وهو المشرف الدوني الذي سهَّل دخول القوات المغولية إليها مقابل الأمان له ولأتباعه. وجرت اشتباكات في الشوارع والأزقة استمرت ليلة كاملة، سيطرت القوات المغولية بعدها على المدينة. وحلَّ البلاء العام؛ فنهبت العساكر المغولية المنازل والمحلات التجارية، وسبت النساء والأطفال وقتلت الرجال بمن فيهم سنان الدين ياقوت وولده، وبعد أن استباحت المدينة عادت إلى موقان[1].

وحدث قبل أن تسقط المدينة أن أرسل كيخسرو الثاني جيشاً لمساندتها، ولما وصل أفراده إلى أرزنجان[2] تلقَّوا أنباء الكارثة، فعادوا أدراجهم، ثم دعا السلطان إلى عقد اجتماع عام لأعيان الدولة لدراسة الموقف.

معركة كوساداغ: الجبل الأقرع

تمخَّض عن الاجتماع الذي دعا إليه السلطان كيخسرو الثاني أمران:

الأول: توجيه رسالة تهديد إلى بايجو[3].

الثاني: دعوة ملوك وأمراء إقليم الجزيرة وحلب وأرمينيا الصغرى إلى تقديم المساعدة[4]، وتفاوت مدى الاستجابة وفقاً لقوة أو ضعف العلاقة بين هؤلاء الملوك والأمراء من جهة، والسلاجقة من جهة أخرى.

ومهما يكن من أمر، فقد عبَّأ السلطان كيخسرو الثاني جيشاً بلغ تعداده

(١) ابن بيبي: ص٢٣٤ ـ ٢٣٦. باشي. منجم: ج٢ ص٥٦٨. ابن العبري: ص٢٨٦، ٢٨٧. D'ohsson: III p80. Howorth: I p166, III p44.
(٢) أرزنجان: بلدة طيبة مشهورة من بلاد أرمينيا بين بلاد الروم وخلاط قريبة من أرزن الروم وغالب أهلها أرمن. الحموي: ج١ ص١٥٠.
(٣) انظر نص الرسالة عند: Howorth: III: p44.
(٤) Cahen, Cl: La syrie du Nord: p695.

ثمانين ألفاً، تألف معظمهم من جنود مرتزقة حلبيين وبيزنطيين ولاتين ومصريين، وفي المقابل بلغ عدد أفراد الجيش المغولي، الذي زحف إلى المنطقة، بين ثلاثين وأربعين ألفاً، وضمَّ متطوعين كرج وأرمن، للثأر من المسلمين، لكن بايجو أعاد معظمهم إلى بلادهم قبل نشوب القتال، وأبقى على الذين يثق بهم[1].

وعسكر الطرفان في سهل كوساداغ، بين أرزن الروم وأرزنجان، حيث دارت بينهما رحى معركة عنيفة في عام (٦٤١هـ/ ١٢٤٣م)، أسفرت عن انتصار المغول. ودُحر الجيش السلجوقي غير المتجانس، ولم يجد السلطان كيخسرو الثاني مفراً من الهرب إلى توقات، وأرسل والدته وابنتها إلى أرمينيا الصغرى، وتفرَّق الجيش السلجوقي، وفرَّ أفراده من أرض المعركة[2]، ودخل بايجو خيمة السلطان ونهبها. ثم جرت عملية مطاردة محدودة للفلول السجلوقية، وغنم المغول كثيراً من الذهب والفضة والجمال والخيول والبغال والمواشي، مما تركه السلاجقة وراءهم[3].

توجَّه الجيش المغولي بعد الانتهاء من سلب الغنائم إلى سيواس فدخلها ونهبها جزئياً، ثم تقدم إلى قيصرية التي تحصَّنت فيها القوات السلجوقية المنسحبة، وحاصرها، وضربها بالمناجيق، ثم دخلها واستباحها وأحرقها، وساق الأسرى إلى صحراء مشهد حيث قُتِل الرجال واقتُسمت الذراري والنساء[4].

كان لمعركة كوساداغ أثر حاسم في تراجع قوة الدولة السلجوقية، إذ وقع الأناضول في قبضة المغول، وعندما رأى السلاجقة أنفسهم عاجزين عن مواجهتهم أجروا مباحثات مع جرماغون بحضور بايجو[5]، وأعلنوا خضوعهم، وتعهدوا بدفع جزية سنوية[6]. وبهذا أضحت دولة سلاجقة الروم تابعة للمغول.

---

(١) ابن بيبي: ص٢٣٧، ٢٣٨. ابن العبري: ص٢٨٦.
Howorth: II p45. Armenian Documentary In R.H.C. vol III p158.

(٢) ابن بيبي: ص٢٣٧ ـ ٢٤١. Howorth: III pp45, 46.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) المصدر نفسه: ص٢٤١، ٢٤٢. Cahen: p695. Howorth: III p47.

(٥) يُفهم من رواية رشيد الدين أن جرماغون كان حاكماً على إيران: ص٤٩، ٥٠.

(٦) ابن بيبي: ص٢٤٢، ٢٤٣. ابن تغري بردي: جـ٦ ص٣٤٧.
D'ohsson: III p83. Howorth: III p47.

التوسع المغولي في الصين

بسط المغول سيطرتهم في عهد جنكيز خان على بعض أقاليم الصين الشمالية في ظل حكم أسرة كين، مثل شبه جزيرة شانتونغ وأطراف خليج بتشيلي والعاصمة بكين، واستمرت هذه الأسرة الصينية تحكم بقية أجزاء البلاد. وعندما غادر جنكيز خان المنطقة إلى الغرب لمحاربة الخوارزميين، خفَّ الضغط المغولي عن الصين الشمالية، حيث اقتصرت مهمة القائد المغولي موقلي، الذي تركه جنكيز خان هناك، على المحافظة على الإنجازات المكتسبة، فاستعادت أسرة كين أجزاء كبيرة من ممتلكاتها، واتخذت من مدينة بيان ـ كينغ، كاي ـ فونغ الحالية في مقاطعة هونان، عاصمة لها.

وعندما تولَّى أوكتاي العرش المغولي، قرَّر أن يستكمل ما بدأه والده للسيطرة على كامل الصين الشمالية، فأرسل جيوشه إليها مرتين في عامي (٦٢٦ ـ ٦٢٧هـ/ ١٢٢٩ ـ ١٢٣٠م)، غير أن قادته تعرَّضوا للهزيمة، عندئذ قرَّر قيادة العمليات العسكرية بنفسه، فخرج مع أخيه تولوي على رأس الجيش، فعبر النهر الأصفر إلى مقاطعة شانسي التي كانت مسرحاً لعملياته الأولى، وعسكر في سهل هوانغ ـ هو، الذي يُطلق عليه المغول قراموران، وهاجم الأراضي الواقعة بين تونغ ـ تشو وهو ـ تشونغ، وحاصر مدينة فونغ ـ تسيانغ ـ فو، فأبدت حاميتها مقاومة ضارية، والتمست المساعدة من الامبراطور الذي أمدَّها بقوة عسكرية بقيادة اثنين من خيرة قادته، غير أن هذه القوة تعرَّضت للهزيمة، واقتحم المغول المدينة واستولوا عليها، كما استولوا على معظم مدن مقاطعة شانسي.

وانسحب أوكتاي بعد هذه الانتصارات من المنطقة إلى شمالي سور الصين العظيم لتمضية فصل الصيف على ضفاف بحيرة إلون أوسو التي تبعد نحو خمسين ميلاً عن السور، وعقد اجتماعاً للقوريلتاي لدراسة الخطوة المقبلة للحرب ضد أسرة كين[1].

والواقع أنه بعد سيطرة المغول على مقاطعة شانسي، انحصرت سيطرة الصينيين على مقاطعة هونان الحصينة التي يحدُّها شمالاً النهر الأصفر، وغرباً جبال عالية منيعة بالإضافة إلى قلعة تونغ كيوان الحصينة، وغرباً امبراطورية سونغ[2].

---

(١) D'ohsson: II p20.

(٢) Howorth: I p118.

وضع الأخوان خطة عسكرية تقضي بتقسيم الجيش إلى قسمين بهدف إرباك القوات الصينية وحصرها بين فكي الكماشة من جهة، والاستيلاء على أكبر عدد ممكن من المدن الصينية.

الأول: بقيادة أوكتاي، ومهمته تنفيذ هجوم على مقاطعة هونان من الشمال.

الثاني: بقيادة تولوي، ومهمته مهاجمة الأراضي الصينية من ناحية الجنوب.

خرج تولوي من مدينة باوكي في مقاطعة شانسي على رأس ثلاثين ألف فارس، فعبر جبال هيوا التي تشكل الحدود الفاصلة بين امبراطوريتي سونغ وكين، ثم دخل أراضي هذه الأخيرة واستولى على عدة مدن في جنوبي شانسي وشمالي إقليم سوتشوان، وذلك في (صفر ٦٢٦هـ/كانون الثاني ١٢٢٩م)، ثم ظهر أمام نهر هونان في الجنوب، وفاجأ إقليم سوتشوان.

وتقدم أوكتاي على رأس بقية الجيش، من الشمال، وحاصر مدينة هوتشانغ في أقصى جنوب شانسي والقريبة من النهر الأصفر، واستولى عليها، ثم عبر النهر الأصفر عند يايبو وتابع زحفه عبر نهر هان، واصطدم بالجيش الامبراطوري المتقدم، والبالغ عدد أفراده مئة وثلاثين ألفاً، بالقرب من مدينة تانغ ـ تشو في مقاطعة هونان. كانت المعركة ضارية وبدا التعب على أفراد الجيش المغولي نتيجة السير مسافات كبيرة، واضطروا إلى الانسحاب من أرض المعركة، ويبدو أن الجيش الامبراطوري قد أنهكه القتال، فاكتفى بنهب المعسكر المغولي ولم ينفذ عملية مطاردة[1].

وسار تولوي نحو العاصمة كاي ـ فونغ، فعمد الصينيون إلى تدمير السدود على النهر الأصفر لإغراقها حتى لا تقع في أيدي المغول، لكن سرعة تحرك تولوي أفشلت هذه الخطة. فقد عبر النهر وقتل عشرة آلاف عامل كانوا قد أرسلوا من أجل هذه الغاية، إلا أنه لم يتمكَّن من اقتحام العاصمة، فتابع زحفه، والتقى بأخيه أوكتاي عند جبال سانغ ـ فونغ قرب يوتشاو، وحاصرا مدينة كيون ـ تشاو المهمة عسكرياً، وحفرا خندقاً حولها حتى لا يفر أحد من المحاصَرين، وسقطت المدينة أخيراً في أيديهما.

فتحت هذه المعركة الطريق أمام المغول للاستيلاء على كامل مقاطعة هوان. واستدعى الامبراطور الصيني التان خان، الذي يُدعى نن كياسو، كافة

(١) Howorth: I p119.

فرقه العسكرية من الجبهة الحدودية الشرقية للمساعدة، وعيَّن عليها القائد توشان أوتيان حاكم ثان ـ يسيانغ الواقعة على النهر الأصفر، واصطدم هذا القائد بالجيش المغولي إلا أنه خسر المعركة وتعرَّض جيشه للدمار التام، وفرَّ من بقي، وقليل ما هم، مع النساء والأطفال إلى الجبال للاحتماء بها، واستسلم حصن تانغ ـ كيوان للمغول ويُعدُّ مفتاح الدخول إلى مقاطعة هونان.

ويبدو أن أوكتاي اكتفى بهذه الفتوح حيث انتزع مساحات شاسعة من الأراضي الصينية، وعهد إلى قائده المشهور سوبوتاي بالاستيلاء على العاصمة. استعد الصينيون من جانبهم لخوض غمار هذه المعركة الفاصلة، ورفض الامبراطور الصيني عرضاً مغولياً بالاستسلام، وعبَّأ مائة ألف جندي وأمَّر عليهم قائداً كبيراً ودفعهم لقتال المغول، وغادر المدينة، واجتاز النهر الأصفر لتحريض سكان الأقاليم على الثورة ضد المغول، غير أن قواته هُزِمَت في كل مكان، وتسرَّب اليأس إلى سكان العاصمة التي حاصرها المغول وسقطت في أيديهم، وقتل سوبوتاي معظم سكانها، وكان ذلك في عام (٦٣١هـ/ ١٢٣٤م)[1].

ولجأ الامبراطور الصيني إلى مدينة نامكينغ قبل سقوط العاصمة، فلما بلغه خبر سقوطها ارتاب وانتابه اليأس، فجمع أفراد أسرته، ودخل الجميع بيتاً من الخشب، وأمر بإشعال النار فيه، فاحترقوا، وذلك أَنَفَة من الوقوع في أيدي المغول. وفي رواية أنه شنق نفسه[2].

وبهذا تمَّ للمغول الاستيلاء على كافة أقاليم الصين الشمالية وزالت دولة أسرة كين.

وحدث خلال العمليات العسكرية أن مرض تولوي، وتوفي في عام (٦٣٠هـ/ ١٢٣٢م)[3].

وفي الوقت الذي كان فيه المغول يستولون على مدن وأقاليم الصين الشمالية كان حكام الصين الجنوبية، من أسرة سونغ، يقدمون لهم المساعدات طمعاً في مصادقتهم وتجنُّباً لشرورهم، ثم بفعل العداء التقليدي بين أسرتي

(١) ابن العبري: ص٢٧٨. رشيد الدين فضل الله الهمذاني: جامع التواريخ: تاريخ خلفاء جنكيز خان من أوكتاي إلى تيمور خان: ص٣٩.

(٢) المصدران نفساهما. (٣) الهمذاني: المصدر نفسه: ص٣٧.

سونغ وكين، والراجح أنهم طمعوا في الحصول على نصيب في أراضي الصين الشمالية، ولكن خاب أملهم، فلم يمنحهم المغول أي شيء، عندئذ نشبت الحرب بينهم وبين المغول، وكانت هذه فرصة سانحة للمغول للقضاء على هذه الأسرة أيضاً وضمِّ أملاكها إلى دولتهم، لكن ذلك لن يتم إلا في عهد خلفاء أوكتاي.

الغزو المغولي لأوروبا الشرقية

السيطرة على القبجاق والبلغار

أشرنا في الفصل الثاني إلى جهود القائدين جيبي وسوبوتاي حين توغلا بين عامي (٦١٨ ـ ٦٢٠هـ/ ١٢٢١ ـ ١٢٢٣م) في الأراضي الروسية حتى حوض نهر الدنيستر، وسيطرا في طريقهما على مملكة الكرج، وأقاما في كل مكان إدارة مستقرة عسكرية وسياسية وجهازاً محكماً للاستطلاع وكشف نقاط الضعف في أوروبا الشرقية. وقد تعاون تجار البندقية، الذين كانت لهم مستعمرات تجارية في شمالي البحر الأسود، مع المغول مقابل إغلاق مراكز جنوة التجارية في المنطقة، والمعروف أن الجمهوريتين التجاريتين، البندقية وجنوة، كانتا في تنافس مستمر للسيطرة على تجارة البحر الأسود.

وتوقف الزحف المغولي باتجاه أوروبا في عام (٦٢٠هـ/ ١٢٢٣م) بسبب استدعاء جيبي وسوبوتاي إلى بلاد ما ور النهر ثم إلى منغوليا، وظلَّ الوضع هادئاً نحو جيل من الزمن قبل أن تُبعث خطط القائدين المغوليين من جديد في عام (٦٣٢هـ/ ١٢٣٥م).

والحقيقة أن اختبار القوة بين المغول والأوروبيين لم يحصل في عهد جنكيز خان، ولكنه بدأ بعد ثمانية أعوام من وفاته، في عهد خلفه أوكتاي، وكانت الظروف قد تهيأت لغزو أوروبا بفعل:

ـ شبكة من الجواسيس كان أعضاؤها يُرسلون تقارير دورية عن أوضاع الأوروبيين.

ـ إحجام البابوية عن الدعوة لحرب صليبية ضد المغول، بفعل أن البابا كان يأمل في استقطاب هؤلاء إلى النصرانية، وبخاصة أن قسماً منهم تحوَّل إلى المذهب النسطوري النصراني.

ـ وقوف سوبوتاي على أوضاع الأوروبيين السياسية، بالإضافة إلى طبيعة الأراضي الأوروبية.

ـ انهماك الأمراء والحكام الأوروبيين بخلافاتهم الداخلية ما حجب عنهم معرفة أي شيء عن خطط وقوى وأساليب المغول[1].

وعهد القوريلتاي، الذي انعقد في عام (٦٣٢هـ/ ١٢٣٥م)، إلى باطو بن جوجي حاكم الأرال والأورال بقيادة الجيش العامل في أوروبا، وكلَّفه بمواصلة الحرب، وعيَّن له سوبوتاي رئيساً للأركان، والواقع أن هذا الأخير كان القائد الفعلي للجيش ولم يكن باطو سوى قائد عام اسمي، ورافقه ممثلون عن كل فروع أسرة جنكيز خان[2].

وضع كل من باطو وسوبوتاي خطة عسكرية تقضي أولاً بتحطيم قوة القبجاق والبلغار على طول مجرى نهري الڤولغا والدون لتأمين خطوط مواصلاتهما مع الشرق. ابتدأت العمليات العسكرية في (أوائل ٦٣٤هـ/ خريف ١٢٣٦م) بتدمير مملكة البلغار التركية الواقعة على نهر كاما، في منطقة الحوض الأعلى لنهر الڤولغا حتى جبال الأورال، بما فيها العاصمة بلغار، المدينة التجارية الهامة الواقعة بالقرب من نهر الڤولغا في الجهة الجنوبية عند التقائه بنهر كاما[3].

وفي (أواسط ٦٣٤هـ/ ربيع ١٢٣٧م) هاجمت فرقة مغولية بقيادة منكو، الأتراك الوثنيين الذين ينزلون في البراري الروسية في منحدرات نهر الأورال، وتغلَّبت عليهم وقتلت حاكمهم[4]، والمعروف أن هذا العنصر التركي أضحى أساس سكان خانية المغول المعروفة باسم خانية القبجاق، والتي عُرفت أيضاً باسم القبيلة الذهبية والتي خضعت لسلطان أحد فروع بيت جوجي.

العمليات العسكرية على الجبهة الروسية

الأوضاع الداخلية للإمارات الروسية قبيل الغزو المغولي

توقف تاريخ روسيا بقسوة منذ الربع الأول من القرن السابع الهجري/ الربع الثاني من القرن الثالث عشر الميلادي، بفعل الغزو المغولي، وكان التصدع

---

(١) صفا: ص٢٨٨.   (٢) الهمذاني: ص٥٣ ـ ٥٥.

(٣) المصدر نفسه: ص٥٥، ٥٦. العريني: ص١٨٠.

Vernadsky: The Mongols and Russia: pp48, 49. Howorth: I pp137, 138.

(٤) العريني: ص١٨٠. Howorth: I p138.

Chambers, James: The Devil's Horseman: The Mongol Invasion of Europe: pp70, 71.

في هذه المساحات السلافية الشاسعة قد لحق بإمارة كييف، وذلك بفعل عوامل عدة أهمها:

- نظام الوراثة وانتقال السلطة القاضي بتوزيع الأراضي، وفقاً لتسلسل معين، كلما توفي أحد أفراد العائلة المالكة التي مارست سيادة متضامنة.
- التوسع التجاري الروسي نتيجة تحول التجارة شطر ألمانيا وقزوين مع تجاوز القسطنطينية، وأدَّى ازدياد الثروات الناتجة عن التجارة إلى تفشي اللهو والفساد.
- غارات سكان السهول من القبجاق الذين طردوا سلافيي المناطق الجنوبية وأرغموهم على السكن في السهول القليلة السكان التي يرويها نهر الدنيستر، أو في منطقة الغابات شبه المقفرة في الشمال الغربي والتي تمتد حتى أواسط نهر الڤولغا.

نشأ عن هذا التشتُّت:

- قيام شعوب مختلفة مثل الأوكرانيين، الروس البيض والروس الطوال.
- استقلال منطقتين هما نوفغورود وبسكوف في أقصى الشمال، وقد مارستا التجارة.
- تأسيس إمارة سوزدال التي ستنمو فيها مدينة موسكو، تحت حكم الدوق الأكبر يوري الثاني(١).

السيطرة على الإمارات الروسية

المرحلة الأولى: مرَّت السيطرة المغولية على الأراضي الروسية بمرحلتين، ابتدأت الأولى في (أواخر ٦٣٥هـ/ شتاء ١٢٣٧م)، فعبر المغول نهر الڤولغا بعد أن أمَّنوا خطوط مواصلاتهم مع الشرق، في طريقهم لمهاجمة الإمارات الروسية معتمدين على عنصر المفاجأة، ويُعدُّ هذا قراراً جريئاً بفعل قساوة الطبيعة في ذلك الفصل من السنة، بالإضافة إلى عدم استعداد الروس للمقاومة في فصل الشتاء، عادة، واعتقادهم بأن الحملة المغولية ضد البلغار ستستغرق وقتاً طويلاً(٢).

---

(١) برُوي، إدوارد: القرون الوسطى، تاريخ الحضارات العام: جـ٣ ص٣٥١.

(٢) صفا: ص٢٩٠. لم يجرؤ أي قائد عسكري، على مدار التاريخ، على القيام بمثل هذه المغامرة، وهي مهاجمة روسيا في فصل الشتاء، باستثناء اثنين هما نابوليون بونابرت وهتلر، =

ويبدو أن المغول تعوَّدوا في منغوليا على البرد القارس وقسوة الظروف المناخية، كما أن تجمُّد البحيرات والأنهار والأقنية الكثيرة، في شمالي روسيا في فصل الشتاء، كان عاملاً مساعداً جعل عبور القوات المغولية عليها أمراً يسيراً من دون مشقة(١).

كانت مدينة فلاديمير المحصَّنة، والواقعة على أحد فروع نهر الڤولغا إلى الشمال من ريازان؛ أقوى قاعدة في روسيا، وهي تحت حكم الدوق الأكبر يوري الثاني حاكم مدينة سوزدال، ويبدو أن المغول تجنَّبوا مهاجمتها في بادئ الأمر، وهاجموا مدينة ريازان الواقعة على نهر أوكا. والمعروف أن تجزئة الأراضي بين الأمراء الروس، أضعفت مقاومتهم، فقد حكم الأخوان يوري ورومان إيغورفيتش إمارتين متجاورتين، فانفرد الأول بحكم إمارة ريازان وحكم الثاني إمارة كولومنا(٢).

وعندما وصل المغول إلى ضواحي ريازان أرسلوا إنذاراً إلى حاكمها بتسليمهم عُشْر السكان وكل العتاد والخيول، وتدمير حصون المدينة، غير أنه رفض الإنذار ومنع سفراء المغول من دخول المدينة، وأصرَّ على المقاومة، والتمس المساعدة من الدوق الأكبر يوري الثاني، غير أن هذا رفض مدَّ يد المساعدة.

حاصر المغول مدينة ريازان مدة خمسة أيام وضربوها بالمجانيق قبل أن يقتحموها في (٢ جمادى الأولى ٦٣٥هـ/ ٢١ كانون الأول ١٢٣٧م)، فاستباحوها وقتلوا كل سكانها بحيث لم يبقَ أحد منهم على قيد الحياة ليذرف الدمع على القتلى، أو يروي خبر هذه الكارثة، وكان حاكمها يوري من بين القتلى(٣).

تقدَّمت القوات المغولية بعد ذلك باتجاه الشمال، واستولت على مدينة كولومنا ولقي أميرها رومان مصرعه، وكانت مدينة موسكو هدفهم التالي، فانقضوا عليها ونهبوها ودمَّروها في (١٥ جمادى الآخرة ٦٣٥هـ/ ٢ شباط ١٢٣٨م)(٤).

= وقد فشلا في تحقيق أهدافهما وارتدت قواتهما خائبتين.

(١) Vernadsky: p50.   (٢) Howorth: I p139.

(٣) Ibid. Dmytryhym, Basil: Medieval Russia: pp87, 88.

(٤) الهمذاني: ص٥٨. Howorth: I p139. Morfill: Russia p39.

أصيب الدوق الأكبر يوري الثاني بالذعر والاضطراب عندما التفَّ المغول حول جناح مدينة فلاديمير التي كانت هدفهم التالي، فهرب إلى الشمال واتخذ مقراً له على نهر سيت حيث كان يأمل في تلقي المساعدة من المناطق الشمالية، وترك مدينة فلاديمير تواجه مصيرها المحتوم، فحاصرها المغول واقتحموها بعد ستة أيام من الحصار والضرب المتواصل، وذلك في (٢١ جمادى الآخرة/ ٨ شباط) وقتلوا كل سكانها. وحلَّت الهزيمة بالدوق الأكبر يوري الثاني ولقي مصرعه تحت سنابك خيول المغول[١]، وأضحت الدفاعات على نهر سيت عرضة للسقوط في أية لحظة، والواقع أنها سقطت بأيدي المغول بشكل سريع.

توجَّه المغول، بعد ذلك، إلى مدينة نوفغورود، وكانت أقرب إلى الاستسلام بعد التدمير الهائل الذي أصاب باقي المدن، ولم يكن باستطاعة سكانها ورجال الدين فيها سوى الدعاء والتضرع لله لينقذهم من خطرهم. والواقع أن المغول تحوَّلوا عنها وهم على بُعد مائة كيلومتر منها بسبب ذوبان الثلوج على الأرجح، حيث تحوَّلت الأرض إلى مستنقعات يتعذر اجتيازها، وتوجَّهوا نحو الجنوب إلى حوض نهري الدون والڤولغا ليستريحوا هناك قبل أن يستأنفوا هجماتهم في جولة أخرى، وقد تجاوزوا جميع المدن باستثناء كوزيلساك الصغيرة في إقليم كالوجا، فاستولوا عليها وقتلوا جميع سكانها. وهكذا انتهت المرحلة الأولى من الحملة المغولية على الروسيا[٢].

المرحلة الثانية: انقضى عام (٦٣٦هـ/ ١٢٣٩م) من دون أنشطة عسكرية تُذكر، فجرت عمليات محدودة في المنطقة الواقعة شمالي بحر قزوين، من أجل فرض نفوذ المغول على المنطقة أو لجمع الضرائب، كما قامت القوات المغولية ببعض العمليات العسكرية في المناطق الواقعة شمالي البحر الأسود وفي المنطقة الشرقية على ضفاف نهر أورال، حيث تعيش قبائل القبجاق والباشغر التي تسكن منحدرات هذا النهر. والواضح أنها كانت عمليات استكشافية أكثر منها غزو عسكري، ولكنها أدَّت إلى فرار أربعين ألفاً من السكان باتجاه الغرب بمن فيهم كوتان، ملك القبجاق، ووصلوا إلى بلاد

(١) الهمذاني: ص٥٨. الرمزي: جـ٢ ص١٢٨، Howorth: I p139.

(٢) الهمذاني: المصدر نفسه. الرمزي: جـ١ ص٣٧٥. Ibid. Chambers: p76. Vernadsky: p51.

المجر حيث منحهم ملكها بيلا الرابع حق الاستقرار والحماية مقابل اعتناقهم النصرانية، وشكَّل هؤلاء الهجرة الأولى إلى تلك البلاد، وكانت سبباً في غزو المغول لتلك المملكة[١].

استأنف المغول نشاطهم العسكري باتجاه الغرب في عام (٦٣٧هـ/ ١٢٤٠م)، وهو الطريق الذي سيؤدي إلى أوروبا في مراحل مقبلة، وفق تخطيط جديد على ضوء التجارب السابقة مع المدن الروسية، وعلى ضوء المعلومات التي جمعها قادتهم من حكام المدن وأسراها الذين وقعوا في أيديهم ونجحوا، في أشهر قليلة، في الاستيلاء على مدينتين هامتين تقعان على نهر الدنيبر هما تشيرنيكوف وبرياسلاف، ويبدو أنهم لم يصادفوا مقاومة تُذكر ما أغراهم بالتقدم إلى الشمال وحاصروا مدينة كييف الهامة والواقعة على نهر الدنيبر أيضاً، وقد رفضت حاميتها الاستسلام لهم، فدكُّوا أسوارها بالمجانيق واقتحموها في (١٩ جمادى الأولى ٦٣٧هـ/ ٦ كانون الأول ١٢٤٠م)، ولقي معظم سكانها مصرعهم، وأبقى باطو على حياة قائد الحامية ديمتري نظراً لبسالته في الدفاع عنها، وهرب قادتها إلى بلاد المجر[٢].

كان من نتائج سقوط كييف أن أسرع أمراء منطقة أوكرانيا إلى تقديم فروض الولاء والطاعة للقادة المغول، وتعهدوا بتقديم ما تفرضه عليهم القيادة المغولية من غذاء للقوات وعلف للحيوانات، وأضحى المغول على مشارف حدود أوروبا الشرقية.

وعلى هذا الشكل سقطت كل روسيا بأيدي المغول، واستمرت تلك المناطق خاضعة لهم مدة قرنين ونصف من الزمن (٦٣٦ ـ ٨٨٦هـ/ ١٢٣٩ ـ ١٤٨١م).

العمليات العسكرية في أوروبا الشرقية

غزو بولندا: كانت المجر الهدف التالي بعد كييف، حيث السهول الواسعة الغنية بالمراعي والمحمية من جهة الشمال والشرق بجبال الكربات والتي تشكل قاعدة عسكرية مهمة للنفاذ إلى وسط أوروبا وغربها. وحشد باطو في

(١) Howorth: I p141. Vernadsky: pp51, 52. الرمزي: جـ١ ص٣٧١.

(٢) الهمذاني: ص٥٨. الرمزي: جـ١ ص٣٧٢، ٣٧٣. Rambaud: Histoire de la Russie: pp129-131.

(رجب ٦٣٨هـ/ كانون الثاني ١٢٤١م) قواته في منطقة لامبرغ في غاليسيا في مكان بين نهر الفيستولا وبلدة هاليكس، تمهيداً لشق طريق له عبر حاجز جبال الكربات للوصول إلى العاصمة بودابست، لكن كان عليه أن يؤمِّن الحماية لجناح جيشه الأيمن من خطر قد يأتي من جانب البولنديين والألمان المتأهبين للتصدي له، وأن يحترس من تدخل نمساوي أو بوهيمي محتمل، لذلك فصل قسماً من جيشه يقدَّر بثلاثين ألفاً بقيادة قايدو وبايدار، ابني جغتاي، لاجتياح بولندا(١).

كان الملك البولندي بوليسلاف الثالث قد قسَّم بلاده على أولاده الأربعة في عام (٥٣٣هـ/ ١١٣٩م) تجنباً لحرب أهلية كانت محتملة، لكنه ترك وراءه خلافات وصراعات داخلية بين الإخوة المتنازعين، وعندما غزا المغول البلاد كان هناك تسعة أمراء يحكمون مقاطعات بشكل شبه مستقل، لذا لم يتوفر فيها حكومة مركزية قوية لتوحيد الجهود في مواجهة المغول، ولم يكن للملك بوليسلاف الثالث، الذي يحكم كراكوف وساندومير، إلا سيطرة اسمية(٢).

انقسمت القوات المغولية الزاحفة على بولندا إلى قسمين: الأول: بقيادة بايدار ووجهته مدينة كراكوف الواقعة على نهر الفيستولا، والثاني: بقيادة قايدو. عبر بايدار مع قواته نهر الفيستولا في (رمضان ٦٣٨هـ/ آذار ١٢٤١م) عند سندومير، واستولى على هذه المدينة، وسحق قوة بولندية بقيادة الملك بوليسلاف الثالث عند كميلنيك، ثم هاجم كراكوف واستولى عليها وأحرقها(٣).

لم يكن أمام الملك البولندي سوى التماس المساعدة من جيرانه الذين شعروا بالخطر الداهم. وهكذا تشكَّل حلف مناهض للمغول ضمَّ بولندا والدوق هنري الثاني، حاكم سيليزيا، وجماعة الفرسان التيوتون المقيمين عند سواحل بحر البلطيق، بالإضافة إلى منظمات الفرسان الرهبان، الهيكل والأسبتارية، وقد تولى الدوق هنري الثاني القيادة العامة، وتجمَّعت قوى التحالف عند مدينة ليجنتز(٤).

(١) Broswell. A: Territorial Division and the Mongol Invasions, 1202-1300: I p92.

(٢) كانت بولندا محاطة من الشمال بـ: بروسيا وبوميرانيا، ومن الشرق بـ: ليتوانيا وغاليسيا، ومن الجنوب: بجبال الكربات، ومن الغرب بممر براندبورغ وسيليزيا.
D'ohsson: II p121. Howorth: I p142.

(٣) Ibid..... Ibid....

(٤) Cheshire, Harold, T: The Great Tartar Invasion of Europe: V pp89-105. Chambers: pp98, 99. Howorth: I pp143, 144.

وتجمَّعت القوات المغولية من جديد، وتقدمت غرباً نحو مدينة بريسلاو الواقعة في إقليم سيليزيا إلى الجنوب من بولندا، وتقع على الضفة الغربية لنهر الأودر، فاقتحمتها وأحرقتها، وتابعت تقدمها نحو مدينة ليجنتز للاصطدام بقوى التحالف. وجرى اللقاء بين الطرفين في مدينة فاهلتشتات القريبة منها في (٢٥ رمضان ٦٣٨هـ/ ٩ نيسان ١٢٤١م)، دارت الدائرة فيه على قوات التحالف، وقُتل الدوق هنري الثاني في المعركة مع معظم نبلائه، وأحرق المغول مدينة ليجنتز(١).

كان الجيش البوهيمي، بقيادة الملك ونسلاس، بعيداً على مسيرة يوم من ليجنتز، فلم يشترك في المعركة، وعندما علم بنتيجتها قرَّر مهاجمة الجيش المغولي لاعتقاده بأنه لا بدَّ أن يكون منهكاً بفعل التنقلات السريعة والسير المتواصل والقتال، غير أن تحركه كان بطيئاً، ولم يستطع اللحاق بالخيالة المغولية الخفيفة الحركة. ونجح هؤلاء في حمله على المسير شمالاً باتجاه كلافس، وفشل في إيقاعهم بالأشراك التي نصبها على طول الطريق. وخرَّب بايدار وقايدو سيليزيا ودمَّرا مورافيا، ومنعا الجيش النمساوي من تقديم المساعدة للمجر. وبعد أن حقَّقا هدفهما تحوَّلا نحو الجنوب للانضمام إلى الجيش المغولي الرئيس، بقيادة باطو، الزاحف نحو المجر، ودمَّرا في طريقهما المدن الصغيرة والأديرة المجاورة في إقليم بوهيميا، وفرَّ الناجون إلى الكهوف والغابات، ولم يجرِ تدمير هذا الإقليم نظراً لضيق الوقت(٢).

غزو المجر: في الوقت الذي تحرَّكت فيه بعض القوات المغولية بقيادة قايدو وبايدار لغزو بولندا، غادر باطو وسوبوتاي روسيا في طريقهما إلى بلاد المجر الواقعة إلى الجنوب من بولندا، وهي تحت حكم بيلا الرابع، واتخذت قواتهما طريقها عبر غاليسيا في بداية الأمر بعد أن عبرت نهر الدنيستر، ثم انقسمت إلى ثلاثة جيوش لتدخل البلاد من ثلاثة محاور وفق تخطيط عسكري بارع، عبر ممرات جبال الكربات في الشمال، ومن ناحية الشرق ومن بولندا في الغرب، على أن تجتمع أمام العاصمة بودابست الواقعة على نهر الدانوب(٣).

(١) Howorth: I pp145-148. Chambers: pp98, 99.

(٢) Howorth: I pp145, 146.

(٣) Ibid: p146.

توقَّع الملك بيلا الرابع أن يغزو المغول بلاده بسبب إيوائه العناصر التي فرَّت من المناطق الروسية، فاتخذ الإجراءات الضرورية لصدهم، ولما كانت بلاده دولة صغيرة محدودة الإمكانات، فقد اعتمد على هؤلاء المهاجرين من جهة، وحصَّن ممرات جبال الكربات لعرقلة تقدم القوات المغولية من جهة أخرى، ثم دعا إلى عقد اجتماع كبير في بودا، وهي الشطر الغربي من العاصمة، لتدارس الموقف، حضره كبار رجال الدين والنبلاء والقادة العسكريون، ويبدو أنه لم يتمكَّن من السيطرة بسبب تباين وجهات النظر بينه وبين النبلاء الذين طالبوا بإعادة الامتيازات التي كانت ممنوحة لهم وحرمهم منها والده أندرو الثاني، بالإضافة إلى طرد القبجاق الذين عدُّوهم السبب الرئيسي والمباشر لغزو المغول لبلادهم. رفض الملك المجري طلب النبلاء الأول ووافق على الثاني، فقبض على بعض قادة القبجاق، وعلى رأسهم زعيمهم كوتان وأودعهم السجن، لكن هذا التصرُّف أدَّى إلى نتائج عكسية، إذ ثارت عناصر القبجاق وعاثت فساداً في البلاد، وأضحت مصدر إزعاج، فدبَّت الفوضى في المملكة، الأمر الذي سهَّل مهمَّة المغول الذين تقدموا عبر ممرات جبال الكربات ووصلوا إلى المجر في (٢٠ رمضان ٦٣٨هـ/ ٤ نيسان ١٢٤١م) ليواجهوا بيلا الرابع وجيشه البالغ مائة ألف مقاتل[١].

اعتمد المغول على مبدأ المناورة لاختيار زمان ومكان المعركة، فتراجعوا عن نهر الدانوب باتجاه الشرق في خطوة تكتيكية ما أغرى الجيش المجري إلى عبور النهر لمطاردتهم، متخلياً عن الحماية الطبيعية التي كان يؤمنها له النهر[٢].

وصل المغول إلى نهر ساجو، أحد فروع نهر الدانوب، فعبروه فوق جسر قرب قرية موهي، وعسكروا على المرتفعات التي تفصلها عن النهر، أرض موحلة، وستروا معسكرهم بالأغصان وأوراق الأشجار لكي يخفوه عن المراقبة من جهة النهر، وانتظروا وصول الجيش المجري للاصطدام به في هذا المكان، وعندما وصل، عَسْكَرَ على الضفة الغربية المقابلة تاركاً النهر يفصل بينه وبين الجيش المغولي، لكن أفراده نصَبوا الخيام متلاصقة تحسباً بحيث أضحت حبالها تشكل عائقاً لهم على التحرك بحرية، وقد لاحظ باطو هذا

(١) عمران: ص٥٠، ٥١. Howorth: I pp146, 147.

(٢) Ibid: p148.

التدبير السيء، فقرَّر البدء بالقتال، فاستقطب عدداً كبيراً من القبجاق وسلخهم عن الجيش المجري الأمر الذي أضعف قوته. وجرى اللقاء الضاري بين الطرفين بالقرب من جسر مدينة موهي في (٢٧ رمضان/ ١١ نيسان)، وأسفر عن انتصار واضح للمغول. والواقع أن النتيجة كانت عبارة عن مذبحة مروعة في صفوف الجيش المجري الذي أُبيد بكامله تقريباً، وهرب بيلا الرابع من أرض المعركة[١].

وهكذا انهارت مقاومة المجريين، ودخل المغول مدينة بودابست وأحرقوها ودرسوها بالأرض. واجتاحت قوة مغولية مدينة گران، العاصمة الروحية للمجر، وإقليم ترانسلڤانيا ووصلت قريباً من ڤيينا في حين طاردت قوة أخرى الملك المجري الهارب باتجاه الجنوب الغربي إلى ساحل دلماسيا على البحر الأدرياتيكي عبر كرواتيا وزغرب، فاستقر أولاً في مدينة سبالاترو، ثم غادرها إلى جزيرة تراو الواقعة في خليج كاستللو، أمام سواحل ألبانيا، فتعقَّبه قدان إلا أنه فشل في النيل منه، فهاجم عندئذ مدينة كاتارو، الواقعة بين راجوزة ودورازو، فقتل سكانها وأحرقها، ثم دخل ألبانيا وخرَّب دويڤاك ودريڤاستو، وكانت هذه أبعد نقطة في الجنوب وصلت إليها الحملة المغولية. ولعدم وجود قوات بحرية لدى المغول، لم يكن بوسعهم أن يتعاملوا مع هذه المنطقة[٢].

نتج عن معركة موهي وقوع المجر في أيدي المغول، ونظَّم باطو الإدارة المحلية، ولعله أراد أن يضمَّ البلاد إلى الامبراطورية المغولية، فهدأت أوضاعها وقنع السكان بالحكام الجدد.

لم يقم باطو بأية محاولة لمواصلة الزحف غرباً خارج حدود المجر باستثناء الحملة التي أرسلها إلى الحدود النمساوية، والواقع أنها كانت حملة استكشافية تمهيداً لاجتياح النمسا على ما يبدو، إلا أنه اضطر إلى وقف الزحف المغولي عند هذه النقطة، وانسحب من المجر والبلقان إلى جنوبي روسيا بالسرعة نفسها التي دخل فيها هذه المناطق. فما الذي تغيَّر في الأفق السياسي حتى أقدم على هذه الخطوة؟ الواقع أن الانسحاب مرده إلى عدة أسباب نذكر منها:

(١) Sinor, Dennis: History of Hungary: pp72, 73. Vernadsky: pp56, 57. Thompson: The Middle Ages: II p1006. Cheshire: pp98, 99.

(٢) عمران: ص٥٢. Howorth: I pp150-152. Vernadsky: p57.

- وفاة الخان الأعظم أوكتاي، فاضطر للذهاب إلى قراقورم للاشتراك في انتخاب الخان الأعظم الجديد، والمعروف أنه كان من أبرز المرشحين لهذا المنصب.
- نشوب خلافات شخصية بينه وبين كل من كيوك بن أوكتاي وبيوري حفيد جغتاي منذ حصار كييف، فتركا الحملة وعادا إلى قراقورم وهما حانقين عليه، فخشي من وصول أحدهما إلى عرش الخانية فيمنع عنه الإمدادات العسكرية من الشرق، وهو في وسط أوروبا.
- ربما أدرك أن المدة التي تعقب وفاة الخان الأعظم وتولِّي غيره، تكون مدة استرخاء عسكري، فخشي من ردِّ فعل فوري للغرب الأوروبي بعد المذابح التي ارتكبها في شمالي أوروبا وشرقها وأن يؤدي ذلك إلى تدمير كل جيوشه[١].

الإنجازات المدنية لأوكتاي

إنشاء العاصمة قراقورم: مال أوكتاي، خلال حياته السياسية، إلى العمارة وتشييد المدن والقصور متأثراً بمستشاريه، وبخاصة الفيلسوف الصيني يي - ليو - جوتساي. ففي عام (٦٣١هـ/ ١٢٣٤م) أمر مهندسيه الصينيين، الذين جلبهم معه من بلاد الخطا، أن ينشئوا له مدينة جديدة في منطقة قراقورم في منغوليا، حيث كان يمضي معظم أوقاته، فاختاروا مكاناً يقع على أطلال مدينة أويغورية خربة على ضفاف نهر أورخون، وبنوا له مدينة أطلق عليها اسم أوردو باليغ، أي مدينة البلاط، لكن بفعل قربها من جبال قراقورم اشتهرت في التاريخ بهذا الاسم، وجعلها أوكتاي عاصمة له[٢].

والواقع أن لموقع قراقورم أهميتين: تاريخية وإدارية.

فمن حيث الأهمية التاريخية، فقد اختارت الامبراطوريات التركية والمغولية السابقة، حواضرها في منطقة أعالي نهر أورخون، كما وقع اختيار جنكيز خان على منطقة قراقورم، أو على مكان قريب منها، ليكون مقراً لحاضرته من الناحية الاسمية.

ومن حيث الناحية الإدارية، فإن للعاصمة قراقورم ما يصح الإفادة منه في

(١) Vernadsky: p58. Howorth: I p152.

(٢) الجويني: جا ص١٩١ - ١٩٣. الهمذاني: ص٦٠.

إدارة منغوليا بفعل وقوعها وسط هذا الإقليم، ما يساعد على توثيق الروابط بين الموطن الأصلي لأسرة جنكيز خان عند منابع نهري أونون وكيرولين، وبين المناطق التي كانت خاصة بأوكتاي على نهري إريتش وإيميل[١].

كذلك أمر أوكتاي بتشييد قصر عالي البنيان في العاصمة قراقورم يبلغ طول كل ضلع من أضلاعه قذف سهم بعيد المرمى، ثم زخرفه وزيَّنه بمختلف فنون النقش والتصوير، وسماه «قرشي»[٢]، واتخذه الخان الأعظم مقراً لحكمه[٣].

وأصدر بعد ذلك أمراً بأن يبني كل من الإخوة والأبناء وسائر الأمراء، الذين كانوا يلازمونه، دوراً فخمة حول القصر، فامتثلوا جميعاً للأمر. وعندما انتهى تشييد تلك المباني واتصل بعضها ببعض بدت مجمعاً من العمارات المكتظة والبالغة حد الروعة والترف، ثم أمر الصيَّاغ بأن يصوغوا لمجلس الشراب أواني كبيرة من الذهب والفضة على هيئة الحيوانات وأشكالها، كالفيل والأسد والحصان وغير ذلك، وأن يجعلوها بمثابة دنان الخمر، وكانوا يملؤونها بالشراب والقميز[٤]، ويضعون أمام كل منها حوضاً من اللجين، فكان الشراب يسيل من منافذ تلك الحيوانات وينساب في تلك الأحواض[٥].

نظام البريد: وبادر أوكتاي بإنشاء نظام البريد لسدِّ حاجة الامبراطورية من الناحية العسكرية، واقتصرت مهمته آنذاك على تسهيل انتقال مبعوثي الخان الأعظم وحاملي رسائله، والهدف هو تجنُّب الإعاقة والتأخير ووقوع الظلم على السكان من جانب عمال الدولة المسافرين في مهمات عاجلة[٦].

أقيمت محطات البريد على الطريق بين بلاد الخطا حتى مدينة قراقورم. ويتم اختيار فرس البريد من بين ألف فرس، ويُسمح لسفراء الخان الأعظم ومبعوثيه، إذا لم تتوفر الخيل في المحطات، أن يمروا بمنازل القبائل الرعوية، أي استعمال خيل السكان المحليين، ويتم هذا فقط إذا كانت المهمة المنوطة بهم تحمل طابع الخطورة والعجلة.

وتُزَوَّد محطات البريد بما يحتاج إليه حاملو البريد من الخيل والمأكل

(١) العريني: ص١٦١.

(٢) قرشي: كلمة مغولية بمعنى قصر.

(٣) الهمذاني: ص٥٩، ٦٠.

(٤) القميز: اللبن المستخرج من حليب الأفراس.

(٥) الهمذاني: ص٦٠.

(٦) الجويني: جا ص٢٤، ٢٥.

والمشرب، واقتضى هذا بدوره بناء مخازن لحفظ المواد الغذائية وتأمين قطعان الماشية اللازمة، وخُصِّص لكل «نارين يام»، أو محطة بريد فصيلة من الجند مؤلفة من ألف جندي لحراستها، وعُرف اسم البريد في اللغة المغولية بـ«أولاغ»[١]، وميَّز المغول بين البريد العادي والبريد الخاص بعاصمة الدولة.

أقيمت بين بلاد الصين وقراقورم سبع وثلاثون محطة بريد، يفصل بين كل واحدة منها خمسة فراسخ أي حوالي عشرين ميلاً. وكانت الأغذية والمؤن تمر بهذا الطريق في كل يوم محملة على خمسمئة عربة كبيرة يجرُّ كل واحدة منها ستة ثيران[٢].

ومن الواضح، في ظروف كهذه، أنه لم تعد ثمة حاجة إلى تجارة الغلال مع الأقاليم الغربية التي وضع أساسها جنكيز خان وخاض حروباً من أجل تأمينها، وتحوَّلت التجارة المغولية إلى الصين لتأمين حاجات المغول من الغلال والأغذية، وهذا تطور سوف يؤدي إلى:

ـ ابتعاد حكّام منغوليا عن الاهتمام الجدي، تدريجياً، بالعالم الإسلامي في غربي آسيا بالإضافة إلى روسيا وتركيزهم على جنوب شرقي آسيا، مما سيسمح لخانات المغول في الغرب الاستقلال عن قراقورم.

ـ تأثر الحالة الاقتصادية في منغوليا بالتطورات الداخلية، من ذلك انقطاع المواد الغذائية عن تلك البلاد بسبب الحرب بين قوبيلاي وأريق بوقا، وحدوث مجاعة في العاصمة[٣].

وعمَّم المغول هذا النظام، فأقاموا محطات البريد ومخازن الغلال على الطرق الأخرى، وربطوا الطرق الرئيسة بين ديار أوكتاي وجغتاي وباطو. هذا ولم تُحقِّق إجراءات أوكتاي الفوائد المرجوة منها بسبب إساءة استعمال الحقوق من قِبَل رسل البريد والتجار، من ذلك أن هؤلاء الذين سمح لهم القانون بالمرور بمناطق سكن البدو واستعمال خيل السكان المحليين، أدَّى إلى كل ضروب الفساد، بالإضافة إلى ذلك أضحى التجار الذين تمتَّعوا بحماية كبار رجال المغول وعمّال دولتهم، يستعملون خيل البريد أيضاً في أعمالهم

(١) الهمذاني: ص٦٠. وقارن بالجويني الذي يذكر أنه خُصِّص لكل نارين يام تومانان: جـ١ ص٢٤.

(٢) الهمذاني: المصدر نفسه. (٣) الهمذاني: ص٢٥٠.

الخاصة، واستدرك الخان الأعظم منكو، حين اعتلى العرش المغولي تلك السلبيات[١].

النظم المالية والضرائبية: نظَّم أوكتاي الضرائب منذ عام (٦٣٢هـ/ ١٢٣٥م) ولا يتحدث الهمذاني إلا عن ضريبة الأرض، وتُقدَّر بعشر المحصول، وعن الضريبة التي تجبى من الرُّحَّل أو ما يسمى بالقوبجور، وذلك بأن يؤخذ عن كل مائة رأس منها، رأس واحدة، وكانت حصيلة ما يُجمع من الغلال والماشية، يُوزَّع على الفقراء والمحتاجين[٢].

ووضع يي ـ ليو ـ تشوتساي ميزانية ثابتة للدولة، وألزم الصينيين بأن يؤدوا الضرائب نقداً ونوعاً بما يجري تقديره من أثواب الحرير، عن كل أسرتين چيناً من الحرير لخزينة الدولة، وعن كل خمس أسر چيناً من الحرير خاص بالأمراء، كذلك كانت الضرائب تُجبى من أهل كل بيت. ويتفاوت مقدار الضريبة على الأرض من مكان إلى آخر وفقاً لخصوبة التربة، فكان يتراوح بين اثنين ونصف في المائة وخمسة في المائة للمو[٣]، كما تقرَّر تقدير الفوائد بمعدل $\frac{1}{30}$ من قيمتها. بالإضافة إلى تلك الضرائب، فقد وُضِعت ضريبة على الملح، وقد بدت تلك الضرائب معتدلة في نظر معاصريها، ومن جهة أخرى، لا يوجد ما يدل على تعميمها على كافة أنحاء الامبراطورية[٤].

وعندما استولى المغول على بكين، أنشأ يي ـ ليو ـ تشوتساي فيها وفي مدينة بنغ يانغ المدارس لتعليم الأمراء المغول الشبان تعاليم كونفوشيوس.

صفات أوكتاي

أجمعت المصادر التاريخية على الثناء على حُسْن أخلاق أوكتاي وَجُوده ولين جانبه، فقد توقفت في عهده تلك العقوبات الجماعية الرهيبة والقتل البشع مما كان مألوفاً في عهد والده، باستثناء ما كان يجري في الأقاليم البعيدة خلال الحروب، على يد الأمراء المغول وقادتهم.

والواضح أن النزعة البدوية المتأصلة في نفس الزعيم المغولي قد تهذَّبت إثر اختلاطه بالشعوب المتحضِّرة، الصينيين والأويغوريين والإيرانيين، وبفضل تأثير

(١) الهمذاني: ص٢١٦. (٢) المصدر نفسه: ص٥٣، ٥٤.

(٣) المو: وحدة قياس تساوي ١٢٠٠ قدم مربع.

(٤) بارتولد: ص٦٥٦.

مستشاريه أضحى ينظر إلى الشعوب غير المغولية نظرة عطف وشفقة.

والواقع أن أوكتاي يمثل صورة غريبة، بربري يميل لحب الخير وتحت تصرفه كل منهوبات الصين، ونساء عشرات الامبراطوريات، وقطعان من الماشية والخيل الأصيلة لا تُعد ولا تُحصى، وقد اعترض بعض قادته مرة على إعطاء كل شيء يقع عليه بصره هبة لمن يسأل، فرد قائلاً: «إنه مغادر لهذا العالم في يوم قريب، والمكان الوحيد الذي سيبقى له فيه أثر هو في ذاكرة الناس»[1].

وعلى الرغم من ذلك، فإن أوكتاي يظل بطبيعة الحال ابناً لبيئته وعصره الذي لم يكن قد طرح جانباً قضية العقاب الجماعي، من ذلك أنه قتل تابعه المخلص توقولقوا إرضاء لدافع الانتقام الشخصي، وكان هذا من أتباع أبيه المقرَّبين وقائداً من قادة الجيش الذين اشتركوا في احتلال الصين، كما أن هناك قصة تكشف عن المعاملة الوحشية التي تعرَّضت لها قبيلة الأويرات بسبب قضية زواج[2].

وفاة أوكتاي

كان الإفراط في الشراب هو السبب في موت أوكتاي الذي حدث في (٥ جمادى الآخرة ٦٣٩هـ/ ١١ كانون الأول ١٢٤١م)، ولم يتيسر لأحد من خواصه أو أصفيائه منعه من ذلك على الرغم مما بذلوه من جهود، بل كان يكثر الشراب رغماً عنهم، ما أثَّر سلباً على صحته التي كانت تتراجع يوماً عن يوم[3].

وكانت عادة المغول أن يُدفن الخان الأعظم في الأوردو[4] الخاص به، ولذا فقد نقل جثمان أوكتاي إلى ضفاف أعالي نهر إريتش ودُفن بجبل بولدوق، في القصر الشاهق الذي يبعد مسيرة يومين عن النهر.

---

(١) انظر فيما يتعلق بأعماله الحسنة: الجويني: جـ١ ص١٥٨ ـ ١٩٠. الهمذاني: ص٧٢ ـ ٩٢.
(٢) الهمذاني: المصدر نفسه: ص٩٢، ٩٣.
(٣) المصدر نفسه: ص٦٢، ٦٣، ١٢١، ١٢٢؛ الجويني: جـ١ ص١٥٨.
(٤) الأوردو: كلمة مغولية تعني المعسكر.

كيـــوك بـن أوكـتـــاي

(٦٤٤ ـ ٦٤٧هـ/ ١٢٤٦ ـ ١٢٤٩م)

الأوضاع السياسية عقب وفاة أوكتاي

كان أوكتاي قد عيَّن ابنه الثالث كوجو ولياً للعهد، لأنه كان يؤثره على إخوته وأحفاده، ولكنه توفي أثناء حياة أبيه في عام (٦٣٣هـ/ ١٢٣٦م) في صراعه ضد أسرة سونغ الصينية، فاختار أوكتاي حفيده شيرامون بن كوجو ولياً لعهده، وكان لا يزال طفلاً صغيراً[1].

وكان كيوك الابن الأكبر لأوكتاي، في غضون ذلك، بعيداً ومنهمكاً في الحرب مع روسيا وبولندا عندما أرسل إليه أبوه يستدعيه إلى العاصمة قراقورم، حين اشتد عليه المرض، ولكن الأب توفي قبل أن يصل ابنه[2].

وجرياً على عادة المغول، تسلَّمت توراكينا خاتون، زوجة أوكتاي، إدارة الشؤون العامة إلى أن ينعقد القوريلتاي لانتخاب خان أعظم جديد، وكانت حريصة على ضمان سلامة انتقال الحكم إلى ابنها الأكبر كيوك، فجهدت على إطالة مدة الوصاية لكي تمهد الطريق أمامه، وتحقيق هذه الأمنية[3].

اضطربت أوضاع المغول خلال مدة الوصاية التي استمرت أربعة أعوام (٦٣٩ ـ ٦٤٤هـ/ ١٢٤٢ ـ ١٢٤٦م)، بفعل الاختلاف حول اختيار الشخص الذي يعتلي العرش، وبرزت ثلاثة اتجاهات سياسية راحت تتنافس فيما بينها:

الأول: اتجاه معارض لتولي أحد من أسرة أوكتاي العرش المغولي، وكان على رأس هذا الحزب باطو، ملك خانات روسيا والقبجاق وأحد الأمراء البارزين في أسرة جنكيز خان، ويودُّ إخراجهم من السلطة.

---

(١) الهمذاني: ص١٨٠. (٢) المصدر نفسه.
(٣) المصدر نفسه: ص١٧٦. الجويني: جـ١ ص١٩٥، ١٩٦.

الثاني: رغبة كوتان، الابن الثاني لأوكتاي، في تولي هذا المنصب بعد أبيه.

الثالث: اتجاه مؤيد للتقيد بوصية أوكتاي، واختيار حفيده الطفل شيرامون ليكون خاناً أعظم على المغول.

ونظراً لمرور وقت طويل قبل أن يتفق أمراء المغول على شخص معين، توسَّعت دائرة المطالبين بتولي السلطة. وبسبب غياب كيوك عن العاصمة تهيأت الفرصة للطامعين، كان من بينهم أوتجكين، أخو جنكيز خان، الذي زحف نحو العاصمة على رأس جيش كبير، لكن توراكينا خاتون استقطبته بالكلمة الطيبة[1].

وعمدت هذه السيدة إلى عزل عدد كبير من مستشاري أوكتاي المناوئين لسياستها، أمثال تشنكاي النسطوري الكرايتي، ويي ـ ليو ـ تشوتساي الصيني، والوزير الأكبر جينقاي، ومحمود يلواج صاحب الديوان وحاكم الخطا، والمعروف أن هذا الرجل كان في وقت ما حاكماً لتركستان وإقليم ما وراء النهر، ولم يُنقذ الشخصيتين الأخيرتين من بطشها سوى لجوئهما إلى ابنها كوتان، وحمايته لهما، وعزلت أيضاً كوركوز حاكم خراسان وأعدمته، وعيَّنت مكانه حاكماً مغولياً يدعى أرغون أغا الأويراتي[2].

وراحت توراكينا خاتون تبذل قصارى جهدها في استقطاب الأمراء والأقارب بما كانت تغدق عليهم من التحف والهدايا، حتى ضمنت الأغلبية إلى جانبها، وساعدتها في مهمتها هذه حاجبتها ومستشارتها الذكية فاطمة[3].

انتخاب كيوك خاناً أعظم

وبعد أن هيأت توراكينا خاتون الظروف لنجاح خطتها، وتأكدت من أنها أضحت تملك الضمانات الكافية؛ دعت إلى عقد اجتماع للقوريلتاي، فأرسلت السفراء إلى كبار الشخصيات المغولية في جميع الأطراف والأمصار لتبلغهم بحضور الجلسة، كما وجِّهت الدعوة إلى ملوك وأمراء النواحي الخاضعين للحكم المغولي، فتواترت الوفود من الشرق والغرب إلى العاصمة المغولية،

(١) الجويني: جا ص١٩٩، ٢٠٠. الهمذاني: ص١٧٨.
(٢) الهمذاني. المصدر نفسه: ص١٧٦ ـ ١٧٨.
(٣) المصدر نفسه: ص١٧٦. الجويني: جا ص٢٠٠ ـ ٢٠٣.

باستثناء باطو الذي اعتذر بسبب المرض وأرسل إخوته بدلاً عنه، ولعله علم بما تخطط له هذه السيدة مما لا يتوافق مع توجهاته، كما وصل عدد من الملوك والأمراء الأجانب وكذلك مندوبون عن الدول الأخرى في الشرق والغرب وصادف أيضاً وصول بعثة البابا، برئاسة يوحنا كاربيني.

انعقد القوريلتاي في خيمة ذهبية خاصة أُعدَّت لهذه الغاية على ضفاف إحدى البحيرات في غربي منغوليا، وتمَّ انتخاب كيوك خاناً أعظم بالإجماع كما هو متوقع، فأُجلس على العرش وتلقَّى من الحاضرين يمين الولاء والخضوع[1].

التغيير الإداري: لعلَّ أشهر أعمال كيوك ما أجراه من التغيير في الهيكل الإداري. فقد عزل موظفي العهد السابق وعيَّن بدلاً عنهم موظفين يثق بهم، وأعاد الاعتبار لكبار الموظفين الذين عُزلوا في عهد أبيه. فعيَّن إيلجيكتاي، فاتح هراة، والياً على إيران مكان بايجو، وكلَّفه بالاستيلاء على ما تبقَّى من الممالك الإسلامية، وجعل له السلطة العليا والإشراف على ممالك الكرج والموصل وديار بكر، ونصَّب محمود يلواج حاكماً على ممالك الخطا، الصين الشمالية، وعهد إلى سوبوتاي بمهمة فتح الصين الجنوبية، وولَّى الأمير مسعود بك حاكماً على تركستان وبلاد ما وراء النهر، وعيَّن الأمير أرغون والياً على خراسان والعراق وأذربيجان وشروان واللور وكرمان وطرف الهند، وقلَّد السلطان السلجوقي ركن الدين قلج أرسلان الرابع سلطنة سلاجقة الروم لأنه حضر حفل تنصيبه، وعزل أخاه السلطان عز الدين كيكاوس الثاني، وقرَّر أن يقتسم الحكم في بلاد الكرج الأميران داود نارين وداود لاجا، وأعاد جينقاي النسطوري الكرايتي إلى منصبه السابق كمستشار للامبراطورية وقلَّده منصب الوزارة، وقرَّب مربيه الأمير قداق النصراني، فكان لهذين الرجلين تأثير كبير على توجهاته من واقع العطف على النصارى، وحظي الملك الأرميني هيثوم بامتيازات عديدة، فقد عدَّه كيوك تابعاً له، فمنحه وثائق تضمن إعفاء بلاده وأديرته وكل النصارى من الضرائب[2].

ونتيجة لهذا الميل نحو النصرانية، وجد الأطباء النصارى الطريق ممهداً

(١) الجويني: جا ص٢٠٣ ـ ٢١٣. الهمذاني: ص١٨٠ ـ ١٨٣.
(٢) الهمذاني: ص١٨٣ ـ ١٨٨. ابن العبري: ص٢٩١.

للإشراف على الشؤون الطبية في قراقورم، كما حفل بلاط كيوك ومعسكره بالأساقفة والكهنة والرهبان، وشاعت بعض التقاليد النصرانية في الأوساط المغولية[١].

وفاة كيوك

توفي كيوك في (٩ ربيع الآخر ٦٤٧هـ/ ٢٢ تموز ١٢٤٩م) عند حدود سمرقند، وهو في طريقه إلى بلاد القبجاق لقتال باطو[٢].

محاولات الغرب الأوروبي التحالف مع المغول

بعثات البابا أنوسنت الرابع

تمهيد: حاول الغرب الأوروبي في غمرة الصراع الدائر آنذاك مع الشرق الإسلامي، التقارب مع المغول والتحالف معهم لحرب المسلمين بالإضافة إلى دعوتهم لاعتناق النصرانية. ويبدو أن النصارى بعامة كانوا على استعداد للتغاضي عن الأعمال الوحشية التي ارتكبها المغول ضد النصارى في روسيا وبولندا، وأن يمجِّدوا هؤلاء مقابل تحطيم قوة المسلمين[٣].

وخطت البابوية الخطوة الأولى بهدف التحري أولاً عن أوضاع المغول وتحويلهم إلى النصرانية لاتقاء خطرهم. واكتسب البابا أنوسنت الرابع (٦٤١ ـ ٦٥٢هـ/ ١٢٤٣ ـ ١٢٥٤م) شهرة سياسية نتيجة اتصاله بقادة المغول. والحقيقة أنه أدرك مدى الخطر الذي يحيط بأوروبا من جانب المغول في الوقت الذي كان فيه الغرب الأوروبي مفكَّكاً وعاجزاً عن تشكيل قوة عسكرية لمواجهة خطرهم، ولهذا وجد أن أفضل وسيلة متاحة له هي إيفاد رسل ومبعوثين إليهم، فأرسل أربع بعثات؛ اثنتين منها من جماعة الرهبان الفرنسيسكان، هما لورانس البرتغالي ويوحنا بلانو كاربيني، والآخرتين بقيادة اثنين من الرهبان الدومينيكان هما أندريه لونجومو وآسيلين اللومباردي.

بعثة لورانس البرتغالي: حمل لورانس كتاباً من البابا مؤرخاً في (٤ شوال

(١) ابن العبري: ص٢٩١.

(٢) الجويني: جا ص٢١٥، ٢١٦. الهمذاني: ص١٨٥.

(٣) Brown, Edward: A Literary History of Persia III p8.

٦٤٢هـ/ ٥ آذار ١٢٤٥م) دعا فيه خان المغول إلى اعتناق الديانة النصرانية، لكن البابا غيَّر مسار هذه البعثة إلى الشرق اللاتيني لتؤدي رسالة أخرى عندما حمَّل لورانس خطابات إلى الأمراء المسلمين في بلاد الشام وآسيا الصغرى لحثهم على اعتناق النصرانية، وكان من مهامه أيضاً إقناع رجال الدين النساطرة واليعاقبة والإغريق لتوحيد كنائسهم تحت لواء الكنيسة الكاثوليكية في روما.

اتخذ لورانس طريقه إلى الشرق عبر أرمينيا الصغرى، ولم يتقدم أبعد من ذلك حيث انتهت رحلته عند مدينة أياس، وقد عاد من حيث أتى، ومن ثم فإن بعثته لا تدخل في نطاق هذا البحث.

بعثة يوحنا الكاربيني: تُعدُّ بعثة يوحنا الكاربيني إحدى أشهر البعثات البابوية للمغول ذلك لأنها:

ـ أول بعثة أوروبية تصل إلى قراقورم عاصمة المغول.

ـ أول فرصة للاحتكاك المباشر وتبادل المعلومات، بصورة علنية ومكتوبة، بين المغول وأوروبا.

ـ دقة وغزارة المعلومات التي دوَّنها يوحنا في تقريره الذي قدَّمه للبابا عن حياة المغول ونظمهم الاجتماعية والعسكرية ومعتقداتهم الدينية وأسلوب حكمهم للبلدان التي احتلوها، بالإضافة إلى معلومات تاريخية وجغرافية لم تكن معروفة في أوروبا من قبل عن مناطق وسط آسيا وشرقها.

ـ حضور يوحنا ورفاقه حفل تنصيب كيوك خاناً على المغول واجتماعهم مع كبار قادة المغول، حيث تحدثوا معهم لأول مرة واستمعوا إليهم، ونقلوا للغرب الأوروبي ما سمعوه، وشاهدوه[١].

حمل يوحنا الكاربيني الخطاب الثاني للبابا إلى المغول، المؤرخ في (١٢ شوال/ ١٣ آذار)، أي بعد حوالي أسبوع من تاريخ الخطاب الأول الذي حمله لورانس البرتغالي، فغادر مدينة ليون الفرنسية، حيث مقر البابا المؤقت، في (١٧ ذي القعدة/ ١٦ نيسان)، ووصل إلى قراقورم في (٦ ربيع الأول ٦٤٤هـ/ ٢٢ تموز ١٢٤٦م). وتتلخص أهداف بعثته في النقاط التالية:

ـ دعوة المغول إلى اعتناق النصرانية.

ـ التساؤل عن سبب المذابح التي اقترفوها ضد الدول الكاثوليكية.

(١) هلال: ص٦٠.

- كبح جماحهم وإيقاف توسعاتهم، وربطهم بفكرة السلام التي كانت تسعى إليها البابوية للتفرغ لمحاربة المسلمين.
- جمع المعلومات عن أهداف المغول في المستقبل بعد استيفائها من قادتهم شخصياً أو عن طريق رئيس البعثة[1].

وعندما وصلت البعثة كان الخان أوكتاي قد توفي، وكانت توراكينا خاتون تتولى الوصاية. واستناداً إلى القوانين المغولية كان على أعضاء البعثة أن ينتظروا انتخاب خان جديد، ولهذا ظلوا حوالي ستة أسابيع حتى تمَّ انتخاب كيوك وتتويجه.

واستدعى كيوك أعضاء البعثة للاجتماع به، واستمع عن طريق المترجمين للخطاب البابوي الذي كُتب بلهجة عنيفة، وانتقد تصرفات المغول بحق النصارى في شرقي أوروبا، وحثَّ البابا المغول على الإقلاع عن هذه الاعتداءات والتكفير عن الخطايا السابقة، وكرَّر طلبه بحسن معاملة السفراء والتباحث معهم في المسائل التي تخص السلام بين الطرفين، وأنه على المغول إبلاغه، كتابة، بالأسباب التي دفعتهم إلى تدمير الشعوب الأخرى وإحاطته بنواياهم في المستقبل[2].

امتعض الخان المغولي من اللهجة العنيفة التي تضمنها الخطاب، وهي لهجة لم يتعوَّد المغول عليها، وهم الذين يعدُّون أنفسهم حكام العالم وسادته، لذلك أمر بأن يوضع أعضاء البعثة في مكان أشبه بالسجن حيث حُرموا من الطعام والشراب لولا أن قدَّم لهم أحد الروس، الذين يعملون في خدمة المغول، الطعام خفية[3].

وجاء الرد المغولي محبطاً للآمال، فقد طلب الخان من البابا وملوك الغرب الأوروبي أن يحضروا بأنفسهم ليقدموا له فروض الولاء والطاعة، ويركعوا أمامه ويؤدوا له الجزية عن رعاياهم، ورفض دعوة البابا الدخول في النصرانية بفعل أنه لم يفهم ممارسة الشعائر النصرانية. ويؤكد كيوك بأن تدمير الممالك النصرانية والإسلامية قد تمَّ بأمر من الرب الذي أبلغه إلى جنكيز خان، وأنه ينفذ مشيئته في إخضاع العالم لخلفائه. وتوضح هذه اللهجة اعتناق المغول

(١) John of Plano Carpini: History of the Mongols in C. Dawson ed. The Mongol Mission: pp3, 53, 54.
(٢) Ibid: pp73-75.   (٣) هلال: ص٦٣.

لفكرة السيادة العالمية وأنهم مبعوثون من قِبَل السماء لحكم العالم بأجمعه، ولهذا عدَّ الشعوب الأوروبية التي دمَّروها شعوباً متمرِّدة على حكم السماء، ومن ثَمَّ استحقت القتل والتدمير بواسطة المغول[1].

وأخيراً شعر يوحنا الكاربيني بأن لا جدوى من البقاء أكثر في قراقورم، فعاد من حيث أتى بخفي حنين، ووصل إلى مدينة ليون في (رجب ٦٤٥هـ/ تشرين الثاني ١٢٤٧م)، وهو يحمل رد كيوك إلى البابا، والذي يتضمن عبارات تنم عن استعلاء مثل: «بقوة الرب، امبراطور البشر» «الرب في السماء وكيوك على الأرض، ختم امبراطور كل البشر»، ومن ثم يُفسِّر المبعوث البابوي رفض المغول إبرام أي سلام مع أي شعب احتكُّوا به إلا بعد خضوعه التام لهم باعتقادهم أنهم سادة البشر[2].

استقبل البابا أنوسنت الرابع أعضاء البعثة بحفاوة بالغة، وذلك بسبب المعلومات غير المسبوقة التي قُدِّمت له عن المغول من خلال تقرير السفير، ومن ثَمَّ أوفد البابا يوحنا الكاربيني إلى الملك الفرنسي لويس التاسع لإبلاغه بنتائج سفارته، بالإضافة إلى بعض المهام الأخرى المتعلقة بالحملة الصليبية التي كانت ستقلع من فرنسا[3].

بعثة أندريه لونجومو: أرسله البابا أنوسنت الرابع على رأس مجموعة من الرهبان الدومينيكان في عام (٦٤٣هـ/ ١٢٤٥م) وحمَّله رسائل لتسليمها لقادة المغول في إيران وآسيا الصغرى، وللأمراء المسلمين في بلاد الشام والعراق وإيران، تدعوهم إلى اعتناق الديانة النصرانية على المذهب الكاثوليكي، وكذلك إبلاغ رسائله إلى كبار رجال الدين النساطرة واليعاقبة الأرثوذكس تدعوهم للانضواء تحت لواء البابوية[4].

زار المبعوث البابوي، أثناء رحلته، الصالح إسماعيل، صاحب بعلبك، والمنصور، صاحب حمص، وكان كلاهما على علاقات طيبة مع الصليبيين في تلك المرحلة. ولا يهمنا في هذا المقام أن نسجِّل مدى نجاحه أو فشله مع الأمراء المسلمين ورجال الدين النصارى، ولكن يهمنا أن أندريه التقى بجيش

(١) Rachewiltz: Igor de: Papal Envoys to the Great Khans: pp104, 105.
(٢) John Carpini: pp43, 44.   (٣) هلال: ص٦٧.
(٤) المرجع نفسه: ص٦٧، ٦٨.

مغولي في ضواحي مدينة تبريز وقام بتسليم خطاب البابا لقائده، في الوقت الذي فشل فيه في مقابلة القائد المغولي بايجو في غربي آسيا، ومن ثمَّ عاد إلى مدينة ليون الفرنسية ليقابل البابا في عام (٦٤٥هـ/١٢٤٧م). والراجح أن رسائل البابا لم تصل إلى بايجو أو الخان الأعظم في قراقورم، ومن ثم فإن النجاح الذي حقَّقته البعثة يتمثل في لقائها بأسقف النساطرة في تبريز المدعو سيمون، والمعروف باسم ربان عطا، والحصول منه على معلومات عن خطط المغول لغزو العالم[1].

والواقع أن هذه البعثة وضعت الأساس للاتصالات السياسية والتجارية والدينية بين المغول والغرب الأوروبي في المائة عام التالية.

بعثة آسيلين اللومباردي: هو أحد رجال الدين الدومينيكان، سلك الطريق الجنوبي إلى المغول عبر قبرص وبلاد الإسلام ثم إلى مدينة تفليس في الشمال، ومنها إلى المعسكر المغولي الذي كان يتولى أمره القائد بايجو، فاجتمع به وسلَّمه رسالة البابا، وفقاً لتعليمات هذا الأخير بتسليمها إلى أول قائد مغولي يقابله، ورفض عرضه الذهاب إلى قراقورم[2].

ويبدو أن الاجتماع بين بايجو وأعضاء السفارة كان عاصفاً بسبب رفض هؤلاء الركوع أمام القائد المغولي بحجة أنهم ممثلو الأب الأعلى لكل النصارى على الأرض، بالإضافة إلى أنهم لم يحملوا معهم هدايا كما هي عادة السفراء. وقد عزم بايجو على قتلهم لولا وصول الجيكتاي، مبعوث الخان الأعظم في قراقورم، وقد علم بوصول السفارة البابوية، فأمر بايجو بإطلاق سراح آسيلين ورفاقه والرد على الرسالة التي حملها بمثل رد الخان الأعظم على الأخير مع يوحنا الكاربيني. والمعروف أن هذا الرد يتضمَّن الطلب من البابا المثول بنفسه أمام الخان الأعظم في قراقورم[3].

وعادت البعثة إلى ليون في (رجب ٦٤٦هـ/تشرين الأول ١٢٤٨م) بصحبة موفَدَيْن من قِبَل بايجو يحملان الرد، هما أيبك وسرجيوس. ويُعتقد أن الأول تركي والثاني نسطوري، وربما كلفهما بايجو بالتجسس على الغرب[4].

(١) هلال: ص٦٧، ٦٨. عمران، محمود سعيد: أوروبا والمغول: ص٢٢٥، ٢٢٦.
(٢) هلال: ص٦٨، ٦٩.
(٣) Rachewiltz: pp115-117.
(٤) هلال: ص٦٩، ٧٠.

والراجح أن القائد المغولي أراد أن يحثَّ الصليبيين على تسخين جبهة بلاد الشام لإلهاء المسلمين هناك في الوقت الذي كان يعتزم مهاجمة بغداد.

والواقع أن مخططات البابا أنوسنت الرابع قد فشلت، وفَقَدَ هذا ثقته بالمغول، وفي إقامة تحالف معهم أو الارتباط بهم برباط الصداقة على الأقل، إذ لم يَبْدُ في الأفق السياسي بوادر قيام تحالف مغولي ـ نصراني موجَّه ضد المسلمين، كما أن المغول لم يتحوَّلوا إلى النصرانية، ولم يوقفوا هجماتهم على النصارى، والنجاح الوحيد لهذه البعثات ينحصر في التقارير والمعلومات التي حملها الرهبان إلى الغرب الأوروبي عن أوضاع المغول وحياتهم الاجتماعية وعقائدهم ونظمهم، إلى جانب المعلومات التاريخية والجغرافية عن المناطق التي زاروها والطرق التي ارتادوها، وكان لهذه المعلومات أثرها المباشر في فتح طرق التجارة أمام تجار المدن الإيطالية[1].

بعثات لويس التاسع ملك فرنسا

بعثة أندريه لونجومو: كان أول رد فعل إيجابي من المغول تجاه الغرب الأوروبي مرتبطاً بحملة الملك الفرنسي لويس التاسع على مصر (٦٤٦ ـ ٦٤٨هـ/١٢٤٨ ـ ١٢٥٠م). ففي عام (٦٤٢هـ/١٢٤٤م) وصلت إلى الغرب الأوروبي الأخبار المقلقة عن فقدان الصليبيين بيت المقدس مرة أخرى، وكان لذلك علاقة بفرار الخوارزميين من آسيا الوسطى أمام الزحف المغولي، باتجاه بلاد الشام، فهاجم عشرة آلاف منهم مدينة دمشق، ثم اندفعوا نحو بيت المقدس فاستعادوها وطردوا الصليبيين منها، ثم اكتسحوا غزة بالتضافر مع جيش أيوبي قدم من مصر.

ويبدو أن خسارة بيت المقدس شكَّلت صدمة وتهديداً مألوفين لسلامة العالم النصراني الغربي. وحدث في ذلك العام أن مرض لويس التاسع ملك فرنسا، واشتد عليه المرض حتى أشرف على الهلاك، فنذر إن هو شُفي أن يحمل الصليب ويذهب إلى الشرق لتخليص بيت المقدس من أيدي المسلمين، وفعلاً شُفي الملك الفرنسي من مرضه فقرر الوفاء بنذره.

وانتعشت آمال الغرب الأوروبي مرة أخرى، حين بادر إخوة لويس التاسع

(١) هلال: ص٦٩، ٧٠.

الثلاثة ومعظم نبلاء فرنسا إلى حمل الصليب، وبوجود ملك تقي معتمد على رأس جيش الرب، ساد الشعور بأن الحملة الصليبية السابعة التي توجَّهت إلى مصر، لا يمكن أن تفشل بأي حال من الأحوال.

ومن جانبه، أراد لويس التاسع أن يعود بالفكرة الصليبية إلى مبادئها الجوهرية، فلن يكون هناك بالتأكيد أيُّ تفاهم مع المسلمين، وسيكون جيشه على القدر نفسه من التديُّن، كالحملة الصليبية الأولى، بيد أنه كان مستعداً مع ذلك، للنظر في مبادرة سياسية أخرى تجاه المغول الذين كانوا يهدِّدون المسلمين من الشرق، ولعله تأثر باقتراح الراهب يوحنا الكاربيني الذي نصحه بالاتصال بالمغول أو مواصلة ما بدأه البابا أنوسنت الرابع.

ووصل إلى قبرص في (شعبان ٦٤٦هـ/ تشرين الثاني ١٢٤٨م) مبعوثان نسطوريان هما: داود ومرقص موفدين من إيلجيكداي، حاكم فارس، يحملان رسالة إلى الملك الفرنسي تضمَّنت كلاماً يثير الدهشة. فقد ورد فيها أن الخان الأعظم كيوك وبعض رجاله البارزين، ومنهم إيلجيكداي نفسه، قد اعتنقوا النصرانية، وأن الخان الأعظم على استعداد لمساعدة الملك الفرنسي في غزو الأراضي المقدسة وتخليص بيت المقدس من أيدي المسلمين، كما أن المغول قد خططوا لغزو بغداد في الوقت الذي يهاجم فيه الملك لويس التاسع مصر حتى لا تساعد القوات الأيوبية في مصر وبلاد الشام الخليفة العباسي، ويُعدُّ ذلك في حال ثبوته تحوُّلاً جذرياً في موقف المغول الذي أُبلغ للبابا أنوسنت الرابع من قبل. لكن ثمَّة شكوكاً كثيرة تحوم حول حقيقة إرسال هذين الرسولين بكتاب من قِبل أي قائد مغولي في وسط آسيا أو آسيا الصغرى، أو في قراقورم[1].

ومهما يكن من أمر، لم يكن أمام الملك الفرنسي إلا استقبال السفيرين بالحفاوة واستغلال القضية المغولية لمصلحة الصليبيين، فأبدى استعداده للتحالف مع المغول، والراجح أنه لم يكن بوسعه أن يفعل غير ذلك، وأعدَّ سفارة من لدنه لمرافقة السفارة المغولية عند عودتها، مكوَّنة من ثلاثة رهبان من جماعة الدومينيكان، وهم أندريه لونجومو وأخوه غي ويوحنا كاركاسون، وقد تولى أندريه رئاسة هذه السفارة نظراً لخبرته في السفر إلى المغول

(١) انظر: هلال: ص٧١ ـ ٧٤.

والتعامل معهم، وأرسل مع السفارة خيمة من قماش بلون قرمزي على شكل كنيسة صغيرة، بهدف جذب أنظار المغول إلى الديانة النصرانية، بالإضافة إلى بعض التماثيل التي صُنِعت من الحجارة، وبعض الصور الأخرى المتعلقة بالديانة النصرانية.

غادرت السفارة جزيرة قبرص إلى أنطاكية ومنها إلى الموصل ثم تبريز حيث معسكر إيلجيكداي، وعند هذه المرحلة، كان الموقف المغولي قد تغيَّر. فقد توفي كيوك، لذلك وجد إيلجيكداي أن من الحكمة ألا يتصرف من تلقاء نفسه مع السفارة الفرنسية، ورأى من الأفضل أن يوجِّهها إلى قراقورم حيث الوصية على العرش المغولي، أوقول قيميش أرملة كيوك، لأن الصراع على السلطة لاختيار خليفة للخان الأعظم كان على أشدِّه، وكان على السفارة الفرنسية أن تواصل الرحلة إلى العاصمة المغولية.

كانت الوصية على العرش المغولي في موقف ضعيف، لذلك استغلت السفارة الفرنسية لتقوية موقفها، فاستدعت ممثلين عن الأمراء المغول وأتباعهم من الآسيويين لمشاهدة ما عدَّته رمزاً لولاء الملك الفرنسي[1].

ويبدو أن تلك السفارة لم تحقق نتيجة حاسمة وسريعة في موضوع التحالف بين لويس التاسع والمغول، لأن الرد الذي حمله أندريه لونجومو لم يختلف عن الردود المغولية السابقة إلى البابوية[2].

وحدث في هذه الأثناء أن هُزِمَ لويس التاسع في المنصورة وأُسِر، ثم رحل مع قواته إلى بلاد الشام بعد دفع فدية ضخمة. ووصلت بعثة أندريه لونجومو، ومعها الرد المغولي، وهو في قيسارية في (ذي الحجة ٦٤٨هـ/ آذار ١٢٥١م)[3]، فصُدم لويس التاسع بشدة مما حملته بعثته من أخبار محزنة، وهي أن المغول لم يُظهروا أي تعاطف مع النصارى في الغرب، الأمر الذي جعله يوجِّه نظره إلى كتلة أخرى من المغول، هم مغول وسط روسيا.

(١) مذكرات جوانفيل: ص٢١٨.
(٢) المصدر نفسه: ص٢١٨، ٢١٩.
(٣) نسيم، جوزف: لويس التاسع في الشرق الأوسط: ص٢٥٠ ـ ٢٥٣.

الفصل الرابع

منكو بن تولوي

(٦٤٩ ـ ٦٥٧هـ/ ١٢٥١ ـ ١٢٥٩م)

انتخاب منكو خاناً أعظم

تجدَّد الصراع على السلطة، بعد وفاة كيوك، بين أفراد أسرة جنكيز خان، وكان أكثر حدة ولكنه كان أقصر أمداً من ذلك الذي أعقب وفاة أوكتاي. وتولَّت زوجة كيوك أوقول قيميش إدارة دفة الحكم على عادة المغول، بالوصاية عن أولادها الصغار، حتى يتمَّ انتخاب الخان الجديد، غير أنها لم تكن تصلح للحكم لما اشتهرت به من الشح والبخل والميل إلى السحر، فرأت أن يتولى شيرامون منصب الخانية، وبخاصة أن جده أوكتاي كان قد أعدَّه ليخلفه، غير أنها واجهت معارضة من معظم الأمراء بمن فيهم باطو والأميرة سورخقتاي، أرملة تولوي، وذلك بفعل صغر سنه وقلة خبرته[(١)].

وكان لباطو بفعل قاعدة الوراثة، الزعامة على أسرة جنكيز خان، غير أنه رفض اعتلاء العرش المغولي نظراً لمرضه وكبر سنه[(٢)]، فدعا جميع أفراد الأسرة إلى القبجاق، حيث يقيم، لعقد القوريلتاي واختيار خان جديد. عارض أبناء أوكتاي وجغتاي هذا الاقتراح وأصرُّوا على أن يُعقد القوريلتاي في مقر جنكيز خان، جرياً على العادة المتبعة، وامتنعوا عن الذهاب إلى القبجاق وأنابوا عنهم بعض المندوبين، ولبَّى منكو بن تولوي وإخوته دعوة باطو. وإذ توافر في بيت تولوي، بفضل الأميرة سورخقتاي، من الاستقامة والنزاهة والأمانة ما كان ينشده كيوك في أسرة جنكيز خان، كان منكو أكبر أبناء تولوي أحق الأمراء المغول بتولي عرش الخانية، وبخاصة أنه تجتمع فيه

---

(١) الجويني: جـ١ ص٢١٦، ٢١٧. الهمذاني: ص١٩٧.

(٢) كان باطو مصاباً بمرض في رجله. الهمذاني: ص١٩٨.

صفات القائد المحنك والإداري الحازم، فرشحه باطو خاناً أعظم. وعقد القوريلتاي بمن حضر، وانتخب منكو خاناً أعظم على الرغم من معارضة أسرتي أوكتاي وجغتاي، على أن يُعقد مرة ثانية في مطلع السنة الجديدة، ويحضره كافة الأمراء وكبار القادة لإقرار تنصيبه خاناً أعظم للمغول[1].

وتمسك أبناء أوكتاي وجغتاي، في غضون ذلك بمعارضتهم وأصرُّوا على رأيهم بأن يظل الحكم في أسرة أوكتاي وكيوك، واستنكروا الطريقة التي تمَّ بها انتخاب منكو، باستثناء قرا هولاكو بن جغتاي. واحتدم الجدل بين الطرفين، واستمر النزاع مدة عامين. وأخيراً، وبناءً على اقتراح باطو، عُقد القوريلتاي الذي أُعلن فيه انتخاب منكو رسمياً في (٩ ربيع الآخر ٦٤٩هـ/ ١ تموز ١٢٥١م)، وبذلك انتقلت ولاية عرش الامبراطورية من بيت أوكتاي إلى بيت تولوي[2].

القضاء على المعارضة

حاول الأمراء والقادة المعارضون استخدام ما توافر لديهم من القوة المادية، للإطاحة بالخان الجديد غير أنهم فشلوا، وتعرَّضوا للانتقام بالقتل والتشريد والنفي والسجن، وكان من بين الذين أُعدموا شنقاي، وأوقول قيميش وبوري وإيلجيكداي وقداق، وعفا منكو عن أبناء كيوك احتراماً للسلالة الملكية[3].

وأرسل منكو جيشين إلى الغرب لانتزاع أملاك أسرتي أوكتاي وجغتاي المعارضتين، يتألف الأول من مائة ألف مقاتل، ومهمته احتلال المناطق الواقعة بين قراقورم وبيش باليق على أن يرسل وحدات عسكرية لتتصل بجيش قنغران أوغل الذي كان يعسكر على حدود قياليق، ويتكوَّن الثاني من عشرين ألف مقاتل أرسلهم إلى بلاد القيرغيز وكم كمجيوت[4].

كان ييسو بن جغتاي لا يزال على رأس الدولة الجغتائية، فاصطدم به الجيش الأول وانتصر عليه وأسره، فأُرسل إلى باطو الذي قتله، وتمَّ تعيين

---

(١) الجويني: جـ١ ص٢١٦ ـ ٢٢١. الهمذاني: ص١٩٨ ـ ٢١٣. ابن العبري: ص٢٩٦.
(٢) المصادر السابقة نفسها. (٣) الجويني: المصدر نفسه.
(٤) المصدر نفسه: جـ٣ ص٥٣ ـ ٥٥. وكم كمجيوت، أو كم جهود: منطقة متصلة بالقيرغيز وتشكلان معاً مملكة، كما أن كم كمجيوت اسم نهر يمر بمناطق المغول والنايمان. الهمذاني: ص٢١١.

أورقينة خاتون، زوجة قرا هولاكو، حاكمة على دولة جغتاي باسم ابنها الطفل مبارك شاه تحت إشراف الحكومة المركزية[1].

وأُعيد الموظفون السابقون، الذين عُزلوا من مناصبهم في العهد السابق، مثل الوزير حبش عميد، فاتح بلاد ما وراء النهر، وابنه نصير الدين. والمعروف أن ييسو غضب على الأول لمناصرته قرا هولاكو. وعُزِل الوزير بهاء الدين المرغيناني، الذي كان قد حلَّ محله، وانتقم حبش عميد منه، فقتله وصادر أمواله وسجن أولاده[2].

وهكذا قضى منكو على جميع رجال بيت أوكتاي وجغتاي، تقريباً، بعد حرب أهلية طاحنة.

إصلاحات منكو

حرص منكو، في بداية حياته السياسية، على التمسك بنصوص الياسا وبما أصدره جنكيز خان من قوانين، والمحافظة على آداب المغول وتقاليدهم، وقد أبدى براعة في العمل الإداري، وكان شديد التمسك بالعدالة. أعاد القوة والنشاط إلى ما أقامه جنكيز خان من نظم، ونفخ في الامبراطورية روحاً متجدِّدة. وبفعل احتكاكه بالأمم المتحضِّرة، خفَّت في نفسه، إلى حد ما، صلابة المغول وخشونتهم ونزعتهم الدموية من دون أن يتخلَّى عن خصائص عصره.

فعندما اعتلى العرش التزم منكو بما اتفق به مع باطو من اقتسام السلطة، فحلَّت السلطة المزدوجة محل السلطة الفردية التي انفرد بها جنكيز خان. وقد صرَّح أمام السفير الراهب الفرنسيسكاني وليم روبروك: «كما أن الشمس تنشر شعاعها على كل مكان، كذلك يمتد سلطاني وسلطان باطو على جميع الأطراف»[3]. والمعروف أن باطو شغل مركزاً متميزاً داخل امبراطورية جنكيز خان بوصفه:

- أسنُّ الأمراء المغول.
- صاحب أوسع أقطار الامبراطورية وأكثرها بُعداً عن المركز.
- المسؤول الأول عن اعتلاء منكو عرش المغول.

وجرياً على العادة المتبعة عند تغيير الحكم، عمد منكو إلى تغيير الولاة واستبدالهم بولاة مخلصين له ويثق بهم، ممن أثبتوا جدارتهم وكفاءتهم في

---

(١) الجويني: جـ٣ ص٥٩. (٢) الجويني: جـ١ ص٢٣٠، ٢٣١.
(٣) The Journey of william Rubruck: p174.

إدارة الشؤون العامة، فاختار محمود يلواج حاكماً على المشرق، الصين والخطا، وعيَّن مسعود بك والياً على تركستان وما وراء النهر وبلاد الأويغور وفرغانة وخوارزم، فأصلحا المدن وأقاما العمائر، وازدهرت البلاد خلال حكمهما. وعيَّن أرغون حاكماً على إيران وخراسان ومازندران والعراق وفارس وكرمان وأذربيجان والكرج واللور وأران والأرمن والروم ودياربكر والموصل وحلب[١].

واهتم منكو بوضع نظام ضريبي واحد، ووضع حدّاً للتعسف والابتزاز، وحسَّن أوضاع السكان، غير مبالٍ بتوفير الأموال للخزينة العامة. فخاطب الأمراء وحكام الولايات، عندما انتخب خاناً أعظم، قائلاً لهم: «مما لا شك فيه أن كلاً منكم أدرى باحتياجات إقليمه ورعاياه، وأدرى بالطريقة التي يمكن بها تدارك الخلل». وطلب منهم أن يعرضوا عليه، كتابة، ظروف وأوضاع أقاليمهم واقتراحاتهم بشأن إصلاحها وتعميرها[٢]، وقد أجمعوا على أن المشكلة الاجتماعية الكبرى تكمن في ارتفاع الضرائب وفي التكاليف الكثيرة المفروضة على السكان، وطلبوا ضرورة تخفيضها وتحديد مقدارها بشكل مقبول[٣].

وكان مِنْ أكثر مَنْ عانى من الأعباء طبقة الدهاقين، رؤساء القرى، فقد بلغ بهم الأمر حداً جعل كل محصولهم لا يكفي لغطاء نصف التزاماتهم من الضرائب[٤]. وفعلاً عمَّم تخفيض الضرائب وحدَّد مقدارها نقداً خلافاً لما كان متبعاً منذ عهد أوكتاي. من ذلك، بلغ الحد الأعلى لضريبة الرأس في الصين وما وراء النهر أحد عشر ديناراً على الثري الكبير، وقياساً على هذه النسبة يؤدي الفقير ديناراً واحداً[٥]، وتمَّ تحديد مقدار الضريبة، في خراسان وإيران بسبعة دنانير على الغني، وفي رواية عشرة دنانير، وديناراً واحداً على الفقير، وكان لزاماً أن تغطي الضرائب جميع مصروفات الدولة. وإذا كان لأحد الأشخاص أملاك في أماكن متعددة، فقد كان عليه أن يدفع عن كل مُلْك على انفراد، وأن يدفع كل من يملك مائة رأس من كل صنف من الماشية التي

(١) الهمذاني: ص٢١٥.
(٢) المصدر نفسه: ص٢١٦.
(٣) بارتولد: ص٦٨٧.
(٤) الهمذاني: ص٢١٦.
(٥) المصدر نفسه: ص٢١٧.

ترعى في المراعي المسماة قوبجور، رأساً واحداً، أما من يملك أقلَّ من ذلك فلا يدفع شيئاً[١].

وأصدر منكو أوامر مشدَّدة إلى الحكام والولاة والعمال والكتّاب بالترفق في جباية الضرائب والامتناع عن المحاباة والمداهنة، وألَّا يتصرفوا وفق أهوائهم، ولا يقبلوا الرشاوى والهدايا، وألا يطالبوا الرعايا بضرائب متأخرة التي يعجز كل شخص، وفي كل مكان، عن دفعها.

وألغى منكو اليارليغات والبايزات[٢] التي صدرت بعد وفاة جنكيز خان نظراً لعدم جدواها، وكأنه بهذا نقض شرعية كل شيء، بما في ذلك انتخاب أوكتاي، وأمر بأن يتشاور أمراء البيت المالك مع نواب الخان الأعظم في كل الأمور، كما أمر بأن ينتقل التجار أثناء سفرهم إلى منغوليا على خيولهم الخاصة، والمعروف أن هؤلاء كانوا ينتقلون على الخيول التي تملكها الدولة[٣].

ويبدو أن الالتزام بمقدار الضريبة وطريقة جبايتها كان متفاوتاً، فقد عمد أرغون، عندما عاد إلى خراسان في عام (٦٥١هـ/١٢٥٣م)، إلى استعمال القسوة في جباية الضرائب، وبواقع سبعين ديناراً من كل عشرة أشخاص، أي أنه جعل الحد الأعلى الذي قرَّره منكو حداً وسطاً، كما أن مطالبته السكان بضرائب تفوق طاقتهم، أوقعهم في أسر العوز والسؤال، ما دفعهم إلى التهرب من دفعها، وكان القتل جزاء من يُقدم على ذلك، أما من يعجز عن الدفع فكان ينتزع منه أطفاله[٤].

واستدعى منكو طائفة من الإيرانيين المستنيرين، وطلب منهم تنظيم الإدارات والدواوين في قراقورم على أسس سليمة.

نزعات منكو الدينية

تجرَّد منكو من النزعات الدينية المتعصبة، وعلى الرغم من أنه كان يدين بعقيدة أسلافه، الشامانية، فإنه كان يشهد الأعياد البوذية والنصرانية والإسلامية

(١) الهمذاني ص٢١٧.
(٢) أي: الميداليات، وهي عبارة عن لوحة من الذهب أو الفضة أو الخشب يقدمها الخان للمقربين.
(٣) الهمذاني: ص٢١٦.
(٤) بارتولد: ص٦٨٦.

من دون تفرقة أو تمييز، وإذ سلَّم بوجود إله واحد، يعبده كل إنسان على طريقته، كفل الحرية لجميع الطوائف، وسمح لها بالتناظر العقلاني في المسائل الدينية.

وسعى منكو إلى إحياء شعائر الدين الإسلامي متأثراً بوالدته سرقويتي بيكي التي اشتهرت برجاحة العقل، وعلى الرغم من أنها كانت تدين بالنصرانية النسطورية إلا أنها عاملت الرعايا المسلمين بالحسنى، وكانت شديدة العطف عليهم لا سيما الأئمة والمشايخ؛ فأسس مدرسة دينية للمسلمين في بخارى وولّى عليها شيخ الإسلام سيف الدين الباخرزي، وعيَّن المدرسين، ورعى شؤون الطلبة، وأوقف عليها الأوقاف الكثيرة(١).

وتدليلاً على اهتمامه بالمسلمين أنه في (شهر ذي الحجة عام ٦٥٠هـ/ شباط عام ١٢٥٣م) حضر إلى المعسكر المغولي القاضي جلال الدين محمود الخجندي وطائفة من المسلمين، فصلى بالمسلمين صلاة العيد، وخطب فيهم وأمَّهم، ووشَّح الخطبة بذكر ألقاب الخليفة، ودعا للخان الأعظم منكو وأثنى عليه، فأمر لهم الخان بالمنح على سبيل التشريف، وأعطاهم عربات محملة بأكياس النقد من الذهب والفضة والملابس القيمة(٢).

على أنه كان للنصارى النساطرة أقوى نفوذ ديني، إذ حباهم منكو بعطف خاص تخليداً لذكرى والدته بعد وفاتها، وهي التي ظلَّت وفية لعقيدتها، وكانت الامبراطورة كوتوكتاي وكثيرات من زوجاته الأخريات على المذهب النسطوري(٣).

وهذا ما دفع أبناء كل دين إلى التصريح بأن منكو كان على ملته. فزعم هيثوم ملك أرمينيا الصغرى، أنه عُمِّد، وأنه حضر بنفسه طقوس تعميده. ويذكر الجويني أن منكو كان تابعاً للديانة النصرانية وسنداً لها(٤). وروى الجوزجاني أن منكو نطق بالشهادتين عند اعتلائه العرش تحت إلحاح بركة(٥).

وزعم البوذيون أنه اعترف بتفوق البوذية على كافة الأديان. وفي حديثه إلى الراهب روبروك قال: «ليست الديانات إلا كالأصابع الخمسة ليد واحدة،

(١) الجويني: جـ٣ ص٨، ٩.

(٢) المصدر نفسه: ص٧٩، ٨٠. الهمذاني: ص٢١٧، ٢١٨.

(٣) Rubruck: pp184-186. Howorth: I pp188, 191.

(٤) جامع التواريخ: ص١٨٨. (٥) طبقات ناصري: ص٤١٠، ٤١١.

فكما تخرج الأصابع الخمسة من الكف، فكذلك البوذية هي الكف، وجميع العقائد الأخرى بمثابة الأصابع»(١).

وأعفى منكو رجال الدين، من مختلف الأديان، من الضرائب، باستثناء حاخامات اليهود، واستخدم في ديوانه موظفين من مختلف الأديان والشعوب، وكانت القرارات والأوامر تُوجَّه لأهل كل قطر باللغة المحلية وبالكتابة المستعملة لديهم وفقاً للنماذج التي كانت تصدر في عهود ملوكهم السابقين(٢).

تجدد اتصال الملك الفرنسي لويس التاسع بالمغول

أثناء وجود لويس التاسع وقواته في بلاد الشام، تناهى إلى أسماعه عن طريق النصارى الشرقيين وبخاصة الأرمن، عن حسن معاملة المغول لرجال الدين النصارى، وأن سارتاك بن باطو قد تنصَّر، وأن عدداً من قادة المغول أبدوا استعدادهم لاعتناق الديانة النصرانية، وأنهم بحاجة إلى رهبان يعلمونهم أصول العقيدة النصرانية، وأن كثيراً من الأسرى النصارى من أصل أوروبي متواجدون في وسط آسيا، وهم بحاجة إلى رجال دين لإقامة الشعائر الدينية.

دفعت هذه التطورات الدينية الراهب الفرنسيسكاني وليم روبروك للتطوع لهذه المهمة. فاستأذن مقدم الفرنسيسكان في الشرق ومليكه لويس التاسع في الذهاب إلى مغول روسيا لمقابلة سارتاك والتبشير بين المغول، والبحث عن الأسرى الأوروبيين(٣).

وكان الملك الفرنسي آنذاك متلهفاً لإعادة فتح باب المفاوضات مع قادة المغول، في شمالي آسيا وشرقي أوروبا، ليعوِّض عن فشله مع مغول وسط آسيا وشرقها، فبارك رحلة روبروك وزوَّده بالهدايا والرسائل لقادتهم، وطلب منه:

- أن يوافيه بأدقِّ التفاصيل عما يشاهد ويسمع عن حياة المغول.
- التعرف على نواياهم تجاه الغرب الأوروبي.
- إمكان تحويلهم إلى النصرانية.

غادر وليم روبروك ورفاقه مدينة عكا في (أواخر ٦٥٠هـ/ أوائل ١٢٥٣م)، متوجهاً إلى القسطنطينية، ومنها سار إلى شبه جزيرة القرم حيث اجتمع بسارتاك بن باطو، في معسكره بين الدون والڤولغا، وهو الذي اشتهر بميله

(١) Rubruck: p182. (٢) الهمذاني: ص٢١٩، ٢٢٠.

(٣) Rachewiltz: pp125, 128.

إلى النصارى على الرغم من أنه لم يكن نصرانياً، وسلَّمه رسالة لويس التاسع، وذلك في (جمادى الآخرة ٦٥١هـ/آب ١٢٥٣م). ويبدو أن الرسالة تضمَّنت قضايا لا يمكن لسارتاك اتخاذ قرار بشأنها قبل عرضها على والده باطو، لذلك أرسله إلى مدينة سراي للاجتماع بوالده، وفي ذلك إشارة واضحة لرفض سارتاك السماح لوليم روبروك ورفاقه في البقاء في إقليمه للتبشير بالنصرانية[1].

ويبدو أن باطو لم يستطع بدوره أن يفصل في الأمر بمفرده، فأرسل أعضاء البعثة إلى قراقورم، فوصلوا إليها في (ذي الحجة ٦٥١هـ/كانون الثاني ١٢٥٤م)، وتولَّت الحكومة المغولية الإنفاق عليهم في سفرهم على امتداد الطريق التجاري الكبير، وهيأت لهم أسباب الراحة والأمن، إلى أن وصلوا إلى معسكر الخان الأعظم منكو الذي يقع على مسافة بضعة أميال إلى الجنوب من قراقورم، فاجتمع روبروك بمنكو، ولم يلبث أن انتقل معه إلى العاصمة المغولية، فألفى الحكومة قد عزمت فعلاً على مهاجمة الأقاليم الغربية للدولة الإسلامية، وأنها على استعداد لمناقشة ما يصح اتخاذه من إجراء مشترك، على أنه اعترض التعاون بين الطرفين عقبة لم يتيسر التغلب عليها، ذلك أن منكو لا يقبل أن يشاركه أحد في زعامة العالم، ما أدَّى إلى فشل مهمة البعثة من الناحيتين السياسية والدينية.

فمن الناحية السياسية لم يحصل روبروك إلا على وعد بأن يتلقَّى الغرب الأوروبي مساعدة من المغول طالما قدَّم ملوكهم وأمراؤهم البذل والولاء لزعيم العالم.

ومن الناحية الدينية، فإنه فشل في حمل الخان الأعظم على اعتناق النصرانية[2].

غير أن الأنباء التي حملها روبروك عن استعداد المغول لاجتياح العراق وإسقاط الخلافة العباسية جاءت مشجعة للصليبيين الذين رأوا في ذلك فرصة للانتقام من المسلمين واسترداد بيت المقدس، وعلى الرغم من أن المشروع لم ينفذ إلا في عام (٦٥٦هـ/١٢٥٨م) إلا أنه أظهر المغول في صورة الحلفاء الطبيعيين للصليبيين ضد عدو مشترك واحد[3].

(١) عمران: ص٢٣٢.

(٢) رنسيمان، ستيفن: تاريخ الحروب الصليبية: جـ٣ ص٥١٠، ٥١١.

(٣) D'ohsson: III p134.

ومهما يكن من أمر، فقد غادر روبروك قراقورم في (رجب ٦٥٢هـ/آب ١٢٥٤م) عائداً من حيث أتى، بعد أن أدرك، كما أدرك غيره من السفراء من قبله، أن ملوك الشرق لا يفقهون تقاليد السياسة الغربية أو مبادئها[1]، حاملاً معه رسالة من منكو إلى لويس التاسع تتوافق في مضمونها مع الرسائل التي أرسلها كيوك وزوجته للبابوية ولويس التاسع من قبل.

تعقيب على الاتصالات السياسية بين المغول والغرب الأوروبي

قد يبدو الحديث عن السفارات المتبادلة بين المغول والنصارى في الغرب الأوروبي، لأول وهلة، منعشاً لآمال الغربيين لاستقطاب المغول من الناحيتين السياسية والدينية، والتحالف معهم لضرب المسلمين في الشرق الأدنى، وهو الهدف الأسمى. فأخيراً اهتدى الأوروبيون إلى عدو جديد للإسلام والمسلمين غريب كلياً عن الديانات السماوية الثلاث، وكان المبعوثون الدومينيكان والفرنسيسكان متأثرين جداً بما شاهدوه في المجتمع المغولي، وبدوا قادرين على وصف ذلك الشعب الغريب بموضوعية، غير أن هذا السعي الجديد إلى الاتصال بالغير إنما نشأ في الحقيقة عن الضرورات الماسة للحرب الصليبية على الإسلام. ففي زمن الحملة الصليبية السابعة، كان المغول يقتربون شيئاً فشيئاً من الأقاليم الإسلامية في غربي آسيا، وكان المسلمون قد شاهدوا وعانوا مما فعله الأتراك الخوارزميون، أثناء فرارهم أمام المغول، وباقتراب المغول من الشرق وصليبيي لويس التاسع من الغرب، شعر المسلمون بأنهم وقعوا بين فكي الكماشة، وكانت مبادرة لويس التاسع التبشيرية جزءاً من حربه الشعواء على الإسلام. ومن شدة ابتهاج لويس التاسع والبابا باستنباط طريقة للتخلُّص من الإسلام، فاتهما أن يدركا أن المغول أشد خطراً على العالم النصراني مما كان المسلمون في أي وقت مضى، وكان جنون الارتياب الغربي من التجذُّر العميق في النفوس بحيث أن اكتشاف وجود عرق أشدَّ شراسة وضراوة من المسلمين الشرقيين، لم يُبدِّل شيئاً من تخيلات الغرب حول الإسلام التي يبدو أن الأوروبيين كانوا بحاجة إليها كثقل عاطفي موازن لنظرتهم هذه[2].

(١) رنسيمان: ص٥١١. Rubruck: pp165-186.

(٢) أرمسترونغ، كارين: الحرب المقدسة ص٥٢١.

التوسع المغولي في عهد منكو

التوسع باتجاه الغرب

القضاء على الحشيشية

أصل الحشيشية: انقسمت الطائفة الإسماعيلية، بعد وفاة الخليفة الفاطمي المستنصر، في عام (٤٨٧هـ/ ١٠٩٤م) إلى فرقتين: النزارية التي اعتقد أتباعها بأحقية ابنه الأكبر نزار بالخلافة، وقد فروا إلى الشرق بعد أن تعرَّضوا لحملة اضطهادات في مصر، وكان على رأسهم الحسن بن الصباح الذي أسَّس، في بلاد فارس، ما يُعرف بالفرقة النزارية، وغلب على أتباعه اسم الحشيشية أو الباطنية[1]، والفرقة الثانية هي المستعلية، أتباع المستعلي، الابن الثاني للمستنصر.

تعمَّق الحسن بن الصباح في دراسة العقيدة الإسماعيلية، فألمَّ بأصولها، على أن أهم ما قام به من إنجازات غلبت عليها الصفة العملية، فاستطاع أن يوجِّه أتباعه الشديدي الولاء له، لتحقيق أهداف سياسية مناهضة لخصومه، وبخاصة الخلافة العباسية في بغداد التي تحدَّى شرعيتها، بالإضافة إلى بعض الأمراء السلاجقة، وأهم ما استخدمه من أسلحة هو الاغتيال.

اتخذ الحسن بن الصباح مقراً لدعوته في قلعة ألموت[2] المنيعة في

(١) أطلق المؤرخون على هذه الحركة الجديدة عدة تسميات منها:
ـ الحشيشية أو الحشاشين: وجاءت هذه التسمية إما نتيجة استعمال هؤلاء الحشيش الذي تزخر به الطبيعة الجبلية في تلك البلاد التي استقروا فيها، لصنع الأدوية، وإما لأنهم كانوا يتعاطون الحشيش المخدر كي يصبح الفرد منهم كالآلة في يد الشيخ قبل أن يوجهه لتنفيذ مهمة ما، ونحن نعلم، من مؤرخي الحروب الصليبية، أن جماعة الحشاشين استعملت الحشيش استثارة للقتل، واحتقاراً للموت في سبيل أهدافهم السياسية، ومن ثم انتقل الاسم حشاشون وهو أصل لكلمة «Assasin» إلى لغات جنوبي أوروبا، على أن المألوف لهذه الكلمة الأوروبية لا صلة له باللفظ الأصلي.
ـ السبعية: لأن محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق هو الإمام السابع عندهم، ولتمييزهم عن طائفة الاثني عشرية.
ـ الباطنية: لأنهم يقولون إنَّ لكل ظاهر باطناً، ولكل تنزيل تأويلاً، وقد جعلوا هذه النظرية عقيدة شاملة لكل أمور الحياة، كما جرت المصنفات الشرقية على تسميتهم بالملاحدة أو النزارية. وعلى الرغم من تعدد التسميات، فإني اعتمدت تسميتهم بالحشيشية.

(٢) ألموت: قلعة على جبل شاهق من حدود الديلم من ناحية روذبار بين قزوين وبحر الخزر، لا يبلغها المنجنيق ولا النشاب.

خراسان، وما اشتهر به أتباعه من التعلق المطلق به، جعلهم على استعداد للمخاطرة والتضحية بأنفسهم متى أمرهم بذلك. وفعلاً قاموا بسلسلة عمليات اغتيال كان ضحيتها الكثير من رجال الدولة العباسية وأمرائها، فعظم أمرهم، وقويت شوكتهم، وخشيهم الناس، وامتلأوا منهم رعباً، ولم تكن كراهيتهم للنصارى تزيد كثيراً على بُغض أهل السنة، لذلك لم يسع هؤلاء وأولئك إلا تقدير ذلك.

تمدَّد الحشيشية باتجاه بلاد الشام وامتلكوا عدة حصون هامة منها القدموس، والعليقة، والكهف، ومصياف. والواضح أنهم ارتاعوا لزوال الخلافة الفاطمية في (محرم ٥٦٧هـ/ أيلول ١١٧١م) وانتصار المذهب السني في مصر، وشعروا بالخطر يتهددهم في بلاد الشام وفارس[1].

علاقة المغول بالحشيشية: لم يكد منكو يعتلي عرش المغول ويقضي على الفتن الداخلية، ويتخلص من المعارضين لحكمه، حتى قرَّر، في العام التالي من اعتلائه العرش، استئناف التوسع باتجاه غربي آسيا والصين الجنوبية من واقع تنفيذ سياسة المغول العامة التي وضع أسسها جنكيز خان. ففي اجتماع القوريلتاي في عام (٦٤٩هـ/ ١٢٥١م) عيَّن منكو أخاه الأصغر هولاكو حاكماً على فارس وكلَّفه بالقضاء على الحشيشية في مازندران، والخلافة العباسية في بغداد، فضلاً عن الاستيلاء على بلاد الشام ومصر.

والواقع أن العلاقة بين المغول والحشيشية كانت عدائية بفعل عدة عوامل لعل أهمها:

ـ أدرك منكو أن طائفة الحشيشية ستشكل عقبة أمام الزحف المغولي باتجاه بغداد، وقد تحول دون تحقيق أطماع المغول في السيطرة على القسم الغربي من العالم الإسلامي في آسيا، وإقامة حكومة مركزية فيها، وفقاً للتخطيط المغولي.

ـ محاولة الحشيشية التحالف مع أوروبا لمواجهة الزحف المغولي. ففي عام (٦٣٦هـ/ ١٢٣٨م) أرسل زعيمهم علاء الدين محمد بعثة إلى أوروبا، زارت فرنسا وإنكلترا، واجتمعت بملكيهما لويس التاسع وهنري الثاني، وحثَّتهما

(١) انظر كتابنا: تاريخ الفاطميين في شمالي إفريقية ومصر وبلاد الشام: ص٣٨٧ـ٣٩٣، ٥٢٠ـ٥٢٤.

على التعاون للتصدّي للمغول الذين يشكلون خطراً على الطرفين، ولكنهم لم يُلقوا أي تعاطف مع قضيتهم، وقد نصح أسقف مدينة ونشستر الملك الإنكليزي بعدم التدخل فيما ينشب من قتال بين المسلمين والمغول لما سوف يترتب عليه من القضاء على الجانبين، وفي ذلك انتصار للنصرانية «دع هؤلاء الكلاب يأكل بعضهم بعضاً حتى ينتهي الوضع فيما بينهم، وعندئذ سوف نقيم على أنقاضهم الكنيسة الكاثوليكية العالمية، فتكون حقاً راعياً واحداً وقطيعاً واحداً»[1].

ـ محاولة الحشيشية تكتيل الملوك والأمراء المسلمين، وتشكيل حلف مع جميع الإمارات المجاورة لهم المعرضة للخطر المغولي، حتى تلك التي تناصبهم العداء، وذلك للتصدي للزحف المغولي الذي يتهدّدهم جميعاً، ولكنهم لم يلقوا تجاوباً.

ـ تشجيع المسلمين من أهل السنة الذين كانوا تحت حكم المغول، وبخاصة سكان قزوين، هؤلاء، للقضاء على هذه الطائفة التي كانت تلحق بهم الأذى والضرر من واقع العداء الذي كان مستحكماً بين السنة والشيعة آنذاك، وأشاروا إلى أن أفراد هذه الطائفة يخالفون في عقيدتهم ديانات المسلمين والنصارى والمغول[2].

وهذا ما يفسر لنا المعاملة السيئة التي لقيها رسل الحشيشية الذين أُوفدوا إلى قراقورم بمناسبة انتخاب كيوك خاناً أعظم للمغول.

كان الحشيشية يتوقعون هجوماً مغولياً على معاقلهم منذ وصول المغول إلى خوارزم واستيلائهم على بلاد ما وراء النهر وخراسان، والعراق العجمي وآسيا الصغرى، غير أنهم كانوا يمرون في مرحلة ضعف، إضافة إلى أن قدرتهم على المواجهة تتمثل باغتيال الشخصيات البارزة لأعدائهم من واقع النظرة أن التخلص من الرأس يُضعف الجسد، لذلك عجزوا عن مواجهة المغول منفردين، ولما لم يجدوا من يساعدهم من جيرانهم، كانت نهايتهم وشيكة.

(١) Mathew of Paris: Chronica Majora, Trans. by John Gayles: pp131, 132, Cambridge Medieval History: vol IV p639.

(٢) ابن طباطبا، محمد بن علي المعروف بابن الطقطقا: الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية: ص٢٥، ٢٦. الجوزجاني: ص٤١٣، ٤١٤.

استعدادات التجهيز: حرص منكو على إعداد الحملة الموجهة إلى الأقاليم الغربية، إعداداً دقيقاً يكفل النصر لهولاكو. فقد أمدّه بقوات كثيرة ذات خبرة في الحروب، وضمَّ إليها ألف مجموعة صينية من أولئك الذين برعوا في استخدام أدوات القتال، مثل المنجنيق وقاذفات النفط ورمي السهام، وأرسل إلى كل فروع أسرة جنكيز خان بتقديم خُمس رجالها من المقاتلين. والواقع أنه تمثَّلت في هذه الحملة صورة التعاون الجماعي لأبناء أسرة جنكيز خان على الرغم من انتقال السلطة إلى أبناء تولوي. واختار منكو اثنين من كل عشرة رجال من خيرة جنود جنكيز خان لتكوين حرس خاص لهولاكو، واصطحب هذا الأخير معه زوجته المفضلة طقز خاتون بالإضافة إلى زوجتين أخريين وولديه الكبيرين أباقا ويشموت[1].

وجرى إرسال جيش لتمهيد الطريق، بقيادة أحد القادة المقربين من هولاكو، هو كتبغا النسطوري الذي ينتمي إلى النايمان، فأصلح الطرق التي تجتاز تركستان وفارس لتسهيل حركة الجيش وآلياته، وشيَّد الجسور على الأنهار ومجاري المياه السريعة، ووفَّر العربات اللازمة لنقل أدوات الحصار، كما جرى توفير المراعي لخيول العساكر بإجلاء الرعاة من البراري، وأعاد هذا القائد سلطة المغول على المدن الكبرى في هضبة إيران، كما استولى على بعض معاقل الحشيشية[2].

وبعد أن جهَّز منكو كل ما يلزم لهذه الحملة من الرجال والعتاد رسم لأخيه هولاكو الخطة التي سوف يتبعها، والتي تقضي بالاستيلاء على الأراضي التي لم تدخل بعد تحت حكم المغول، والممتدة حتى أقاصي مصر، وأن يعامل من يطيع أوامره بلطف، ويقتل من يعصيه مع نسائه وأبنائه وأقاربه وكل ما يتعلق به، على أن يبدأ بإقليم قهستان في خراسان، فإذا انتهى فعليه أن يتوجه إلى العراق، ويخضع في طريقه اللور والأكراد الذين يقطعون الطرق على سالكيها. وإذا قدَّم الخليفة العباسي فروض الطاعة فلا يتعرَّض له، أما إذا

(١) الجويني: جـ٣ ص٩٠ ـ ٩٧. الهمذاني: جامع التواريخ، تاريخ المغول في إيران، تاريخ هولاكو، مجلد ٢، جـ١ ص٢٣٤، ٢٣٥.

(٢) المصدران نفساهما: ص٩٣ ـ ٩٥. ص٢٣٦، ٢٣٧.

رفض فعليه أن يتخلَّص منه. وأوصاه بأن يكون عقلانياً في تعامله مع الشعوب، على أن يتخلَّص من الذين يتصدُّون له، وأن يخفِّف عن الرعية التكاليف، وأن يعيد تعمير الولايات الخربة[1].

ومما يلاحظ أن سياسة المغول، حتى هذه المرحلة، أنهم لا يقبلون حليفاً لهم، فالناس في نظرهم إما عبيد خاضعون لسلطانهم، منفِّذون لأوامرهم، أو أعداء يجب القضاء عليهم والتخلص منهم.

وكان منكو واثقاً أن هولاكو يستطيع بجيشه القوي أن يسيطر على تلك الأقاليم الغربية، وأن يكوِّن منها مملكة خاصة به وبأبنائه من بعده، ولكنه مع هذا، فقد أوصى أخاه بأن يعود إلى مقره الأصلي حينما يفرغ من إنجازاته.

الاستيلاء على قلاع الحشيشية: غادر هولاكو عاصمة المغول قراقورم على رأس جيشه في (جمادى الأولى ٦٥٠هـ/ تموز ١٢٥٢م) متوجهاً إلى الأقاليم الغربية للدولة الإسلامية، فتقدم متمهلاً حتى وصل إلى سمرقند في (شعبان ٦٥٣هـ/ أيلول ١٢٥٥م)، فقدَّم له أمراء الأطراف كافة التسهيلات لتموين الجيش ومروره على الطرقات، ثم عبر نهر جيحون في (١ ذي الحجة ٦٥٣هـ/ ١ كانون الثاني ١٢٥٦م)، وتوجَّه إلى مراعي كان گل، فاستقبله مسعود بك، حاكم بلاد ما وراء النهر، بالترحاب، فأمضى عنده قرابة أربعين يوماً قبل أن يرحل إلى مدينة كش الواقعة إلى الجنوب الغربي من سمرقند، فمكث فيها مدة شهر، استقبل خلالها وجوه خراسان وأعيانها، فقدَّموا له الطاعة والهدايا، وكان على رأسهم أرغون، حاكم إيران من قبل المغول، ووجَّه منها عدة رسائل إلى ملوك وأمراء تلك النواحي طلب منهم المساهمة في حملته ضد الحشيشية، وحذَّرهم من مغبة معصيته[2]، فهرع هؤلاء لتقديم الولاء والطاعة والترحيب، كان من بينهم شمس الدين كرت، صاحب هراة، وأبو بكر السلغري سعد بن زنكي، أتابك فارس، والسلطانان السلجوقيان كيكاوس الثاني وقلج أرسلان الرابع، في آسيا الصغرى[3].

(١) الهمذاني: ص٢٤٠.
(٢) المصدر نفسه. الجويني: جـ٣ ص٩٧ ـ ٩٩.
(٣) Grousset: L'Empire de la Steppes: p427.

والواقع أن هولاكو لم يصادف في إيران مقاومة تذكر لأن قسماً من خراسان كان تحت حكم المغول، بالإضافة إلى أن حكام النواحي كانوا في حال ضعف، وفضَّلوا انتهاج سياسة المسالمة والخضوع للمغول.

ووفقاً للخطة التي وضعها منكو، كان على هولاكو أن يهاجم الحشيشية في معاقلهم البالغة نحو خمسين قلعة منتشرة في قومس وقهستان، أشهرها كردكوه وميمون دژ وألموت التي اتخذوها عاصمة لهم وقاعدة لملكهم بفعل مناعتها، وكان القائد المغولي كتبغا قد استولى على بعضها.

وعندما تقدمت القوات المغولية نحو القلاع انتاب ركن الدين خورشاه، زعيم الحشيشية، الفزع، وأبدى استعداده للخضوع للمغول، فطلب منه هولاكو أن يُدمِّر كافة قلاعه، فرفضَ ذلك، عندئذ قرَّر هذا الأخير مهاجمته[1]. وإذ استولى على معظم القلاع، الواحدة تلو الأخرى، فإن ميمون دژ وألموت وكردكوه استعصت عليه، فأرسل رسله مرة أخرى إلى علاء الدين خورشاه يهدِّده وينذره بالاستسلام. وإذ أدرك زعيم الحشيشية هذه المرة أنه لا سبيل إلى المقاومة، وأن اليأس تطرق إلى نفوس رجاله المحاصَرين، مال إلى الاستسلام، وأقنعه ثلاثة من أصدقائه كانوا يقيمون، مجبرين، في قلعة ميمون دژ، وقد نفروا من أعماله السيئة ومن ظلمه وعسفه؛ بالنزول على حكم هولاكو وعدم مقاومته، لأن في ذلك نجاته وخلاص أسرته، وهم الخواجة نصير الدين الطوسي ورئيس الدولة وموفق الدولة[2].

وفعلاً أبدى هولاكو تساهلاً معه حين عرض عليه المحافظة على حياته مقابل الاستسلام والتخلي عن المقاومة، فاستجاب ركن الدين خورشاه له، وأرسل الخواجة نصير الدين الطوسي مع جماعة من الوزراء والأعيان والأئمة، يحملون التحف والهدايا، فوصلوا إلى معسكر هولاكو يوم الجمعة (٢٧ شوال ٦٥٤هـ/ ١٧ تشرين الثاني ١٢٥٦م)، ونزل ركن الدين خورشاه من قلعة ميمون دژ يوم الأحد (١ ذو القعدة/ ٢٠ تشرين الثاني)، وسلَّم نفسه لهولاكو مُظهراً الخضوع والطاعة، ودخل المغول القلعة[3].

توجَّه هولاكو، بعد ذلك، إلى قلعة ألموت، وحاصرها، وطلب من ركن

(١) الجويني: جـ٣ ص١٠٥، ١٠٦.
(٢) ميرخواند: روضة الصفا: جـ٥ ص٧٦.
(٣) الجويني: جـ٣ ص١٠٦ ـ ١١٣.

الدين خورشاه إقناع المحاصَرين بالاستسلام، لكن قائدها رفض أن ينصاع لنصائحه، وأصرَّ على المقاومة. والواقع أن الحصار استمر مدة ثلاثة أيام، أرسل هولاكو بعدها منشوراً يُؤمِّن الحامية والسكان على حياتهم إذا ما استسلموا، فاستجاب عندئذ قائد القلعة ونزل منها وسلَّمها للقائد المغولي[1].

ودخل المغول إلى القلعة، وحطَّموا ما فيها من الأسلحة والعتاد واستولوا على الكنوز والأموال. وكان في ألموت مكتبة ضخمة، زخرت بالمؤلفات عن الفلسفة والتنجيم، فعهد هولاكو إلى أمينه عطا ملك الجويني بأن يطَّلع على محتوياتها، ويُبقي على ما يصلح منها ويحرق ما يتعلق بعقائد الحشيشية، فاستطاع بذلك أن ينقذ من الدمار، مجموعة قيمة من المصاحف والكتب وآلات رصد النجوم، بالإضافة إلى كتاب «سيرة سيدنا» الذي اشتمل على شرح لأوضاع الحسن بن الصباح وخلفائه من بعده، وقد ضمَّن الجويني هذا الكتاب في مؤلفه جهان گشاي، فحفظ لنا بذلك تاريخ هذه الطائفة من الضياع[2]. ومن ألموت كتب ركن الدين خورشاه إلى محتشمي[3] قلاع الحشيشية في بلاد الشام يدعوهم إلى الاستسلام عندما تصل الرايات المغولية إليهم.

وعلى الرغم من هذه التنازلات التي قدَّمها ركن الدين خورشاه، فإن هولاكو لم يُطلِق سراحه، بل أرسله إلى أخيه منكو ليحدد مصيره بنفسه. والراجح أن منكو كان متفقاً مع أخيه هولاكو على التخلص من زعيم الحشيشية واجتثاث جذور هذه الطائفة، وحتى يظهر هولاكو بمظهر المحافظ على وعده بالإبقاء على حياته؛ فإنه أرسله إلى منكو كي يأتي قرار التخلص منه من جانبه.

ومهما يكن من أمر، فقد ثار منكو حين علم بوصول ركن الدين خورشاه، فلم يستقبله، وقال للوفد المغولي الذي أحضره: «لماذا تحضرونه وتشقون بذلك عبثاً الدابة التي ركبها؟»، ومن ثمَّ فقد أعاده إلى بلاده ليقنع محتشمي القلاع القليلة التي استعصت على المغول بالاستسلام، لكنه أرسل وراءه جماعة من لدنه قتلته في الطريق بين أبهر وقزوين، وتبع ذلك التخلص من أفراد أسرته وأقاربه جميعاً، الرجال والنساء والأطفال[4].

---

(١) الجويني: جـ٣ ص١١٤ ـ ١٤٢ حيث تفاصيل وافية.

(٢) المصدر نفسه: ص١٤٢ ـ ٢٦٧. Brown: II pp458, 459.

(٣) المحتشم: هو حاكم القلعة.

(٤) الجويني: جـ٣ ص٢٧٥ ـ ٢٧٨.

كان لانحدار الحشيشية صدى إيجابي في العالم الإسلامي على الرغم مما كان يعانيه المسلمون على أيدي المغول، وما يتوقعونه منهم في المستقبل. ولعل مرد ذلك يعود إلى أن هذه الطائفة:

ـ قاومت في القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي، جهود السلاجقة في القضاء عليها.

ـ أرهبت الخلافة العباسية وأفزعت رجالها.

ـ كانت سبباً من أسباب الفساد المعنوي والتفرق في العالم الإسلامي.

فإذا كان هولاكو قد قضى على وجودها في خراسان وإيران، فإنه يكون بذلك قد أدَّى خدمة كبيرة لقضية النظام والحضارة[1]، ولكن إلى حين، وقد أشار الجويني إلى ذلك عندما قال: «وكذلك كان هذا العمل مرهماً لجراح المسلمين، وتداركاً للدين من الخلل، وإن الناس الذين سيأتون بعدنا سيدركون مدى ما بلغ اضطراب الناس وانزعاجهم من أذى هذه الجماعة، ومدى ما كانوا يبثون من الفوضى والرعب منذ أول ظهورهم حتى آخرهم، وأن الشخص الذي كان على وفاق معهم، منذ عهد الملوك السالفين حتى عهد ملوك هذا العصر، إنما كان مدفوعاً فقط بدافع الخوف منهم، أما إذا عاداهم، فكان عليه أن يعيش ليلاً ونهاراً، في ضيق خوفاً من أفعالهم. وهكذا انتهى أمرهم، ذلك ذكرى للذاكرين، وكذلك يفعل الله بالظالمين»[2].

القضاء على الخلافة العباسية

أوضاع الخلافة العباسية عشية الزحف المغولي

بعد أن حقَّق هولاكو هدفه الأول بالقضاء على الحشيشية، التفت إلى تحقيق هدفه الثاني وهو القضاء على الخلافة العباسية. والواقع أن أوضاع هذه الخلافة كانت متردية عشية الغزو المغولي، وأن الوضع الداخلي في بغداد كان مزعزعاً تشوبه حال من الفوضى وعدم الاستقرار وذلك بفعل عدة عوامل، لعل أهمها:

ـ كانت الخلافة العباسية آنذاك، تمر بمراحل شيخوختها بعد أن تطاول عليها الزمن ونخرتها الصراعات السياسية والمذهبية، وبدت عليها مظاهر

---

(١) Grousset: p427.

(٢) تاريخ جهان گشاي: جـ٣ ص٢٧٨.

الانهيار التي تعود بجذورها إلى أبعد من ذلك في المدى الزمني بسبب التنافس على عرش الخلافة، وسيطرة العنصر الأعجمي، من أتراك وبويهيين وسلاجقة، على مقدراتها منذ العصر العباسي الثاني الذي ابتدأ في عام (٢٣٢هـ/ ٨٤٧م)، في ظل تراجع قوة العنصر العربي. وقد طمع ولاة الأمصار في الاستقلال بولاياتهم، وشكَّلوا دولاً انفصالية مستقلة استقلالاً تاماً أو جزئياً مع الاعتراف بسلطان الخلافة الروحي، وبذلك تفكَّكت الروابط السياسية التي كانت تربط الإدارة المركزية بالأمصار، وانتقلت الدولة من المركزية إلى اللامركزية في نظام الحكم، ووقع الخلفاء تحت تأثير ونفوذ الأمراء ما أدّى إلى تحجيم دورهم السياسي الفاعل، وفقدوا الاحترام الذي كان يتمتع به أسلافهم خلفاء العصر العباسي الأول، وهكذا عمِّرت الخلافة العباسية لتشهد انسلاخ الأطراف عنها، حتى إذا ما اقتربت نهايتها لم يبق تحت حكمها سوى بغداد وجوارها.

ـ كان الخليفة آنذاك المستعصم بالله، آخر الخلفاء العباسيين، وهو رجل متدين، لين العريكة، سهل الأخلاق، كان يأمل أن يعيد للخلافة سلطتها ومجدها إلا أنه لم يكن جدياً في إدارة الشؤون العامة، ضعيف الوطأة، مستضعف الرأي، قليل الخبرة بأمور الحكم، مطموعاً فيه، غير مهيب في النفوس، كان يقضي معظم وقته في إشباع متعته في اللهو وسماع الأغاني والتفرج على المساخرة، شديد البخل، يكنز الأموال ولا يصرف منها شيئاً في شؤون الدفاع وتجهيز الجند لمواجهة الأعداء، وقد استمر هذا العيب لاحقاً به حتى في أحرج الأوقات عندما قدم هولاكو بجيوشه الجرارة إلى إيران وأخذ يهدِّد دولة الخلافة العباسية[١].

ويبدو التأثير الشيعي واضحاً في هذا الوصف، وهو يهيء لبروز شخصية إلى جانب الخليفة، هي على النقيض تماماً، من القوة والدهاء والخبرة، تلك هي شخصية مؤيد الدين بن العلقمي. وعلى الرغم من أن المؤرخين السنة يؤيدون، إلى حدٍّ ما، أندادهم في تناقض الشخصيتين بين الضعف والقوة إلا أنهم عرضوا شخصية مؤيد الدين بن العلقمي بشكل سلبي، فرأوا أنه كان

(١) ابن طباطبا: ص٤٠، ٤١، ٢٩٠.

يتحكم في مصائر العباد[١].

ـ لم يُقدِّر الخليفة المستعصم جدِّية الخطر المغولي، فكانت الأخبار تصل إلى بغداد باقتراب جيوش المغول، ومع ذلك لم يستعد لمواجهتهم، وهو موقف أقرب إلى الإهمال والتهاون. ويبدو أنه اعتقد أن باستطاعته القدرة على المكر والصمود أمامهم مبرهناً عن قصر نظر في الحقل السياسي. فبدلاً من الانحناء أمام العاصفة المغولية والقبول بالأمر الواقع، مع التمسك بسلطته الروحية، والترقب إلى أن يستنفد المغول قوتهم، ومن ثم ينتفض عليهم، من واقع أن الخلافة أبقى من الحكام، ومهما عمِّروا فإن مصيرهم إلى الزوال، أما الخلافة فإنها خالدة؛ فإنه أرسل رسالة إلى هولاكو يقول له فيها: «إن كل ملك قصد أسرة العباسيين ودار السلام بغداد، صارت عاقبته وخيمة، ومهما قصدهما الملوك ذوو الصلابة وأصحاب الشوكة، فإن بناء هذه الأسرة محكم للغاية، وسوف يدوم إلى يوم القيامة»[٢]. والواقع أنه كان واهماً.

ـ تعدَّدت مراكز القوى آنذاك في بغداد، واختلفت فيما بينها بفعل عوامل سياسية ومذهبية، ووقف الخليفة عاجزاً عن وضع حد للمشكلات المتفاقمة، فترتَّب على ذلك أن اشتدت حدَّة الخلافات بين قائد الجيش والكاتب مجاهد الدين أيبك، الدواتدار الصغير، السني المذهب والذي لقي تأييداً ومساندة من ولي العهد أبي بكر بن المستعصم، وبين مؤيد الدين بن العلقمي وزير الخليفة، الشيعي المذهب، ووصلت إلى نقطة اللاعودة.

وحدث، قبيل الغزو المغولي لبغداد بثلاثة أعوام (٦٥٣هـ/ ١٢٥٥م)، أن دبَّر مجاهد الدين أيبك مؤامرة كانت تستهدف خلع الخليفة وتنصيب ولده أبي العباس أحمد مكانه، ولما علم الوزير بتلك المؤامرة، عرض الأمر على المستعصم وطلب منه أن يقضي على تلك الفتنة ما دامت في مهدها، ولكن الخليفة، وجرياً على سياسة التهاون واللامبالاة، لم يصغ لنصيحة وزيره، وتمادى حيث أمَّن مجاهد الدين أيبك بعد أن أنكر تلك التهمة، وأمر بذكر اسمه في الخطبة بعد اسم الخليفة.

(١) ابن كثير، الحافظ عماد الدين أبو الفداء: البداية والنهاية في التاريخ: ج١٣ ص٢٠٤، ٢٠٥، ٢٠٩ ـ ٢١١.

(٢) الهمذاني: ص٢٧٥.

وحاول مجاهد الدين أيبك أن ينتقم من مؤيد الدين بن العلقمي، فجمع عساكره في حركة تشبه العصيان، وحشد جمعاً من المشاغبين والرعاع الذين أخذوا يخلُّون بالأمن وينالون من الوزير. وفي المقابل التفَّت حول الوزير جموع من سكان بغداد، وسانده فلك الدين محمد الطبرسي، المعروف بالدواتدار الكبير، فحدثت بذلك فتنة ومواجهات جُرح فيها الكثيرون، وساد الرعب والخوف في بغداد. وفي خضم تلك الصراعات شنَّ الأمراء الأتراك حملة واسعة ضد الوزير بسبب اتهامه أمير العسكر الدواتدار الصغير. وازدادت الضغوط على الخليفة لعزل وزيره، ولكنه رفض أن يتخلَّى عن رجل مثله، ربما لأنه كان يدرك بأن ذهابه كان سيزيد من عزلته ويضعف مركزه أمام تسلط أمراء الأتراك في مثل تلك الظروف العصيبة التي كانت تحيق بالبلاد[١].

ومهما يكن من أمر، فقد هزَّت تلك الصراعات، وما نجم عنها من اضطرابات، كيان ما تبَقى من الدولة، ودفعت الأوضاع نحو الأسوأ[٢].

ـ وتعدَّت الخلافات بين أهل الحكم لتنتقل إلى العامة من سكان بغداد الذين انقسموا على أنفسهم في تناحر مذهبي. والمعروف أنه كان يسكن بغداد عناصر مختلفة المذاهب من السنة والشيعة والنصارى واليهود، على أن أشد ما وقع من الفتن والمنازعات ما جرى قبيل الغزو المغولي بعامين (٦٥٤هـ/ ١٢٥٦م) من اندلاع الفتنة بين السنة والشيعة في ضاحية الكرخ في بغداد، فعهد الخليفة إلى ابنه أبي بكر بفضِّ هذا النزاع، فأغار على مقر الشيعة في الكرخ بقسوة بالغة، وتبعه العوام الذين شاركوا في اضطهاد الشيعة وقتلهم وسبي نسائهم، وكان لهذا التصرف أسوأ الأثر في نفوسهم، فنقموا على المستعصم وعلى ابنه، وتمنوا زوال هذه الدولة العباسية، هذا على الرغم من أن الخليفة أمر بردِّ كل ما نُهب إلى أصحابه، كما أعاد النساء الأسيرات إلى أربابهن. وبذل الوزير مؤيد الدين بن العلقمي المساعدة لأهل الكرخ، ودفعته هذه الأحداث إلى مراسلة هولاكو وأطمعه في ملك بغداد[٣]. والواقع أنه لم

(١) العزاوي، عباس: تاريخ العراق بين احتلالين: جـ١ ص١٦١.

(٢) الرفيعي، عبد الأمير: العراق بين سقوط الدولة العباسية وسقوط الدولة العثمانية: جـ١ ص١١٧.

(٣) الجوزجاني: ص٤٤٤. السيوطي، عبد الرحمٰن بن أبي بكر جلال الدين: تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين: ص٣٦٠. ابن الفوطي: ص٢٣٣.

يكن لهذه المراسلات بين الطرفين، ولا للمباحثات التي جرت بينهما، في وقت لاحق، من أثر كبير في دفع هولاكو أو في ثنيه عن مهاجمة بغداد، لأن الاستيلاء على العراق كان من ضمن سياسة مغولية عامة.

ـ كان باستطاعة الخليفة، في ظل أوضاع هادئة، أن يحشد مائة وعشرين ألف جندي، غير أن ذلك كان يتوقف على ثقته بأمرائه الذين حظوا بإقطاعات حربية، ونظراً لأنه لم يكن يثق بهم فقد أشار عليه وزيره مؤيد الدين بن العلقمي بأن يُخفِّض عدد أفراد الجيش ويحمل إلى المغول متحصل إقطاعات الأمراء، وذلك من أجل أن يتجنَّب خطرهم، فأضحى عدد أفراد الجيش لا يتجاوز العشرين ألفاً، على أن ما لاح للمغول من ثروة البلاد ومن ضعف الجيش زادهم إصراراً على المضي في القتال[١].

ـ كان للعامل الاقتصادي أثر بارز في تراجع قوة الدولة العباسية. إذ بعد سيطرة المغول على الأقاليم الإسلامية الشرقية وعلى آسيا الصغرى وسهوب روسيا وشرقي أوروبا، تحوَّلت خطوط التجارة العالمية بين الشرق والغرب إلى شمالي بحر قزوين، بعيداً عن العراق، عبر أراضي القبيلة الذهبية. وقد ضاعفت تلك التحولات في تقلُّص النشاطات التجارية بين دار الخلافة والشرق الإسلامي، وتراجعت تجارة الرقيق القادم من تركستان عبر خراسان إلى العراق وبلاد الشام. ولما كانت تلك التجارة المصدر الأساسي لتزويد المؤسسة العسكرية في العراق بالجند، فإن نضوب ذلك المصدر كان له آثار سلبية، على قدرة وفعالية وحجم الفرق العسكرية في العراق[٢]. ومما زاد في تفاقم تلك الظاهرة تدهور أوضاع البلاد الاقتصادية وتراجع موارد الدولة، فقد كسدت الزراعة بسبب نظام الإقطاع الذي كان سائداً آنذاك، والمعروف أن خلفاء بني العباس عمدوا إلى تعيين بعض قادتهم حكاماً على الولايات، وأهملوا في الوقت نفسه، مراقبتهم ومحاسبتهم. وبحكم الأوضاع الفوضوية السائدة في الإدارة المركزية، عمد هؤلاء إلى تعيين نواب عنهم لإدارة الأقاليم باسمهم فيما حافظوا على وجودهم في العاصمة يشاركون في وضع السياسة العليا، ويشتركون في المؤامرات وينعمون بحياة «البلاط». ومن الطبيعي، في هذا الوضع الشاذ، أن يسعى النواب إلى اقتناء المال لإرضاء الخلفاء والقادة،

(١) D'ohsson: III pp215-225.

(٢) الرفيعي: جـ١ ص١١٢.

وحتى أنفسهم، فعمدوا إلى زيادة الضرائب، واشتطُّوا في جبايتها حتى وقع الظلم على الناس، فراحوا يترقبون من يرفع عن كاهلهم هذا الظلم ويصلح أوضاعهم الاجتماعية. وقضت الحروب الداخلية المتواصلة بإنقاص عدد الرجال العاملين، فهُجرت المزارع وخربت. وما حدث من تكرار الفياضانات في سهول العراق الجنوبية زاد الخراب تفاقماً. وفي (منتصف عام ٦٥٤هـ/ صيف عام ١٢٥٦م) حدث سيل عظيم أغرق مدينة بغداد، فاختفت منازل كثيرة، واستمر السيل يهطل مدة خمسين يوماً بحيث أضحى نصف أراضي العراق خراباً يباباً[١].

ـ وشهدت الحالة الاجتماعية في بغداد تردياً ملفتاً بفعل الانغماس في الترف، وتفشي ظاهرة الإدمان على الشراب والغناء والتمادي بالأخذ بأسباب اللهو، والإقبال على التسري، وما رافق ذلك من نظام الحريم والخصيان والغلمان واقتناء الجواري، وتكاثر الأبناء والبنات المولدين من أمهات مختلفات في قصور الخلافة، ما كان له أثر كبير في تقويض البناء الاجتماعي، وتوهين مقام المرأة، وانحراف الرجال، وتفشي عادة التحاسد والتباغض وإثارة الفتن، وإشاعة الفساد، في جسم الدولة، والقضاء على النشاط والحيوية في أفراد الأسرة الحاكمة.

التمهيد للزحف على بغداد

عندما كان هولاكو يحاصر قلاع الحشيشية، أرسل إلى الخليفة المستعصم يطلب منه أن يمده بقوة عسكرية تعاونه في القضاء على هذه الطائفة. استشار الخليفة مستشاريه وأركان حربه، فنصحوه بعدم الإقدام على هذا العمل، لأن هولاكو يريد بهذه الوسيلة إفراغ بغداد من المدافعين عنها حتى يسهل عليه الاستيلاء عليها عندما يهاجمها، فوافق على رأيهم على الرغم من معارضة الوزير ابن العلقمي، وامتنع عن إرسال المدد إلى هولاكو[٢]. ولما فرغ الزعيم المغولي من القضاء على الحشيشية، أرسل إلى الخليفة رسالة عتاب تتضمن تهديداً ووعيداً لامتناعه عن إرسال المدد المطلوب[٣]. والواقع أن هذا

(١) الهمذاني: ص٢٦٢.
(٢) انظر الرسالة المنسوبة إلى نصير الدين الطوسي في الاستيلاء على بغداد والملحقة بكتاب تاريخ جهان گشاي: جـ٣ ص٢٨٠ ـ ٢٩٣.
(٣) انظر نص الرسالة عند الهمذاني: ص٢٦٧، ٢٦٨.

الاحتجاج لم يكن إلا ذريعة للمطالبة بالسلطة الزمنية التي سبق أن مُنحت في بغداد للأمراء البويهيين ثم للسلاطين السلاجقة[١]، وطلب منه:

ـ أن يهدم الحصون ويردم الخنادق، ويسلم البلاد لابنه.

ـ أن يحضر لمقابلته أو يرسل الوزير وسليمان شاه والدواتدار ليحملوا رسالته إليه[٢].

ردَّ الخليفة بالرفض الذي اتسم بالتهديد والوعيد، ظناً منه أن ذلك سوف يُثني هولاكو عن عزمه، ويجعله يفكر ملياً قبل أن يُقدم على خطوته ووصفه بالشاب الحدث، العديم الخبرة، والساعي إلى حتفه[٣]. ويبدو أنه أمل في تلقي المساعدة من الأمراء المسلمين، حتى وقف هذا الموقف المتشدِّد، ولكنه كان واهماً، إذ إن الأيوبيين في بلاد الشام والمماليك في مصر، الذين عقد آماله عليهم، توافر عندهم من المشكلات ما منعهم من النهوض لمساعدته، ولم يتحرك الأتابكة والترك والفرس لمساندته بفعل ما استبدَّ بهم من الخوف من المغول، أما سلاجقة الروم فقد خضعوا لحكم هؤلاء[٤]. وكان لهذا الموقف العباسي أسوأ الأثر في نفس هولاكو ما دفعه إلى الزحف باتجاه بغداد.

وصل رسل الخليفة إلى هولاكو، فلما اطلع هذا على رسالته وعلم بما لحق برسله من أذى العامة في بغداد، استشاط غضباً، فأعاد رسل المستعصم وحملهم رسالة أخرى تتضمن إنذاراً نهائياً صيغ في لهجة شديدة[٥].

وعندما عاد الرسل إلى بغداد، وأدرك الخليفة ما ينطوي عليه الردُّ المغولي من تهديد ووعيد؛ عرض الرسالة على كبار رجال دولته مستطلعاً رأيهم، فأشار عليه وزيره مؤيد الدين بن العلقمي أن يبذل الأموال والتحف والهدايا ويرسلها إلى هولاكو مع الاعتذار إليه، وأن يجعل الخطبة والسكة باسمه[٦]، على النحو الذي كان متبعاً أيام البويهيين والسلاجقة، وقد مال الخليفة إلى قبول هذا الرأي والأخذ به، لكن مجاهد الدين أيبك، الدواتدار الصغير، الذي كان يستند على قوة الجيش، ومساندة العناصر السنية في بغداد، رفض رأي

(١) الصياد: ص٢٥٥. (٢) الهمذاني: ص٢٦٧، ٢٦٨.
(٣) انظر نص الرسالة عند الهمذاني: ص٢٧٠.
(٤) العريني: ص٢١٦، ٢١٧.
(٥) انظر نص الرسالة عند: الهمذاني: ص٢٧١.
(٦) المصدر نفسه.

الوزير، وأصرَّ على المقاومة، فعدل الخليفة عند ذلك عن رأي الوزير وتبنّى خيار المقاومة[1].

وهكذا لم يكن لتبادل الرسائل بين الطرفين من أثر سوى جعل الحرب ضرورة لا بد منها.

سقوط بغداد

ولما أيقن هولاكو أن باستطاعته السير إلى العراق من دون أن يتعرَّض للمصاعب، وأن في مقدور قواته الاستيلاء على بغداد، أخذ في تنفيذ خططه العسكرية التي وضعها أثناء إقامته في همذان، وأصدر أوامره بأن تتحرك الجيوش المغولية باتجاه عاصمة الخلافة.

وهكذا تحرك جيش مغولي، بقيادة جرماغون وبايجو نويان، من أطراف بلاد الروم، عن طريق إربل والموصل، متوجهاً إلى بغداد ليحاصرها من الجهة الغربية. وتوجه كتبغا، على رأس جيشه، باتجاه العاصمة العباسية، عن طريق لورستان وخوزستان، وشكَّل الجناح الأيسر للحملة، كما وصل إليها بعض أمراء المغول عن طريق شمالي العراق، ثم وصل هولاكو على رأس جيشه وتمركز في الناحية الشرقية، وصحبه الأمير أرغون والخواجة نصير الدين الطوسي والوزير سيف الدين البيتكجي[2].

وعلى هذا الشكل، حاصرت القوات المغولية مدينة بغداد في (١٣ محرم ٦٥٦هـ/ ٢٠ كانون الثاني ١٢٥٨م).

وحاول مجاهد الدين أيبك، الدواتدار الصغير، أن يعرقل عملية التمركز المغولي ويحول دون استقرار المغول في أماكن تمركزهم، إلا أنه مني بهزيمة منكرة وقُتل عدد كبير من جنوده، وفرَّ مع قليل من أتباعه[3].

وفي يوم الثلاثاء (٢٢ محرم/ ٢٩ كانون الثاني) أحكم هولاكو حصاره على بغداد الذي استمر حتى آخر الشهر الهجري، وكان المغول خلال ذلك يضربون المدينة ويقتحمون الأبراج حتى استولوا على القسم الشرقي. ولما رأى الخليفة حرج موقفه أراد أن يُهدِّي المغول ويثنيهم عن عزمهم على متابعة الهجوم، فأرسل الرسل والهدايا إلى هولاكو، لكن هذا رفض الاستجابة لهذا النداء،

(١) الهمذاني: ص٢٧٢. (٢) ابن العبري: ص٣٠٧.
(٣) الجويني: ج٣ ص٢٨٣، ٢٨٤.

ونفَّذ خطة عسكرية تقضي بإفراغ المدينة من مدافعيها قبل أن يقتحمها جنوده. فأرسل نصير الدين الطوسي إلى الخليفة يأمره بإرسال سليمان شاه والدواتدار الصغير، فاضطر الخليفة إلى الاستجابة، ولما وصلا إليه، أعادهما إلى بغداد لاصطحاب أتباعهما وأصحابهما بحجة أنهم سينفون إلى الشام ومصر، فخرج معهما جند بغداد وكثير من السكان، فقتلهم هولاكو جميعاً، وذلك في (٢ صفر/ ٨ شباط) فانكشف عندئذ موقف الخليفة، ولما رأى أن لا مفر من دخول المغول بغداد، مال إلى التسليم[1].

ولم يمضِ على ذلك يومان حتى خدع هولاكو الخليفة، بالوعود الكاذبة، واشترك مؤيِد الدين بن العلقمي في هذه المؤامرة، حين أقنع الخليفة بوجوب الاستسلام، لأنه مهَّد طريق الصلح، وسوف يأتيه هولاكو والمغول طائعين[2].

وذكر ابن كثير أن الوزير ابن العلقمي كان قد اجتمع بهولاكو مع أهله وأصحابه وحشمه، ثم أشار على الخليفة بالخروج إليه والمثول بين يديه لتقع المصالحة، على أن يكون نصف الخراج لهولاكو والنصف الآخر للخليفة[3].

وهكذا شجَّع الوزير لقاء الخليفة بهولاكو، وهو يعلم أن في هذا اللقاء هلاكه، وربما كان متواطئاً من واقع الظن أن في قتله إنقاذاً للمسلمين. وفي يوم الأحد (٤ صفر/ ١٠ شباط) خرج الخليفة من بغداد وسلَّم نفسه وعاصمته للمغول من دون قيد أو شرط بعد أن وعده هولاكو بالأمان[4].

عندئذ دخل الجنود المغول إلى المدينة وعاثوا فيها مدة أسبوع، فهدموا مساجدها، وجرَّدوا القصور مما فيها من التحف النادرة، وأتلفوا عدداً كثيراً من الكتب القيمة في مكتباتها، وأهلكوا كثيراً من رجال العلم فيها، وقتلوا أئمة المساجد وحملة القرآن، وتعطَّلت المدارس والربط، وتمَّ تدمير المدينة، وهلك، في نحو أربعين يوماً، ثمانون ألفاً من سكان بغداد[5]، فتكدَّست الجثث في الطرقات والأزقة، ثم انتشر الوباء، فحصد كثيراً ممن كُتبت لهم النجاة[6].

(١) الصياد: ص٢٦٢. (٢) ابن الفوطي: ص٢٣٣.
(٣) البداية والنهاية في التاريخ: ج١٣ ص٢٠١.
(٤) الجويني: ج٣ ص٢٩٠.
(٥) رنسيمان: ج٣ ص٥٢١. ويبالغ المؤرخون المسلمون في تقدير عدد القتلى. انظر: ابن كثير: ج١٣ ص٢٠٠.
(٦) ابن كثير: ج١٣ ص٢٠٣. Brown: II p463.

وانتهت هذه الأحداث بقتل الخليفة المستعصم، حيث وُضِع في عدل ورُفِس حتى الموت لتجنُّب إراقة دمه، كما قُتل معه ابناه، أبو العباس أحمد وأبو الفضائل عبد الرحمن، وأُسر ابنه الأصغر مبارك مع أخواته الثلاث، فاطمة وخديجة ومريم[١].

وبعد أن فرغ هولاكو من الاستيلاء على بغداد تأذى من عفونة جوها فغادرها إلى خانقين، بعد أن نظم شؤونها، ومن ثَمَّ تراجع إلى بعض نواحي خراسان، واختار مدينة مراغة الواقعة في شمالي أذربيجان عاصمة لملكه، وكان يفضل الإقامة في إقليم بحيرة أورمية، فكلَّف الملك مجد الدين التبريزي ببناء قصر عال شديد الإحكام، على جبل يقع على ساحل البحيرة، ونقل إليه الخزانة التي تحوي الغنائم والأموال والنفائس التي أُخذت من بغداد وقلاع الحشيشية والروم والكرج والأرمن وغيرها من البلاد، وأرسل إلى أخيه منكو كثيراً من التحف والأموال التي غنمها[٢].

لم يتوقف هولاكو طويلاً في مراغة، بل إنه سرعان ما أمر بالتوجه إلى بلاد الشام منتهزاً فرصة أوضاعها المتردية، تدفعه نشوة النصر إلى التقدم والمتابعة[٣]، وكان قد وزَّع أعمال بغداد على رجاله، فعيَّن ابن العلقمي وزيراً، وفخر الدين الدامغاني صاحباً للديوان، ونظام الدين البَنْجَدِهي قاضي القضاة، وهي وظائفهم السابقة نفسها، ويساعدهم في الإدارة عدد من أعيان المدينة كنجم الدين بن الدربوس وابن الدَّوامي وابن المخرمي، كما عين علي بهادور شحنة بغداد[٤].

تعقيب على سقوط بغداد

ـ كان لسقوط بغداد دوي هائل وعميق في مختلف أنحاء العالم الإسلامي. واهتز الحكام المسلمون في المناطق المجاورة لهذا الحدث الجلل، وعدَّ المسلمون، في كل مكان، أن سقوط الخلافة العباسية صدمة مريعة، وتحدياً

(١) ابن كثير: جـ١٣: ص٢٠٥. الجويني: جـ٣ ص٢٩١، ٢٩٢. الجوزجاني: ص٤٣٠. ابن الفوطي ص٢٣٣، ٢٣٤.
(٢) ابن الفوطي: ص٢٣٣، ٢٣٤.
(٣) التونجي، محمد: بلاد الشام إبان الغزو المغولي: ص١٢٦.
(٤) الجويني: جـ٣ ص٢٩١، ٢٩٢.

مخيفاً، كان له أسوأ الأثر في نفوسهم. فعلى الرغم من أن الخلافة ظلت، منذ زمن طويل، تفقد قدراً كبيراً من سلطتها المادية، فإن مكانتها الأدبية والروحية لا زالت قوية. فما حدث من استئصال الأسرة العباسية، وتدمير العاصمة، جعل خلافة المسلمين شاغرة يتطلع إليها كل زعيم طموح من المسلمين[١].

ـ تعرَّضت وحدة العالم الإسلامي لضربة قاسية، وأضحت وحدة المسلمين من الأمور التي يستحيل تحقيقها[٢]، بعد أن خضع كثير من الحكام المسلمين للمغول، مثل الأتابك سعد بن أبي بكر، أتابك فارس، والسلطانين كيكاوس الثاني وأخيه قلج أرسلان الرابع، حاكمي دولة سلاجقة الروم.

ـ شكَّل سقوط بغداد ضربة قوية للحضارة والثقافة. فقد كانت هذه المدينة مركزاً هاماً للعلوم والآداب والفنون، وغنية بعلمائها وأدبائها وفلاسفتها وشعرائها، فلما حلَّت بها النكبة على أيدي المغول، قُتل آلاف من العلماء والشعراء، وفرَّ من نجا منهم إلى الشام ومصر، كما أُحرقت المكتبات، وخُرِّبت المدارس والمعاهد، وقُضي على الآثار الإسلامية[٣].

ـ ابتهج النصارى في شتى أنحاء العالم، ورحَّبوا بهولاكو وزوجته طقز خاتون التي كانت قد اعتنقت النصرانية على المذهب النسطوري[٤].

المغول في بلاد الشام

كان من الطبيعي أن يتلو غزو العراق، مهاجمة بلاد الشام، وكان هولاكو قد أرسل، أثناء حصار بغداد، فرقة عسكرية، بقيادة أريق نوين، استولت على إربل[٥]، من ثَمَّ أشرف المغول على بلاد الشام. وقد حرص الزعيم المغولي أن يُقوّي سيطرة المغول على إقليم الجزيرة، وهو الطريق المؤدي إلى حلب التي كانت هدفه الأول، وأن يخضع بصفة خاصة الأمير الأيوبي الكامل محمد بن المظفر غازي بن العادل صاحب ميافارقين، الذي رفض قبول السيادة المغولية.

(١) رنسيمان: جـ٣ ص٥٢٢، ٥٢٣.
(٢) العبادي، أحمد مختار: قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام: ص١٤٨.
(٣) الصياد: ص٢٨٠، ٢٨١. (٤) رنسيمان: جـ٣ ص٥٢٢.
(٥) ابن العبري: ص٣٠٨، ٣٠٩.

كانت بلاد الشام آنذاك تحت سيادة ثلاث قوى هي:

- قوة المسلمين المتمثلين بالملوك والأمراء الأيوبيين.
- قوة الصليبيين.
- قوة الأرمن في قيليقيا.

أما الملوك والأمراء المسلمون، فقد حكموا مدن ميافارقين، وحصن كيفا، والكرك، وحلب، وحمص، وحماه، ودمشق، إلا أنهم افتقروا إلى رابطة اتحادية، فكان كل أمير يعمل مستقلاً عن الآخر، ما أضعف قوتهم أمام المغول.

أما الصليبيون الغربيون، فقد وقفوا موقف المتردد من المغول، مع ميل إلى جانب المسلمين. حقيقة أن يوهيموند السادس، أمير أنطاكية، انضم إلى الحركة المغولية وأيدها، وشارك فيها، وكذلك فعل هيثوم، ملك أرمينيا الصغرى في قيليقيا، إلا أن الأول فعل ذلك بوصفه زوج ابنة الثاني وحليفه. ويبدو أن عطف هولاكو على النصارى الشرقيين، بشكل خاص، هو الذي ضايق الصليبيين الغربيين، مع إدراكهم العميق بأن المسلمين سوف يطردونهم من المنطقة إن عاجلاً أو آجلاً.

أما الأرمن في قيليقيا، فقد حالفوا المغول، وشجعوهم على القضاء على الخلافة العباسية، وعلى الأيوبيين في بلاد الشام، واشتركوا معهم في قتال المسلمين. فقد رأى هيثوم، ملك أرمينيا الصغرى، أن الفرصة سانحة لاستخلاص بلاد الشام، وبيت المقدس بوجه خاص[1].

كان الناصر يوسف، صاحب دمشق وحلب، آنذاك، أقوى الأمراء الأيوبيين، وقد أوجس خيفة من التقدم المغولي، وقدَّر أن هولاكو وجنوده سوف يستولون على بلاد الشام إن عاجلاً أو آجلاً، وأن هذا البلد لن يجد من يحميه من المغول أو من مماليك مصر، لذلك رفض تقديم المساعدة لصاحب ميافارقين بناء على طلبه لمقاومة المغول، كما أرسل ابنه العزيز محمد إلى هولاكو يحمل الهدايا والتحف، ويقدم الخضوع والولاء، ويطلب منه مساعدة عسكرية لاستعادة مصر من أيدي المماليك[2].

(١) Grousset: Histoire de Croisades: III p578.

(٢) ابن العبري: ص٣١٤.

ويبدو أن هولاكو شكَّ في إخلاص الناصر، لأنه لم يحضر إليه بنفسه ليعرض ولاءه وتبعيته، ثم يطلب تحالفه ضد المماليك في مصر، لذلك أرسل إليه رسالة يأمره فيها بضرورة المجيء إليه وتقديم الخضوع من دون قيد أو شرط[1].

والراجح أن الناصر لم يكن مستعداً للذهاب أبعد من ذلك، وأن يرتبط بعهد وثيق مع المغول في الوقت الذي تعرَّض فيه لاستنكار شديد من الأمراء المسلمين بسبب تقرُّبه منهم، لذلك أظهر العداء لهولاكو، وغادر دمشق إلى الكرك والشوبك[2].

وقاد هولاكو جيشه في عام (٦٥٧هـ/ ١٢٥٩م) باتجاه حلب للاستيلاء عليها، ولما كانت الطريق إليها تمر بديار الجزيرة فإنه أرسل قسماً من جيشه، بقيادة ابنه يشموت، وبصحبته القائد سونتاي نوين، إلى ميافارقين، فحاصرها واستولى عليها. واستولى هولاكو على مدن الجزيرة ودياربكر، مثل ماردين ونصيبين وحران والرها والبيرة وحارم، ووصل إلى أسوار حلب في (٢ صفر ٦٥٨هـ/ ١٨ كانون الثاني ١٢٦٠م) بعد أن عبر نهر الفرات، ولحقه ابنه يشموت مع جيشه، وحاصر المدينة. وقد رفضت حاميتها، بقيادة الملك الشيخ المعظم تورانشاه، ابن أخي الناصر، الاستسلام للجيش المغولي، لذلك تقرر اقتحامها[3].

كان الجيش المغولي كثير العدد، وقد شغل المساحة الممتدة من قرية المسلمية[4] إلى حيلان[5]، كما تلقى مساعدة من ملك أرمينيا الصغرى وبوهيموند السادس ملك أنطاكية[6]. وجرى اقتحام المدينة عن طريق الفرار المصطنع ثم الهجوم المباغت، ودخلها المغول من ذيل قلعة الشريف، فبذلوا السيف في سكانها بوحشية بالغة. أما القلعة فقد قاومت مدة أربعين يوماً قبل

(١) ابن العبري: ص٣١٤. المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي: السلوك لمعرفة دول الملوك: جـ١ ص٤١٥، ٤١٦.

(٢) ابن العبري: ص٣١٥. والكرك: قلعة حصينة جداً في طرف الشام من نواحي البلقاء في جبالها بين أيلة وبحر القلزم ـ الأحمر ـ، وبيت المقدس وهي على سن جبل عالٍ تحيط بها أودية إلا من جهة الربض. الحموي: جـ٤ ص٤٥٣. والشوبك: قلعة حصينة في أطراف الشام بين عمَّان وأيلة والقلزم، قرب الكرك. المصدر نفسه: جـ٣ ص٣٧٠.

(٣) ابن العبري: ص٣١٥.

(٤) المسلمية: قرية تبعد عن حلب ٢٠ كلم.

(٥) حيلان: قرية تبعد عن حلب ٧ كلم.

(٦) D'ohsson: III p356.

أن تستسلم في (صفر ٦٥٨هـ/ كانون الثاني ١٢٦٠م)[١].

كانت حلب ضحية المغول الكبرى بعد بغداد، حيث سقط من سكانها خمسون ألفاً. وعيَّن هولاكو عليها عماد الدين القزويني، وأمره بتخريب أسوارها وقلعتها، فخرجت عن آخرها «وبقيت كأنها حمار أجرب»[٢]، كما عيَّن فخر الدين الساقي على القلعة.

نتيجة لهذه الانتصارات السريعة والحاسمة، وما صاحبها من قتل وتشريد وتدمير، عمَّ الرعب في كل بلاد الشام. وأدرك الناصر يوسف أن الطريق إلى دمشق بات مفتوحاً أمام المغول، وأنه عاجز عن مواجهتهم منفرداً، فقرَّر أن يطلب المساعدة من المماليك في مصر. فغادر دمشق مع من بقي لديه من الجند وتوجه جنوباً نحو مصر، ووصل إلى غزة، تاركاً المدينة بيد وزيره زين الدين الحافظي[٣].

شعر سكان دمشق أنهم أضحوا بلا حام يحميهم ويدافع عنهم، واعتبروا مما حلَّ بالمدن التي قاومت المغول، من دمار وخراب وقتل للسكان، فقرَّروا تسليم مدينتهم لهولاكو[٤]، فأرسل إليهم كتبغا فدخلها في (صفر ٦٥٨هـ/ شباط ١٢٦٠م) من دون إراقة للدماء، لكن القلعة امتنعت عليه وقاومت جنده، فاقتحمها عنوة وهدمها وذلك في (نصف جمادى الأولى/ أوائل أيار)[٥].

التوسع المغولي باتجاه الصين الجنوبية ـ وفاة منكو

أرسل منكو أخاه الأوسط قوبيلاي في عام (٦٥٠هـ/ ١٢٥٢م) للاستيلاء على أقاليم الصين الجنوبية، وكانت لا تزال في أيدي أسرة سونغ، فسار إلى مقاطعة يونان، وكانت تتألف من عدة إمارات قبلية لم تخضع قط لحكومة سونغ. وقد قسَّم الصينيون شعوبها إلى قسمين وفقاً لدرجة تأثرهما بالحضارة الصينية، هما يو ـ مان، أي البرابرة السود، وبي ـ مان، أي البرابرة البيض[٦].

عسكر قوبيلاي في عام (٦٥١هـ/ ١٢٥٣م) في مقاطعة شانسي، وقد صحبه

(١) ابن العبري: ص٣١٥، ٣١٦. (٢) ابن كثير: جـ١٣ ص٢١٨.

(٣) الهمذاني: ص٣٠٧، ٣٠٨. النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب: نهاية الأرب في فنون الأدب: جـ٢٩ ص٣٨٦.

(٤) الهمذاني: ص٣٠٧، ٣٠٨. ابن كثير: جـ٣ ص٢١٩.

(٥) ابن كثير: المصدر نفسه. (٦) D'ohsson: II p317.

القائد أوريانكغداي بن سوبوتاي، وانطلق منها باتجاه مقاطعة ناتشو، فاستولى، في طريقه، على مقاطعة قندهار ـ قراجانك وجغان جانك[١] ـ وذلك لتوفير المؤن للجيش، ثم عبر ممرات جبال ساشوان، ووصل إلى نهر كينشا، فعبره في قوارب، وتوجه نحو تالي، عاصمة ناتشو، فحاصرها واستولى عليها، ثم انفصل عن الجيش لألم في قدمه، في حين تابع أوريانكغداي المهمة، فاصطدم بقوات التيبت الشرقية الذين وُصِفوا بالشدة، وأخضعهم، وبعد أن أنهى مهمته انسحب من المنطقة في نهاية (٦٥٢هـ/ ١٢٥٤م) وانضم إلى منكو الذي كان يعسكر في كوكونور، وأخبره بما حقَّق من انتصارات[٢].

وقرَّر منكو، على أثر انسحاب قوبيلاي من ساحة القتال، أن يتولى قيادة العمليات العسكرية بنفسه. فخرج إلى الصين الجنوبية في (محرم ٦٥٣هـ/ شباط ١٢٥٥م)، وترك أخاه الأصغر أريق بوقا على رأس المعسكرات وجنود المغول الذين كانوا يقيمون هناك، كما عهد إليه الإشراف على الأولوس وعلى أبنائه، وعبر النهر الأصفر المتجمد ودخل شانسي، وعسكر بالقرب من جبل ليوباشان[٣].

وبعد أن أمضى فصل الصيف، عبَّأ قواته البالغة ستمائة ألف جندي وقسَّمها إلى ثلاث فرق لتدخل الأراضي الصينية الجنوبية من ثلاثة محاور، وتحقق انتشاراً واسعاً وتستولي على أكبر عدد ممكن من المدن، وكانت مقاطعة ساشوان الهدف الرئيسي للحملة.

قاد منكو الفرقة الأولى، وتوجَّه إلى مقاطعة سان كيوان عن طريق لوتشاو، واستولى في طريقه على عشرين قلعة، وحاصر القلعة الكبرى دولي ـ جانك، كما أخضع قبائل يو ـ مان وكيو ـ مان واستولى على خمس مدن كبرى[٤].

وقاد ميوك أوغول الفرقة الثانية، فسار باتجاه ميتسانغ ـ كيوان، ليدخل المنطقة عن طريق سيان تشاو[٥].

وترأس بورتشاك الفرقة الثالثة وسار باتجاه ميان تشان عن طريق يوكيوان[٦].

(١) وتنتهي حدود هذه الولاية ببلاد التيبت والتانغوت وبعض الولايات والجبال في الهند وولاية الخطا وزردندان. الهمذاني: جامع التواريخ، تاريخ خلفاء جنكيز خان: ص٢٢٠، ٢٢١.

(٢) Howorth: I p212. D'ohsson: II p321. (٣) الهمذاني: ص٢٢٣.

(٤) الهمذاني: ص٢٢٣. (٥) D'ohsson: II p327.

(٦) Ibid.

وانتشر جيشان آخران في كيانغ ـ نان، وهو ـ كوانغ، الأول بقيادة قوبيلاي الذي عاد إلى الاشتراك في الحملة بعد أن ساءه التوقف عن ذلك، والثاني بقيادة تقاجار نوين. وعزَّز منكو الجيش الأول بقوات كونجو الذي أمره بالانضمام إليه، واستولى هذا الجيش على عدة مدن من بينها كو ـ تشو ـ ياي، بعد حصار دام عشرة أيام[1]. وعبر الجيش الثاني النهر العظيم ليحاصر المدينتين الكبيرتين سانك ـ يانك ـ فو، ونانك ـ جنك، غير أنه فشل في ذلك، وانسحب من المنطقة بعد أن حاصرهما مدة أسبوع، فعنَّف منكو، تقاجار[2].

وفي نهاية (٦٥٥هـ/ ١٢٥٧م)، هاجمت الجيوش المغولية مملكة أنام، تونكين، وتقدمت نحو نهر ثا الذي كان يعسكر عنده الجيش الأنامي مدعَّماً بالفيلة. وفي المعركة التي جرت بين الطرفين تعرَّض الجيش الأنامي لخسارة جسيمة، واستولى المغول على مدينة كيويشي عاصمة تونكين، كما نهبوا مدنها الأخرى[3].

ويبدو أن ملك كوريا هاله التوغل المغولي في المنطقة، فآثر السلامة وذهب بنفسه إلى معسكر الخان الأعظم وقدَّم له الولاء والطاعة[4].

وجاس المغول أراضي ساشوان وحاصروا مدينة هو ـ شاو الواقعة على نهري كيالينغ وفو، غير أنها صمدت في وجه الحصار. وحدث آنذاك أن هبَّت عاصفة هوجاء، وأمطرت السماء مدة عشرين يوماً بشكل متواصل ما أعاق العمليات العسكرية. وكانت قوات امبراطورية سونغ تخرج من المدينة وتهاجم القوات المغولية المحاصرة، وتدمر الجسور على نهر فو للحؤول دون عبور مزيد من القوات المغولية، وتفشَّى، في غضون ذلك، مرض الإسهال بين الجنود المغول، فأمر منكو، في ظل هذه الظروف القاسية، برفع الحصار عن المدينة والعودة باتجاه الشمال، وأصيب هو بمرض الإسهال، وتوفي بعد ذلك بأيام قليلة في (١٩ شعبان ٦٥٧هـ/ ١١ آب ١٢٥٩م)[5].

---

(١) الهمذاني: ص٢٢٣، ٢٢٤.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) D'ohsson: II p321.

(٤) Ibid.

(٥) ابن العبري: ص٣١٨. رنسيمان: جـ٣ ص٥٣٠. Howorth: I p214. يذكر الهمذاني أن وفاة منكو كانت في المحرم عام ٦٥٥هـ/١٢٥٧م وهذا خطأ. جامع التواريخ: مصدر سابق: ص٢٢٥.

الفصل الخامس

قـوبيـلاي بن تـولـوي

(٦٥٧ ـ ٦٩٣هـ/ ١٢٥٩ ـ ١٢٩٤م)

انتخاب قوبيلاي خاناً أعظم

جرى انتخاب قوبيلاي خاناً أعظم على المغول في ظل الصراع بينه وبين أخيه الأصغر أريق بوقا، وقد أشارت الدلائل السياسية، بعد وفاة منكو، إلى ترشيح أخيه قوبيلاي لمنصب الخان الأعظم بوصفه أكبر الإخوة الثلاثة للخان الراحل الذين ما زالوا على قيد الحياة. وكان قوبيلاي هذا، أثناء ذلك، يقود حملة عسكرية ضد الصين الجنوبية، فساندته القوات المرافقة له في حملته، وأخذ يستعد للعودة إلى العاصمة ليتولى منصبه، لكن نافسه أخوه الأصغر أريق بوقا، وكان يسيطر على الوطن الأم للأسرة بما فيه قراقورم، والخزانة المركزية للامبراطورية، وسانده معظم أقاربه من أفراد الأسرة الامبراطورية الذين كانوا في منغوليا[1].

وهكذا انقسمت الأسرة الحاكمة إلى قسمين: أحدهما يساند قوبيلاي والآخر يساند أريق بوقا. وظلَّت المناورات ناشطة عدة أشهر لاستقطاب الأنصار، وتُعدُّ مسألة اختيار خلف لمنكو، في هذه الظروف، من أصعب ما واجه المغول من مشكلات[2].

وعقد أريق بوقا، في عام (٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م)، اجتماعاً للمجلس الوطني ـ القوريلتاي ـ في العاصمة المغولية، حيث انتُخب خاناً أعظم للمغول، فرفض قوبيلاي الاعتراف بهذا القرار، وعمد إلى عقد اجتماع للمجلس الوطني، في مدينة شانغ ـ تو أو كي ـ بينغ ـ فو، إحدى مدن الصين الشمالية والتي تبعد اثني عشر فرسخاً شمال شرقي السور العظيم، حضره

---

(١) رنسيمان: جـ٣ ص٥٣١.

(٢) Howorth: I pp216, 217.

أعوانه، وانتخبه المجلس خاناً أعظم للمغول[1].

والواقع أنه لم يكن لكلا المجلسين صفة شرعية لأنه لم يمثَّل في كل منهما كل فروع الأسرة الامبراطورية، يضاف إلى ذلك، أن كلاً من الجانبين المتنافسين لم يشأ أن ينتظر حتى يتمَّ إعلام هولاكو وأمراء القبيلة الذهبية وبيت جغتاي، حتى يرسلوا مندوبين عنهم[2].

وساند كل من هولاكو والغو بن بايدار بن جغتاي قوبيلاي في هذا الصراع، فكافأهما بأن عيَّن الأول حاكماً على الولايات الممتدة من ضفاف نهر جيحون حتى بحر مصر، وعيَّن الثاني حاكماً على المنطقة الممتدة من جبال التاي حتى شاطئ نهر جيحون، واحتفظ هو بحكم المنطقة الممتدة من جبال التاي حتى ساحل المحيط، وأوصاهما بأن يحافظا على جنود المغول وأن يقمعا الفتن والاضطرابات التي انتشرت في الولايات، وكان بركة على علاقة جيدة بالطرفين في بادئ الأمر، إلا أنه مال، بعد ذلك، إلى جانب أريق بوقا[3].

كان على قوبيلاي أن يخضع أخاه وأنصاره المناوئين له وينتزع منهم العاصمة التقليدية قراقورم، فلم يتردَّد في محاربته، ونجح في القبض عليه في عام (٦٦٢هـ/ ١٢٦٤م) وسجنه، وتوفي بعد ذلك بعامين[4].

وواجه قوبيلاي أيضاً تمرداً من جانب قايدو بن قاشي بن أوكتاي، وتقع أراضيه في ولاية التانغوت، وسانده بعض الأمراء من أسرة جغتاي الذين اعترفوا به خاناً عليهم. وعندما قُبض على أريق بوقا خشي قايدو من سطوة قوبيلاي. واستمرت انتفاضته أعواماً عدة هلك خلالها الكثير من المغول وغيرهم من الشعوب التي جرى القتال في أراضيهم، وبخاصة بلاد ما وراء النهر وتركستان حيث تركَّزت المعارك.

حاول قوبيلاي، في بادئ الأمر، استقطاب قايدو وإقناعه بالكف عن تمرده، فاستدعاه لحضور اجتماع القوريلتاي إلا أنه تذرَّع بالحجج ولم يذهب، وراح يستقطب الحلفاء لتقوية موقفه، فمالت أسرة جوجي، القبيلة الذهبية، إلى جانبه، وتمكَّن بمساعدتها من الاستيلاء على بعض الأراضي، عندئذ رأى قوبيلاي ضرورة وضع حد لتمرده، فأرسل جيشاً برئاسة ابنه نوموغان وصحبه

(١) الهمذاني: ص٢٤٩.
(٢) رنسيمان: ج٣ ص٥٣١.
(٣) الهمذاني: ص٢٥٢.
(٤) المصدر نفسه: ص٢٦٢.

أخوه كوكجي والقائدان شيركي بن منكو وهنتوم نوين وبعض الأمراء.

وعندما علم قايدو بخروج جيش قوبيلاي تراجع باتجاه الشمال وعسكر في المنطقة المحيطة بنهر إيميل، وعبَّأ قواته استعداداً للاصطدام المرتقب. وحدث في غضون ذلك أن انفضَّ بعض الأمراء من حول جيش قوبيلاي، فانفصلوا مع أتباعهم وانضموا إلى جيش قايدو، كان من بينهم الأميران توقتيمور وشيركي، وقبضا على الأخوين نوموغان وكوكجي والقائد هنتوم نوين، فأرسلا الأخوين إلى منكو تيمور، زعيم أسرة جوجي، وسلما هنتوم إلى قايدو[1].

استمرت الحرب بين الطرفين طيلة حياة قوبيلاي، وقد توفي قبل أن يخضع أخاه، وكانت سجالاً. وعلى الرغم من أن نفوذ قايدو كان يتصاعد باستمرار إلا أنه لم يتمكَّن من حسم الحرب لصالحه، وقد شكَّل في إحدى مراحل الصراع، حلفاً من الأمراء نايان وسينقتور وقادان الذين تقع أملاكهم إلى الشمال من لياو ـ تونغ في منشوريا؛ راحوا يضغطون على أملاك قوبيلاي في الصين.

التوسع المغولي في عهد قوبيلاي

استئناف القتال على الجبهة الغربية

قيام دولة المماليك البحرية

أسس المماليك دولة إسلامية شملت مصر وبلاد الشام، وبسطوا هيمنة على الحجاز واليمن، وامتدَّ حكمهم على مدى قرنين ونصف من الزمن ابتدأ في منتصف القرن الثالث عشر الميلادي وانتهى في أوائل القرن السادس عشر، تخلَّل هذه المدة مراحل من الجهاد الإسلامي للدفاع عن الدين والأرض ضد الأخطار التي هدّدت منطقة الشرق الأدنى الإسلامي من جانب الصليبيين والمغول. فمن هم هؤلاء المماليك، وكيف استطاعوا تأسيس دولة لهم في مصر؟

عندما يتفحص الباحث تاريخ المشرق الإسلامي بعامة وتاريخ مصر وبلاد الشام بخاصة، منذ منتصف القرن الثالث عشر الميلادي حتى مطلع العصور الحديثة؛ يلاحظ أنه تأثَّر بالدور الذي أدَّاه المماليك الأتراك الذين قدموا إلى

(١) الهمذاني: ص٢٦٤.

غربي آسيا نتيجة السبي في الحروب أو الشراء، وكانت بلاد ما وراء النهر والقبجاق مصدراً رئيساً لجلب الرقيق الأبيض التركي.

وظل هؤلاء يتوافدون على مصر من دون انقطاع منذ العصور العباسية المتأخرة، وقد أتاحت لهم التطورات نوعاً من الهيمنة العسكرية والسياسية، حيث كان من العسير عليهم ألا يتدخلوا في شؤون الإمارات الإسلامية ليخطُّوا لهم طريقاً ونهجاً خاصاً في الحكم، ويتركوا بصمات واضحة في تاريخ منطقة المشرق الإسلامي، فاستخدمهم الطولونيون في مصر واعتمدوا عليهم في قيام دولتهم واستمرارها (٢٥٤ ـ ٢٩٢هـ/ ٨٦٨ ـ ٩٠٥م). ومنذ ذلك الوقت أضحى جند مصر وولاتها من المماليك الأتراك.

ونهجت الدولة الأخشيدية (٣٢٣ ـ ٣٥٨هـ/ ٩٣٥ ـ ٩٦٩م)، التي خلفت الدولة الطولونية في مصر، نهج هذه الأخيرة في الاعتماد على المماليك. وعندما استولى الفاطميون على مصر في عام (٣٥٨هـ/ ٩٦٩م) اعتمد حكامهم على عدة عناصر، كان الأتراك من بينهم. وعندما قامت الدولة الأيوبية في مصر على أنقاض الدولة الفاطمية في عام (٥٦٧هـ/ ١١٧١م) أقدم الملوك والأمراء الأيوبيون على شراء أعداد كثيرة منهم لزيادة قدراتهم العسكرية، والاعتماد عليهم في حروبهم الداخلية مكوِّنين منهم عصبة تشدُّ أزرهم. وظلَّ هؤلاء المماليك أداة طيعة في أيدي أصحابهم طالما كان أولئك محتفظين بقوتهم. ويعود الفضل لهم في احتفاظ كل من الملك العادل والملك الكامل محمد بتفوقهم العسكري، وصمودهم في وجه الصليبيين في بلاد الشام. وبتفاقم الخلافات بين أفراد البيت الأيوبي، ونشوب النزاعات الدامية بينهم، ازداد نفوذ المماليك وأضحوا الأداة التي لا يمكن الاستغناء عنها في احتفاظ الملوك الأيوبيين بسلطانهم.

وهكذا تضخَّم نفوذ المماليك السياسي في الدولة الأيوبية بفضل شعورهم بأهميتهم العسكرية، ومن ثَمَّ راحوا يتدخلون في شؤون الدولة الداخلية، من ذلك تدخلهم في مؤامرة لعزل العادل الثاني وإحلال الصالح نجم الدين أيوب مكانه[١]، الأمر الذي أدَّى بهذا الأخير إلى إدراك أهميتهم العسكرية، فاستكثر من شرائهم تمتيناً لسلطته، وجعلهم بطانته، وأضحى بفضلهم حاكماً على مصر، واختار جزيرة الروضة في نهر النيل لتكون مقراً له، فشيَّد فيها قصراً، وبنى قلعة خاصة لمماليكه وأسكنهم فيها، ومن أجل ذلك عُرِف هؤلاء

(١) انظر كتابنا: تاريخ الأيوبيين في مصر وبلاد الشام وإقليم الجزيرة ص٣٥٣ ـ ٣٥٦.

المماليك باسم المماليك البحرية الصالحية الذين سيشكلون فيما بعد عماد الدولة المملوكية الأولى[١].

وتلقّى هؤلاء تربية متقنة في الطباق[٢] قائمة على الفروسية والنظام العسكري الصارم المرتبط بالإقطاع العسكري، ما أوجد لهم بيئة اجتماعية خاصة بهم، فلم يختلطوا بسكان مصر، ولم يتزوجوا بالنساء المصريات، وأشهر ما انفردوا به ابتعادهم، وترفُّعهم عن الناس، وانقسامهم إلى طوائف وشيع لكل طائفة منهم زعيم، وكان رجال الدين واسطة الاتصال بينهم وبين الشعب.

ويرجع الفضل لهؤلاء المماليك في تصدِّي سلاطين مصر منذ أيام الصالح نجم الدين أيوب للصليبيين، الأمر الذي جعلهم يعتدُّون بقوتهم في الوقت الذي كانت فيه الدولة الأيوبية تعاني من مظاهر الضعف وبخاصة بعد وفاة الصالح نجم الدين أيوب في عام (٦٤٧هـ/ ١٢٤٩م)، ذلك أن ابنه وخليفته توران شاه قد فَقَدَ ثقته بهم وحرمهم من وظائف الدولة، وعندما احتجُّوا ردَّ عليهم بالتهديد، وأهان زوجة أبيه شجر الدر، ما حملها على طلب حمايتهم.

وهكذا تخوَّف المماليك من توران شاه، وتربصوا به إلى أن سنحت لهم الفرصة، فقضوا عليه في عام (٦٤٨هـ/ ١٢٥٠م)[٣] واضعين بذلك نهاية للدولة الأيوبية.

كان من الطبيعي أن يطمع كل أمير في تبؤ عرش السلطنة في مصر، كما وُجِد الملوك الأيوبيون خارج مصر، ومنهم الناصر يوسف صاحب حلب، وقد استاؤوا من إقدام المماليك على قتل أحد ملوك الأيوبيين واستئثارهم بالسلطة.

وللخروج من هذا المأزق، اختار المماليك شجر الدر زوجة الصالح أيوب سلطانة على مصر، وكانت بحكم أصلها الأرميني أو التركي أقرب إلى المماليك، كما أن الصلة التي ربطتها بالصالح أيوب قد انتهت بموته، وهي أول من ملك مصر من ملوك الترك المماليك[٤].

ونصَّب المماليك أتابك العسكر عز الدين أيبك وصياً على العرش، وما لبث أن تزوج بشجر الدر، ثم نصَّبه الأمراء البحرية سلطاناً[٥].

(١) انظر كتابنا: تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام ص٢٦، ٢٧.
(٢) الطباق: الثكنة العسكرية.
(٣) انظر كتابنا: تاريخ الأيوبيين في مصر وبلاد الشام وإقليم الجزيرة ص٣٨٧ ـ ٣٩٠.
(٤) انظر كتابنا: تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام ص٣٥، ٣٦.
(٥) المرجع نفسه: ص٣٥، ٣٦، ٤٣ ـ ٤٥.

وهكذا قامت دولة المماليك البحرية في مصر لتنفخ في المسلمين روحاً جديدة بما هيأت لهم من طاقة عسكرية هائلة مكّنتهم من التصدي للمغول، والقضاء على ما تبقّى من الصليبيين في المشرق الإسلامي.

شهدت دولة المماليك في بداية حياتها السياسية تطورات داخلية سريعة، ذلك أن شجر الدر دبَّرت مؤامرة لقتل زوجها عز الدين أيبك في عام (٦٥٥هـ/ ١٢٥٧م)، فما كان من مماليكه إلا أن انتقموا لمقتله، فقتلوا شجرة الدر في السنة نفسها، ونصَّبوا نور الدين علي بن أيبك سلطاناً وعمره خمس عشرة سنة ولقَّبوه بالملك المنصور[١].

وبدت الدولة المملوكية ضعيفة في ظل حكم صبي قاصر حين تعرَّضت لضغط خارجي من قِبَل بقايا الأيوبيين في الوقت الذي اشتد الضغط المغولي على بلاد الشام. خلقت هذه الظروف الخارجية وضعاً حرجاً يتطلَّب وجود رجل قوي على رأس السلطنة، فوجد قطز، وهو أحد الأمراء المماليك البارزين، الفرصة سانحة ليتبوَّأ عرش مصر، فعزل المنصور في (ذي القعدة ٦٥٧هـ/ تشرين الثاني ١٢٥٩م) بمساعدة المماليك المعزية، ونصَّب نفسه سلطاناً[٢].

معركة عين جالوت[٣] ووقف الزحف المغولي

لم يبقَ خارج نطاق حكم المغول من العالم الإسلامي في الشرق الأدنى سوى الديار المصرية والحجاز واليمن، وكان هولاكو قد وجَّه في عام (٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م)، وهو في بلاد الشام، إنذاراً إلى السلطان المملوكي في القاهرة المظفَّر قطز، يطلب منه الاستسلام، ويُذكِّره بأن المغول استولوا على كافة البلاد، ولم تستطع أية قوة الوقوف في وجههم[٤].

وفي الأسابيع الثلاثة التي أعقبت الاستيلاء على دمشق، أتمَّ المغول احتلال بلاد الشام، وتقدموا نحو فلسطين من دون أن يلقوا مقاومة تُذكر باستثناء ما حصل من قتل حامية نابلس لأنها قاومتهم، واستسلمت لهم حامية عجلون،

(١) انظر كتابنا: تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام ص٥١، ٥٢، ٥٨.
(٢) المرجع نفسه: ص٥٩، ٦٠.
(٣) عين جالوت: بلدة لطيفة بين بيسان ونابلس من أعمال فلسطين. الحموي: جـ٤ ص١٧٧.
(٤) انظر نص الرسالة عند الهمذاني: ص٣١٠؛ المقريزي: جـ١ ص٥١٤.

وأغاروا على الخليل، فقتلوا الرجال وسبوا النساء والصبيان، واستاقوا الأسرى والأبقار والأغنام والمواشي شيئاً كثيراً، لكنهم لم يطأوا بيت المقدس[١].

وعقد المظفر قطز اجتماعاً عاجلاً مع أمرائه لتدارس الموقف، وتمخَّض الاجتماع عن قرار يقضي برفض الإنذار وقتل الرسل الذين حملوا الرسالة إلى مصر. والحقيقة أنه كان من الصعب على المماليك في مصر أن يقفوا في وجه هولاكو وجيوشه الضخمة. فما الذي تبدَّل في المناخ السياسي حتى اتخذ قادة المماليك هذا القرار الرافض؟

الواقع أن هولاكو غادر آنذاك بلاد الشام على عجل عائداً إلى قراقورم، وسحب معه معظم جيشه، وأبقى في المنطقة عشرة آلاف جندي بقيادة كتبغا نوين.

أما دوافع عودته المفاجئة، فترجع إلى عاملين:

الأول: وفاة الخان الكبير منكو وبروز صراع على السلطة بين أخوي هولاكو، قوبيلاي وأريق بوقا، فأراد أن ينافسهما على الزعامة المغولية، معتقداً أنه سوف يُنتخب خاناً أعظم نظراً لأهمية توسعاته.

الثاني: تعرُّض أملاكه في إيران لضغط متواصل من قبل ابن عمه بركة خان، زعيم القبيلة الذهبية[٢] وحاكم القبجاق[٣]، وبخاصة أنه قد اعتنق الإسلام، وأخذ يتوعد هولاكو ويتهدَّده بسبب ما اقترفه من مذابح بحق آلاف المسلمين، ولتجرُّئه على مقام الخلافة وقتل الخليفة[٤].

أضحى كتبغا يحكم بلاد الشام بقوة قليلة العدد نسبياً ما أتاح بصيصاً من الأمل للمماليك الذين أثارهم توغل المغول في فلسطين، يضاف إلى ذلك، فقد عُرِفَ عن كتبغا نوين تقرُّبه من النصارى، لا لأنه يدين بالنصرانية فحسب، بل لأنه أدرك أيضاً مدى أهمية قيام تحالف مغولي ـ نصراني في الشرق الأدنى يقف في وجه الإسلام والمسلمين. وعلى الرغم من أن بوهيموند السادس،

(١) العيني: جـ١ ص٢٣٢.
(٢) سُميت بالقبيلة الذهبية نسبة إلى اللون الذهبي الذي اشتهرت به مخيماتهم.
(٣) تشمل القبجاق البلاد الواقعة بين نهر إريتش والسواحل الجنوبية لبحر قزوين، وغالب سكانها من الأتراك والتركمان.
(٤) الهمذاني: ص٣١١.

أمير أنطاكية، كان يشارك كتبغا هذا الشعور، فإن الصليبيين في عكا ظلوا ينظرون إلى المغول كبرابرة، وقد أدركوا أنهم لن يسمحوا لهم بإقامة إمارات صليبية مستقلة، وإنما يريدونهم تابعين للخان الكبير، لذلك آثروا المسلمين عليهم، فكان هذا إيذاناً بانتهاء الحلف الصريح، أو الضمني، بين المغول والصليبيين[1]، وقد أدرك قطز هذه الخطوة، لأن كتبغا لم يكن باستطاعته أن يحتفظ بالأراضي إلا عن طريق تحالفه مع الصليبيين النازلين على الشاطئ، وما دام هؤلاء الصليبيون قد نفضوا أيديهم من هذا الحلف، فقد أصبحت الفرصة مؤاتية ليس للوقوف في وجه المغول فحسب، بل والانتصار عليهم أيضاً[2].

في ظل هذه الأوضاع استقر رأي المماليك في مصر على ضرورة المقاومة، ومن خلال هذه المعطيات كان القرار الرافض بالاستسلام وقتل الرسل.

وضع قطز، الذي اشتهر بالبراعة السياسية، خطة عسكرية من شقين:

الأول: تدعيم الجبهة الداخلية، وتعبئة الرأي العام، استعداداً لخوض المعركة.

الثاني: الاستعدادات العسكرية، وتتضمن محاولة استقطاب الأمراء الأيوبيين والمماليك البحرية بهدف توحيد الصف الإسلامي في بلاد الشام ومصر تحت قيادة واحدة.

ففيما يتعلق بالشق الأول، فقد دعا إلى الجهاد، ثم أخذ يعمل على حشد الجيوش، وجمع الأموال اللازمة للإنفاق عليها، بفرض ضرائب جديدة ومختلفة على سكان مصر والقاهرة[3]، وأقنع الأمراء المعارضين للحرب بالاشتراك في التعبئة والقتال[4]، وبذلك يكون قد دعَّم الجبهة الداخلية، ووحَّد صفوفها، وعبَّأ الرأي العام، ليسانده في مهمته، وأمَّن الموارد اللازمة للإنفاق على الجيش، فاستعدَّ للقاء العدو وهو مطمئن على الأوضاع الداخلية.

وفيما يتعلق بالشق الثاني من الخطة العسكرية، فقد تمكَّن قطز من استقطاب

(١) Grousset: L'Empire de la Steppes: p437.

(٢) الصياد: ص٣٠٥.

(٣) ابن إياس، محمد بن أحمد: بدائع الزهور في وقائع الدهور: جـ١ قسم١ ص٣٠٥، ٣٠٦. إنه يعدد نوع ومقدار الضرائب التي فرضها قطز على السكان.

(٤) المقريزي: جـ١ ص٥١٥، ٥١٦.

وحدات جيش الملك الناصر يوسف الأيوبي من الناصرية والشهرزورية[1]، عندما وصلوا إلى غزة، كما ضمَّ إلى قواته من تبقّى من القوات الخوارزمية وقوات أمير الكرك الأيوبي[2].

ونتيجة لتبدل الظروف السياسية، وجد الأمراء المماليك البحرية الذين غادروا مصر إلى بلاد الشام وآسيا الصغرى، منذ أيام المعز أيبك، خوفاً من أن ينالهم ما نال أقطاي يومئذٍ[3]؛ أن واجبهم يقضي عليهم الوقوف إلى جانب قطز ومساندته، وبخاصة بعد انتشار المغول في مدن الشام الكبرى، واستسلام الناصر يوسف ومعظم الأمراء الأيوبيين لهم، وتهديدهم للديار المصرية، فأخذوا يفدون على القاهرة، وعلى رأسهم بيبرس البندقداري، متجاوزين مخاوفهم من السلطة بفعل تحريضهم الأمراء الأيوبيين على غزو مصر.

ومن جهته، تجاوز قطز أعمالهم العدوانية، واستقطبهم، بفعل أن الموقف يتطلب تضافر جميع الجهود للوقوف في وجه العدو.

وبذلك أضحى المماليك كتلة متراصة، وأضحى قطز من الصلاحية والسلامة ما جعله يتحدَّى المغول، وكَسِب الجولة الأولى قبل أن يخوض المعركة.

وضع قطز خطة عسكرية محكمة تقضي بأن يزحف قائده بيبرس البندقداري على رأس قوة استطلاعية لدراسة الموقف على الأرض، وهذا تفكير متقدم في السياسة العسكرية، إذ كان أمراء المدن يكتفون بتقوية دفاعات الحصون عندما تصل إليهم تهديدات المغول، ويؤثرون الدفاع من وراء الأسوار[4].

تقدم بيبرس في (شعبان ٦٥٨هـ/تموز ١٢٦٠م) قاصداً غزة في الوقت الذي كان كتبغا قد أقام فيها حامية مغولية تحت قيادة بيدرا، وعسكر هو بالقرب من بعلبك، فأرسل إليه بيدرا رسالة يعلمه فيها بتقدم القوات المملوكية، ويطلب

(١) الشهرزورية: نسبة إلى شهرزور، وهي كورة واسعة في الجبال بين إربل وهمدان. الحموي: جـ٣ ص٣٧٥، والشهرزورية هم الأمراء الذين هجروا بلادهم وانتقلوا إلى بلاد الشام، هرباً من هولاكو، وعددهم ثلاثة آلاف فارس. النويري: جـ٢٩ ص٤٧١.

(٢) النويري: جـ٢٩ ص٣٨٨.

(٣) المعروف أن أقطاي قُتل على يد أيبك في الصراع على السلطة في (شعبان ٦٥٢هـ/أيلول ١٢٥٤م). انظر: النويري: جـ٢٩ ص٤٣٠، ٤٣١.

(٤) الصياد: ص٢٠٦.

منه نجدة على وجه السرعة[١].

اصطدم بيبرس بالحامية وأجلاها عن غزة، وطارد أفرادها حتى نهر العاصي[٢]، وتجهَّز كتبغا على الفور، عندما بلغته أنباء تحرك المماليك، للمسير إلى وادي نهر الأردن، غير أن ما حدث من نشوب ثورة في دمشق ضد الحكم المغولي، أخَّر تقدمه، ما أعطى الفرصة لهؤلاء ببدء التحرك.

وخرج قطز من مصر متوجهاً إلى فلسطين في (رمضان/آب) متخذاً الطريق الساحلي المار بعكا بعد أن حصل على إذن من صليبيي هذه المدينة بالمرور في أراضيهم، وهو ينوي التوجه نحو الشمال ليقطع الطريق على كتبغا إذا حاول الزحف جنوباً لنجدة بيدرا، وعلم، وهو في عكا، بأن القائد المغولي عبر نهر الأردن باتجاه الجنوب الشرقي مجتازاً الناصرة، ومدعَّماً بقوات أرمينية وكرجية، ووصل إلى عين جالوت.

وعقد القائد المملوكي مجلساً حربياً حضره قادة الفرق العسكرية لتحديد خطة خوض المعركة. واستغل قطز، في هذا الاجتماع، الفرصة ليثير الحماسة في نفوس الحاضرين، ويذكِّرهم بأهمية الموقعة التي سوف يخوضونها، وما يترتب عليها من إزالة الضغط الكبير عن صدور المسلمين الذي سبَّبه المغول بأعمالهم الوحشية والتدميرية، ويحثهم على عدم التهاون في محاربتهم[٣].

والواقع أن هذه الكلمة التي ألقاها قطز، أثارت حماس المقاتلين وألهبت مشاعرهم، فصمَّموا على التفاني في الجهاد إلى آخر رمق في حياتهم.

تحرك الجيش المملوكي باتجاه نهر الأردن، وتقدم بيبرس فسبق قلب الجيش ووصل إلى عين جالوت، وأخذ يناوش الجيش المغولي حتى لحق به قطز، وكان هذا شديد الإدراك لتفوق جيشه في العدد، فأخفى قواته الرئيسة في التلال القريبة، ولم يعرض للعدو إلا مقدمة جيشه التي قادها بيبرس. ووقع كتبغا في فخ الكمين الذي أُعدَّ له، وإذ حمل بكل رجاله على المقدمة المملوكية التي شاهدها أمامه، أسرع بيبرس في التقهقر إلى التلال المجاورة، حسب الخطة الموضوعة، فطارده كتبغا، ولم يلبث أن جرى تطويق الجيش المغولي بكامله، وإبادة معظم أفراده. ووقع كتبغا في الأسر، فقتله قطز،

(١) الهمذاني: ص٣١٣. (٢) المصدر نفسه.
(٣) المقريزي: ج١ ص٥١٥.

وطيف برأسه في البلاد، وقد تمَّ هذا النصر الإسلامي المؤزَّر في (٢٦ رمضان/ ٣ أيلول)[١].

ما إن وصلت أنباء انتصار المسلمين في عين جالوت إلى دمشق حتى قام المسلمون فيها بالانتقام من العناصر التي تعاونت مع المغول، ثم حدث أن تابع قطز زحفه نحو دمشق ودخلها بعد خمسة أيام، فاستُقبل فيها استقبالاً حاراً[٢].

نتائج معركة عين جالوت

تعد معركة عين جالوت من المعارك التاريخية الهامة، وترتبت عليها نتائج بالغة الأهمية، لعل أهمها:

ـ لقي المغول، لأول مرة في تاريخهم في الشرق، هزيمة حاسمة، وتعرَّض جيشهم للدمار التام، وقضى المماليك على الخرافة القائلة بأن المغول قوم لا يُقهرون. وعلى الرغم من أن الهزيمة لم تلحق بشخص هولاكو، إلا أنها كانت، على أي حال، ضربة قاسية أنزلها المماليك بجيوش المغول، ويُعدُّ مقتل كتبغا صدمة أصابت هولاكو، بدليل أنه ما إن بلغه مقتل قائده حتى تأثر تأثراً شديداً، وصمَّم على الانتقام، فأراد أن يرسل حملة جديدة إلى بلاد الشام ومصر، من أجل هذه الغاية، غير أن الظروف السياسية التي كان يمر بها والتي تمثَّلت بوفاة الخان الكبير منكو والتنازع الأسري حول خلافته، لم تُمكِّنه من ذلك[٣].

ـ سيطر المماليك، بعد عين جالوت، على بلاد الشام كلها حتى نهر الفرات[٤] وحقَّقوا وحدة بلاد الشام ومصر، بعد أن أدَّى ضعف أبناء صلاح الدين وتنازعهم إلى تمزيقها. والجدير بالذكر أن هذه الوحدة كانت ضرورية لمواجهة الأخطار التي جابهت المسلمين في الشرق الأدنى[٥].

(١) انظر فيما يتعلق بمعركة عين جالوت: ابن كثير: ج١٣ ص٢٢٠ ـ ٢٢٢. الهمذاني: ص٣١٣، ٣١٤. النويري: ج٢٩ ص٤٧٢ ـ ٤٧٥.
(٢) ابن كثير: المصدر نفسه. النويري: ج٢٩ ص٤٧٦، ٤٧٧.
(٣) الهمذاني: ص٣١٧. الصياد: ص٣١٤.
(٤) ابن كثير: ج١٣ ص٢٢١. المقريزي: ج١ ص٤٣١.
(٥) الصياد: ص٣١٥، ٣١٦.

- إن ما أحرزه المماليك من انتصار في عين جالوت، أنقذ الإسلام والمسلمين من أشد ما تعرَّضوا له من أخطار. فلو قُدِّر للمغول أن ينتصروا ويتوغلوا داخل مصر، لما بقي للمسلمين في العالم دولة كبيرة شرقي بلاد المغرب. وعلى الرغم من أن المسلمين في آسيا، كانوا من وفرة العدد ما يمنع استئصال شأفتهم، فإنهم لم يعودوا يؤلفون العنصر الحاكم. ولو انتصر كتبغا في المعركة لازداد التعاطف المغولي مع النصارى[1]، كما أنقذ أوروبا من خطرهم. فبعد أن امتد النفوذ المغولي إلى أوروبا الشرقية، تطلع المغول إلى احتلال مصر نظراً لموقعها السياسي والطبيعي في التمدد غرباً باتجاه شمالي إفريقيا وشمالاً باتجاه أوروبا. وكان هولاكو، وخلفاؤه من بعده، يفكرون في اجتياح أوروبا كلها بعد سيطرتهم على الشرق الأدنى[2].

ورأى المماليك بدورهم أن يعملوا على كسر شوكتهم ووقف تقدمهم الجارف والانتقام منهم دفاعاً عن العالم الإسلامي، لذلك استمر العداء مستحكماً بين المماليك وإيلخانات إيران خلال عهود خلفاء قطز.

- أدَّى انتصار المماليك في عين جالوت إلى احتفاظ مصر بما لها من حضارة ومدنية، فلم تتعرَّض لما تعرَّضت له بغداد من الدمار والخراب، وأضحت القاهرة قبلة العلماء، والأدباء، يجدون فيها التشجيع والتكريم ما يحفِّزهم على التأليف والتدوين.

- جعلت معركة عين جالوت سلطنة المماليك القوة الأساسية في الشرق الأدنى، في القرنين التاليين، إلى أن قامت الدولة العثمانية[3].

- حقَّقت دولة المماليك الناشئة، الدعامة التي تعتمد عليها في البقاء في الحكم. والجدير بالذكر أن المماليك الذين استأثروا بحكم مصر في منتصف القرن الثالث عشر الميلادي، كانوا مغتصبين للسلطة، فضلاً عن كونهم مجرَّحين بسبب أصلهم غير الحر، وكانوا عند تأسيس دولتهم بحاجة ماسة للقيام بعمل كبير يُضفي عليهم نوعاً من التشريف، ويكسب حكمهم قسطاً من الأهمية والشرعية، ويجعله مقبولاً من عامة المسلمين، من هنا تبدو أهمية

(١) رنسيمان: جـ٣ ص٥٣٧، ٥٣٨.

(٢) Brown: III p6. Cambridge Medieval History. IV pp43, 44.

(٣) رنسيمان: جـ٣ ص٥٣٨.

انتصارهم في عين جالوت، لأن هذا الانتصار حقَّق لهم أمانيهم.

- بثَّ النصر في عين جالوت روحاً جديدة في المسلمين، وبخاصة مسلمي إيران الرازحين تحت الحكم المغولي، فقوي موقفهم، وتمكَّنوا من الصمود أمام تحديات النصارى، كما نافسوهم في تبوُّء الزعامة والصدارة في دولة المغول الإيلخانيين في إيران. وقد شجَّعهم هذا النصر على دعوة المغول إلى الدين الإسلامي، حتى تكلَّلت مساعيهم بالنجاح، وأضحى الإسلام ديناً رسمياً لدولة المغول الإيلخانيين[1].

- توطَّدت العلاقة بين المماليك وبين الحكام المسلمين من المغول في بلاد القبجاق، وتحالف الفريقان ضد عدوهما المشترك المتمثل في أسرة هولاكو بإيران.

- أدَّى انتصار المماليك في عين جالوت إلى فشل سياسة الصليبيين في الشرق الأدنى القاضية بالتحالف مع المغول ضد المسلمين، وإلى تعجيل زوال الإمارات الصليبية في بلاد الشام.

إخضاع الصين الجنوبية

بعد أن تخلَّص قوبيلاي من منافسه أريق بوقا، وأخضع المعارضين لسياسته؛ قرَّر استئناف تنفيذ خطط المغول العامة في التوسع على حساب أسرة سونغ في جنوبي الصين وإخضاعها، وبذل في هذا الميدان جهوداً كبيرة استغرقت نحو عشرين عاماً، برز خلالها الأمير المغولي بايان بن كوكجو، وهو من قبيلة بارين، الذي أخذ على عاتقه إخضاع المقاطعات الصينية الجنوبية، كما برز الأمير آجو، حفيد سوبوتاي، كقائد محترف عمل تحت قيادة بايان. ووضع قوبيلاي تحت تصرف قائده آلاف الجنود وآلات الحصار ومجانيق لدك أسوار المدن، واستعان من أجل إعدادها بمهندسين من إيران والشام. وكان الخان الأعظم يمد قائده بتعزيزات مستمرة حتى أنه جنَّد المساجين وأرسلهم إلى الصين للاشتراك في القتال.

هاجم بايان المقاطعات الصينية واستولى عليها، الواحدة تلو الأخرى، وأشهرها: كندو، أنكربورة، مقومان، كلنك، كياي وغيرها، وتعاقب على

(١) الصياد: ص٣١٧، ٣١٨.

الحكم، خلال تلك المدة، أكثر من امبراطور صيني. ففي عام (٦٦٢هـ/ ١٢٦٤م) توفي الامبراطور لي ـ سونغ، وخلفه حفيده شاو ـ كي، الذي اتخذ اسم تو ـ تسونغ، واستمر في الحكم حتى (صفر ٦٧٣هـ/ آب ١٢٧٤م)، وخلفه ابنه الثاني كاود ـ هيان، البالغ من العمر أربعة أعوام. وكان المغول، خلال ذلك، قد استولوا على معظم المقاطعات الصينية. وفي عام (٦٧٤هـ/ ١٢٧٥م) هاجموا العاصمة لن ـ نگاي واستولوا عليها، وعرض الامبراطور الصغير الاستسلام مقابل:

ـ الاعتراف بتبعيته للخان الأعظم.

ـ دفع جزية سنوية مقدارها مائتين وخمسين ألف أوقية من الفضة وألفين قطعة من الحرير.

غير أن بايان رفض عرض الاستسلام وتابع هجومه على ما تبقَّى من مدن واستولى عليها، ومنها شانغ ـ شي، وهوانغ ـ وان ـ تان، ويانغ ـ تشاو وغيرها.

وفي عام (٦٧٧هـ/ ١٢٧٨م) استدعى قوبيلاي قائده بايان من الجبهة الصينية إلى الشمال لمواجهة بعض الأعداء هناك، وسحب قسماً كبيراً من الجيش المغولي، وترك ما تبقَّى من قوات تحت قيادة لي ـ هانغ، فاستغل الصينيون هذا الفراغ العسكري ونفَّذوا عدة هجمات مضادة أسفرت عن استعادتهم بعض المدن.

وجاء الرد المغولي سريعاً على تلك الانتفاضة الصينية، عندما أرسل قوبيلاي حملة عسكرية جديدة استردَّت المدن من يد الصينيين، واستولت على مدينتي كانتون وشاو ـ شو، وطاردت الامبراطور الصيني الذي راح يتنقل من مكان إلى آخر حتى أوى إلى الجزيرة الصحراوية كانغ ـ شو، حيث توفي فيها في (ذي الحجة ٦٧١هـ/ أيار ١٢٧٨م) وعمره أحد عشر عاماً. وعيَّن القادة الصينيون أخاه الأصغر واي ـ وانغ امبراطوراً، واتخذ اسم تي ـ بينغ، فطارده المغول، ففرَّ منهم في سفينة عبر النهر، ويبدو أنها كانت كبيرة، وأن مياه النهر كانت ضحلة، فلم تستطع الإبحار، وحتى لا يقع أسيراً بأيدي المغول، رمى بنفسه في النهر مع أحد وزرائه، ويدعى ليو ـ سيو ـ فو، فغرقا معاً، كما انتحرت والدته، بأن رمت بنفسها في النهر، عندما علمت بوفاته. وعلى هذا الشكل انتهت أسرة سونغ، وزالت من الوجود، بعد أن حكمت ثلاثمائة

وعشرين عاماً، وبعد نضال استمر نصف قرن أضحى المغول سادة الصين بكاملها، ويُعدُّ قوبيلاي أول سلطان مغولي يحكم كل الأقاليم الصينية، وشرع يؤسس الأسرة اليوانية، وهي الأسرة التي حكمت الصين أقل من مائة عام[١].

التوسع في جنوب شرقي آسيا وبعض الجزر اليابانية

بعد أن انتهى قوبيلاي من إخضاع الصين الجنوبية ووحَّد كامل الصين، شرع في الزحف إلى الهند الصينية وجاوة وبورما واليابان للاستيلاء عليها وضمِّها إلى ممتلكاته. والمعروف أن الهند الصينية كانت قد خضعت للمغول في عهد منكو، وعندما توفي انتفض سكانها ضد هذا الحكم، ولما انتخب قوبيلاي خاناً أعظم، قرَّر إعادة إخضاع البلاد، ويبدو أن السكان خشوا من اجتياح مغولي آخر لبلادهم في الوقت الذي كانوا فيه عاجزين عن مواجهته، لذلك قدموا إلى معسكر الخان الأعظم وجدَّدوا طاعتهم له[٢].

وأرسل قوبيلاي جيشاً إلى ولاية جاوة، وهي من ممالك الهند، فاستولى عليها، كما أرسل البعوث إلى أكثر ممالك الهند يطلب من حكامها الدخول في طاعته ويحذرهم من مغبة معصيته، فاستجابوا له[٣].

التفت قوبيلاي بعد ذلك إلى ولاية بورما ـ ميان ـ، فأمر قائده في شمالي يون ـ نان بأن يرسل بعثة إلى ملك بورما يطلب منه الدخول في الطاعة وبدفع الجزية، غير أن الملك البورمي رفض ذلك، واستبق المغول، فأرسل جيشاً بقيادة أوهو، عبر منطقة الحدود في عام (٦٧٦هـ/ ١٢٧٧م) وعسكر في مقاطعة نان ـ تيان على الحدود مع التيبت، وقد تألف من خمسين ألف جندي يساندهم ثمانمائة فيل وعشرة آلاف فرس، وذكر ماركو بولو، الذي وصف أحداث المعركة، أن عدد أفراد الجيش المغولي الذي عسكر في سهل يونغ ـ تشانغ بقيادة ناصر الدين بلغ اثني عشر ألفاً، وأن عدد أفراد الجيش البورمي بضع وستين ألفاً يساندهم ألفان من الفيلة، كل فيل يحمل ستة عشر رجلاً. ثم اصطدم الجيشان، المغولي والبورمي، في رحى معركة ضارية، وبدت القوات البورمية متفوقة في القتال بفعل استخدام الفيلة التي أجفلت خيالة المغول،

(١) لمزيد من التفصيلات. انظر: الهمذاني: ص٢٦٧ ـ ٢٦٩. Howorth: I pp224-237.

(٢) الهمذاني: ص٢٩٦.

(٣) المصدر نفسه.

فتراجعت إلى الوراء. وأدرك القائد المغولي ضرورة إخراجها من المعركة، فأمر رجاله بالترجل ورشقها بالسهام التي انهمرت عليها كالمطر، فقتلوا بعضها، وذُعرت البقية، فاستدارت وولَّت هاربة لا تلوي على شيء، محطمة في طريقها استحكامات البورميين.

وبعد أن حقَّق هذه الخطوة، أمر ناصر الدين رجاله بامتطاء الجياد والاصطدام بالقوات البورمية. وجرى قتال ضارٍ بين الطرفين أسفر عن انتصار المغول، وتراجعت القوات البورمية، فطاردهم المغول حتى مدينة كيانغ - ثيو التي حاصروها، غير أنهم فشلوا في اقتحامها بفعل المقاومة الضارية من جانب حاميتها من جهة، وشدة حرارة الجو التي ضايقت المحاصِرين الذين اضطروا إلى فك الحصار عنها والعودة.

وقدَّم القائد المغولي تقريراً إلى الخان الأعظم ذكر فيه أنه يمكن إخضاع البلاد بسهولة تامة نظراً لضعف المقاومة، ما دفع قوبيلاي إلى إرسال حملة أخرى، في عام (٦٨٢هـ/ ١٢٨٣م)، بقيادة سيانغ - تاور، فعبر نهر أوهو ووصل إلى كيانغ - ثيو فاقتحمها وقتل أكثر من عشرة آلاف من سكانها.

عند هذه المرحلة من الحرب المغولية - البورمية، دعا المغول ملك بورما إلى الاستسلام، فرفض، عند ذلك هاجموا عاصمته تاي - كونغ واقتحموها، وفرَّ الملك البورمي منها، فطاردته القوات المغولية حتى مدينة تارو كماو، أو ما يسمى بالنقطة الصينية، الواقعة على بعد ثلاثين ميلاً إلى الجنوب من مدينة بروم، وهي آخر امتداد للمغول في تلك البلاد في عهد قوبيلاي[١].

والتفت قوبيلاي إلى التوسع على حساب اليابان، فأرسل، في عام (٦٦٤هـ/ ١٢٦٦م)، رسالة ترغيب وتهديد إلى حكام الجزر اليابانية يطلب منهم الدخول في طاعته، ويحذِّرهم عاقبة الرفض[٢].

ويبدو أن هؤلاء الحكام لم يُقدِّروا جدية الخطر المغولي، وظنوا أن جزرهم مانعتهم من هجوم المغول، وأنهم آمنون فيها، لذلك رفضوا طلب الخان الأعظم بالخضوع له.

لم يسع قوبيلاي، تجاه هذا الرفض، إلا أن يُقرِّر مهاجمة الجزر اليابانية،

(١) انظر حول إخضاع بورما: رحلات ماركوبولو: جـ٢ ص١٢٤ - ١٢٩. Howorth: I pp241-243.

(٢) انظر نص الرسالة عند: Ibid: I pp238, 239.

فأرسل، في عام (٦٧٣هـ/ ١٢٧٤م)، أسطولاً مؤلفاً من ثلاثمائة سفينة تحمل خمسة عشر ألف جندي لمهاجمة بعض الجزر اليابانية. غير أن هذه الحملة تعرَّضت لهزيمة فادحة قرب جزيرة تسيوسيما[١]، فقرَّر قوبيلاي إرسال حملة ثانية للانتقام من اليابانيين، فجنَّد مائة ألف مقاتل، سبعين ألفاً من الصينيين والكوريين وثلاثين ألفاً من المغول، وعيَّن عليهم القائد ألاهان أو أرگان، غير أنه توفي قبل إبحار الحملة فخلفه القائد أتاهاي أو أتاگاي. نزلت القوات ميناءي زاي - تون وكين ساي، وتوجَّهت أولاً إلى كوريا حيث انضمت إليها تسعمائة سفينة وعشرة آلاف مقاتل، وأبحرت القوات المتحالفة، بعد ذلك، نحو جزيرة غوريوسان، ونزلت على الشاطئ. وذكر ماركو بولو أن نزاعاً نشب بين قائدي الحملة ما عرقل العمليات العسكرية. وحدث في هذه الأثناء أن هبَّت عاصفة هوجاء أبعدت السفن عن ميناء الجزيرة وحملتها إلى جزيرة صغيرة تدعى بينغ - هيو، ودمَّرت معظمها. استغل اليابانيون هذه الفرصة وهاجموا القوات النازلة في الجزيرة، وهزموهم، وأسروا ثلاثين ألفاً وقتلوهم. وفي رواية أنهم قتلوا سبعين ألفاً وأسروا ثلاثين ألفاً.

ومهما يكن من أمر فقد أثارت هذه الكارثة الخان الأعظم، فقرَّر أن يرسل حملة أخرى للانتقام من اليابانيين، وأمر ملك كوريا بتجهيز خمسمائة سفينة، وعين عليها القائد أتاگاي، غير أنها لم تحقق أيَّ إنجاز يُذكر[٢].

إصلاحات قوبيلاي

تنظيم الإدارة

سيطرت الامبراطورية المغولية، في عهد قوبيلاي، على مساحات شاسعة في آسيا وأوروبا، شملت الصين وكوريا والهند الصينية والتيبت والهند إلى حدود نهر الغانج وإيران وآسيا الصغرى، والقرم وجزءاً كبيراً من روسيا إلى حدود نهر الدنيبر، ولا بد لهذه الامبراطورية المترامية الأطراف من تنظيم يكفل استمرارية وجودها.

(١) Howorth: I p239.

(٢) رحلات ماركوبولو: جـ٢ ص١٧، ١٨. Ibid: pp239, 240.

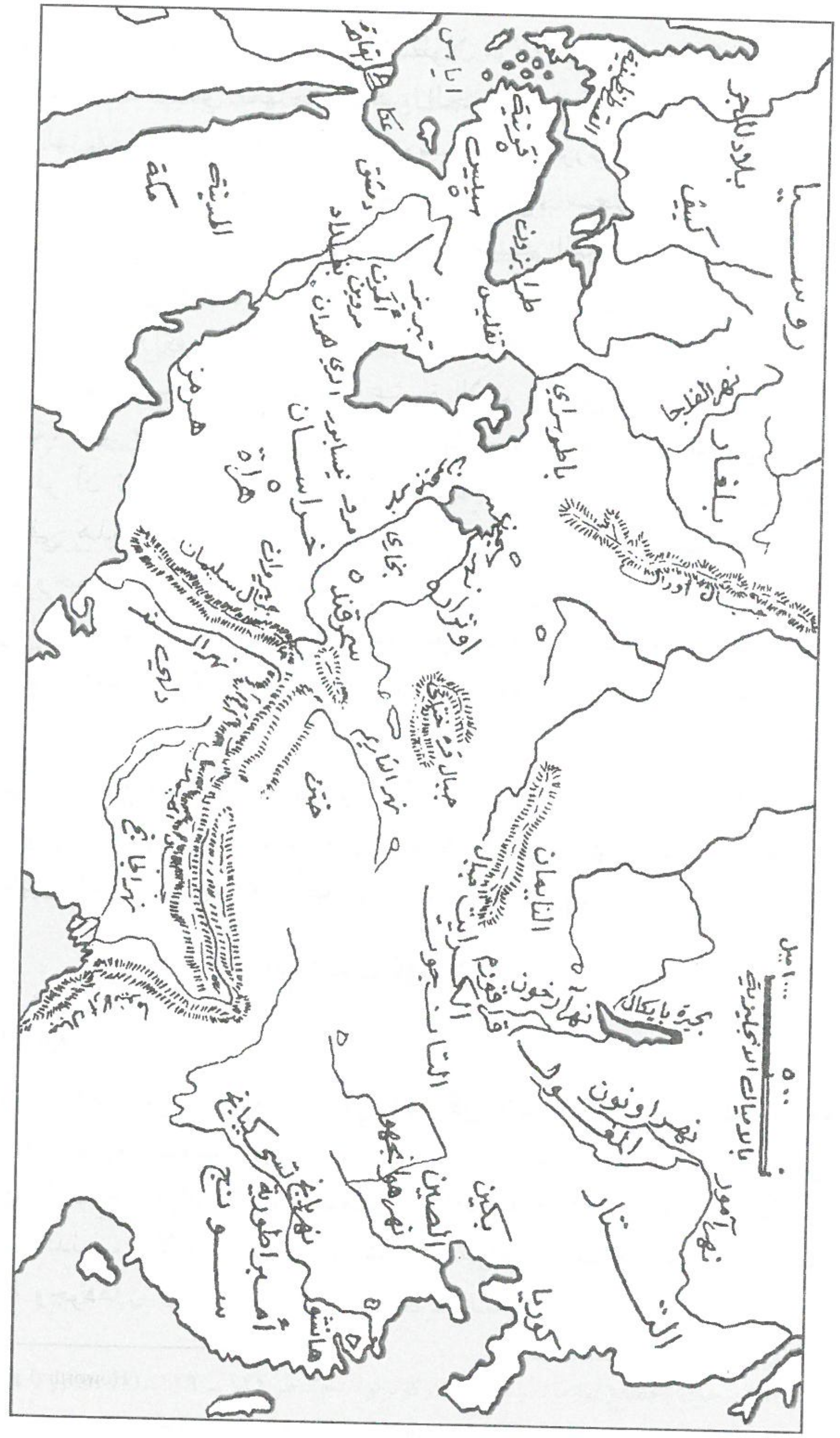

امبراطورية المغول

عن فؤاد عبد المعطي الصياد: المغول في التاريخ ص٤٠١.

الحقيقة أن النواة الإدارية لإدارة الامبراطورية نمت وتجهَّزت في عهد أوكتاي، لا سيما بفضل وزيره الكيتاني يي ـ ليو ـ تشوتساي الذي أخذ بالحضارة الصينية. وأضيفت إلى الدوائر المغولية والصينية مصالح أخرى تانغوتية وفارسية. وقُسِّمت أراضي الامبراطورية أقساماً إدارية، كالمقاطعات العشر في المنطقة الخاضعة للمغول، من الصين، وبُذلت المحاولات لتحديد أراضي المراعي لكل قبيلة، وأُقرَّت الميزانية على أسس نظامية. ومن أجل تأمين الجباية بسرعة أحدث جنكيز خان هيئة من الموظفين الامبراطوريين استطاعت استخدام خدمة البريد، ثم أعاد أوكتاي تنظيمها ولكنها لم تستمر طويلاً.

لقد أوتي قوبيلاي من الحكمة ما جعله يعترف بتفوق الصينيين على المغول في ميدان الحضارة، ويعمل من أجل هذا على مزج عاداتهم بعادات سكان بلاده. وإذا كان أوكتاي قد ألغى نظام تقلُّد المناصب العامة بالامتحان، بفعل أنه لو اتبع هذا النظام لكان جميع الموظفين في حكومته من الصينيين، وخصَّص أتباعه من المغول بمعظم الوظائف الكبرى؛ فإن قوبيلاي حاول أن يُدخل إلى البلاد الحروف الهجائية المغولية، ولكنه قَبِل هو وأتباعه، في معظم شؤونهم حضارة الصين، وما لبثوا أن استحالوا بفضل هذه الحضارة أمة صينية، وأضحى الخان الأعظم المغولي امبراطور الصين، وأضحى موظفوه الإداريون صينيين.

وأصلح قوبيلاي الطرق وخانات القوافل، وزرع الأشجار على جوانب الطرق. وقد أثارت خدمة البريد إعجاب الرحالة ماركو بولو، فالطرق والمسالك تسمح للسعاة بنقل الأوامر بسرعة حتى أقاصي حدود الامبراطورية. وتقوم المحطات على مسافات معيَّنة من خمسة وعشرين إلى خمسة وأربعين ميلاً، ويوجد فيها على الدوام، سعاة ورباطات، وقطيع غنم، ومخزن حبوب لتموين المسافرين، بالإضافة إلى أجنحة للمبيت مُجهَّزة خير تجهيز، وهي مُعَدَّة لكبار الموظفين من ناقلي الأوامر الامبراطورية. وإذا كانت بعض المحطات تتسع لأربعمائة حصان، أمكن القول بأن أكثر من ثلاثمائة ألف حصان كانت موزعة على الطرقات يتعهدها حكام المناطق(١).

(١) بروي: جـ٣ قسم ٢ فصل ٣ ص٣٧٦.

وأقام قوبيلاي بين المحطة والمحطة، كل ثلاثة أميال، قرى أو مراكز، سعاة ينقلون الرسائل والمواد الغذائية المرسلة إلى الامبراطور. وكان موظفو البريد يتقاضون أجوراً مرتفعة، وهم معفيون من الضرائب، على غرار أغلبية الضباط الامبراطوريين، ويراقب تنقلاتهم كتبة يقيمون في كل مركز. أما السعاة الفرسان الذين يحملون اللوحة الامبراطورية التي تسمح لهم بمصادرة الركائب، فكانوا ينقلون الأوامر العاجلة إلى الأماكن البعيدة، بالإضافة إلى نقل الأوامر الامبراطورية والمواد المرسلة إلى الامبراطور. فقد استخدم المغول، بعامة، البريد من أجل تزويدهم بالمعلومات المستجدة في الأقاليم، وكان القائمون على محطات البريد بمثابة عيون للامبراطور الذي كان يميل إلى أن يكون مطَّلعاً، في أسرع وقت، على ما يجري في كل طرف من أطراف دولته الواسعة الأرجاء[١].

وأُسندت إدارة الامبراطورية، التي قُسِّمت إلى أربعة وثلاثين مقاطعة، إلى اثني عشر وزيراً صينياً يقيمون في أحد قصور بكين، ويختص كل منهم بنوع من الشؤون، ويختارون بدورهم حكام المقاطعات، ويؤلفون محكمة عليا يعاونهم في ذلك قاضٍ وعددٌ من الكتبة في كل مقاطعة، وقراراتهم مبرمة في الشؤون العسكرية، كما يُحدِّدون عدد الفرق العسكرية الواجب تجنيدها، ويصدرون أحكاماً مبرمة في الدعاوى العامة باستثناء الحالات الخطيرة التي تعرض على الامبراطور للفصل فيها[٢].

أما تنظيم القضاء فهو أكثر تعقيداً، إذ أن ثمة محكمة أولية تسوِّي الخلافات في كل معسكر، في حين يمارس حكام المقاطعات سلطة قضائية في إقطاعاتهم، وتلتئم في الأولوس محكمة خاصة برئاسة قاض كبير.

وجرت العادة على أن يكون هناك نائب يُعهد إليه بالإشراف على البوابات، ويُساق إلى ذلك النائب المتهم الذي يُقبض عليه، فيحاكمه، وتُدوَّن صورة المحضر عند التحقيق، ثم تُرسل مع ذلك المتهم إلى ديوان «لوشه» الذي هو أعلى مرتبة من سابقه، ومن هناك يُرسل إلى ديوان ثالث يقال له «چبيون»،

(١) بروي: جـ٣ ص٣٧٦.
(٢) المرجع نفسه: ص٣٧٧. يذكر الهمذاني أسماء الدواوين والمناصب الإثني عشر وأمكنتها: ص٢٧٨ - ٢٨٠.

وبعد ذلك يُرسل إلى ديوان رابع اسمه «تونچينون»، وتتعلق شؤون البريد والسعاة بذلك الديوان، ثم يُحمل المتهم إلى ديوان خامس يقال له «روشتائي»، وفيه تُدار شؤون الجيش، ثم إلى ديوان سادس اسمه «سنويشه»، وفيه يكون جميع الرسل والتجار القادمون والذاهبون. وبعد أن يكون المتهم قد مرَّ على هذه الدواوين - المحاكم - الستة يُقدَّم عندئذ إلى الديوان الأعظم الذي يسمى «شينك» حيث يحقق معه[١].

ويبدو أن السرقة كانت أكثر الجرائم تكراراً في العالم المغولي، ويُحدَّد عقوبتها وفقاً لأهميتها، وتتراوح بين الضرب بالعصي والإعدام الذي تُراق فيه الدماء، إلا إذا استطاع السارق دفع تسعة أضعاف قيمة المسروق[٢].

تنظيم التجارة[٣]

اضطرت حكومة قوبيلاي، أمام صعوبات التموين في امبراطورية واسعة، إلى إعطاء المشاغل الاقتصادية أهمية كبيرة، فأحدثت أقنية للري بين بكين ويانغ - تشيو، وأعفت ضحايا الأوبئة والكوارث الطبيعية، مؤقتاً، من الضرائب، وأعادت نظام القروض الذي كان رائجاً في امبراطورية السونغ، وقامت بتوزيع الحبوب والمواشي في سنوات الجفاف وأسَّست المستشفيات والمياتم والمستوصفات.

كانت الضرائب، في أوائل عهد قوبيلاي، كافية لتغذية الخزانة المركزية، وهي على نوعين:

الأول: الضرائب العينية التي تقدمها البلدان المحتلة، مثل الطرائد والأحصنة والمواد الغذائية.

الثاني: الضرائب النقدية المفروضة على المزارعين وعلى الملح والسكر، والفحم الحجري المستخرج من جبال الصين الشمالية، بالإضافة إلى الرسوم المفروضة على السلع الأجنبية والأتاوات المفروضة أيضاً على البلدان الخاضعة للمغول.

وبدا اقتصاد الامبراطورية متيناً وبعيداً عن الانهيار، والواقع أنه تلاشى بعد مدة نتيجة الإكثار من استعمال النقد الورقي الذي سبق للسونغ أن استعملوه،

(١) الهمذاني: ص٢٧٧. (٢) بروي: جـ٣ ص٣٧٧.
(٣) المرجع نفسه: ص٣٧٨، ٣٧٩.

وقد حلَّ هذا النظام النقدي محل نظام المقايضة السائد آنذاك في الامبراطورية.

وأدَّت سياسة المغول دوراً هاماً في تاريخ العلاقات التجارية بين الشرق والغرب. فقد بنى هؤلاء سياستهم على أساس فتح أبواب التجارة والطرق التجارية للجميع، وتأمين سلامة التجار وضمان سلامة ممتلكاتهم فيما سُمِّي بالسلام المغولي، منذ منتصف القرن الثالث عشر الميلادي وحتى منتصف القرن الرابع عشر الميلادي.

وازدادت أهمية فتح الطرق التجارية وتأمين السير عليها، بفعل سيطرة المغول على القسم الأكبر من قارة آسيا، بالإضافة إلى طريقين، من أصل ثلاثة طرق، لنقل منتجات الشرق الأسيوي إلى الغرب الأوروبي هما:

الطريق الشمالي، أو طريق الحرير العظيم، الذي يربط البحر الأسود غرباً بالصين شرقاً، ويمتد من البحر الأسود وبحر آزوف إلى الشرق ماراً بسراي، عاصمة القبيلة الذهبية على مصب نهر الڤولغا، ومن هناك يعبر التجار بحر قزوين إلى نهر أورال، ثم يتخذون الطريق البري مرة أخرى إلى بحر آرال، ثم إلى جنوبي بحيرة بالكاش على امتداد جبال تيان شان، وأحياناً من بحيرة بالكاش إلى بخارى وسمرقند ثم غزنة إلى الهند، أو حول هضبة بامير إلى داخل الصين[1]. واستعمل الرحالة والمبعوثون الدينيون والتجار الأوروبيون هذا الطريق، في الاتجاه المعاكس من الغرب إلى الشرق.

الطريق الثاني، هو الطريق الجنوبي، البحري والبري، حتى الخليج العربي، ومنه إلى مدن العراق وإيران، ومنها شمالاً إلى موانئ البحر الأسود أو غرباً إلى ميناء أياس الأرميني، أو أسواق الشام.

وفي الصين الوسطى، فقد حوَّل نقل العاصمة إلى بكين التجارة شطر الصين الشمالية، فمخرت السفن الشراعية نهر اليانغ - تسو، وأبحرت غيرها في القناة الكبرى التي رمَّمها وأكملها قوبيلاي، لتموين بكين بالأرز والحرير الضروري لإنتاج الأقمشة، وقد صدَّرت تشنغ - تو (سو - شوان) في الغرب الحرير الصيني حتى أواسط آسيا.

ونشطت حركة الموانئ، فكانت يانغ - تشيو سوق الأرز الكبرى، وهانغ -

(١) هلال: مرجع سابق: ص٢١٩، ٢٢٠.

تشيو مستودعاً للسكر، وصدَّرت الحرير إلى الهند والعالم الإسلامي. وكانت فو - تشيو سوقاً للتوابل والحجارة الكريمة، في حين اشتهرت فو - كيان بصناعة الأواني الصينية.

وبفعل هذا النشاط التجاري، توافد التجار الأجانب على الصين، من عرب وفرس ونصارى شرقيين وغربيين وهنود وماليزيين، فأسسوا مستعمرات، وجمعوا ثروات طائلة من تجارة التوابل، بفضل المعاهدات التجارية التي عقدها قوبيلاي معهم.

ونشطت في الصين نفسها حركة الصفقات التجارية بفضل استعمال النقد الورقي، المعروف بـ«الشاو»، وبخاصة في عهد الوزير الإيراني السيد الأجل البخاري، وقد فُرِضَ التداول بها تحت طائلة عقوبة الإعدام، على كافة رعايا الامبراطورية. غير أن الإكثار من إصدارها من دون ضوابط اقتصادية، أدَّى إلى التضخم الذي سيؤدي، في القرن الرابع عشر الميلادي، إلى انهيار الامبراطورية الصينية.

نزعات قوبيلاي الدينية

قام قوبيلاي بجمع العلماء والأدباء وأرباب الحرف والصنائع الذين كانوا قد تفرقوا واختفوا بسبب القتال في بلادهم، وحثَّهم على استئناف أعمالهم، وبذل جهداً كبيراً في إزالة العقبات من أمامهم[1].

وعُرِفَ عن الخان الأعظم المغولي أنه كان واسع الأفق، يتمتع بحرية التفكير والتعامل السمح مع رعاياه على مختلف نزعاتهم الدينية. وعلى الرغم من أنه تحوَّل إلى البوذية، إلا أنه كان بعيداً عن التعصب، وأدَّت إعادة العلاقات الدولية واستتباب الأمن في عهده إلى ازدياد أعداد المبشرين المتوافدين إلى الشرق الأقصى، وشهد بلاطه نقاشات دينية هادئة بين علماء من مختلف الأديان حيث يشمل في نهايتها المتناظرين بعطفه ورعايته، وقد تُرجمت، بأمرٍ منه، أقسام من القرآن الكريم والتوراة والإنجيل وتعليمات بوذا، إلى اللغة المغولية[2].

الواضح أن المسائل الدينية لم تكن الشغل الشاغل للمغول، فإذا اعتنقت بعض القبائل الإسلام أو النصرانية أو البوذية، فإن معظمها حافظت على

(١) الصياد: ص٢٢٠. (٢) إقبال: ص٤٢٣.

مفاهيم البدو القديمة حيال تكوُّن العالم، وهي معتقدات بسيطة جداً قامت عليها الديانة الشامانية الخاصة بالشعوب التركية ـ المغولية، وأُحيطت بعادات خرافية.

واشتهر المغول بفضولهم في سؤال الأجانب عن ديانتهم من دون أن يعني ذلك بالضرورة اعتناقهم أية ديانة منها. وحافظت النسطورية على حيويتها ونشاطها، وتمكَّن البطريرك النسطوري من تأسيس أسقفية في بكين في عام (٦٧٤هـ/ ١٢٧٥م).

ورغب راهبان نسطوريان شرقيان، في عهده، الحج إلى بيت المقدس. فوصلا إلى بلاد ما بين النهرين في عام (٦٧٧هـ/ ١٢٧٨م)، لكن أيّاً منهما لم يتمكَّن من الوصول إلى الأراضي المقدسة، إلا أن الأويغوري مرقس قد انتخب بطريركاً نسطورياً على بغداد، في حين أضحى صاحبه رابان صوما سفيراً لخان إيران لدى ملوك الغرب.

وعيَّن قوبيلاي النسطوري السوري عيسى، مديراً لمكتب الأبحاث الفلكية في عام (٦٦١هـ/ ١٢٦٣م)، ويبدو أن هذا العالم والطبيب قد أوحى في عام (٦٧٨هـ/ ١٢٧٩م)، بصدور قرار قضى بحظر الدعوة الإسلامية في الصين.

وتميَّز الأمير الأويغوري كوركوز، وكان في عداد حاشية الخان الأعظم، والذي أطلق عليه الصينيون اسم كوو ـ لي ـ كي، والأوربيون اسم الأمير جورج، باستخدام نفوذه في البلاط المغولي لإعلاء شأن النساطرة، فأسس المدارس والكنائس النسطورية، إلا أنه تحوَّل في عام (٦٩٣هـ/ ١٢٩٤م) إلى الكثلكة بتأثير المبشر جان دي مونتيكو رفينو، وكان لارتداده صدى بعيد لأنه أدخل هذا المذهب النصراني إلى قلب أسرة جنكيز خان[١].

وأدّى تقدم المغول إلى أوروبا الوسطى إلى اختلاطهم بالنصرانية على المذهب الكاثوليكي، إلا أن حملاتهم المدمرة خلقت في نفوس الحكام النصارى وهماً غذَّته باستمرار أسطورة الكاهن يوحنا[٢] بأن هؤلاء الغزاة البرابرة قد يصبحون حلفاءهم ضد الإسلام، وعلى الرغم من أن ذكر المحاولات الخاصة بهذا الشأن التي لا فضل لها للمؤرخ سوى أنها أتاحت

(١) بروي: جـ٣ ص٣٨٣، ٣٨٤.

(٢) انظر فيما يتعلق بهذه الأسطورة: عمران: ص٢١٦، ٢١٧.

الظروف لروايات عديدة دوَّنها الرحّالة، كشفت عن العالم المغولي. فبالإضافة إلى ما ذكرنا من جهود البابوية في عهد البابا أنوسنت الرابع وخلال حكم منكو؛ تبدَّلت الأمور بعض الشيء في عهد قوبيلاي بعد أن بلغ بعض التجار الإيطاليين، من جهة، أسواق الشرق الأقصى، وبعد أن اطلعت بعثة رابان صوما الغربيين، من جهة ثانية، على أهمية الطوائف النصرانية الآسيوية.

وتستوقفنا في هذا المقام أسرة بولو البندقية التي تتكوَّن من الأخوين مافيو ونيكولو اللذين حظيا، أثناء إقامتهما الأولى في بكين (٦٦٤هـ/ ١٢٦٦م)، بمقابلة قوبيلاي الذي كلَّفهما بالطلب من البابا أن ينتدب إلى الصين مائة مثقَّف متعمقين في الفنون السبعة، ويبدو أنهما لم يتمكّنا من تلبية طلب الخان الأعظم، واصطحبا معهما في رحلتهما الثانية، في عام (٦٧٠هـ/ ١٢٧١م)، ابن نيكولو، ماركو بولو، الذي تتصف روايته المشهورة بتتبع رحلتهم. فاخترقوا سهول خراسان، وهضبة البامير، وصحراء جوبي، وبلغوا الصين الغربية، ثم اجتازوا بلاد التانغوت ووصلوا في (ذي القعدة ٦٧٣هـ/ أيار ١٢٧٥م) إلى شانغ ـ تو، مقر قوبيلاي الصيفي.

وأُعجب قوبيلاي بالشاب ماركو بولو، وتوطَّدت بينهما أواصر الصداقة، وأرسله إلى قصره الشتوي في خان باليق ـ بكين ـ، وعهد إليه القيام ببعض الأعمال الإدارية الهامة، في مكاتب جباية الضريبة على الملح، ولشدَّة ثقته به اتخذه مستشاراً، وأرسله في عداد كثير من سفاراته. واستمر يعيش في الصين نحو سبعة عشر عاماً، كان خلالها موضع ثقة المغول وإعجابهم. وغادر الصين بحراً في عام (٦٩١هـ/ ١٢٩٢م) عندما طلب منه الخان الأعظم مرافقة أميرة مغولية كان قد خطبها لحفيد أخيه، خان إيران، ولم يعد بعد ذلك إلى الشرق، وتابع طريقه إلى أوروبا بعد أن تزوَّد بمعلومات قيِّمة عن أوضاع الامبراطورية المغولية في ذلك الوقت. ولا شكَّ بأن المادة التي دوَّنها تُعدُّ مصدراً هاماً لدراسة العصر المغولي ووصفاً لكل البلدان المجهولة التي زارها ورآها رؤية العين، ونقرأ فيها تفصيلات قيِّمة عن ثرواتها ومعادنها، ونحصل منها على معلومات وافية بعادات المغول وتقاليدهم ونظمهم، بالإضافة إلى معلومات جديدة ومثيرة عن طائفة الحشيشية[١].

(١) Grousset: L'Empire de la Steppes: pp374-377.

العمارة في عهد قوبيلاي

اهتم قوبيلاي بالعمارة، فعمَّر مدينة خان باليق، عاصمة الخطا، بعد أن دمَّرها جنكيز خان، واتخذها عاصمة له، وشيَّد بجوارها مدينة أخرى اسمها داي دو، فاتصلت المدينتان ببعضهما. ولسور المدينة الجديدة سبعة عشر برجاً، والمسافة بين البرج والآخر فرسخ واحد، وهي معمورة بحيث أنه أقيمت، في ظاهر الأبراج، أبنية غير محددة، وجلب إليها من كل بلد أشجاراً مثمرة، غُرست في حدائقها وبساتينها.

وشيَّد قوبيلاي في وسط عاصمته قصراً كبيراً له أسماه قرشي، وكان في غاية الأبهة والفخامة، وآية فنية معمارية، إذ كانت أعمدته وأرضياته من الرخام والمرمر، وقسَّمه إلى أربعة أقسام، يفصل بين كل قسم وآخر مسافة رمية سهم بعيد المرمى، خصَّص القسم الأول الخارجي لرجال البلاط والتشريفات، وجعل القسم الثاني الداخلي لجلوس الأمراء الذين يجتمعون كل صباح للتشاور في مختلف الأمور، وكان الثالث مقراً للحرس والرابع للخاصة[١].

وربط قوبيلاي عاصمته بشبكة طرق مائية بحيث تستطيع السفن القادمة من مختلف ولايات الصين والهند، الوصول إليها، والمعروف أنه قبل عهد قوبيلاي كانت السفن تفرغ حمولتها خارج حدود خان باليق، ثم تُحمل على الدواب إلى المدينة، وأقام على النهر الكبير الذي يزيد عرضه على ثلاثين ذراعاً، ويربط تلك الشبكة، سدوداً كثيرة تسمح بري أراضي الولايات. وعندما تصل سفينة إلى تلك السدود، تُرفع مع حمولتها إلى أعلى بآلة رفع الأثقال، ثم تُلقى في الماء في الناحية الأخرى من السد حتى تستأنف سيرها. وأمر ببناء حاجز لذلك النهر من الحجارة، حتى لا ينزل التراب فيه، وشقَّ بجوار هذا النهر شارعاً فسيحاً يصل إلى الهند ويمتد على مسيرة أربعين يوماً، وأنشأ على جانبيه القرى، وشيَّد الحوانيت والمعابد بحيث أصبح الطريق كله عامراً[٢].

(١) الهمذاني: ص٢٧١، ٢٧٢.
(٢) المصدر نفسه: ص٢٧٢، ٢٧٣.

وفاة قوبيلاي

توفي قوبيلاي في عام (٦٩٣هـ/ ١٢٩٤م) عن عمر يُناهز ثلاثة وثمانين عاماً[١]، وانتهى بوفاته العصر الذهبي للمغول العظام في الصين ومنغوليا.

تصدع وانحطاط امبراطورية المغول العظام[٢]

حملت المغامرة المغولية، التي أسست امبراطورية مترامية الأطراف، معها بذور انحلالها. فما إن انتهت موجة الغزوات حتى أمست الحاجة إلى تنظيمها وإدارتها، ولكن التفاوت كان واسعاً جداً بين المغول البرابرة والشعوب المتحضِّرة التي أخضعوها. وقد برهن النظام الإقطاعي للمجتمع الجديد عن أنه تنظيم مؤقت لكبح جماح غريزة هؤلاء التوسعية، وتدارك الفوضى التي غدت الآن خطراً سياسياً، وذلك بفعل أنه خلق هوَّة بين الشعب المغولي المحارِب الذي ما زال يعيش في ظل بؤس الصحراء وبين حكامه المتشبعين بالعظمة والبذخ. وكان من شأن عدم إخضاع هؤلاء للنظام أن يُهدِّد وحدة الامبراطورية وازدهارها، يضاف إلى ذلك أن تحضُّر هؤلاء من شأنه أن يُفقد العنصر المغولي الضائع في مجتمعات الشعوب المحتلة طاقته الهجومية وشخصيته نفسها.

وعلى الرغم من أن العنصر المغولي احتفظ بمركز متميز لمسقط رأس الجدود، منغوليا، وأبقى على التقاليد والعادات والطقوس المغولية؛ إلا أنه في الأمور الأساسية، ذاب في حضارة البلدان التي استولى عليها، ومما زاد في ذوبانه أن الإدارة التي تعذَّر تنظيمها، وفقاً لطريقة البدو السريعة في تصريف الأمور، أُسندت بالضرورة إلى موظفين محليين. ولم يحدث الفتح المغولي أثراً يذكر في عادات الصينيين وأفكارهم إلا ما أدخله في الأدب الصيني من الروايات والمسرحيات.

لذلك، فإن قوبيلاي وحفيده تيمور خان، الذي خلفه على عرش المغول (٦٩٣ - ٧٠٦هـ/ ١٢٩٤ - ١٣٠٧م)، وهما الممثلان الكبيران الأخيران للسلالة الجنكيزخانية، كانا امبراطورين صينيين أكثر منهما خانين مغوليين. وما لبث مغول منغوليا، المحرومين من مكاسب السلطة، أن عادوا إلى الظهور، فقد

(١) الهمذاني: ص٢٩٨.
(٢) بروي: ج٣ ص٣٨٧، ٣٨٨.

أسس قايدو في آسيا العليا خانية انفصلت عملياً عن الامبراطورية.

وإذا لم يستطع هذا التكتل من قبائل الصحراء إعادة وحدة العالم المغولي لمصلحته، فإنه شكَّل حاجزاً بين الصين التي انحصرت فيها سلطة الخان الأعظم وبين بقية أسر جنكيز خان في آسيا العليا وإيران والقبجاق، والذي ما زال أحفاده جالسين على عروشها؛ ومن ثمَّ عاملاً أساسياً من عوامل التقسيم.

سندرس في فصول أخرى تأثر إيلخانية إيران[1] وخانية القبجاق[2] بالحضارتين الإيرانية والإسلامية، وسنبين كيف طغى عليهما نفوذ العناصر التركية المتعاظم في المناطق الغربية والشمالية من امبراطورية جنكيز خان ما أدى إلى تلاشي ما يميز العنصر المغولي، وسنقتصر هنا على التذكير بأسرع انهيار مفاجئ للامبراطورية المغولية في الصين الذي سهَّله، في آن واحد، ضعف الأباطرة الأواخر من واقع تحكُّم الحاشية أو بعض المتطرفين بهم، ويقظة «القومية» الصينية.

لم تعرف الصين بعد ذلك مثل هذا العهد الزاهر إلا بعد أربعمائة عام، فسرعان ما دبَّ الضعف والانحلال في الأسرة المغولية متأثرة بانهيار سلطان المغول في أوروبا وغربي آسيا، بالإضافة إلى ذوبان المغول في جسم الشعب الصيني نفسه، كما أن بلداً كالصين واسع الأرجاء، قليل التماسك من الناحية الطبيعية، حيث تفصل أجزاءه الجبال والصحاري والبحار، لا يمكن أن يخضع إلى ما شاء الله لحكومة واحدة.

والواقع أن حركة اليقظة الصينية، وُلِدَت في أوساط جمعيات سرية ساعد على نموها وانتشارها تساهل الجنكيزخانيين الديني الذي استفادت منه الشيع والديانات الرسمية على السواء، وكانت هذه الجمعيات قد انضمت إلى الفاتحين الجدد للخلاص من حكم السونغ المتعسف.

ولعلَّ أشهر هذه الجمعيات نشاطاً هي جمعية النيلوفر الأبيض التي استمدَّت نفوذها من إيمانها القوي بمسيح بوذي، ميتريا، بشَّرت بمجيئه القريب. وانطلقت هذه الحركة من منطقة كانتون في عام (٧٥٣هـ/ ١٣٥٢م) في عهد الامبراطور طغان تيمور خان، وتعاظمت قوتها بفعل:

---

(١) انظر الباب الثاني.

(٢) انظر الباب الأول من كتابنا: تاريخ مغول القبيلة الذهبية ومغول الهند.

ـ الفوضى المتفاقمة.

ـ سيطرة اللامات على البلاط.

ـ الاضطراب المالي الذي سبَّبه التضخم المستمر في النقد الورقي.

وما لبثت أن عمَّت كافة أرجاء الصين الجنوبية.

تزعَّم الحركة أحد رؤساء الفرق المسلحة، هو الكاهن البوذي السابق تشويوان ـ تشانغ، وقد ضبط أتباعه ومنعهم من استباحة المدن المستولى عليها. وبعد أن بات سيد الصين الجنوبية كلها استولى على العاصمة بكين في عام (٧٦٩هـ/ ١٣٦٨م)، وقتل كافة المغول الذين لم يفرُّوا مع امبراطورهم طوغان تيمور خان (٧٣٢ ـ ٧٧٢هـ/ ١٣٣٢ ـ ١٣٧٠م)، وجلس على العرش وأسَّس أسرة جديدة هي أسرة مينغ، باسم هونغ ـ وو، أي المتألِّقين، وأعلن نفسه أول امبراطور من هذه الأسرة[1].

إنه لحدث فريد من نوعه في تاريخ الصين التي طالما أخضعها الغزاة الشماليون. لقد حرَّرت الثورة القومية الصين الجنوبية أولاً من استعباد مغولي استمر أكثر من قرن، ثم استعادت مناطق الشمال التي سيطر عليها منذ أربعمائة عام، ملوك وطغاة عسكريون من أصل أجنبي.

وطمس تشويوان ـ تشانغ معالم السيطرة المغولية، وربط الصين الجديدة بأبعد ماضٍ قومي من خلال الإعداد لحضارة تراعي في جوها التقاليد الصينية، ولم يبقَ من المغامرة المغولية العظمى سوى ذكريات شنَّعتها الصين الجديدة.

---

(١) Howorth: I pp321, 329.

خانات المغول العظام في منغوليا والصين حتى طغان تيمور، ومدة حكم كل منهم

- جنكيز خان	١٢٠٦ - ١٢٢٧م
- أوكتاي خان	١٢٢٩ - ١٢٤١م
- توراكينا (وصية)	١٢٤١ - ١٢٤٦م
- كيوك خان	١٢٤٦ - ١٢٤٩م
- أوغول قاميش (وصية)	١٢٤٩ - ١٢٥١م
- منكو خان	١٢٥١ - ١٢٥٩م
- قوبيلاي خان	١٢٥٩ - ١٢٩٤م
- أولغايتو (تيمور) خان	١٢٩٤ - ١٣٠٧م
- كولوك خان	١٣٠٧ - ١٣١١م
- بويانتو خان	١٣١١ - ١٣٢٠م
- جيجن خان	١٣٢٠ - ١٣٢٣م
- يسُّون تيمور خان	١٣٢٣ - ١٣٢٨م
- راجي بوقا خان	١٣٢٨م
- كويشالا خان	١٣٢٩م
- جياغاتو خان	١٣٢٩ - ١٣٣٢م
- رينتشنبال خان	١٣٣٢م
- طغان تيمور خان[1]	١٣٣٢ - ١٣٧٠م.

(١) طُرد المغول من الصين في عهده واستمر حكمهم في منغوليا حتى منتصف القرن السابع عشر الميلادي تقريباً حيث خضعوا بعد ذلك للامبراطورية المنشورية.

الباب الثاني

المغـول الإيلخانيـون

(٦٥١ - ٧٥٦هـ/ ١٢٥٣ - ١٣٥٥م)

الفصل السادس: هولاكو - أباقا بن هولاكو.

الفصل السابع: أحمد تكودار بن هولاكو - أرغون بن أباقا - كيغاتو بن أباقا - بايدو بن طرغاي.

الفصل الثامن: غازان بن أرغون.

الفصل التاسع: أولغايتو - أبو سعيد.

الفصل العاشر: خلفاء أبي سعيد - سقوط إيلخانية إيران.

الفَصلُ السَّادِسُ

هولاكو ـ أباقا بن هولاكو

هولاكو

(٦٥١ ـ ٦٦٣هـ/ ١٢٥٣ ـ ١٢٦٥م)

السمات العامة لدولة المغول الإيلخانيين في إيران

شكَّلت إيران والعراق وآسيا الصغرى وما التحق بها من ولايات نصرانية، مثل قيليقيا والكرج، منذ أواسط القرن الثالث عشر الميلادي، الدولة الإيلخانية المغولية، ولكن تحت إشراف الخان الأعظم في الصين بشكل عام قبل أن تستقل في أواخر القرن المذكور في عهد محمود غازان، وسيطرت على الربوع الخصبة الواقعة إلى الغرب الشمالي من إيران. وأجبرت العوامل الجغرافية، الإيلخانيين على الدفاع عن تلك البلاد ضد المخاطر من القوقاز، ومن منطقة نهر جيحون ومن مناطق الفرات وآسيا الصغرى. وهكذا تحمَّل الإيلخانيون مسؤوليات ضخمة، إذ أن الاندفاع الذي استحوذ على الغزاة بعد استيلائهم على تلك الربوع والانشقاقات التي شجرت بينهم والمدَّ الشاسع الذي بلغته موجة الغزو، كل هذا، أتاح للمماليك في مصر متنفَّساً ومجالاً للعمل على استرداد بلاد الشام وتنظيمها.

والواقع أن الحدود التي قامت بين العالم الإسلامي والعالم المغولي، انطلاقاً من قيليقيا الأرمينية النصرانية، كانت تتقاطع عند منتصفها مع الطرق المؤدية إلى الهلال الخصيب عند أعالي دجلة والفرات الأوسط. وكان من شدَّة الصدمة التي سبَّبها الغزو المغولي أن أُصيبت جميع بلدان الشرق الأدنى، الواقعة على طرفي هذه التخوم، بهزة زعزعت كيانها وصدَّعتها ما خلق فجوة بين العالم المغولي الإيراني والعالم العربي. فالعراق العربي الذي دخل ضمن الامبراطورية المغولية أضحى منذ ذلك الحين نقطة فاصلة بين قطبي العالم الإسلامي، تبريز والقاهرة. وقد حمل الغزاة معهم الخراب ونشروا الدمار وأسالوا الدماء أنهاراً أينما مروا بحيث كان «السلام المغولي» أعجز من أن يزيل معالم هذا الدمار الشامل. فقد حلَّ الرعاة الرحَّل محل الفلاحين المزارعين، وقضى الغزو المغولي على

الحشيشية، كما أدَّى إلى القضاء على الخلافة العباسية التي كانت ترمز، على الرغم من ضعفها، إلى الوحدة الإسلامية. وإذا كانت هذه الخلافة قد انتقلت إلى مصر، فإن أحداً في العالم الإسلامي لم يولِ هذا الأمر أي اهتمام. كذلك، أدَّى هذا الغزو إلى تحطيم قسم كبير من القوى العسكرية الحاكمة بحيث اضطرت بعض الطبقات الحاكمة إلى الفرار، وشكَّل ذلك حافزاً على تشجيع الأخذ بالنظام الإقطاعي في البلدان الواقعة تحت السيطرة المغولية.

وشكَّل الدين الإسلامي في البلدان التي وقعت تحت الاحتلال المغولي دافعاً حمل المغول على اعتناقه بتأثير مزدوج من النسبة العالية للسكان المسلمين الذين خضعوا لهم، وبدافع التركمان الذين انصهروا في بوتقتهم منذ بداية دخولهم إلى إيران، من دون أن يُفرِّقوا، في بادئ الأمر، بين السنَّة والشيعة، ما أدَّى إلى تعاظم شأن هؤلاء الذي تطور بحيث أصبح التشيع، بعد ذلك بقرنين، المذهب الرسمي في إيران.

لم يتسبَّب الغزو المغولي بأي تغيير يُذكر في البنية السكانية في البلاد التي أخضعها المغول، فإذا حصل شيء من هذا، فقد جاء من قبيل المفارقات الغريبة لصالح الأتراك، فقد دفع المغول أمامهم عدداً من الأقوام والشعوب التركمانية التي لم تلبث أن شكَّلت وحدات اختلطت بالجحافل المغولية الغازية والتي غطَّت آسيا الصغرى بشكل خاص، فأمدتها بموجات جديدة من العنصر التركي وصبَّت فيها دماً جديداً، فأثَّرت على المغول تأثيراً كبيراً.

ووفَّرت التوسعات على الأرض أملاكاً واسعة وعائدات عينية وافرة للدولة الإيلخانية صاحبها إصلاح ضريبي مستوحى من مغول الصين، ووضعت نظاماً مالياً مبسَّطاً وفَّر لها دخلاً جيداً من الواردات، لكن هذه الإصلاحات لم تحلْ دون إقدام الدولة مضطرة، في أواخر القرن الثالث عشر الميلادي بسبب تعرُّضها للمصاعب وازدياد فداحة الدمار الذي أصاب جانباً كبيراً من البلاد، وتنافس الحكام والقادة العسكريين على ابتزاز السكان، وتدهور النقد، والعجز الذي منيت به الدولة وبخاصة تأمين الرواتب للجند؛ على تبنِّي النظام الورقي الذي نجح تطبيقه في الصين، وهي تجربة كُتب لها الفشل لقلة خبرة القوم وعدم معرفتهم، بالإضافة إلى عدم تهيئة الناس لهذا التغيير بصورة مرضية.

ومن الفوائد التي أدَّت إليها الوحدة المغولية إقامة علاقات اقتصادية مباشرة مع جميع أرجاء آسيا. ومما لا شكَّ فيه أن الدولة الإيلخانية شهدت حركة تجارية نشطة، على الطرق التجارية القديمة، إلا أنها عجزت عن أن تُعيد إلى نشاطها

السابق الحركة التجارية في المحيط الهندي بعد أن أخذت مصر تسيطر عليها أكثر فأكثر. فإلى جانب مرافئ البحر الأسود الجنوبية مثل طرابزون، نشأ الآن مرفأ أياس على شاطئ البحر الأبيض المتوسط في أرمينيا الصغرى الخاضعة إذ ذاك للمغول. ومن بين الطرق التي فُتحت مجدداً، الطريق القادم من الصين والذي يصل التركستان بالبحر الأسود ماراً بالأقطار الخاضعة للقبيلة الذهبية. وكانت المنافسة على أشدِّها بين الممالك المغولية الواقعة على هذا الطريق، وقد حالت هذه المنافسة دون حصول المماليك في مصر على ما يرغبون فيه من الرق من أسواق القوقاز، ولهذا راحوا يحاولون الاتصال مباشرة بالبحر الأسود، وما يقع عليه من البلاد عن طريق المضائق بالاتفاق مع بيزنطية، وعلى أساس من التعاون والتفاهم مع المستعمرات الإيطالية في شبه جزيرة القرم.

وكغيرها من الدول المغولية الأخرى، باستثناء القبيلة الذهبية ومغول الهند التي عمَّرت وقتاً أطول، لم تتجاوز الدولة الإيلخانية القرن الرابع عشر الميلادي، فإلى جانب الانقسامات الداخلية التي وقعت في قلب الدولة، والتي عطَّلت كل نشاط فيها وشلَّت كل حركة؛ عجزت عن صهر القبائل المغولية في بوتقة واحدة بعد أن قلَّ عددها، فعادت إلى حياة البداوة في بعض الولايات من دون الإبقاء على إدارة مالية صحيحة تؤمِّن جباية الضرائب والرسوم المفروضة على مرافق الزراعة، وأكسبت القبائل التركمانية والكردية نفوذاً فاق بكثير النفوذ الذي تمتع به المغول. فأينما حلَّ المغول بنسبة عددية أقل، برزت المطالب «القومية» في الولايات، يغذيها فريق من ذوي الأطماع. وهكذا لم تلبث الدولة الإيلخانية أن انقسمت إلى دويلات وإمارات، حكم قسماً منها أبناء البلاد، كما حكم أمراء من التركمان أو المغول القسم الآخر. فقد سيطر التركمان على الولايات الغربية، وأضحى شمالي العراق وأذربيجان وأرمينيا، طوال قرن أو أكثر، مسرحاً لمنافسات دامية بين إمارتي الخروف الأسود، قراقوينلو، والخروف الأبيض، آق قوينلو، فكانت الإمارة الأولى على المذهب الشيعي في حين اعتنقت الإمارة الثانية المذهب السني، وامتدت هذه المنافسة واستطالت في المدى الزمني حتى أثَّرت من بعض النواحي على إنشاء إيران الحديثة وعلى تكوين الدولة العثمانية. أما ما تبقَّى من إيران فقد بقي سائراً وفقاً للتقاليد المطبقة من قبل، ولم يخرج عن الإطار الذي رسمته الدولة الإيلخانية إلا في التقسيم السياسي الذي أصاب البلاد آنذاك[1].

(١) برِّوي، إدوار: تاريخ الحضارات العام: جـ٣ ص٥٤٩، ٥٥٠، ٥٥٢ ـ ٥٥٦.

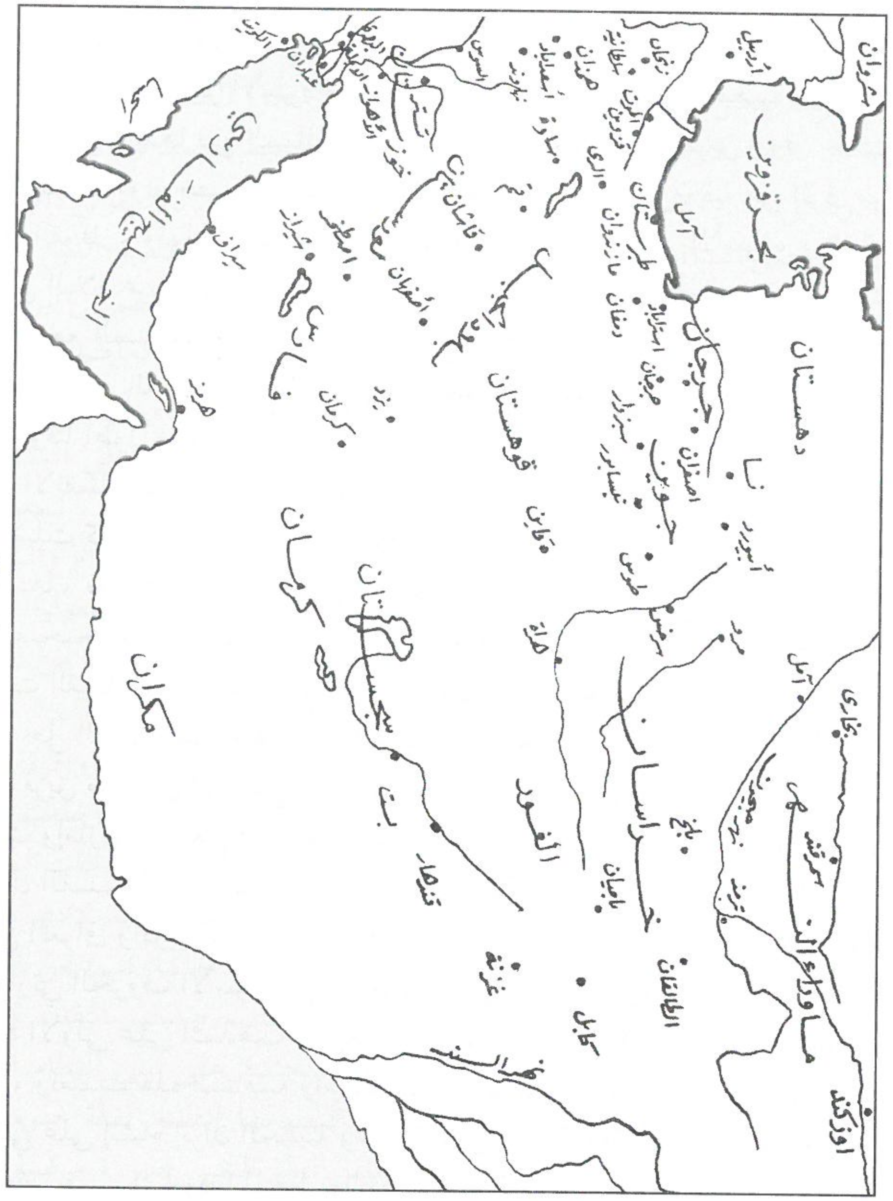

إيـران

عن فؤاد عبد المعطي الصياد: المغول في التاريخ ص٢٩٧

الوضع السياسي لهولاكو بعد وفاة منكو

يبقى وضع هولاكو الدقيق، عند وفاة منكو، إشكالياً. فلدى وصف شروط مهمَّته يستخدم مؤرخ الإيلخانيين رشيد الدين لغة شديدة التحفظ، إذ إن منكو تعمَّد، بينه وبين نفسه، إبقاء أخيه في إيران وجعل الحكم فيها وراثياً في ذريته من بعده، ولكنه تظاهر بالإيعاز إليه بالعودة إلى منغوليا بعد إنجاز مهمته، كما ذكرنا، ولعلَّ هذا يبعث على قدر من الشك بوجود محاولة لتسويغ استعادة وضع الإيلخانيين، والجدير بالذكر أننا لا نملك أي دليل آخر على وجود مثل هذا الهدف لدى منكو. وتؤكد المصادر المملوكية، على النقيض من ذلك، أن هولاكو ما لبث في إحدى المنعطفات بعد سقوط بغداد، أن نصَّب نفسه حاكماً للإقليم، حتى العنوان الفعلي، إيل، تابع الخان، الذي اعتمده هولاكو وسلالته ليس ثابتاً فيما قبل (٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م). ويبدو أن هولاكو أفاد من اندلاع الصراع في الشرق الأقصى ليتحول من قائد أعلى للجيوش المغولية في إيران إلى حاكم لأمة، أولوس، على غرار أقربائه، حاصلاً على الشرعية المطلوبة من قوبيلاي[١].

ونتيجة لهذا التوجه السياسي تعرَّض الأمراء والضباط الجوجيون[٢] في جيشه للاعتقال والإعدام أو السجن، وجرى ذبح أكثرية أفراد قواتهم، ما أطلق يده للانقضاض على المناطق الواقعة إلى الجنوب من جبال القوقاز التي كان آل جوجي يعدُّونها لهم، وبالتالي فإن الحرب ما لبثت أن نشبت بينهم عام (٦٥٩هـ/ ١٢٦١م).

هولاكو بين بيبرس وبركة خان

مثَّل المماليك العدو الأكبر للحكم الإيلخاني في غربي آسيا الإسلامية، وعلى الرغم من حتمية الصراع الذي كان لا بد من وقوعه بين هاتين الدولتين المتناقضتين في توجُّهاتهما السياسية والدينية، إلا أن الإيلخانيين هم الذين بدأوا به نتيجة لاستمرارهم في تنفيذ سياستهم التوسعية واستعجال هولاكو بتحقيقها. ونلمح من خلال هذا الصراع الذي سوف يمتد في المدى الزمني، أن كفة المماليك كانت الراجحة، ذلك أن الحكم الإيلخاني لم يكن قائماً في

---

(١) جاكسون: سلطنة دلهي: ص٢٠٧، ٢٠٨.

(٢) أتباع جوجي بن جنكيزخان

المنطقة على أساس من رضى الناس الذين تعلّقت مشاعرهم بالحكم المملوكي الذي يُمثّل في نظرهم المدافع عن الإسلام أمام وثنية المغول، لذلك كانت القوات المملوكية تجد الحماية والعون من أبناء البلاد، في الوقت الذي كانت فيه هذه الميزة غير متوفرة للمغول إلا نادراً، وكانت مهمة هؤلاء لاستقطاب حكام البلاد صعبة جداً، وتعذّر عليهم الحصول على أعوان أو عملاء لهم في الوقت الذي كانت فيه أعمالهم الوحشية لا تزال حيّة في أذهان الناس.

ولم يلبث الدين الإسلامي أن انتشر بين مغول القبيلة الذهبية، بعد أن اعتنق بركة خان هذا الدين، الأمر الذي ترتّب عليه نتيجتان:

الأولى: ازدياد التقارب بين مغول القبيلة الذهبية والقوى الإسلامية في المشرق، وبخاصة دولة المماليك البحرية الناشئة.

الثانية: ازدياد العداء بين مغول القبيلة الذهبية وبقية طوائف المغول الوثنيين وبخاصة مغول إيران.

وسعى السلطان المملوكي بيبرس، الذي خلف قطز في عام (٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م)، إلى الاستفادة من هذا الوضع الناشئ بالتحالف مع بركة خان، وكان من الطبيعي أن يلاقي تجاوباً من الزعيم المغولي المسلم، إذ إن اعتناق مغول القبيلة الذهبية الديانة الإسلامية جعلت التحالف بين الطرفين ضرورة سياسية لمواجهة العدو المشترك المتمثّل بهولاكو وأسرته.

وما إن علم بيبرس باعتناق بركة خان للدين الإسلامي حتى كتب إليه «يغريه بقتال هولاكو ويرغّبه في ذلك»، ثم أخذ يكرّم وفود مغول القبيلة الذهبية الوافدين إلى مصر[١].

ووصل في (رجب ٦٦١هـ/ أيار ١٢٦٣م) إلى مصر، رسولان أوفدهما بركة خان، أحدهما جلال الدين قاضي توقات، والآخر الشيخ علي التركماني، يحملان رسالة إلى بيبرس جاء فيها: «فليعلم السلطان أنني حاربت هولاكو الذي هو من لحمي ودمي، لإعلاء كلمة الله العليا، تعصباً لدين الإسلام، لأنه باغي، والباغي كافر بالله ورسوله»، «وقد رأيت أن تقصده من جهتك وأقصده من جهتي ونصدمه صدمة، فنقتله أو نطرده عن البلاد، ومتى كانت واحدة من هاتين، أعطيتك ما كان في يده من البلاد التي استولى عليها»[٢].

(١) المقريزي: جـ١ ص٥٣٩.
(٢) المصدر نفسه: ص٥٤٤، ٥٤٥.

وردَّ بيبرس على رسالة بركة خان برسالة طويلة جمع فيها «من الترغيب في الجهاد، والاستماتة، والإغراء، والتعاظم عليه، وإظهار الميل إليه، ووصف كثرة جنود الديار المصرية، وما هي عليه...»[١]. وأمر بالدعاء لبركة خان بعد الدعاء للخليفة والسلطان على منابر مكة والمدينة وبيت المقدس والقاهرة، وحمَّل رسله الهدايا، كان من بينها زرافة[٢].

استُقبل رسل بيبرس في البلاط المغولي بالحفاوة، وذكروا لدى عودتهم مدى اتساع انتشار الإسلام بين مغول القبجاق بحيث أن لكل أمير وأميرة في البلاط إماماً ومؤذناً خاصاً، وأن الأطفال يُحفَّظون القرآن في المدارس.

وأثمرت هذه العلاقات الطيبة عن عقد معاهدة بين الطرفين موجَّهة ضد العدو المشترك، وقد استفاد بيبرس منها فائدتين:

الأولى: أمَّن استمرار تدفق المماليك من بلاد القبجاق ليزيد من عدد جنوده.

الثانية: إلهاء هولاكو بقتال بركة خان على حدود القوقاز وصرفه عن التفكير في توجيه حملات إلى بلاد الشام ليثأر لهزيمة جيشه في عين جالوت.

ويبدو أن دائرة التحالف لم تقف عند هذا الحد، بل سرعان ما انضم الامبراطور البيزنطي، ميخائيل الثامن باليولوغوس، إلى هذا التحالف الذي أضحى بعد ذلك رباعياً بانضمام عز الدين كيكاوس، أحد سلطاني سلاجقة الروم في الأناضول، والذي سبق أن حرمه من بلاده ما جرى من تحالف بين المغول وشقيقه قلج أرسلان الرابع. وقد أمل بركة خان أن يكسب نفوذاً في بلاد الأناضول للاتصال بالمماليك في بلاد الشام، وللحؤول دون وصول إيلخانات إيران إلى البحر والاتصال بدول غربي أوروبا[٣].

استيلاء هولاكو على الموصل

أسس عماد الدين زنكي إمارة الموصل في (رمضان ٥٢١هـ/ أيلول ١١٢٧م)، وخلفه في حكمها بعد مقتله في عام (٥٤١هـ/ ١١٤٦م) ابنه سيف الدين غازي. وفي مطلع القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي،

(١) المقريزي: جـ١ ص٥٤٩.
(٢) ابن عبد الظاهر، محيي الدين: الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر: ص١٧٢.
(٣) Vasiliev, A.A: History of the Byzantine Empire: p601.

كان يتولى أمرها نور الدين أرسلان شاه، ابن الأتابك عز الدين الذي توفي في عام (٦٠٧هـ/ ١٢١٠م).

وارتبط تاريخ الموصل خلال هذه المدة بشخص بدر الدين لؤلؤ الذي اختاره نور الدين أرسلان شاه وصياً على ابنه القاهر عز الدين مسعود، ومُدبِّراً لأمور دولته، ومنذ ذاك التاريخ أضحى الحاكم الفعلي للموصل. وثبَّت ذلك تقليد الخلافة بالولاية في (محرم ٦٣١هـ/تشرين الأول ١٢٣٣م).

وحافظ بدر الدين لؤلؤ على ولائه الظاهري للخلافة، حيث اضطر تحت ضغط الأحداث إلى ممالأة المغول في الوقت الذي كانت فيه الخلافة العباسية عاجزة عن القيام بعمل إيجابي موحَّد لدفعهم، وانهماك أمراء البلاد بمنازعاتهم الداخلية ما صرفهم عن الاستعداد لمواجهتهم.

وتطوَّرت هذه الممالأة إلى الطاعة والتحالف. فقد أمدَّهم بما يحتاجون إليه من ميرة وآلة وغيرها أثناء حصار إربل[١]، كما ساعدهم في حصار بغداد حيث أرسل جيشه إليها بقيادة ابنه الصالح إسماعيل[٢]، واستخدمه المغول كعميل لهم يوجِّه باسمهم الرسائل إلى أمراء البلاد، ويجمع لهم الضرائب[٣].

توفي بدر الدين لؤلؤ في (شعبان ٦٥٦هـ/ آب ١٢٥٨م)، وخلفه ابنه الملك الصالح إسماعيل، وقد هادن المغول في بداية حياته السياسية، ثم انقلب عليهم وطردهم من الموصل، وأرسل أخاه إلى مصر لطلب المساعدة من بيبرس، ثم ذهب بنفسه واجتمع به، ونسَّق معه لتنظيم مقاومة ناجحة ضد المغول، ولما عاد إلى الموصل أرسل هولاكو إليه جيشاً تعداده عشرة آلاف فارس بقيادة صندغون، حاصره فيها، ونصب الجيش المغولي خمسة وعشرين منجنيقاً وراح يضرب المدينة، فقلَّت الأقوات واشتدَّ الغلاء، وما إن علم بيبرس بذلك حتى أرسل نجدة تعدادها سبعمائة فارس بقيادة شمس الدين سنقر الرومي، كما أمر بخروج العساكر من دمشق وحلب بقيادة الأمير علاء الدين الحاج طيبرس وشمس الدين البرلي، وهو صاحب حلب، وقد خرج على رأس سبعمائة فارس من الغز وأربعمائة من التركمان ومائة من العرب.

(١) ابن الفوطي: ص٨٩. ابن العبري: ص٣١٤. المقريزي: جـ١ ص٤٩٩.
(٢) ابن العبري. المصدر نفسه. ابن كثير: جـ١٣ ص٢٠٠.
(٣) المقريزي: جـ١ ص٤١٩.

ويبدو أن المغول علموا بخروج القوة المملوكية، فكمنوا للقوات التي خرجت من حلب عند سنجار وانقضوا عليها وقتلوا معظم أفرادها. وعاد صندغون بعد انتصاره هذا على شمس الدين البرلي إلى الموصل ومعه الأسرى، فأدخلهم من النقوب إلى داخل المدينة ليخبروا الملك الصالح إسماعيل بهزيمة شمس الدين البرلي القادم لنجدته، وشدَّد في الوقت نفسه الحصار على المدينة ونصَّب عليها ثلاثين منجنيقاً، فقلَّت الأقوات واشتد البلاء، فاستغل صندغون هذه الحالة السيئة وأرسل إلى الملك الصالح إسماعيل يعده بالوعود الحسنة إذا استسلم وفتح أبواب المدينة، وفعلاً وافق هذا على طلب الاستسلام وتوقَّف القتال. ودخل المغول إلى المدينة في (٢٦ شعبان ٦٦٠هـ/ ١٦ تموز ١٢٦٢م) واستباحوها أكثر من أسبوع. ونكث صندغون بوعده على عادة المغول، فقبض على الملك الصالح إسماعيل وقتله، كما قتل ابنه الطفل البالغ ثلاثة أعوام[١].

هولاكو يهاجم شمالي بلاد الشام

حاول هولاكو، قبل أن يهاجم مدن شمالي بلاد الشام، استقطاب أمرائها، فأرسل بعثة إلى الملك المنصور الثاني محمد، صاحب حماة، لإغرائه بالتعاون معه ووعده بتثبيته في مركزه، إلا أن هذا رفض ذلك، وأعلم بيبرس ليبرِّئ نفسه من التواطؤ مع العدو، ويبرهن عن إخلاصه للسلطان[٢]. غير أن هولاكو نجح مع الملك المغيث عمر، صاحب الكرك الذي تمادى في إخلاصه له حين عمد إلى إثارة الأمراء الشهرزورية ضد السلطان المملوكي، لكن هذا قبض عليه وسجنه ثم قتله، فأسقط عندئذ في يد هولاكو، وفشلت خططه الاستقطابية[٣]، عندئذ عمد إلى القوة العسكرية لتحقيق أهدافه، فأرسل حملات صغيرة ضد بعض القلاع والثغور لإرهاب عدوه ومنعه من إقامة التحصينات فيها أو للدفاع عن حلفائه الأرمن، وقد أخطأ حين راهن على حصول انقسام داخلي في صفوف المماليك على أثر مقتل قطز.

(١) المقريزي: جـ١ ص٥٤٥. (٢) المصدر نفسه: ص٥٤٢.
(٣) المصدر نفسه: جـ١ ص٥٥٠، ٥٥١، جـ٢ ص١١.

وكان هولاكو قد وجَّه حملة في (ذي الحجة ٦٥٨هـ/ تشرين الثاني ١٢٦٠م) بقيادة بيدرا إلى شمالي بلاد الشام عن طريق البيرة[١] للانتقام لما حلَّ بكتبغا، وانضم إليه مغول حرّان والجزيرة، فاحتل حلب وانسحب مقدم جيوشها المملوكي حسام الدين لاجين الجوكندار، مع عساكره، إلى دمشق، فتقدمت القوات المغولية ودخلت المدينة. وأخرج بيدرا سكانها إلى قرنبيا ـ مقر الأنبياء ـ وبذل السيف فيهم حتى أفنى معظمهم، ثم زحف إلى حماة وعسكر بمشارفها من ناحية الجنوب. وكان حسام الدين لاجين الجوكندار وعساكره قد وصلوا إلى حماة فطاردهم المغول، فساروا إلى حمص، ورافقهم الملك المنصور الثاني محمد، صاحب حماة. وأغلق أهل المدينة الأبواب في وجه المغول إلا أنهم قدَّموا إليهم المؤن والطعام مداراة لهم، فتركوا المدينة وطاردوا الجيش الإسلامي المنسحب إلى حمص.

وعُقد في المدينة اجتماع ضمَّ صاحبها الأشرف موسى والملك المنصور الثاني محمد، صاحب حماه، وحسام الدين لاجين الجوكندار تقرَّر فيه التصدي للزحف المغولي. ووصلت القوات المغولية يوم الجمعة في (٥ محرم ٦٥٩هـ/ ١٠ تشرين الثاني ١٢٦٠م)، واصطدمت بالجيش الإسلامي عند مكان بالقرب من قبر خالد بن الوليد قرب الرستن. وعلى الرغم من أن كفة المغول كانت الراجحة، بفعل تفوُّقهم في العتاد والعدد[٢]، إلا أن النصر كان حليف المسلمين الذين طاردوا عدوهم إلى ما وراء الفرات[٣].

وكرَّر هولاكو هجماته على شمالي بلاد الشام في عام (٦٦٢هـ/ ١٢٦٤م)، وسانده أمراء أرمينيا الصغرى وسلاجقة الروم، وبعض العرب من بني كلاب، فتعرَّضت عينتاب[٤] للهجوم، كما هاجم الحلفاء قلعة البيرة في العام التالي وحاصروها[٥].

---

(١) البيرة: بلد قرب سميساط، بين حلب والثغور الرومية، وهي قلعة حصينة ولها رستاق واسع. الحموي: جـ١ ص٥٢٦.

(٢) كانت القوة المغولية تبلغ ستة آلاف مقاتل في حين بلغت القوات المملوكية ألفاً وأربعمائة فارس.

(٣) اليونيني: جـ١ ص٤٣٤ ـ ٤٣٦.

(٤) عينتاب: قلعة حصينة ورستاق بين حلب وأنطاكية، وكانت تُعرف بدلوك. الحموي: جـ٤ ص١٧٦.

(٥) ابن كثير: جـ١٣ ص٢٤٤. المقريزي: جـ٢ ص١٧، ١٨.

وكان المماليك يسارعون في كل مرة عند سماعهم بأنباء الاعتداءات المغولية إلى إرسال الجيوش لطرد المهاجمين من جهة، والقيام بهجمات مضادة ضد قلاع المغول من جهة أخرى، فيلحقون بهم خسائر كبيرة[١].

العلاقة مع القبيلة الذهبية في القبجاق

اتسمت العلاقة بين إيلخانية إيران وخانية القبيلة الذهبية بالعدائية، وقد أثارتها عوامل عدة لعلَّ أهمها:

العامل السياسي: فقد تفجَّرت العلاقة بين الطرفين على أثر النزاع الذي نشب بين قوبيلاي وأريق بوقا، عقب وفاة الخان الأعظم منكو. والحقيقة أن هذا النزاع الذي استمر أربعة أعوام، كما ذكرنا، سار في خطٍّ موازٍ مع النزاع بين هولاكو وبركة. فقد طمع الأول بضم بلاد القبجاق بعد وفاة صرتق، ومن جهة عدَّ بركة أن مدينتي تبريز ومراغة كانتا من نصيب جوجي استناداً إلى التقسيم الذي أجراه جنكيز خان، ولكن هولاكو ضمَّهما إلى أملاكه، كما ضمَّ بلاد أرّان وأذربيجان مع أنهما كانتا من إرث جوجي. وكان بركة يأمل في أن يكسب نفوذاً في بلاد الأناضول للاتصال بالمماليك في مصر وبلاد الشام، والتنسيق مع السلطان المملوكي بيبرس ضد إيلخانات إيران، وقطع الطريق على هؤلاء ومنعهم من الوصول إلى البحر المتوسط والاتصال المباشر مع دول الغرب الأوروبي، لذلك تعاون العاهلان في تقديم المساعدة المطلوبة للسلطان السلجوقي كيكاوس الثاني في صراعه مع المغول، ثم إطلاق سراحه من سجنه في بيزنطية[٢].

العامل الديني: فقد اعتنق بركة خان الدين الإسلامي وأضحى حامي المسلمين والمدافع عن قضاياهم، في الوقت الذي ظل فيه هولاكو على الوثنية، وعطف على النصارى متأثراً بزوجته النصرانية طقز خاتون. وقد رفض منطق الحملة التي شنَّها هولاكو على بغداد وما تبعها من نتائج، وحاول أن

---

(١) اليونيني: جـ٢ ص٣١٨. المقريزي: جـ٢ ص٧، ٨.

(٢) المعروف أن كيكاوس الثاني فرَّ من بلاده تحت تأثير الضغط المغولي وتوجَّه إلى القسطنطينية، فرحَّب به الامبراطور البيزنطي ميخائيل الثامن باليولوغوس. ويبدو أنه لم يلتزم بالهدوء الذي يمليه وضعه كلاجئ سياسي، واشترك في عام (٦٦٢هـ/ ١٢٦٤م) في مؤامرة لخلع العاهل البيزنطي حاكها قسطنطين تيش، ملك البلغار، فقبض عليه ميخائيل الثامن وأودعه السجن.

يتوسط في الأمر على الرغم من اضطراره إلى إرسال فرقة عسكرية اشتركت مع الجيش المغولي في الحملة على العراق، وكان هذا يشعره بالمرارة والحقد، غير أنه أقدم على خطوة مُعبِّرة بعد انتهاء مهمة الحملة تجلّت في القرار الذي اتخذه بسحب فرقته العسكرية وإرسالها إلى القاهرة لدعم المماليك، مشكِّلاً اتحاداً غير متوقع، ولأول مرة، مع قوة أجنبية ضد إخوانه المغول، الأمر الذي سهَّل انتصار المماليك في معركة عين جالوت، هذا في الوقت الذي تشدَّد فيه هولاكو في مساندته للنصارى. ورأت الدولتان، المغولية القبجاقية والمملوكية، في التحالف الرسمي بينهما والذي عقد في عام (٦٥٩هـ/ ١٢٦١م) ضرورة سياسية ودينية لمواجهة العدو المشترك المتمثِّل بهولاكو وأسرته، وجاء ذلك على حساب قطع أواصر الرحم والروابط الدموية بين الإخوة المغول الذين تحوَّلوا إلى أعداء.

العامل التجاري: كانت شواطئ البحر الأسود الشمالية، التي أضحت في قبضة القبيلة الذهبية، مكاناً ملائماً لتصدير المماليك إلى مصر الأمر الذي يؤمِّن استمرار تدفق القوة المادية للنظام المملوكي، وكانت هذه التجارة تسير بشكل طبيعي ما دام الخان في سراي وامبراطور القسطنطينية لا يبديان أية معارضة. ويبدو أن هذا الأخير لم يُبدِ أي اهتمام تجاه هذه العلاقة التجارية بين الوثنيين، ولم يكن بوسعه التدخل في أية مفاوضات تجري بين الدول الإسلامية، ولكن اهتمام بركة بهذه القضية، بالإضافة إلى أن الطرق التجارية البرية والبحرية بين بلاد القبيلة الذهبية ومصر تمر بالأراضي التي يسيطر عليها البيزنطيون كما تمر بالأناضول، الأمر الذي يجعل إشراك الامبراطور البيزنطي والسلطان السلجوقي ضرورياً. وهكذا أضحى الحلف رباعياً، ولكن إلى حين، بفعل تقلُّب السياسة السلجوقية السريعة بين المماليك والمغول الإيلخانيين.

العامل الاجتماعي: تألفت الطبقة الحاكمة في كل من بلاد القبيلة الذهبية ومصر المملوكية من أفراد يتمتعون بالخصائص التركية، ويحكمون شعباً ذا طبيعة مختلفة تماماً، واعتنق حكامهما الإسلام. والمعروف أنه كان للعامل الديني أثره البارز في مسار العلاقات بين شعوب الشرق الأدنى[١]، يضاف إلى ذلك أن الدولتين، المغولية القبجاقية والمملوكية، تقعان على النهر، القولغا

(١) شبولر: العالم الإسلامي في العصر المغولي ص٥٢.

والنيل، الأمر الذي يؤثر في السلوك الاجتماعي والاقتصادي. وشكَّل امتناع هولاكو عن إرسال خمس الغنائم التي يحصل عليها، والتي كان جنكيز خان قد قرَّرها لأسرة جوجي، عاملاً آخر لدفع النزاع بينهما باتجاه الصدام[١].

أرسل بركة في عام (٦٦٠هـ/ ١٢٦٢م) جيشاً كبيراً مؤلفاً من ثلاثين ألف مقاتل بقيادة قريبه نوغاي، لمحاربة هولاكو، فعبر دربند[٢] القوقاز الذي يمثل الحدود الفاصلة بين الدولتين، وعسكر في ظاهر شروان[٣]. فلما بلغ هولاكو ذلك خرج من مصيفه في ألاتاغ على رأس جيش مؤلف من فِرَق عسكرية من مختلف أنحاء الإيلخانية، وجعل على طليعته شيرامون بن جرماغون، ولما وصل هذا إلى حدود شروان تصدَّى له نوغاي وهزمه وقتل كثيراً من أفراد طليعته وعاد إلى معسكره منتصراً.

عند هذه المرحلة من المواجهات أرسل هولاكو مدداً لقواته المقاتلة بقيادة ابنه أباقا، فهاجم قائده تاباي قوات نوغاي بالقرب من سابوران، على بُعد فرسخ من شروان وانتصر عليها، وفرَّ نوغاي في جو الهزيمة القاتم من ساحة المعركة وتحصَّن بالدربند.

أتاح هذا الانتصار لقوات هولاكو أن تتقدم إلى شماخي[٤] وسيطرت عليها، في (محرم ٦٦١هـ/ تشرين الثاني ١٢٦٢م)، وتابعت زحفها نحو الدربند، فاصطدمت بقوات نوغاي وأزاحتها عن مواقعها، وعبرت الدربند وطاردتها داخل أراضي القبيلة الذهبية، وتوغلت فيها مسافة خمسة عشر يوماً من دون أن تصادف مقاومة. ويبدو أن لذلك علاقة بمدى ما خطَّط له بركة من واقع السماح لقوات عدوه أن تتوغل في أراضيه قبل أن ينقضَّ عليها. وإذ اعتقد هولاكو أنه سيطر على بلاد عدوه، أرسل ابنه أباقا على رأس قوات عسكرية كبيرة ليغير على منازل السكان، فعبر نهر ترك في (جمادى الأولى ٦٦١هـ/ آذار ١٢٦٣م) ففاجأه بركة عند النهر وانتصر عليه. ولم يستطع أباقا سوى النجاة بنفسه مع قلة من فلول جيشه في حين سقط الآخرون قتلى تحت

(١) اليونيني: جـ١ ص٤٩٧، ٤٩٨، جـ٢ ص٣٦٤، ٣٦٥. ابن كثير: جـ١٣ ص٢٣٤.
(٢) دربند: ممر، وهو باب الأبواب.
(٣) شروان: مدينة من نواحي باب الأبواب.
(٤) مدينة عامرة وهي قصبة بلاد شروان في طرف أرَّان، تُعَدُّ من أعمال باب الأبواب. الحموي: جـ٣ ص٣٦١.

ضربات السيوف، أو غرقاً في نهر ترك الذي انهار جليده تحت سنابك خيلهم، وتحت أقدامهم من شدة هروبهم. لم يتحمل هولاكو، الذي كان في تبريز، آثار تلك الهزيمة، وقد أثَّرت على معنوياته، فأقدم على قتل جميع تجار عدوه الذين كانوا في بلاده، وأسرع بالتجهز لمحو آثارها. ولما عاين بركة تلك الكارثة وما ترتَّب عليها من نتائج ساءه ذلك وقال: «قبَّح الله هولاكو هذا، تقتل المغل بسيوف المغل، ولو كانت كلمتنا مجتمعة لفتحنا الأرض بكمالها»[١].

وما حدث في ذلك الوقت من تجديد براءة تنصيبه حاكماً على الممالك الواقعة بين شاطئ نهر جيحون، وبين الشام ومصر من قِبَل أخيه قوبيلاي، وإمداده بقوة عسكرية تبلغ ثلاثين ألف مقاتل؛ أن تراجع الضغط القبجاقي عن صدره بفعل تجنُّب خصومه في القبيلة الذهبية الاصطدام به.

محاولة التحالف بين هولاكو والنصارى

أولى هولاكو، خلال حياته السياسية، التحالف مع النصارى الغربيين والشرقيين، فاتصل باللاتين في عكا بعد هزيمة قواته في عين جالوت، وبعد دخوله في صراع مسلح مع مغول القبيلة الذهبية في عام (٦٥٩هـ/ ١٢٦١م)، بفعل أنه كان بحاجة ماسَّة للتعاون معهم. وقد وصلت إلى الغرب الأوروبي نداءات عدة من الصليبيين في عكا، أثناء غزو هولاكو لبلاد الشام، تحثُّ البابوية وملوك أوروبا الغربية على التعاون مع الإيلخان المغولي[٢].

ويبدو أن الغرب الأوروبي، من واقع تجاربه السابقة في التعاون مع المغول التي باءت جميعها بالفشل، لم يعد يثق بهؤلاء، لذلك لم يُعر اهتماماً جدياً بتلك النداءات، هذا إذا افترضنا أن الغرب الأوروبي كان لديه القوة والقيادة الموحَّدة التي تجعله يرحب بالتحالف مع مغول إيران[٣].

وحدث أثناء وجود هولاكو في بلاد الشام أن أرسل بطريرك مملكة بيت المقدس في عكا سفارة إلى هولاكو للاطلاع على نواياه تجاه الصليبيين في بلاد الشام، برئاسة الراهب الإنكليزي الدومينيكاني داود الأشبي، فاحتجزه هولاكو في تبريز لاستخدامه في بلاطه، فاستغل وجوده في إيران ومارس التبشير[٤].

(١) الهمذاني: مجلد ٢ جا ص٣٣٦. ابن كثير: ج١٣ ص٢٣٩.
(٢) Richard, Jean: The Mongols and the Franks: III pp52 53.
(٣) هلال: ص١٠٦.
(٤) Richard: III p53.

وفي عام (٦٦٠هـ/ ١٢٦٢م) أرسل هولاكو سفارة إلى الغرب الأوروبي تحمل رسائل إلى البابا وملك فرنسا لويس التاسع، غير أن ملك صقلية مانفريد هوهنشتاوفن، المعادي للبابا، قبض على أعضاء السفارة وصادر الرسائل[١].

والواضح أن هولاكو كرَّر فيها توجهات المغول بالسيادة العالمية، وأن على كل شخص، بمن فيهم البابا وملك فرنسا، الخضوع لإمرة المغول. وكان حنا المجري ضمن أعضاء البعثة، فاستطاع الفرار، ووصل إلى البابا أوربان الرابع وأطلعه على مضمون الرسائل وهدف السفارة[٢].

وردَّ البابا في عام (٦٦٠هـ/ ١٢٦٢م) على رسالة هولاكو حثَّه فيه على اعتناق النصرانية لما في ذلك من فائدة دنيوية من واقع تأييد الرب له ومنحه القوة للوقوف في وجه المسلمين، وفائدة أخروية تضمن له المجد الخالد في الآخرة[٣].

وصل خطاب البابا إلى هولاكو وهو في أواخر حياته، وكانت استعداداته للثأر من هزيمته أمام مغول القبيلة الذهبية، بالإضافة إلى مشكلاته الداخلية، سبباً في عدم رده على خطاب البابا، ثم توفي بعد ذلك بقليل[٤].

ورأى هولاكو في التحالف مع النصارى الشرقيين، وبخاصة البيزنطيين، الوسيلة التي تُمكِّنه من إحكام قبضته على السلاجقة في الأناضول، وعاملاً مساعداً في حربه مع المماليك، واعتقد أن التقارب الأسري بين تبريز والقسطنطينية يُعدُّ خطوة تمهيدية للوصول إلى هذا التحالف، لذلك أجرى مباحثات مع الامبراطور البيزنطي ميخائيل باليولوغوس من أجل اختيار فتاة من الأسرة الحاكمة ليتزوج بها. وقد توافقت مصلحة الامبراطور القاضية باكتساب صداقة المغول، بوصفهم دولة كبرى في المنطقة، وتعزيز نفوذ النصارى في البلاط المغولي، مع تطلُّعات الإيلخان.

واختار ميخائيل ابنته غير الشرعية ماريا لتحظى بهذا الشرف، ورافقها البطريرك يوثيميوس إلى تبريز، وعندما وصلت إلى البلاط المغولي ألفت

(١) هلال: ص١٠٧.
(٢) Richard: IIIp53.
(٣) أورد هوارث الترجمة الإنكليزية لهذه الرسالة في كتابه: History of the Mongols: III: 210.
(٤) هلال: ص١٠٩.

هولاكو قد توفي، فبادرت بالزواج من ابنه أباقا، وقد عُرفت باسم ديسبينا خاتون، واشتهرت بالتعصب الديني، ووجد فيها النصارى حامياً جديداً لهم بعد أن فقدوا طقز خاتون[1].

وفاة هولاكو

أثَّرت خسارة هولاكو أمام بركة على صحته، فخرج يوماً للصيد واللهو والترفيه عن نفسه، فاعترته نوبة صرع شعر على أثرها بالتعب، فلزم الفراش، وعندما عاينه الأطباء أشاروا عليه بتناول مسهِّل، ولكنه أصيب بضعف وإغماء، وقد بذلوا قصارى جهدهم في سبيل إنقاذ حياته، ولكنهم فشلوا، فتوفي عند نهر جغاتو، جنوبي بحيرة أرومية، يوم الأحد (١٩ ربيع الآخر ٦٦٣هـ/ ٨ كانون الثاني ١٢٦٥م) وهو في الثامنة والأربعين من العمر، وأقيم له ضريح على جبل شاهق، على ساحل جغاتو، وفي رواية أنه دُفن في قلعة تلا من أعمال مراغة[2].

توزيع المناصب

خلَّف هولاكو أربعة عشر ولداً وسبع بنات، أشهرهم أباقا، وهو الابن الأكبر وأمه سونجين خاتون التي قدمت معه من منغوليا، ويشموت وأمه محظية، وتكودار وهو الابن السابع، وأول من اعتنق الإسلام من أولاده، ومنكوتمر وهو الابن الحادي عشر وأمه أولغاي خاتون، وهولاجو الابن الثاني عشر وأمه محظية.

وعمد هولاكو قبل وفاته إلى توزيع المناصب على أولاده وأمرائه المخلصين، فاختار ابنه أباقا والياً على العراق وخراسان ومازندران، وولى ابنه يشموت أرّان وأذربيجان، وعيَّن الأمير أنكيانو على فارس، وأعطى الجزيرة لأحد أمرائه، ونصَّب معين الدين پروانه، وزير سلاجقة الروم في آسيا الصغرى، والياً على بلاد الروم، نظراً لما أظهره من الإخلاص والطاعة للمغول، وعهد بحكم بغداد إلى المؤرخ علاء الدين عطا ملك الجويني. واستوزر ثلاثة من المسلمين هم: سيف الدين بتيكجي الخوارزمي، وهو أول وزير مسلم، وأعقبه شمس الدين محمد الجويني، أخا عطا ملك، في منصب

(١) ابن العبري: ص٣٣٤. Howorth: III pp206-210.

(٢) الهمذاني: ص٣٤٠. ابن الفوطي: ص٢٥٣.

صاحب الديوان للبلاد كلها، وأطلق يده في حل الأمور وعقدها، وكان نصير الدين الطوسي يشارك في مقام الوزارة والاستشارة.

أباقا بن هولاكو

(٦٦٣ ـ ٦٨٠هـ/ ١٢٦٥ ـ ١٢٨٢م)

اعتلاء أباقا عرش الإيلخانية

عندما توفي هولاكو كان ابنه أباقا في مشتى مازندران في جنوبي بحر قزوين، فاستدعاه الأمراء على الفور ليخلف والده بوصفه الابن الأكبر وولياً لعهده، وحضر في غضون ذلك ابنه يشموت، وكان والياً على نواحي دربند، وهو يُمنِّي نفسه باعتلاء العرش، ولكن لم يحصل على تأييد الأمراء وأركان الحرب الذين ساندوا أخاه أباقا، ولما أدرك عُقم محاولته عاد إلى ولايته، ورضي من الغنيمة بالإياب[1].

وعندما وصل أباقا قصد العاصمة تبريز في (١٩ جمادى الأولى ٦٦٣هـ/ ١ شباط ١٢٦٥م)، فاستقبله الأمراء وأركان الدولة، وبايعوه بخلافة والده. لكن أباقا كان يُعدُّ نائباً عن الخان الأعظم قوبيلاي ويتوجب تأكيد تنصيبه بفرمان يصدر عنه، وفعلاً وصل الفرمان بتوليته في (٣ رمضان/ ١٩ حزيران)، وبذلك أضحى حاكماً رسمياً على إيلخانية إيران[2].

شرع أباقا، بعد ذلك، في توزيع الإقطاعات وتعيين حكام الولايات. فعيَّن أخاه يشموت والياً على دربند وشروان ووادي موقان وألاتاغ، وعهد بقيادة الجيوش المغولية في بلاد الروم والشام إلى اثنين من أشهر قادته أحدهما يدعى سمغار، وثبَّت شيرامون بن جرماغون حاكماً على بلاد الكرج، وعهد بشؤون العراق إلى سونجاق نوين، ولكن هذا الأمير أناب عنه المؤرخ عطا ملك الجويني في حكم بغداد وكل العراق العربي، والمعروف أنه كان قد تولى هذا المنصب في عهد هولاكو، وعهد إلى شمس الدين محمد الجويني بمنصب الوزارة، وكان هو الآخر قد تقلَّد هذا المنصب في عهد هولاكو، وأُطلق عليه صاحب الديوان[3]، أما الخواجة بهاء الدين محمد ابن صاحب الديوان،

(١) الهمذاني: جامع التواريخ، الإيلخانيون، تاريخ أبناء هولاكو من أباقا إلى كيغاتو: مجلد ٢ جـ٢ ص٩.

(٢) المصدر نفسه: ص١١.

(٣) إقبال: ص٤٤٤.

فكان يزاول عمله في أصفهان وقسم من العراق العجمي، وولّى اثنين من الأمراء المحليين على خراسان، وعهد بكرمان إلى تركان خاتون، وإيران إلى الملكة آبشب خاتون، وعيَّن على هراة وغور وغرجستان الملك شمس الدين كرت. وأدار الأتابكة في لورستان ويزد الشؤون العامة، في حين حكم الأمراء الأيوبيون مناطق الجزيرة[1].

العلاقات الخارجية

العلاقة مع المماليك

محاولة التحالف المغولي ـ النصراني

يُعدُّ عهد أباقا أحد المراحل الهامة في تاريخ العلاقات بين مغول إيران والغرب الأوروبي، وذلك بفعل ازدياد حاجة الطرفين للتعاون العسكري ضد المسلمين. والواقع أن تفاعل القوى التي تورَّط بها أباقا تجاوزت حدود آسيا الغربية، وكانت إحدى نتائج تعاون سراي مع القاهرة أن أضحت القبيلة الذهبية تتصل اتصالاً وثيقاً مع الدول الأخرى التي لها علاقات سياسية مع المماليك، وبين هؤلاء كانت مملكة هوهنشتاوفن في صقلية، ومملكة كاتالونيا في إسبانيا التي ترتبط بأواصر الصداقة العائلية مع صقلية. وبفعل التنازع السياسي الذي كان سائداً آنذاك في إيطاليا، كانت عائلة هوهنشتاوفن معادية للبابا وللملك الفرنسي اللذين كانا يعملان معاً في الشرق الأدنى، وكانت الدولتان الصليبيتان اللتان بقيتا في الشرق، وهما طرابلس وعكا، تعتمدان اعتماداً كلياً على تأييد البابوية والدولة الفرنسية، وتُشكِّلان شوكة في جنب الدولة المملوكية. وهكذا أضحى الصليبيون وحماتهم الفرنسيون الأصدقاء الطبيعيين للإيلخان، وذلك لكونهم يتَّحدون جميعاً في عدائهم لمصر.

وبفعل تعرُّض أباقا لخطر المسلمين في الجنوب، وخطر مغول القبيلة الذهبية في الشمال، وخطر المغول الجغتائيين في الشرق، اضطر أن ينتهج نهج والده في التقرب من النصارى، فتحالف مع الأرمن في قيليقيا، وشكَّل زواجه من ماريا البيزنطية عاملاً آخر في زيادة التقارب، وأضحى إحدى دلائل الارتباط الشديد بينه وبين البابوية وملوك أوروبا الغربية، والتعاون لصد خطر

(١) الهمذاني: ص١٢، ١٣.

المسلمين المنطلق من مصر وبلاد الشام وآسيا الصغرى، فأجرى مباحثات مع البابوية وملوك الغرب الأوروبي عبر البعثات المتبادلة بهدف قيام تحالف بين الطرفين موجَّه ضد المسلمين واستعادة بيت المقدس منهم.

ففي (بداية ٦٦٥هـ/ نهاية ١٢٦٦م) وصلت إلى البابا كليمنت الرابع (٦٦٣ ـ ٦٦٧هـ/ ١٢٦٥ ـ ١٢٦٨م) رسالة من أباقا كُتبت باللغة الأويغورية لطلب المساعدة العسكرية ضد المماليك، فردَّ البابا ملتمساً إلى أباقا أن يكاتبه باللغة اللاتينية حتى يستطيع فهم محتواها، ويبدو أن الرسالة فُقدت ولم يُعلم محتواها إلا من خلال رد البابا عليها في عام (٦٦٦هـ/ ١٢٦٧م)، بالإضافة إلى رسالة أباقا مع سفارته الثانية إلى البابا في العام التالي. والراجح أن سفير أباقا الذي شرح للبابا محتواها أفهمه بأن الإيلخان المغولي قد اعتنق الديانة النصرانية فعلاً، وذلك لكسب الغرب الأوروبي لاقتراح أباقا في مشروع التحالف، بدليل أن البابا في رده على الرسالة، شكر الرب على أن أباقا قد اعتنق الديانة النصرانية، وأعلمه أن ملوك فرنسا وناڤار وكثيراً من النبلاء وعدداً لا يحصى من الجنود يستعدون للذهاب إلى الأراضي المقدسة ليهاجموا أعداء الدين، وطلب منه أن يستمر في خططه ومشروعه[1].

وبوصول سفير البابا إلى البلاط الإيلخاني، قام أباقا على الفور بإرسال بعثة إلى الغرب الأوروبي حملت رسالة مؤرخة من أذربيجان في (٢٢ ذي القعدة ٦٦٦هـ/ ٣ آب ١٢٦٨م) يعلمه بسوء موقف حلفاء مغول إيران في الشرق الأدنى. والمعروف أنه، قبل ذلك بعامين، حطَّم المماليك أرمينيا الصغرى في قيليقيا في إطار خطة الظاهر بيبرس لإخراجها من صراعه مع إمارة أنطاكية، كما هاجم هذه الإمارة في التاريخ المذكور أعلاه، ودمَّر أنطاكية وأحرقها. وهكذا وجَّه ضربة قاضية للتحالف المغولي ـ الأرميني ـ الصليبي، ولم يعد لبقية الصليبيين أية حدود مشتركة مع الأرمن أو مع مغول إيران.

ولهذا كان أباقا يتوقع استجابة فورية من الغرب الأوروبي للتحالف معه ضد المماليك بعد سقوط أنطاكية، بدليل أنه دخل في تفاصيل مشروع التحالف المشترك، وأبلغ البابا في رسالته أنه سيرسل أخاه إيجاي على رأس قوة كبيرة إلى بلاد الشام، وأن جيش البابا الذي أخبره المبعوث البابوي أن ملك فرنسا

(١) Howorth: III pp278, 279.

سيتولى قيادته، وجيش ملك أراغون في إسبانيا، سوف يهاجمان المماليك من الناحية الأخرى لحصار وتدمير عدوهما المشترك.

وعندما وصلت سفارة أباقا إلى روما، في عام (٦٦٧هـ/ ١٢٦٩م)، وجدت أن كليمنت الرابع قد توفي، ومن ثَمَّ أبحرت إلى أراغون وبقية ممالك أوروبا الغربية. وكانت أنباء سقوط أنطاكية قد وصلت إلى مسامع الأمراء والملوك الغربيين، فاستعدوا لإرسال حملة صليبية جديدة لنجدة الصليبيين في الشرق. وتجاه الأنباء التي بعثها أباقا بجهوزية جيشه لغزو بلاد الشام فور ظهور الجيوش الأوروبية على سواحلها، فإن جيمس الأول ملك أراغون قاد أسطوله إلى الشرق، لكنه تحطَّم بفعل هبوب عاصفة قوية أمام سواحل فرنسا، وعاد إلى بلاده، لكن ولديه تابعا الرحلة إلى عكا على رأس قوة صغيرة لم تستطع استعادة قرية صغيرة، ومن ثَمَّ عادا من حيث أتيا[1]. أما حملة لويس التاسع ملك فرنسا فإنها انحرفت إلى تونس ضد الحفصيين الذين لم يكن بينهم وبين أوروبا الغربية أية علاقات عدائية. وكان الأمير إدوارد ابن الملك هنري الثالث، ملك إنكلترا، قد قاد نحو ألفاً من قواته والتحق بحملة لويس التاسع، وعندما وصل إلى قرطاج في (٢٧ رمضان ٦٦٩هـ/ ٩ أيار ١٢٧١م) وجد الملك الفرنسي قد توفي، فتابع طريقه إلى الشرق، والواقع أن إنكلترا وحدها كانت آنذاك على علم بمزايا الاتحاد مع الإيلخانيين، وعندما وصل إلى عكا أرسل إلى أباقا يطلب منه إرسال جيوشه استناداً إلى الوعد الذي كان قد قطعه للأوروبيين، وبفعل انهماكه في الحرب على الحدود الشرقية لبلاده فقد أمر قائده صمغار في الأناضول لغزو بلاد الشام بالتنسيق مع الصليبيين، فتقدم نحو حلب واستولى عليها، ثم زحف نحو البقاع، قبل أن ينسحب فجأة فور وصول القوات المملوكية بقيادة الظاهر بيبرس. أما قوات إدوارد فلم تفعل أكثر من القيام بغارة على قلعة صغيرة[2]، ويئس أخيراً بفعل ضآلة عدد الجنود المتحالفين من المغول والصليبيين في مقابل جنود أعدائهم المسلمين بحيث اضطر إلى التقهقر، وعاد إلى إنكلترا في عام (٦٧١هـ/ ١٢٧٢م).

وإذ اعتقد بعض الملوك الأوروبيين بأن المغول سوف يهاجمون أوروبا، بعد

(١) Boyle, J.A: The Il-Khans of Persia and the Christian west: pp556, 557.

(٢) Powicke, F.M: King Henry III and the Lord Edward: II: pp597-599, 602.

القضاء على المماليك؛ تراجعت فكرة تكوين اتحاد عسكري معهم بعد انحراف الحملة الصليبية الثامنة إلى تونس. وكان الأوروبيون ينشدون، أولاً، صداقة المغول، ويسعون عبثاً في تحقيق هذا الهدف، أما الآن فإن المغول أضحوا يطرقون أبواب أوروبا ويسعون في كسب ودِّ الغرب الأوروبي وتكوين حلف معهم.

ففي (ذي القعدة ٦٧٢هـ/ أيار ١٢٧٤م) دعا البابا جريجوري العاشر (٦٦٩ - ٦٧٥هـ/ ١٢٧١ - ١٢٧٦م) إلى عقد مجمع مسكوني في مدينة ليون الفرنسية لبحث تقوية الكيان الصليبي وإرسال حملة صليبية عاجلة لإنقاذه، فاستغل أباقا عقد المؤتمر وأرسل بعثة لحضوره برئاسة الراهب الدومينيكاني داود الأشبي، وقد أعدَّ تقريراً يتعلق بموقف الإيلخانيين حتى يطلع عليه أعضاء المؤتمر، وفعلاً قُرئت رسالة أباقا أمام المؤتمرين، وقد تضمَّنت ضرورة توطيد أواصر الصداقة بين المغول والنصارى، والعمل على نشر النصرانية ومحاربة المسلمين[1]. وقد ذهب سفراء المغول، بعد انتهاء جلسات المؤتمر، إلى العواصم الكبرى للغرب، وقد عرَّجوا في طريق عودتهم إلى الشرق على روما لتسلم رسالة البابا إلى الإيلخان أباقا، والتي تضمَّنت وعداً بإبلاغه بما يتلقاه من معلومات من الأمراء العلمانيين حول الحملة الصليبية التي يجري إعدادها للشرق للانضمام لقوات المغول.

وعلى الرغم من الجهود المضنية التي بذلها جريجوري العاشر لتهيئة المناخ في أوروبا للقيام بحملة صليبية إلى الشرق، فإن الوعود التي تلقاها من الأمراء العلمانيين كانت مجرد شعارات لم تجد طريقها إلى التنفيذ العملي لانهماك هؤلاء بمشكلاتهم الداخلية والإقليمية، ومع أن كل شخص كان مستعداً، نظرياً على الأقل، لأن يتحدث عن الحملة الصليبية إلا أنه لم يتقدم أحد بعروض عن المساعدة العملية التي تُعدُّ ضرورة القيام بها[2].

وتكرَّرت السفارات بين الجانبين المغولي والنصراني الأوروبي، في عام (٦٧٥هـ/ ١٢٧٧م) على أثر الضربة التي وجهها بيبرس لأرمينيا الصغرى ومهاجمة سلاجقة الروم، ولكن من دون إحراز أي تقدم ملموس.

(١) انظر نص الرسالة عند هلال: ... الملحق الثاني: ص٢٧٧ - ٢٨٢.

(٢) رنسيمان، ستيفن: تاريخ الحروب الصليبية: جـ٣ ص٥٨٥.

والحقيقة أن هذه السفارات، على تعددها وامتدادها في المدى الزمني، لم تحقق الغاية المنشودة لكلا الطرفين، بفعل انهماك الملوك الأوروبيين والبابوية بمشكلاتهم الداخلية، وتراجع حماس الأوروبيين للحروب الصليبية بعد الانتكاسات الكبيرة التي مُني بها الصليبيون في الشرق بحيث فقدوا الأمل في إعادة إحياء الممالك الصليبية المندثرة، بالإضافة إلى اعتقادهم بأن التحالف مع المغول لم يعد مطلوباً في هذه الآونة. ومن جهته فإن أباقا انهمك في الحروب المستمرة على جبهاته الثلاث في الغرب والشمال والشرق بحيث لم تُتح له التقاط أنفاسه على الرغم من حماسه الشديد لقيام مثل هذا التحالف.

وهكذا فشلت خطة قيام هجوم إيلخاني ـ نصراني مشترك على شمالي بلاد الشام. فقد كان عامل المفاجأة، الضروري لمثل هذا الهجوم، مفقوداً بسبب الصلات التي كان يشوبها الخلل بين الطرفين، ومع ذلك فقد أدَّت هذه التحالفات الهشَّة، على الأقل، إلى توثيق عرى الصداقة بين تبريز وأوروبا، وزادت من تعرُّف الأوروبيين على دور الشرق الأدنى. وقد انتهزت أوروبا هذه الفرصة لزيادة النشاط التبشيري عن طريق البعثات التبشيرية التي لم تحصر نشاطها في المجتمع المغولي بقدر ما كانت تنشط في المجتمعات النصرانية الشرقية المخالفة للعقيدة البابوية، وقد ظهرت أديرة في منطقة ما بين النهرين والقوقاز في ذلك الوقت[١].

نشاط بيبرس في شمالي بلاد الشام

كانت معركة عين جالوت فاتحة العلاقات العدائية بين المماليك ومغول إيران. وقد أدرك الظاهر بيبرس، منذ اللحظة الأولى، أن المغول لا بد مقدمون على الأخذ بثأرهم، لهذا أخذ يستعد لمناهضتهم. وكان صراعه مع هؤلاء متصلاً بشكل وثيق بكفاحه ضد بقايا الصليبيين في بلاد الشام، والنصارى الشرقيين بعامة، الذين ما انفكوا يتعاونون معاً للقضاء على الدولة المملوكية، فقرَّر أن يقضي على الصليبيين ويطردهم من بلاد الشام، ومحاربة الأرمن وصليبيي أنطاكية لمحالفتهم مغول إيران، ثم التوسع على حساب هؤلاء في شمالي بلاد الشام وآسيا الصغرى، والاتصال بمغول القبيلة الذهبية للتنسيق معهم ضدهم.

(١) شبولر: ص٦١، ٦٢.

بدأ السلطان المملوكي بتنفيذ مخططه بمهاجمة الصليبيين في بلاد الشام. ففي عام (٦٦٤هـ/ ١٢٦٥م) فتح قيسارية ويافا وأرسوف، وهاجم قلاعاً أخرى، كما فتح في العامين التاليين صفد والرملة وتبنين والقليعات وحلبا وعرقة[١]، وكانت هذه الحصون الثلاثة الأخيرة تحمي طرابلس من جهة الشمال والشمال الشرقي، وتُعدُّ سيطرة المماليك عليها خطوة متقدمة في سبيل فتح طرابلس نفسها بعد ذلك.

التفت بيبرس بعد ذلك إلى معاقبة الأرمن وصليبيي أنطاكية الذين ساعدوا المغول، وكان قد أرسل في (أوائل عام ٦٦٠هـ/أواخر خريف عام ١٢٦١م) جيشاً للسيطرة على حلب بعد أن أعلن أميرها المملوكي العصيان، ولشن غارات واسعة النطاق على أملاك أنطاكية.

وتجدَّدت الغارات في الصيف التالي، وجرى تهديد أنطاكية نفسها حين حاصر الجيش المملوكي المدينة التي كادت أن تسقط لولا أن هيثوم الأول، ملك أرمينيا الصغرى، استنجد بهولاكو الذي أمدَّه بقوة عسكرية مغولية اشتركت مع الجيش الأرميني في إنقاذ أنطاكية[٢]. وإذ ظلَّت سلطة المغول في شمال شرقي بلاد الشام من القوة ما يكفي لإخافة بيبرس، لم يسعه إلا الالتجاء إلى السياسة لمعالجة الصعاب التي يصادفها.

وحدث وقتذاك أن أعلن بركة خان عن استعداده للتحالف مع بيبرس، وكانت نتيجة ذلك أنه أطلق سراح السلطان السلجوقي كيكاوس الثاني في حين استقر زعيم تركماني، يُدعى قرمان، في جنوب شرقي قونية، فيصح استخدامه في أن يقوم بضغط مستمر على الأرمن[٣].

وعلى الرغم من مشكلاته مع القبيلة الذهبية التي منعته من مواصلة شن هجوم عنيف على المماليك، فإن هولاكو ما زال يدَّخر من القوة والبأس ما يكفي لمنعهم من مهاجمة حلفائه، لكن وفاته أتاحت للمماليك فرصة طيبة، إذ أضعفت مغول إيران في لحظة حرجة، كما أثَّرت سلباً على أوضاع حلفائه الأرمن والكرج والصليبيين، ذلك أن أرملته، طقز خاتون، كفلت ولاية العرش لابنها أباقا، غير أنه لم يتم تنصيبه إيلخاناً من الناحية الرسمية إلا بعد مرور

(١) ابن عبد الظاهر: ص٢٣٠ ـ ٢٣٩. المقريزي: ج٢ ص٣٣ ـ ٣٦.

(٢) ابن عبد الظاهر: ص١٣٢، ١٣٣.

(٣) Cahen. C: La Syrie du Nord: p711.

أربعة أشهر على وفاة والده، كما لم يتم إعادة توزيع الإقطاعات وحكومات الولايات إلا بعد مرور أربعة أشهر أخرى. وتعرَّض أباقا، في غضون ذلك، للتهديد من جانب أبناء عمومته في القبيلة الذهبية الذين أغاروا على بلاده، فكان مستحيلاً على حكومة مغول إيران أن تتدخل في شؤون غربي بلاد الشام. أما بيبرس الذي سبَّب بسياسته المتاعب للإيلخان في الشمال، فأضحى بوسعه أن يستأنف حملاته ضد الصليبيين والأرمن من دون أن يخشى تدخلاً مغولياً.

وإذ حرص المغول الإيلخانيون أن يؤلفوا جبهة مشتركة مع الأرمن والكرج والصليبيين وسلاجقة الروم والبيزنطيين لمناهضة المماليك وحلفائهم مغول القبيلة الذهبية؛ كان بيبرس حريصاً من جهته على توطيد مركزه في شمالي بلاد الشام للانطلاق إلى الأناضول، وذلك باستقطاب سلاجقة الروم، ليتخذ من المنطقة حاجزاً في وجه المغول الإيلخانيين من جهة، ويتصل بمغول القبيلة الذهبية من جهة أخرى.

وتنفيذاً لهذه السياسة، راح بيبرس يشن الغارات على المعاقل الصليبية حتى بلغت طرابلس وأنطاكية، وحاصر هذه الأخيرة في (رمضان ٦٦٦هـ/ أيار ١٢٦٨م). كان أمير أنطاكية، بوهيموند السادس، آنذاك في طرابلس، لذلك تولى الدفاع عنها قائد الجيش سيمون ماتسل، ولم تكن الحامية من كثرة العدد ما تستطيع أن تحمي كافة الأسوار، ويبدو أن سيمون هذا لم يكن قائداً على مستوى الأحداث، فخرج بقواته القليلة من المدينة في محاولة طائشة للتصدي للجيش المملوكي ومنعه من مهاجمتها، إلا أنه وقع في الأسر، فاستخدمه بيبرس وسيلة لإقناع المحاصَرين في داخل المدينة بالاستسلام، إلا أن المفاوضات لم تؤدِّ إلى نتيجة إيجابية بفعل عناد المدافعين عنها، لذلك تقرَّر اقتحامها، وتمكَّن الجيش المملوكي من دخولها بعد هجوم عام على جميع مراكز الأسوار، عبر ثغرة، وتدفق أفراده إلى داخلها[1].

وفي الوقت الذي كان فيه بيبرس يفتح المدن والقلاع في بلاد الشام، كان هيثوم الأول، ملك أرمينيا الصغرى، في قيليقيا، يتوقع هجوماً مملوكياً على أملاكه وبخاصة أن أباقا كان منهمكاً بالحرب ضد مغول القبيلة الذهبية،

(١) ابن عبد الظاهر: ٣٠٧ ـ ٣٠٩. رنسيمان: جـ٣ ص٥٤٩، ٥٥٠، ٥٥٧. Howorth: III pp215-218.

والمغول الجغتائيين في تركستان، ولم يكن بوسعه تقديم المساعدة للزعيم الأرميني، لذلك حاول التفاهم مع بيبرس.

ومن جهته، فقد أتاح هذا الوضع السياسي لبيبرس الفرصة لكي يغزو بلاد الأرمن ويخضع هيثوم الأول الذي انتهج سياسة معادية للمماليك، فاضطر الزعيم الأرميني إلى اللجوء إلى السياسة ليجنِّب بلاده كارثة حقيقية، ففتح باب المفاوضات مع السلطان المملوكي. وطلب بيبرس أن:

- يدخل هيثوم في طاعته.
- يؤدي له الجزية.
- يفتح طريق الدروب أمام القوات المملوكية.
- يفتح الطريق التجاري بين أرمينيا الصغرى وبلاد الشام لتمكين الناس من شراء القمح والشعير والخيل والحديد من بلاده[1].

إلا أن المفاوضات لم تؤدِّ إلى نتيجة إيجابية، ويبدو أن خوف هيثوم من المغول هو السبب في ذلك.

ولما شعر الملك الأرميني بأن الحرب مع المماليك واقعة لا محالة، وأن قواته العسكرية لا يمكنها مقاومة القوات المملوكية، هرع إلى تبريز عاصمة المغول الإيلخانيين يلتمس المساعدة من هؤلاء، وذلك في عام (٦٦٤هـ/ ١٢٦٦م)[2].

انتهز بيبرس غياب هيثوم الأول ودفع بجيوشه باتجاه قيليقيا بقيادة المنصور الثاني أمير حمص، ثم أردفه بقوة عسكرية بقيادة الأميرين قلاوون الألفي وعز الدين أوغان في حين أقام هو في دمشق للإشراف على الحملة.

واصطدم الجيش المملوكي بجيش أرميني عند دروب الشام بقيادة ولدي هيثوم الأول ليون وثوروس، وجرت المعركة قرب دربساك[3] في (ذي القعدة ٦٦٤هـ/آب ١٢٦٦م) دارت الدائرة فيها على الجيش الأرميني، ولقي ثوروس مصرعه في حين وقع ليون في الأسر[4].

وانساب الجيش المملوكي، على إثرها، إلى قيليقيا، فنهب أياس وأذنة وطرسوس، وتجاوز المصيصة إلى العاصمة سيس فنهبها وأشعل النار فيها،

(١) ابن العبري: ص٣٢٤، ٣٢٥.
(٢) المصدر نفسه: ص٣٢٥.
(٣) دربساك: قلعة حصينة قرب أنطاكية.
(٤) ابن عبد الظاهر: ص٢٦٩ ـ ٢٧١.

وجعل عاليها سافلها ثم انسحب من المنطقة في نهاية (ذي الحجة/ أيلول) عائداً إلى حلب ومعه الأسرى والغنائم[١].

وعندما علم هيثوم الأول بما حلَّ ببلاده أسرع بالعودة إليها، وصحبته قوة مغولية قليلة العدد، فألفى ولي عهده أسيراً، وعاصمته مدمرة، وبلاده مستباحة، فاضطر أن يعقد مع بيبرس اتفاقية هدنة جاء فيها:

- يتنازل هيثوم الأول لبيبرس عن بعض القلاع التي في حوزته في جبال الأمانوس، وهي دربساك وبهسنا ورعبان ومرزبان.
- أضحى نهر جيحان[٢] حداً فاصلاً بين الممالك الإسلامية ومملكة أرمينيا الصغرى.
- إطلاق سراح الأمير شمس الدين سنقر الأشقر، الذي سبق أن أسره المغول في حلب، مقابل إطلاق سراح ليون بن هيثوم[٣].

وإذ سقطت أنطاكية وضعفت أرمينيا الصغرى، بعد الضربات التي وجَّهها إليها بيبرس، أضحى المماليك على أبواب الأناضول.

معركة البيرة

ظهر أثر الترابط المغولي - الصليبي واضحاً عندما انتهز أباقا فرصة انهماك المماليك بمحاربة الصليبيين، فأغار على مناطق الحدود. ففي عام (٦٦٥هـ/ ١٢٦٧م) هاجم مدينة الرحبة على الحدود الفراتية في الوقت الذي كان فيه المماليك يهاجمون صفد[٤].

وعلى الرغم من هذا الجو العدائي، فقد حاول الإيلخان التفاهم مع بيبرس. ففي عام (٦٦٧هـ/ ١٢٦٨ - ١٢٦٩م) خرج بيبرس من القاهرة متوجهاً إلى بلاد الشام، حتى إذا بلغ دمشق وصل إليه كتاب من الزعيم المغولي تضمَّن تهديداً وترغيباً في الصلح[٥]، لكن بيبرس لم يضعف أمام تهديدات أباقا، ورفض مبدأ الصلح، وردَّ على كتابه قائلاً: «أعلم أني وراءه بالمطالبة، ولا أزال أنتزع من يده جميع البلاد التي استحوذ عليها من بلاد الخليفة،

---

(١) ابن عبد الظاهر: ص٢٦٩ - ٢٧١.

(٢) نهر جيحان في قيليقيا: كان في صدر الإسلام حداً مائياً بين بلاد المسلمين وبلاد الروم.

(٣) ابن عبد الظاهر: ص٣٢٧ - ٣٢٩. (٤) المصدر نفسه: ص٣٠٧ - ٣٠٩.

(٥) المقريزي: ج٢ ص٥٥، ٥٦.

وسائر أقطار الأرض»[١].

وهكذا كان لا بد من الحرب لتقرير مصير هذا الصراع.

ابتدأت الحركات العدوانية من جانب المغول؛ فأغاروا على الساجور[٢]، ثم تحالفوا مع الصليبيين للقيام بهجوم مشترك على المسلمين في بلاد الشام، فأرسل بيبرس الأمير علاء الدين البندقدار على رأس قوة عسكرية، وأمره أن يرابط في المناطق الحدودية ويترصَّد أخبار المغول وتحركاتهم، فاضطر هؤلاء إلى الانسحاب من المنطقة.

ثم حدث أن أغار المغول، في عام (٦٧٠هـ/ ١٢٧١م)، على عينتاب وعمق حارم[٣]، فأرسل بيبرس قوة عسكرية اصطدمت بهم وانتصرت عليهم عند الرها وحرَّان[٤].

وعندما رأى أباقا أن المماليك أضحوا قوة من الصعب التغلُّب عليها، مال إلى السياسة لتجنُّب وقوع صدام معهم في المستقبل، لكن موقفه هذا شابه بعض الشك من جانب السلطان، عندما طلب رسله بوجوب حضوره أو حضور نائبه إلى المعسكر المغولي لبحث مسألة الصلح، وقد تبيَّن بعد ذلك، أنه يخادع لكسب الوقت، وانتظار فرصة مناسبة للاصطدام بالمماليك، فأمر على الفور بالتجهز للحرب[٥].

وهاجم جيش مغولي سلجوقي مشترك قوامه أكثر من ثلاثين ألف مقاتل[٦]، البيرة، في عام (٦٧١هـ/ ١٢٧٢م)، بهدف الاستيلاء عليها[٧]، فحاصرها ونصب عليها ثلاثة وعشرين منجنيقاً، واتخذ كافة الاحتياطات لمنع الجيش المملوكي من الوصول إليها عبر الفرات.

---

(١) العيني، بدر الدين محمود: عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان: ج٢ ص٤٠ - ٤٣.

(٢) الساجور: نهر بجهات منبج تقع عليه بلدة عينتاب. الحموي: ج٣ ص١٧٠.

(٣) حارم: حصن وكورة تجاه أنطاكية. المصدر نفسه: ج٢ ص٢٠٥.

(٤) المنصوري، بيبرس الدوادار: التحفة الملوكية في الدولة التركية: ص٧٣.

(٥) العيني: ج٢ ص٩٢، ٩٣، ١٠٠، ١٠١.

(٦) تألف الجيش المشترك من خمسة عشر ألف مقاتل مغولي بقيادة نابشي وأقطاي نوين وخمسة عشر ألفاً من العساكر السلجوقية الرومية بقيادة معين الدين برواناه، بالإضافة إلى العساكر الماردينية، والميافارقينية بقيادة شرف الدين عبد الله اللاوي، ومعهم بعض السرايا من شهرزور والعراق.

(٧) المنصوري ص٧٥.

وصمدت حامية المدينة للحصار، وكان أفرادها يخرجون في غارات ليلية، فيهاجمون القوات المحاصِرة، ويحرقون لهم مجانيقهم، ومن ثَمَّ يعودون مع وجه الصباح(١).

ولما علم بيبرس بنزول المغول على البيرة، خرج إلى حمص، فصادر مراكب الصيادين، وحملها على الإبل ليعبر الفرات عليها، ثم جدَّ في السير حتى بلغ النهر، فوجد القوات المتحالفة ترابط على الشاطئ الآخر، فأنزل المراكب في الفرات وشحنها بالمقاتلة، ثم عبر الأمير سيف الدين قلاوون الألفي، والأمير بدر الدين بيسري، وتبعهما بيبرس بنفسه، ثم بقية الجيش.

ويبدو أن البيرة استعصت على المتحالفين بسبب نزول الثلج وتراكمه واشتداد البرد، بفعل أن هذا الحصار قد تمَّ في فصل الشتاء، ففكَّ الجنود الحصار عنها وعادوا إلى بلاد الروم بعد أن دمَّروا معداتهم وأحرقوها حتى لا تقع في أيدي القوات المملوكية(٢)، لكن مؤخرتهم اصطدمت بالقوات المملوكية التي عبرت النهر وتعرَّضت للدمار، وأسر الجيش المملوكي مائتي جندي، ولم ينجُ منهم إلا القليل(٣).

وهكذا تعرَّض المغول لهزيمة عسكرية أخرى أمام المماليك، ودخل بيبرس قلعة البيرة، وخلع على نائبها، ووزع النقود على أهلها تعويضاً لهم عما لاقوه من شدة أيام الحصار، وأنعم عليهم ببعض الغنائم مما تركه المغول، ثم غادرها عائداً إلى مصر عن طريق دمشق(٤).

المغول بين المماليك وسلاجقة الروم

دخل سلاجقة الروم في الأناضول، بحكم موقع بلادهم «الاستراتيجي»، في دوامة الصراع بين المغول والمماليك، وتقلَّبت سياساتهم وفقاً لتغيُّر ميزان القوى؛ فهم تارة مع المغول يستمدون العون منهم، ويحاربون في صفوفهم وتحت رايتهم، وتارة أخرى يستنجدون بالمماليك ليحرِّروهم من سيطرتهم، إلا أنه وُجِدت فئة من الأمراء حملت لواء المعارضة للوجود المغولي في البلاد،

(١) ابن شداد، عز الدين محمد: تاريخ الملك الظاهر: ص١٢٤، ١٢٥. اليونيني: جـ٣ ص١١٥.
(٢) اليونيني: جـ٣ ص١١٦.
(٣) ابن تغري بردي، جمال الدين أبي المحاسن يوسف: النجوم الزهرة في ملوك مصر والقاهرة: جـ٧ ص١٥٩.
(٤) ابن عبد الظاهر: ص٤٠٨.

فتعرَّضت للضغط الشديد ما اضطرها إلى الهجرة إلى بلاد الشام ومصر.

ونصَّب المغول، في عام (٦٦٤هـ/ ١٢٦٥م)، غياث الدين كيخسرو الثالث سلطاناً على سلاجقة الروم بناء على رغبة الوزير معين الدين برواناه، وكان عمره آنذاك ستة أعوام، وفي رواية عامان ونصف، فتولى برواناه مقاليد الأمور في البلاد ليديرها وفق مصلحة بلاده(١).

وتعرَّض أباقا آنذاك، لضغط شمالي، فوقع بين فكي الكماشة الشمالية المتمثلة بخانات القبيلة الذهبية، والجنوبية المتمثلة بالمماليك، فاضطر إلى فتح باب المفاوضات مع بيبرس لحل المشكلات العالقة بينهما بالطرق السلمية. ويبدو أن برواناه أدَّى دوراً بارزاً في التقريب بين وجهات النظر ليجنِّب بلاده مزيداً من البؤس، لأن المعركة المقبلة، إذا حصلت، ستجري على أرض الروم.

وأرسل أباقا رسلاً إلى دمشق يعرض على بيبرس إبرام معاهدة صلح، وافق الثاني على ذلك، وأرسل من جانبه إلى أباقا يعرض عليه إعادة بلاد المسلمين التي استولى عليها مقابل إبرام الصلح. رفض الزعيم المغولي هذا العرض، واقترح بأن يحتفظ كل طرف بما في يده، فرفض بيبرس هذا الاقتراح، وانتهت المفاوضات بالفشل نتيجة التصلب في المواقف، واستعدت بلاد السلاجقة لموجة جديدة من الحرب(٢).

قامت سياسة بيبرس تجاه السلاجقة على أساس ضمِّ بلادهم إلى أملاكه، وذلك بدافع عاملين:

الأول: إن ضمَّه لهذه البلاد سيمكِّنه من الاتصال بمغول القبجاق، والتنسيق معهم للوقوف في وجه مغول إيران.

الثاني: التخفيف من الضغط المغولي الإيلخاني الواقع على بلاد الشام.

ونتيجة لازدياد الضغط المغولي على بلاد الروم، مال برواناه إلى جانب المماليك، وبعث برسالة إلى بيبرس عرض فيها الولاء له مقابل:

١ ـ اعترافه باستقلال بلاد الروم وبالسلطان كيخسرو الثالث حاكماً عليها.

(١) ابن بيبي، ناصر الدين يحيى بن محمد: مختصر سلجوق نامه، المسمى الأوامر العلائية في الأمور العلائية: ص٣٠٢، ٣٠٣. الآقسرائي، محمود بن محمد: مسامرة الأخبار ومسايرة الأخيار: ص٥٧. ابن العبري: ص٣٢٥، يذكر أن عمره أربعة أعوام.
(٢) ابن شداد: ص٣٤، ٣٥.

٢ ـ أن يرسل فرقة عسكرية ترابط في البلاد بشكل دائم للاستعانة بها لقتال المغول عند الحاجة.

رحَّب بيبرس بالتعاون مع الحكومة الرسمية للسلاجقة إلا أنه اعتذر عن عدم القدوم فوراً على أن يوافيه في العام القادم[١].

والواقع أن الظروف لم تكن مؤاتية للمجازفة بحملة عسكرية غير مضمونة النتائج، لأن مثل هذه الحملة، تتطلَّب استعدادات ضخمة نظراً لبُعد المسافة، وقوة العدو، من جهة، وحتى يتحقَّق من ولاء السلاجقة التام له، من جهة أخرى.

وبعد فشل المغول في الاستيلاء على البيرة، ازداد برواناه تعلقاً بدفع بيبرس للقدوم إلى بلاد الروم، وأدرك أنه لا مقام له في البلاد مع وجود المغول فيها، وذلك بفعل الخلافات الحادة بينه وبين كل من آجاي، أخي أباقا، والحاكم المغولي لبلاد الروم والقائد صمغار، فأغرى بعض الأمراء ممن هم على مثل رأيه، على منابذتهم والتعاون مع الملك الظاهر، وأرسل نسخة من كتاب التأييد إلى القاهرة يحثُّ بيبرس على المجيء فوراً إلى بلاد الروم بغية القضاء على الوجود المغولي فيها، على أن يعترف بسلطنة غياث الدين كيخسرو الثالث، مقابل منحه من الامتيازات ما كان يمنحه للإدارة المغولية.

ويبدو أن بيبرس لم يكن مستعداً بعد للقيام بمغامرة عسكرية غير مضمونة النتائج، لأنه علم بأن أمراء السلاجقة منقسمون على أنفسهم بين مؤيد له ومعارض، لذلك اعتذر لبرواناه بأن عساكره لا يمكنها قطع الدربند في هذا الوقت من السنة إلا بعد انقضاء فصل الربيع، وهو مصمِّم على التوجه إلى بلاد الروم إن عاجلاً أو آجلاً[٢].

معركة البستان[٣]

أضحى باستطاعة بيبرس في عام (٦٧٤هـ/ ١٢٧٥م) أن يُنفِّذ مشروعه بضم بلاد الروم، إذ إن الأوضاع السياسية أضحت ملائمة. فالسلطان السلجوقي

(١) ابن شداد: ص٧٩. اليونيني: جـ٣ ص٣٤.
(٢) ابن شداد: ص١٢٨، ١٢٩.
(٣) هي إبلستين، سميت البستان بعد ذلك، تقع في شرقي قيصرية في آسيا الصغرى بين جبال طوروس والقسم الأعلى من نهر جيحان، وهي من مدن الثغور.

كيخسرو الثالث كان لا يزال صبياً، أما برواناه، الحاكم الفعلي لبلاد الروم، فإنه لم يستطع، على الرغم مما بذله من جهد، أن يضبط الأوضاع الداخلية المتدهورة، وإخماد الفتن، والثورات المؤيدة للمماليك، كما أنه عجز عن ضبط الإمارات التي أخذت في الظهور وأهمها الإمارة القرمانية، واحتفظ الإيلخانات بحماية مفكَّكة على سلطنة سلاجقة الروم بسبب تكاثر الانتفاضات ضد حكمهم، وقد عجزت الحامية المغولية القوية المرابطة في البلاد عن وضع حدٍّ لها.

أما الأرمن في قيليقيا، فقد ضعفوا بسبب تواصل الغارات المملوكية عليهم منذ عام (٦٦٤هـ/ ١٢٦٥م).

أما أنطاكية، فقد تَمَّ إخضاعها وتدميرها في عام (٦٦٦هـ/ ١٢٦٨م)، ولن تنهض بعدها مطلقاً، كما فقدت أهميتها التجارية، ولم يعد لها من مكانة سوى أنها أضحت قلعة بالطرف الإسلامي.

أما الصليبيون، فقد انكمشوا في إمارات متباعدة، نجح بيبرس في عزلها وراح يهاجمها واحدة إثر واحدة حتى تمكَّن من استعادة معظم مدن الشريط الساحلي الشامي والفلسطيني، بالإضافة إلى بعض القلاع الداخلية، وما تبقَّى منها أصابه الضعف، كما عقد هدنة مع حكومة عكا في عام (٦٧٠هـ/ ١٢٧٢م) بهدف منع أي تدخل غربي آخر في أمور الشرق يؤثِّر على خططه.

خرج بيبرس من القاهرة على رأس جيش كبير، يوم الخميس في (٢٠ رمضان ٦٧٥هـ/ ٢٥ شباط ١٢٧٧م)، متوجهاً إلى دمشق، وقد صحبه الأمراء السلاجقة الذين التجأوا إليه، فوصل إليها يوم الثلاثاء في (١٧ شوال/ ٢٤ آذار)، ثم انتقل منها إلى حلب، وأرسل نائبها الأمير سيف الدين علي بن مجلِّي إلى الساجور على رأس قوة عسكرية ليرابط على الفرات ويحفظ المعابر لئلا يعبر منها المغول إلى بلاد الشام أثناء غيابه في الأناضول[١].

وتوجَّه السلطان من حلب إلى حيلان ثم إلى عينتاب، فدلوك، فمرج الديباج، وكينوك[٢]، ثم عبر النهر الأزرق وقطع الدربند، وبات في أرض سهلة، والتقت طليعته، بقيادة سنقر الأشقر، بطليعة مغولية قوامها ثلاثة آلاف

(١) المقريزي: جـ٢ ص٩٧. النويري: جـ٣٠ ص٣٥١.
(٢) كينوك: هي الحدث الحمراء.

مقاتل، فهزمتها وأسرت كثيراً من أفرادها[1].

كان الأرمن في قيليقيا أول من رصد تقدم القوات المغولية باتجاه الأناضول، فأرسل ملكهم ليون الثالث رسلاً إلى أباقا يخبره بذلك ليكون على بيِّنة من الأمر.

وتحرَّك برواناه، من جهته، ضمن دائرة مصلحة بلاده، فأرسل إلى الزعيم المغولي رسالة يُكذِّب ادعاءات ليون الثالث، ويطمئنه عن الوضعين السياسي والعسكري في البلاد، ما حمل الإيلخان على تصديقه.

ويبدو أن أنباء توغل القوات المملوكية في بلاد الروم، وصلت إلى مسامع أباقا، فقرَّر مواجهة الموقف، ووضع خطة للتصدي للمماليك من شقين:

الأول: إنه أراد استغلال خروج بيبرس من بلاد الشام ليغير عليها حتى يُخفِّف الضغط عن قواته في بلاد الأناضول، فأرسل قوة عسكرية من عرب خفاجة لإزاحة العساكر المملوكية المقيمة على المعابر.

الثاني: إنه أصدر أوامره إلى القوات المغولية والسلجوقية بالتحرك إلى البستان للتصدي للقوات المملوكية، واشترك الكرج بثلاثة آلاف مقاتل[2].

وعلى الرغم من كل هذه الاستعدادات، لم يُحقِّق أباقا هدفه، ذلك أن القوات المملوكية المرابطة على معابر الفرات استطاعت أن تنزل الهزيمة بعرب خفاجة، وبذلك يكون بيبرس قد أحبط محاولة أباقا، وتفرَّغ لبلاد الروم، وهو مطمئن على بلاد الشام.

وتحرَّكت القوات المغولية ـ السلجوقية المشتركة، بقيادة القائدين تودان نوين وتوغو آغا، يصحبهما برواناه، على طريق البستان. ولما وصلت إلى الجبال المشرفة على صحراء هوني، علم القادة، عن طريق الجواسيس، بأن الجيش المملوكي سيصل إلى هذا المكان في صباح اليوم التالي، فنزلوا من الجبل وعسكروا على نهر جيحان، وعبأوا قواتهم أحد عشر طلباً، كل طلب يزيد على ألف مقاتل، وشكَّلت الخيالة المغولية طلباً منفرداً، وعزلوا العساكر السلجوقية عنهم لأنهم كانوا يشكُّون في قدرتهم القتالية، كما أنهم خشوا من

(١) ابن عبد الظاهر: ص٤٥٣، ٤٥٦، ٤٥٨. والجدير بالذكر أن القاضي ابن عبد الظاهر قد رافق الحملة إلى بلاد الروم، فهو يصف الأحداث كشاهد عيان.

(٢) ابن العبري: ص٣٣٥. اليونيني: جـ٣ ص١٧٥.

أن يكونوا متفقين مع بيبرس عليهم[1].

وصلت القوات المملوكية في اليوم التالي إلى الجبال، فرأى بيبرس جنود العدو متأهبين في السهل، فنزل وعبَّأ جنده مقابلهم. جرت المعركة يوم الجمعة في (١٠ ذي القعدة ٦٧٥هـ/١٦ نيسان ١٢٧٧م) في جو بارد جداً، وكانت ضارية، وأسفرت عن انتصار المماليك، وقُتل من المغول ستة آلاف وسبعمائة وسبعون جندياً بينهم القائدان تودان وتوغو، وأُسر كثير منهم، كما قُتل ألف فارس من الكرج بالإضافة إلى عدد من الأمراء السلاجقة، وفرَّ من نجا[2].

ولما رأى برواناه ما حلَّ بالجيش المغولي، فرَّ من أرض المعركة. ونزل بيبرس، بعد انتصاره، في معسكر المغول، وأُحضر إليه مَنْ أُسر من أمرائهم، فعفا عنهم، وأطلق سراحهم. وأرسل الأمير سنقر الأشقر على رأس قوة عسكرية لمطاردة فلول الهاربين، ثم توجَّه إلى قيصرية ومعه كتاب بالأمان إلى سكانها، فأمر بإخراج الأسواق والتعامل بالدراهم الظاهرية، وجلس على عرش السلاجقة وخُطب له على المنابر، وضُربت السكة باسمه[3].

أرسل برواناه يهنئ بيبرس بالجلوس على العرش، فكتب إليه يأمره بالحضور ليفوِّض إليه أمور البلاد، فطلب برواناه أن يمهله خمسة عشر يوماً، وكان قد خطَّط للاستعانة بالمغول، ولعله أراد إنهاك قوة الفريقين حتى تخلو الساحة للسلاجقة، والجدير بالذكر أن برواناه تميَّز بسياسة متقلبة. ومهما يكن من أمر، فقد كتب إلى أباقا يحثُّه على إرسال نجدة على وجه السرعة تعيد الأمور إلى نصابها[4].

أقام بيبرس مدة عشرة أيام في قيصرية، علم أثناءها بمراسلة الوزير السلجوقي برواناه لأباقا يحثُّه على إرسال نجدة على وجه السرعة تعيد الأمور إلى نصابها، فخرج منها لأن عساكره قد أنهكها التعب، ونفدت الأقوات، ونقص العلف، ونفق معظم خيله، فلا يستطيع، والحالة هذه، مواجهة المغول.

وحاول برواناه، الذي اتصف بسرعة التقلُّب السياسي، أن يستوقفه، ويبدو

(١) ابن عبد الظاهر: ص٤٥٦، ٤٦٢.

(٢) المصدر نفسه. ابن العبري: ص٣٣٥.

(٣) ابن عبد الظاهر: ص٤٦٢.

(٤) المصدر نفسه ص٤٦٨.

أنه أراد تأخير رحيله حتى يصل الجيش المغولي، لكن بيبرس كان أدهى من أن يقع في حبائل برواناه، وتابع طريقه عائداً إلى دمشق[(١)].

والواقع أن بيبرس لم يُحقِّق هدفه بضم بلاد الروم والاتصال بمغول القبجاق، ولعل الظروف السياسية والعسكرية والجغرافية كانت أقوى من إمكاناته فعاد إلى بلاده قانعاً بما أحرزه.

وما إن علم أباقا بأنباء هذه الكارثة التي حلَّت بقواته، حتى استشاط غضباً، وتولَّى بنفسه قيادة جيش بلغ تعداده خمسين ألفاً، خرج على رأسه من تبريز، متوجهاً إلى بلاد الروم لوضع حدٍّ لطموحات بيبرس. ولما وصل إلى البستان عاين أرض المعركة وتفقَّد القتلى، ولما كانت غالبيتهم من المغول شقَّ عليه ذلك، ثم عاين مكان تمركز القوات المملوكية، وعندما علم بعدد أفرادها، اتهم برواناه بخداعه وبأنه لم يقدِّم إليه تقريراً صحيحاً عن القوة المملوكية، فغضب عليه وقتله[(٢)].

وأرسل أباقا رسالة إلى بيبرس يدعوه فيها للعودة والمواجهة، وبعث في الوقت نفسه، فِرَقاً عسكرية للتوغل في الأراضي الشامية واستطلاع أخبار الجيش المملوكي، لكنها لم تتمكَّن من التوغل بعيداً[(٣)]. وقرر خوض حرب تكون نتائجها حاسمة، لأنه أدرك أنه إذا ظل بيبرس يملك زمام المبادرة، فإن مغول إيران سوف لا يعرفون الراحة، لكن قواته كانت منهكة، كما نفق أكثر خيله، فوجد نفسه عاجزاً، عندئذ عدل عن غزو بلاد الشام وعاد إلى قيصرية ثم إلى بلاده[(٤)].

التبدلات السياسية في دولة المماليك

لم يعش بيبرس طويلاً، بعد حملته على بلاد الروم، فقد توفي يوم الخميس (٢٧ محرم ٦٧٦هـ/آخر حزيران ١٢٧٧م)[(٥)]، وخلفه ابنه السعيد ناصر الدين

---

(١) ابن بيبي: ص٣١٧، ٣١٨. ابن شداد: ص١٨٣.
(٢) ابن بيبي: ص٣١٩. ابن العبري: ص٣٣٦. ابن شداد: ص١٨٣، ١٨٤. اليونيني: جـ٣ ص١٨٥، ١٨٦.
(٣) اليونيني: جـ٣ ص١٨٦.
(٤) المصدر نفسه. ابن شداد: ص١٨٣.
(٥) المنصوري: ص٨٦. ابن عبد الظاهر: ص٤٧٣. المقريزي: جـ٢ ص١٠٣. ابن كثير: جـ١٣ ص٢٧٤، ٢٧٥.

محمد بركة (٦٧٦ ـ ٦٧٨هـ/ ١٢٧٧ ـ ١٢٧٩م)، وقد تعرَّض حكمه لمعارضة من جانب بعض الأمراء، كما دبَّ التنافس بين الأمراء المماليك بعامة على اقتسام النفوذ، واضطر إلى خلع نفسه وتنازل عن الحكم في (١٧ ربيع الآخر ٦٧٨هـ/ ٢٧ آب ١٢٧٩م)، وخلفه أخوه الملك العادل بدر الدين سلامش، وكان صغير السن لم يتجاوز السبعة أعوام[(١)].

وبرز، خلال النزاع الذي نشب بين الملك السعيد والأمراء، الأمير سيف الدين قلاوون الألفي، كمرشح بارز لتولي السلطة، وقد أدَّى دوراً مميزاً في الأحداث التي أدَّت إلى تنازل الملك السعيد عن العرش، فاختير أتابكاً لسلامش الذي لم يكن معه أي نفوذ سوى الاسم. وأخذ قلاوون يعمل على التمكين لنفسه وتمهيد الطريق للوثوب إلى الحكم مستغلاً صغر سن السلطان، وقد نجح في ذلك، فخلع سلامش، بعد ثلاثة أشهر من توليته، بوصفه صبياً لا يصلح للحكم، ونصَّب نفسه مكانه في (٢٠ رجب ٦٧٨هـ/ ٢٦ تشرين الثاني ١٢٧٩م)[(٢)].

معركة حمص

ظل العداء قائماً بين المماليك وبين مغول إيران، بعد وفاة السلطان الظاهر بيبرس، وقد استغلَّ أباقا الاضطرابات الداخلية التي سادت بلاد الشام ومصر على أثر وفاة بيبرس، وتنازع الأمراء على السلطة، وخروج الأمير سنقر الأشقر على حكم قلاوون، واعتقاده بأنه يؤازره على أثر المراسلات التي تبودلت بينهما، ويتفق معه على قتال السلطان الجديد؛ فأرسل قوة استطلاعية في (جمادى الأولى ٦٧٩هـ/ أيلول ١٢٨٠م) إلى شمالي بلاد الشام لسبر أغوار المماليك وجسِّ نبضهم، واستطاعت هذه القوة أن تحتل عينتاب وبغراس ودربساك وحلب التي ارتكب فيها أفرادها أعمالاً وحشية جرياً على عادتهم، فأحرقوا المساجد والمدارس ودار السلطنة ودور الأمراء[(٣)].

---

(١) المقريزي: جـ٢ ص١١٧ ـ ١١٩. النويري: جـ٣٠ ص٣٧٠، ٣٧٤، ٣٩٧. العيني: جـ٢ ص١٨٥ ـ ١٨٧.
(٢) المقريزي: جـ٢ ص١٢١، ١٢٢. النويري: جـ٣٠ ص٣٩٨، ٣٩٩. العيني: جـ٢ ص٢٢٣، ٢٢٤.
(٣) العيني: جـ٢ ص٢٥٤. المنصوري: ص٩٤، ٩٥. ابن حبيب، الحسن بن عمر: تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه: جـ١ ص٥٩.

وعندما علم قلاوون بذلك أرسل قوة عسكرية، بقيادة الأمير بدر الدين بكتاش النجمي، للتصدي لهم، وعسكر في حماة، وسيَّر طلائعه لاستقصاء أخبارهم، وأرسل في الوقت نفسه، يحثُّ الأمير سنقر الأشقر، وكان في صهيون[1]، على الانضمام إليه، فناشده باسم الدين، كما أرسل إليه الأمير عز الدين الأفرم الذي تمكَّن من إقناعه، واتفقا على محاربة المغول ودفعهم عن بلاد الشام[2].

ويبدو أن أباقا شعر بتكتل المماليك واتحاد كلمتهم وتصميمهم على قتاله، فانسحب من المنطقة[3]، لكن فكرة السيطرة على بلاد الشام، ظلَّت تراوده، وتواصلت استعداداته من أجل تحقيقها.

وعندما علم قلاوون باستعداداته، شرع يستعد هو الآخر. وظهرت حنكته السياسية، في الخطوة التي أقدم عليها، وهي فصل الصليبيين في بلاد الشام عن مغول إيران من خلال عقد المعاهدات مع عكا وطرابلس، كما عفا عن سنقر الأشقر وضمَّه إلى جانبه، وعيَّن ابنه الملك الصالح علاء الدين علي نائباً عنه في القاهرة ليدير شؤون الحكم طيلة مدة غيابه، فاطمئن بذلك على جبهته الداخلية والخارجية، وخرج من القاهرة في (أواخر عام ٦٧٩هـ/ أوائل عام ١٢٨١م) متوجهاً إلى بلاد الشام، وهو مطمئن[4].

وصل قلاوون إلى دمشق يوم السبت (٢٠ محرم ٦٨٠هـ/ ١١ أيار ١٢٨١م)، ودعا فيها إلى التعبئة العامة، فاجتمعت الحشود حوله، من تركمان وعربان وسائر الطوائف الأخرى، ثم سارت هذه القوات باتجاه حمص، وعسكرت في ظاهرها، واستدعى الأمير سنقر الأشقر ليوافيه بقواته، فامتثل للأمر[5].

وكان سكان دمشق قد خرجوا، بعد رحيل السلطان، إلى الصحاري

(١) صهيون: حصن حصين من أعمال سواحل بحر الشام من أعمال حمص، لكنه ليس بمشرف على البحر، وهو في طرف جبل. الحموي: ج٣ ص٤٣٦.
(٢) العيني: ج٢ ص٢٤٧. ابن تغري بردي: ج٧ ص٢٩٩.
(٣) ابن تغري بردي: المصدر نفسه. يذكر هذا المؤرخ سبباً آخر لرحيل المغول يتعلق بالحمية الدينية.
(٤) العيني: ج٢ ص٢٥٥.
(٥) النويري: ج٣١ ص٧٩. ابن كثير: ج١٣ ص٢٩٤، ٢٩٥. المقريزي: ج٢ ص١٤٥.

والمساجد يبتهلون إلى الله ﷻ، ويستمدون منه العون والنصر في خطوة روحية ضرورية لكسب الحرب[1].

وتوجَّه في (جمادى الآخرة ٦٨٠هـ/ أيلول ١٢٨١م) جيشان مغوليان إلى بلاد الشام. خرج الأول من إقليم الجزيرة وتعداده ثلاثة آلاف فارس بقيادة أباقا، وتولى أثناء زحفه إخضاع المدن والحصون الإسلامية على امتداد نهر الفرات، ومرَّ في طريقه بالرحبة ورابط هناك بهدف مراقبة التحركات المملوكية[2]. وخرج الجيش الثاني من كبادوكيا في آسيا الصغرى عن طريق عينتاب قاصداً حمص للاصطدام بالمماليك، وتعداده مائة ألف جندي بقيادة منكوتمر أخي أباقا، وضمَّ قوات المغول الرئيسية، وانضم إليه ليون الثالث، ملك أرمينيا الصغرى، وجموع مختلفة من الكرج والعجم وغيرهم، وهبط وادي العاصي بعد أن اجتاز عينتاب وحلب ووصل إلى ظاهر حمص[3].

واصطدم الجيشان ضحى يوم الخميس (١٤ رجب ٦٨٠هـ/ أول تشرين الثاني ١٢٨١م) بالقرب من مشهد خالد بظاهر حمص، في رحى معركة طاحنة «واقتتل الجنود من الطرفين قتالاً عظيماً لم يُرَ مثله من أعصار متطاولة»[4]. وأسفر القتال عن انتصار واضح للقوات المملوكية، وقُتل الكثير من الجنود المغول، وجُرح منكوتمر وتوفي بعد ذلك بقليل متأثراً بجروحه[5].

واجتاز المغول المنهزمون نهر الفرات الذي أضحى حداً فاصلاً بين الدولتين المغولية والمملوكية[6]، ولم يغامر قلاوون بمطاردة الأرمن وإنزال العقاب بهم، فعاد إلى دمشق ثم إلى القاهرة[7].

تُعدُّ معركة حمص إحدى المعارك الكبرى في تاريخ الشرق الأدنى ومصيره، إذ لو انعكست نتيجة المعركة لوقعت مصر في أيدي المغول، بل ربما كانت ميول أباقا النصرانية أثَّرت في مصير مصر وبلاد الشام.

(١) ابن كثير: ج١٣ ص٢٩٤، ٢٩٥.
(٢) المقريزي: ج٢ ص١٤٥.
(٣) ابن كثير: ج١٣ ص٢٩٤، ٢٩٥.
(٤) المصدر نفسه: ص٢٩٥.
(٥) المصدر نفسه. المقريزي: ج٢ ص١٤٦ ـ ١٤٩.
(٦) رنسيمان: ج٣ ص٦٦٢، ٦٦٣.
(٧) ابن تغري بردي: ج٧ ص٣٠٥، ٣٠٦.

العلاقة مع القبيلة الذهبية في القبجاق

استمرت العلاقة العدائية بين إيلخانية إيران ومغول القبيلة الذهبية في القبجاق، في عهد أباقا الذي انتهج سياسة والده تجاه هؤلاء، وقد زادها إثارة محاولته محو آثار الهزيمة التي تعرَّض لها عند نهر ترك أمام بركة في عهد والده.

كان بركة هو الأسرع في الهجوم، فقد انتهز وفاة هولاكو وأرسل جيشاً بقيادة نوغاي عَبَرَ دربند القوقاز وأغار على ولايتي أرّان وأذربيجان وتوغّل فيهما، وذلك في (صفر ٦٦٤هـ/ تشرين الثاني ١٢٦٥م). نهض أباقا لصدِّ هجوم جيش القبيلة الذهبية، فأرسل أخاه يشموت على رأس جيش كبير من أجل هذه الغاية، فعبر نهر كُرْ واصطدم به قرب نهر الرس وتغلّب عليه، وتقهقر نوغاي، مع من بقي من قواته، باتجاه شروان وقد فَقَدَ إحدى عينيه بعد أن أصيبت بسهم.

وعندما علم بركة بأنباء الخسارة، أصرَّ على الانتقام، فعبر الدربند على رأس جيش جرار بلغ تعداده ثلاثمائة ألف جندي وعسكر على الضفة الشمالية لنهر كُرْ، فأسرع أباقا لمواجهته، غير أنه تمهّل بالدخول في معركة معه عندما رأى كثرة عدد قواته، واكتفى بإقامة التحصينات على أطراف نهري الرس وكُرْ.

ويبدو أن بركة تعذَّر عليه عبور نهر كُرْ من مكان تمركزه، للاصطدام بالقوات المغولية الإيلخانية، وذلك بفعل التحصينات القوية التي أقامها أباقا على طول الضفة الجنوبية للنهر، واكتفى بالاستيلاء على أرّان والكرج، وتقدم حتى بلغ تفليس ليعبر النهر من هناك، غير أنه مرض في الطريق وتوفي وتفرَّق جنوده[1]. وهكذا انهارت مشاريعه التوسعية، واستطاع أباقا أن يلتقط أنفاسه بحرية.

وبفعل خوف السكان المقيمين في مناطق الحدود من هجمات مغول القبيلة الذهبية على مناطقهم، أقاموا سدّاً على النهر لمنع عبورهم، وعيَّنوا حراساً من المسلمين والمغول لمراقبة تحركاتهم. وعلى هذا النحو، ساد الهدوء مناطق الدربند الحدودية.

(١) الهمذاني: مجلد ٢ جـ٢ ص١٣، ١٤. D'ohsson: III p418. Howorth: vol II, part I, p123.

وتوقفت الحروب بين الدولتين في الوقت الذي اضطر فيه أباقا أن يخوض حرباً قاسية على الجبهتين الشرقية والجنوبية الغربية.

وتحسَّنت العلاقة بين أباقا ومنكو تيمور، الذي خلف بركة على العرش في عام (٦٦٥هـ/ ١٢٦٦ ـ ١٢٦٧م)، والذي شعر بعجزه عن انتهاج سياسة الحرب مع جيرانه، فساد السلام والاستقرار حدود البلدين، حتى أن منكو تيمور أرسل رسولاً إلى أباقا في عام (٦٦٩هـ/ ١٢٧٠ ـ ١٢٧١م)، وحمَّله أنواعاً من التحف والهدايا للإيلخان مع التهنئة بانتصاره على المغول الجغتائيين في بلاد ما وراء النهر[1].

تجدَّدت العلاقة العدائية بين الدولتين في أواخر عهد أباقا، ويبدو أن لذلك علاقة بالمدى الذي وصلت إليه علاقة مغول القبيلة الذهبية بالمماليك الذين راحوا يحرِّضونهم على حرب أباقا، فضلاً عن استمرار انتشار الإسلام بين هؤلاء المغول، وتأثير ذلك في ترجيح الميل إلى المسلمين، ما أدَّى إلى هذه الأحداث التي ذكرها رسل مغول القبيلة الذهبية أمام قلاوون في عام (٦٧٩هـ/ ١٢٨٠م)، وقد أفادوا بأن «أولاد أخي بركة خان طلعوا على التتر وأخذوا بيوتهم وكسروهم مرتين، وأنهم معهم في أتعس الأحوال»[2]، والراجح أن منكو تيمور استأنف الكفاح ضد أباقا، إلا أننا لا نملك معلومات عن غزو مباشر لإيران من قِبَله.

العلاقة مع المغول الجغتائيين في وسط آسيا

كان جنكيز خان قد منح المنطقة الوسطى من امبراطوريته إلى ابنه الثاني جغتاي، ولما آلت إلى أعقابه صار يُطلق عليها مملكة جغتاي، على الرغم من مشاركة أبناء أوكتاي لهم في حكمها، واستطاعوا الاحتفاظ بما تحت أيديهم أثناء الصراع الدامي على السلطة بين الأخوين قوبيلاي وأريق بوقا. ذلك أن الأول حاول فرض حُكام من قِبَله على أولوس جغتاي بهدف استغلالهم وكسب تأييدهم في صراعه مع أخيه، وليحول دون أطماع قايدو، حفيد أوكتاي، في حكم الخانية. وعلى هذا اختار قوبيلاي أبيشكا بن بوري زعيماً لأسرة جغتاي، في حين اختار أريق بوقا ألكو زعيماً لهذه الأسرة، وقد انقلب

(١) الهمذاني: م٢ جـ٢ ص٥٦.
(٢) اليونيني: جـ٢ ص٤٧٢.

عليه بعد ذلك وانشقَّ عنه ورفض طلبه بالمساعدة في حربه ضد قوبيلاي، ولم يكتفِ بذلك، بل انضمَّ إلى هذا الأخير، فحاربه أريق بوقا وانتصر عليه، ففرَّ إلى كاشغر ومنها إلى ختن، ثم سار إلى سمرقند واستقرَّ فيها.

وعندما توفي ألكو، في عام (٦٦٢هـ/ ١٢٦٤م)، عيَّن قوبيلاي مبارك شاه بن قرا هولاكو زعيماً لقبيلة جغتاي، ويظهر من اسمه أنه كان على الإسلام، غير أنه انقلب عليه بعد ذلك بفعل عقيدته الدينية الجديدة، فسلَّط عليه براق بن ييسون نوين مواتوكان بن جغتاي، فانتزع الإمارة منه[١].

والواقع أن العلاقة بين الجغتائيين الذين هدَّدوا الإيلخانيين من الشرق، وبين هؤلاء كانت عدائية، وأدَّت العوامل الجغرافية دوراً في تأجيجها، إذ كانت الأراضي الطبيعية لإيران محمية بسلاسل من الجبال العالية، جبال القوقاز، من الجهة الجنوبية الغربية، وجبال زاغروس، في الغرب والجنوب الغربي، وهضبة بامير، وجبال هندوكوش وامتداداتها في الشرق، ولم يكن هنالك من منطقة مفتوحة إلا المنطقة الشمالية الشرقية في بلاد ما وراء النهر. من هنا بدأت الأخطار الجديدة تظهر، وتهدِّد. وكان مغول القبيلة الذهبية قد عقدوا حلفاً مع الجغتائيين موجهاً ضد الإيلخانيين، ولكن أي هجوم مشترك لم يتحقَّق، وقد توقف القتال في القوقاز في الوقت الذي قرَّر فيه براق، خان تركستان وبلاد ما وراء النهر، أن ينتزع خراسان وأذربيجان من يد أباقا، ويضمها إلى أملاكه. واتبع في بادئ الأمر سياسة خادعة لتحقيق أهدافه؛ فأرسل إليه سفارة في عام (٦٦٦هـ/ ١٢٦٧ ـ ١٢٦٨م) برئاسة مسعود بك بن محمود يلواج، الحاكم الإداري لبلاد ما وراء النهر، هدفها الظاهري توطيد أواصر الصداقة بين الدولتين والاتفاق على بعض المسائل المالية، وأدخل مسعود بك في روعه بأن براق ينوي أن يضع المناطق التي يحكمها تحت حماية الإيلخان، أما هدفها الباطني فهو التجسس والوقوف على حقيقة استعدادات أباقا العسكرية والاطلاع على أوضاع البلاد، وجمع المعلومات عن الطرق والمعابر ما بين منطقتي ما وراء النهر وخراسان[٢].

استقبل أباقا، مسعود بك، بحفاوة وأعزَّه ورفع قدره، وأدَّى هذا السفير

(١) فامبري، أرمينيوس: تاريخ بخارى: ص١٩٠ ـ ١٩٢. القزاز، محمد صالح: الحياة السياسية في العراق في عهد السيطرة المغولية: ص٤٥٦، ٤٥٧.

(٢) فامبري: المرجع نفسه: ص١٩٤.

مهمته بإتقان وبراعة، وخدع أباقا حين أقنعه بإخلاص براق ووقوفه إلى جانبه. ويبدو أن بعض الأمراء المقرَّبين من الإيلخان شكُّوا في نواياه. وعندما وقف على ذلك، استأذن بالمغادرة على وجه السرعة، ثم سار مدة أربعة أيام بلياليها حتى بلغ ضفاف نهر جيحون، فعبره وقدَّم تقريراً عن مهمته إلى براق[١].

وبعد مضي يوم واحد على رحيل مسعود بك، عبر براق نهر جيحون وهاجم أراضي الإيلخان، وما لبث هذا أن اكتشف حقيقة هذه السفارة، فأمر بالقبض على مسعود بك، وأرسل بعض الجنود لتعقُّبه، غير أنه استطاع النجاة كما ألمحنا.

وحتى يقوِّي موقفه، عرض براق على أخيه تيكودار أوقول، الذي كان يعيش في بلاط أباقا، التعاون معه في مهاجمة أملاك هذا الأخير، فقبل العرض. وهكذا هاجم الأخوان أراضي أباقا، غير أن يقظته حالت دون تنفيذ خطتهما. فقد توجَّه بنفسه إلى أذربيجان، وأرسل أخاه يشموت إلى خراسان، كما أرسل الرسل إلى مختلف الجهات لجمع الجنود.

وترامت هذه الاستعدادات إلى مسامع تيكودار، فخشي على نفسه فتوقف في مقاطعة الكرج. وعهد أباقا إلى أحد قادته، ويدعى شيرامون بن جرماغون، بتعقُّبه والقضاء عليه، واستطاع هذا الانتصار على خصمه، فلاذ بالفرار، والتجأ إلى داود ملك الكرج، فرفض استقباله وتقديم الحماية له، فاضطر للعودة من حيث أتى، فلحق به شيرامون وقتل كثيراً من جنده وأسر جماعة منهم، وأجبره على الخضوع، وذلك في (ربيع الأول ٦٦٨هـ/ تشرين الثاني ١٢٦٩م)، وأرسله مع أسرته إلى أباقا، فعفا عنه، وأعدم الأمراء الستة المقربين منه، وفي رواية أنه سجنه في مكان على ساحل كيودان، ثم أُخرج من السجن بعد مرور سنة حين هُزم براق أمام أباقا[٢].

لم ييأس براق من التغلب على أباقا والاستيلاء على منطقة خراسان الغنية وضمِّها إلى أملاكه، فاستمال قايدو بن قاشي بن أوكتاي بعد أن تَمَّ الصلح بينهما، وطلب مساعدته، فأمدَّه بقوة من جنوده. وعبر براق نهر جيحون على رأس جيش كثيف، على مراكب، وعسكر عند مرو، وترك ابنه تيمور بك مع عشرة آلاف جندي للدفاع عن مملكته أثناء غيابه، واصطدم بالجيش الإيلخاني

(١) إقبال: ص٤٤٦. فامبري: ص١٩٢ ـ ١٩٥. (٢) الهمذاني: م٢ ج٢ ص٢٤، ٢٥.

عند هراة وباذغيس بقيادة يوجين، أخي أباقا. ويبدو أن الضغط العسكري كان شديداً عليه، فارتدَّ عن مواقعه، وطارده براق حتى أخرجه من خراسان واستولى عليها[١]، لكن خلافاً ما لبث أن دبَّ بين قواته، فانصرف عنه نصف الجيش، وكان ذلك إيذاناً بضعفه وتخاذله.

وأرسل براق إلى الملك شمس الدين كرت، صاحب هراة، يدعوه إلى الدخول في طاعته، ويخبره بأنه استولى على خراسان ويعتزم الزحف نحو أذربيجان والعراق، ووعده بمنحه منطقة خراسان إذا سانده بقواته، فوافق شمس الدين كرت، مضطراً، خشية من بطشه في الوقت الذي لم يكن يثق به، ولكن عندما سمع بأن أباقا يستعد للسير نحو خراسان، توقف عن الزحف واحتمى بقلعة خيسار في هراة، وراح يترقَّب نتيجة الصراع[٢].

وجهَّز أباقا جيشاً جراراً، وسار على رأسه في (رمضان ٦٦٨هـ/ نيسان ١٢٧٠م) قاصداً خراسان، واصطدم بخصمه في (ذي الحجة/ تموز) وتغلَّب عليه وكبَّده كثيراً من القتلى، وفرَّ براق عبر نهر جيحون بمشقة بالغة إلى منطقة ما وراء النهر، وقد أصيب إصابة شديدة إثر سقوطه عن فرسه، ودخل بخارى وهو في محنة، محطم القلب والجسد. وبهذا تخلَّص أباقا من عدو قوي الشكيمة، واسترد منطقة خراسان وولَّى عليها أخاه يشموت[٣].

وكانت نهاية براق مأساوية حقاً، فقد التجأ إلى قايدو وقد أصيب بالشلل، واعتنق الإسلام وتلقَّب بغياث الدين، وتوفي مسموماً بأمر من حاميه قايدو، الذي خلفه في حكم تركستان وبلاد ما وراء النهر[٤].

تجدَّدت الحرب بين الإيلخانيين والجغتائيين في عام (٦٧١هـ/ ١٢٧٢م)، وقد أثارها الوزير شمس الدين الجويني الذي كان قد تعرَّض للإهانة من جانب مسعود بك، مبعوث براق إلى أباقا، فراح يغتنم الفرصة للانتقام[٥]. فحرَّض أباقا على مهاجمة بخارى. وتجري روايات المصادر أن أبناء براق خطَّطوا لمهاجمة أراضي الإيلخانية انتقاماً، وانطلاقاً من هذه المدينة، فأقنع آق بك التركماني، حاكم قلعة آمويه الواقعة على نهر جيحون، أباقا بمهاجمتها وتدميرها.

---

(١) Howorth: III p234. D'ohsson: III p440.

(٢) إقبال: ص٥١٠.

(٣) ميرخواند: روضة الصفا: جه ص٣١٠.

(٤) المصدر نفسه.

(٥) D'ohsson: III p423.

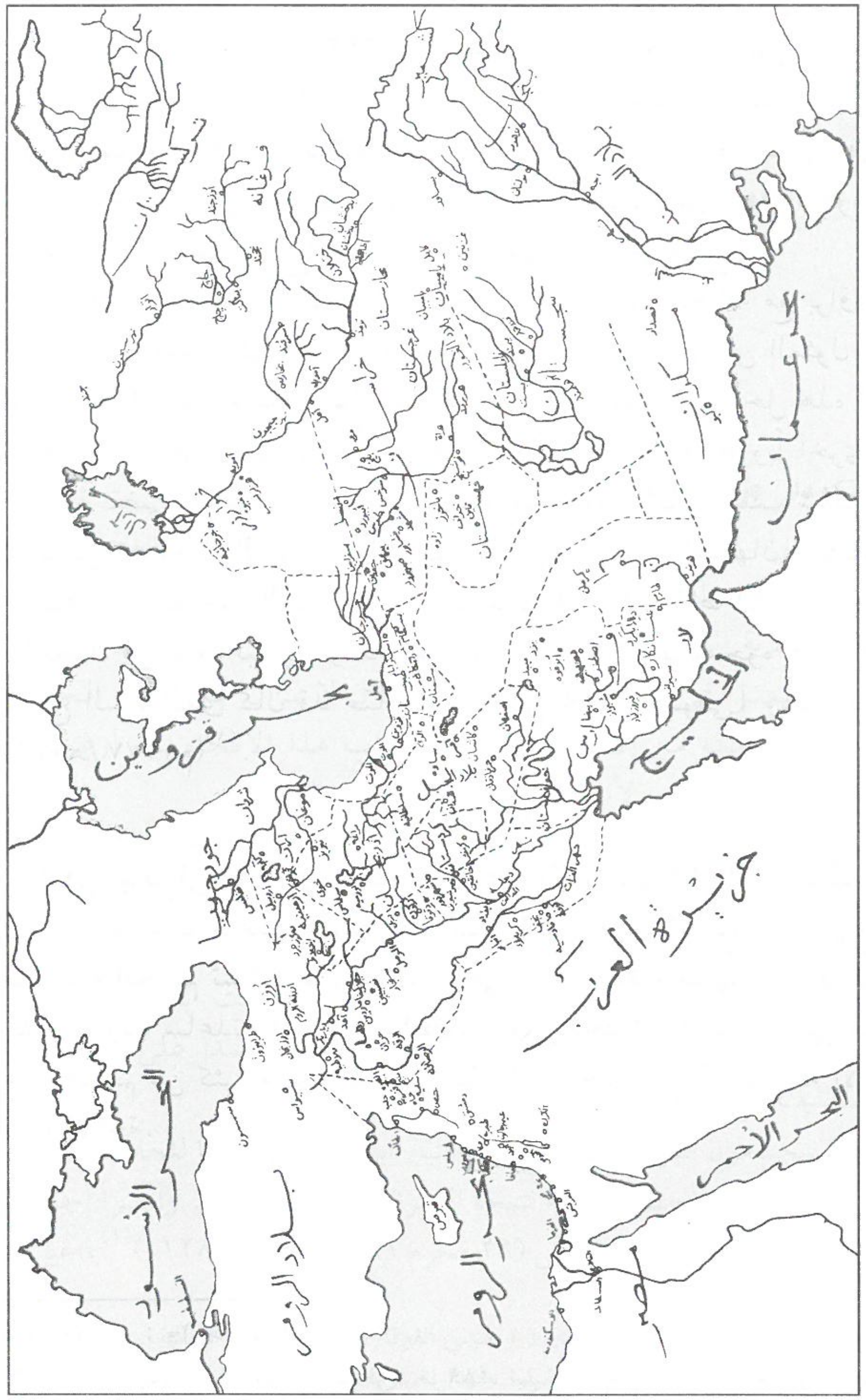

دولة الإيلخانيين والممالك المجاورة لها

عن فؤاد عبد المعطي الصياد: الشرق الإسلامي في عهد الإيلخانيين ص٥٥٥

وهكذا تعرَّضت المدينة لغزوة مدمرة من جانب أباقا في (أول رجب ٦٧١هـ/ ٢٢ كانون الثاني ١٢٧٣م)، وغادرها المهاجمون وهي خاوية على عروشها، غير أنها ما لبثت أن انتعشت بفضل سواعد من سلم من سكانها، ولكن لمدة لا تتجاوز ثلاثة أعوام، حيث تعرَّضت مرة أخرى، في عام (٦٧٤هـ/ ١٢٧٥م)، لغزوة مدمرة، وأشعل المهاجمون النار فيها وتركوها قاعاً صفصفاً، ولم تنهض من كبوتها إلا بعد مرور سبعة أعوام.

وتعرَّض شمس الدين كرت آنذاك لغضب أباقا بسبب تحالفه مع براق، ولما استدعاه ليحاسبه على أعماله امتنع عن تلبية الدعوة، ورفض المثول أمامه، فقرَّر أباقا القبض عليه، ولما أقدم على إرسال جيش، من أجل هذه الغاية، نصحه أركان حربه بأن خراسان أضحت خربة، ولا تتحمَّل حروباً أخرى، وأن الحكمة تقضي بإحضاره بالحسنى والمداراة، فوافق أباقا، وكلَّف شمس الدين الجويني، صاحب الديوان، وابنه بهاء الدين، صاحب أصفهان، القيام بهذه المهمة، وقد نجحت المحاولة، وحضر ملك هراة إلى بلاط الإيلخان، فسجنه الإيلخان في قلعة تبريز. ولما أيقن بأن المغول لن يسامحوه على أفعاله، تجرَّع السم الذي كان قد عبَّأه تحت فص خاتمه وتوفي، وذلك في عام (٦٧٦هـ/ ١٢٧٧م)[1].

وفاة أباقا

توفي أباقا في (٢٠ ذي الحجة ٦٨٠هـ/أول نيسان ١٢٨٢م) بسبب إفراطه في الشراب وحزنه على هزيمة أخيه منكو تيمور في بلاد الشام[2]. وقد تولى مسؤولية الحكم ثمانية عشر عاماً، وهي أطول مدة حكمها إيلخان في هذه الدولة، وقد ساعدته هذه المدة الطويلة على تحقيق الاستقرار إلى حد ما، على الرغم من كثرة مشكلاته الداخلية والخارجية التي لم تدع له إلا فرصاً قليلة للراحة.

---

(١) الهمذاني: م٢ جـ٢ ص٦٧ ـ ٦٩.

(٢) المصدر نفسه: ص٨٥. ابن الفوطي: ص٢٨٩. ابن كثير: جـ١٣ ص٢٩٧. شبولر: تاريخ مغول در إيران: ص٨٢.

الفصل السّابع

أحمد تكودار بن هولاكو ـ أرغون بن أباقا
كيغاتو بن أباقا ـ بايدو بن طرغاي

أحمد تكودار
(٦٨١ ـ ٦٨٣هـ/ ١٢٨٢ ـ ١٢٨٤م)

اعتلاء تكودار عرش الإيلخانية

اجتمع أمراء المغول في ألاتاغ[1]، بعد وفاة أباقا، لاختيار إيلخان جديد في ظل تيارات متعارضة وانقسامات حادة. والواقع أنه برزت ثلاثة اتجاهات فيما يتعلق بولاية العرش بعد أباقا:

الأول: يتمثل في أباقا نفسه، عندما كان لا يزال على قيد الحياة، والمؤيدين لسياسته من الأمراء، ويرى أصحاب هذا الاتجاه بأن أرغون بن أباقا هو الوريث الشرعي لأبيه.

الثاني: يتمثل في طائفة من كبار الأمراء، وهم يرون بضرورة التمسك بنصوص الياسا التي تمنح أكبر أفراد الأسرة الحق في تولي العرش، وينطبق ذلك على الأمير تكودار أكبر أبناء هولاكو في ذلك الوقت.

الثالث: تمثله أولغاي خاتون ـ زوجة أباقا ـ وقد رشَّحت ابنها منكو تيمور لمنصب الإيلخانية، غير أن هذا الأمير سرعان ما توفي كمداً على أثر هزيمته أمام المماليك في معركة حمص.

ورأى المجتمعون ضرورة الإسراع في اختيار إيلخان جديد منعاً للخلاف، وحتى لا يتطرق الخلل إلى أجهزة الدولة نتيجة الصراع على المنصب. وأخيراً أجمعوا على اختيار تكودار إيلخاناً وذلك في (٢٦ محرم ٦٨١هـ/ ٦ أيار ١٢٨٢م)[2]، غير أن

---

(١) ألاتاغ: مدينة تقع في شمال أذربيجان وجنوبي القوقاز وشرقي أرمينيا الحالية، بها مراعٍ كثيرة جيدة ومياه غزيرة وأماكن عديدة للصيد، ولهذا اختارها المغول الإيلخانيون مصيفاً لهم.

(٢) الهمذاني: م٢ جـ٢ ص٩١. ابن حبيب: جـ١ ص٧٢.

هذا الاختيار لم يُرضِ أرغون بن أباقا الذي رأى أنه أحق من عمه بالسلطة ما أدّى إلى تحول المعارضة إلى عداء سافر ومواجهة عسكرية.

وشرع تكودار، بعد انتخابه، في توزيع الإقطاعات وحكومات الولايات. فعهد بحكومة خراسان ومازندران والعراق العجمي وأرّان وأذربيجان إلى شمس الدين محمد الجويني، وكلّفه، بالاشتراك مع سلاطين السلاجقة، في حكم بلاد الروم، وولّى ابنه هارون على ديار بكر والموصل وإربل، وأقرّ عطا ملك الجويني على حكم العراق وبغداد[1].

بداية التحول الديني نحو الإسلام عند الإيلخانيين

تعرَّض المسلمون في عهد هولاكو للاضطهاد وبخاصة بعد سقوط بغداد، غير أنهم استعادوا اعتبارهم في عهد ابنه تكودار حيث استطاع دعاتهم أن يجتذبوا المغول إلى الدين الإسلامي، ويحملونهم على اعتناقه.

والواقع أن إيلخانية إيران كانت تضم أقاليم وممالك إسلامية باستثناء أرمينيا والكرج، ولذلك كان معظم سكانها يدينون بالإسلام. وبعد أن هدأت موجة الاحتلال في هذه الإيلخانية، بدأت الصلات التي تربط الإيلخانات بالخانات العظام في قراقورم، تنفصم وتتلاشى تدريجياً. وأخذ مغول إيران يرتبطون بهذه البلاد التي توارثوا حكمها، وأقاموا فيها، وأضحوا جزءاً من شعوبها، وكان لذلك أثره الكبير في تشرُّب هؤلاء الثقافة والحضارة الإسلامية السائدة في إيران، وانتهى بهم الأمر إلى اعتناق الإسلام[2]، وظهر ذلك واضحاً عندما اعتنق تكودار الدين الإسلامي، فهو أول إيلخان مسلم حكم الإيلخانية وتسمى باسم أحمد تكودار أو أحمد سلطان[3].

كان أحمد تكودار يريد الخير لنفسه ولأهله ولقومه من المغول حتى لا ينفر منهم المسلمون في إيران وغيرها من البلاد الإسلامية، لذلك أسرع، فور اعتلائه العرش إلى اتخاذ كافة الإجراءات التي تُثبت صدق إسلامه، من ذلك،

(١) الصياد: ص١٢٤.

(٢) عبد الحليم، محمد رجب: انتشار الإسلام بين المغول: ص١٧٧.

(٣) المنصوري: ص١٠٧. ابن حبيب: جـ١ ص٧٢. يُذكر أن الإيلخان تكودار اعتنق الإسلام وهو صبي، بتأثير شيخ صوفي يدعى كمال الدين عبد الرحمٰن الرافعي. انظر: ابن الفوطي: ص٢٩٨.

أنه أرسل رسالة إلى العلماء في بغداد يُعلن فيها نفسه حامياً للدين الإسلامي، وتابعاً للرسول ﷺ، وأمر ببناء المساجد وإقامة الشعائر الدينية كما كانت عليه زمن الخلفاء. واعترف بأن النصر دائماً للإسلام، وأن رسالة محمد حق، وأن هناك إلهاً واحداً، وأمر بأن يصرف ريع الأوقاف في مصارفه الأصلية. كما اتخذ الترتيبات اللازمة لرعاية قوافل الحج إلى مكة، وأرسل المؤن إلى أهلها، كما كان يقضي جزءاً من يومه مع المشايخ والفقهاء يستمع لدروسهم[1]. وعيَّن الشيخ كمال الدين عبد الرحمٰن الرافعي شيخاً للإسلام، وكان يثق به، وولّاه الإشراف العام على الأوقاف في البلاد كلها، وأمر بأن تصرف جميع أموال الأوقاف حسب شروط الواقفين[2].

وحاول أحمد تكودار جاهداً أن يُحوِّل كافة المغول إلى الإسلام عن طريق الإغراء، فراح يبذل العطايا والمنح وألقاب الشرف، فدخل عدد كبير منهم في الإسلام.

العلاقة مع المماليك بعد التحول الديني

نتيجة لتولي أحمد تكودار عرش الإيلخانيين، مالت سياسة هؤلاء باتجاه السلم والوفاق ونبذ الحرب، والعمل على إزالة سوء التفاهم بينهم وبين المماليك، وتوطيد العلاقات وإحكام الروابط بينهما، فأرسل وفداً إلى السلطان المملوكي قلاوون في (جمادى الآخرة ٦٨١هـ/أيلول ١٢٨٢م) برئاسة شيخ الإسلام كمال الدين عبد الرحمٰن الرافعي وعضوية كل من العلّامة قطب الدين الشيرازي، قاضي مدينة سيواس، وبهاء الدين، أتابك مسعود الثاني سلطان سلاجقة الروم، وحمَّله رسالة إلى السلطان المملوكي تتضمن إعلامه باعتناقه الإسلام، وشرح فيها أهدافه السياسية وجهوده الآيلة إلى إحياء الشريعة الإسلامية في المجتمع المغولي بخاصة والعالم الإسلامي بعامة، ورغبته في أن يظل بسلام مع جيرانه المسلمين، والعمل على توحيد كلمتهم، وأنه عارض قرار القوريلتاي بشأن تسيير حملة إلى بلاد الشام، وهي الحملة التي كان قد تقرَّر القيام بها في عهد أخيه أباقا للثأر من المماليك. وانطلاقاً من إسلامه، فإنه وضع الحراس على الطرق كي يستطيع التجار أن يتنقَّلوا

(١) ابن تغري بردي: جـ٧ ص٣١٠. Howorth: III pp288, 289.

(٢) تاريخ وصاف: ص١١٠.

بحرية تامة بين البلدين، كما أخبره بأنه قبض على جاسوس مملوكي ولم يقتله، بل أعاده سالماً، كدليل على الأخوَّة والمحبة، لأنه، بعد الاتفاق واجتماع الكلمة، لا حاجة إلى الجواسيس ولا إلى غيرهم. وتوقَّع بالمقابل أن يرسل السلطان قلاوون وفداً إلى تبريز حتى تزول أسباب العداوة والبغضاء المتأصلة بين المغول والمماليك(١).

تُعدُّ هذه الرسالة وثيقة تاريخية بالغة الأهمية، تُبيِّن مدى عمق إيمان هذا السلطان المغولي وصدق إسلامه، وتدل على مدى التحول العميق في صورة المغولي المتوحش والمتعطش لسفك الدماء إلى صورة أخرى مغايرة، تتسم بالعواطف الإنسانية وحب الخير والرغبة الصادقة في تقوية دعائم الإسلام ونشره بين المغول الوثنيين، وجمع كلمة المسلمين في الشرق الأدنى(٢).

ردَّ قلاوون على الإيلخان برسالة مؤرخة في (رمضان ٦٨١هـ/ كانون الأول ١٢٨٢م) رحَّب فيها بدخول الإيلخان أحمد تكودار في الإسلام، وأثنى على جهوده التي يبذلها في تطبيق أحكام الشريعة، وأعرب عن استعداده للتعاون معه في خدمة الإسلام والمسلمين، وتيسير سبل التجارة وحماية التجار(٣)، إلا أنه وقف عند هذا الحد. ويبدو أن المفاوضات من أجل عقد معاهدة صلح وتحالف بين الطرفين، قد تعثَّرت لأن المماليك لم يبتهجوا لهذا التطور الذي عدُّوه سابقاً لأوانه، كما أنهم علموا أن رجال الطبقة الحاكمة والمتنفذة في دولة المغول الإيلخانيين ليسوا متحمسين للاقتداء بإيلخانهم، وأن الأمير أرغون بن أباقا كان يطالب بالعرش ويتمتع بدعم وتأييد الجماعات البوذية المتطرفة، وأن الإيلخان تعرَّض لانتقادات شديدة.

الواضح أن هذا السلوك المملوكي المتَّسم باللامبالاة من جانب السلطان قلاوون، حَكَمَ على السياسة الخارجية للسلطان أحمد تكودار بالفشل، وأدَّى حذر المماليك من حكم الإيلخان أحمد غير المستقر إلى عدم التعاون المثمر بين الدولتين، لكن ساد الهدوء جبهات القتال بينهما، ولم يذكر المؤرخون حصول أي صدام في عهده.

(١) انظر نص الرسالة عند: القلقشندي: جـ٨ ص٦٦ ـ ٦٩. النويري: جـ٣٠ ص٨٩، ٩٠. ابن العبري: ص٣٤٤، ٣٤٥. ابن الفوطي: ص٢٩٤، ٢٩٥.

(٢) عبد الحليم: ص١٨٢.

(٣) انظر رد السلطان قلاوون عند القلقشندي: جـ٧ ص٢٥٧ ـ ٢٦٢.

الصراع بين أحمد تكودار وأرغون، ومقتل الأول

كانت العلاقة بين أحمد تكودار وأرغون متوترة أصلاً منذ وفاة أباقا واعتلاء الأول العرش الإيلخاني، وأن العوامل التي أدَّت إلى هذا التوتر تكمن فيما يلي:

- كان أرغون يطمع في استرداد عرش والده الذي حرمه منه عمه أحمد تكودار عندما أسرع باعتلاء العرش من دون أن ينتظر حضوره، والمعروف أن أرغون كان آنذاك خارج تبريز(١).
- أن العلاقة بين الرجلين كانت بطبيعتها سيئة بسبب الإجراءات التي كان أحمد تكودار قد اتخذها ضد أرغون لتعسُّفه وظلمه الذي أوقعه على سكان خراسان الذين كان أميراً عليهم، واعتدائه بالقتل على وجيه الدين زنكي بن عز الدين طاهر الذي كان يشرف على الشؤون المالية والإدارية في منطقة خراسان، واستيلائه على الأموال العامة(٢).
- كان أرغون يتآمر سراً مع أخي أحمد تكودار المدعو قونغرتاي لقتله والاستيلاء على السلطة، ولما فشا خبر هذه المؤامرة أمر أحمد بقتل أخيه ما أثار حفيظة أولاده وجعلهم يُصمِّمون على الثأر لأبيهم، كما أثار أرغون، فصمَّم هو الآخر على الثأر لعمه، ولهذا اشتدت كراهيته له، وأشاع بأن أحمد تكودار خرج على قوانين أجداده(٣).
- أثارت هذه الموجة العدائية لأحمد تكودار حفيظة الأمراء الموالين للنصارى، فاتهموه باضطهادهم، وشكوه إلى الخان الأعظم قوبيلاي، كما اتهموه بمخالفة سنن أجداده، سواء باعتناقه الإسلام وعدم تطبيق قانون الياسا أو باضطهاد النصارى.

وأضحى أحمد تكودار الرجل الخارج على نظم المغول وتقاليدهم، وأرغون المحافظ على رسوم المغول، وآدابهم، ولا بد من أن يزول أحدهما ليبقى الآخر، ويفرض سياسته وتعاليمه على رعايا الدولة الإيلخانية.

وحرص أرغون قبل أن يخوض معركته مع أحمد تكودار على تكتيل الأمراء والقادة حوله بإغداق المال والهدايا عليهم، وفي المقابل سعى الإيلخان إلى

(١) الهمذاني: م٢ جـ٢ ص٩٠ ـ ٩٣، ١٠٠ ـ ١٠٢.

(٢) ابن الفوطي: ص٣٠٠. ميرخواند: جـ٥ ص٣٣٤، ٣٣٥.

(٣) ابن العبري: ص٣٤٦.

منع حصول ذلك حتى لا يقوى ساعد خصمه، واستعد كل منهما لخوض المعركة التي لا بدَّ منها لتقرير مصيره[١].

وحشد أحمد تكودار جيشاً جراراً بلغ أكثر من مائة ألف جندي من خيرة المغول والمسلمين والأرمن والكرج[٢]. وكان الخواجه شمس الدين محمد الجويني في طليعة الأشخاص الذين يحرصون على انتصار الإيلخان على خصمه نظراً لارتباط مصيره بهذا الانتصار بفعل العداء المستحكم بينه وبين أرغون وأتباعه، لذلك لم يدَّخر وسعاً في بذل النصح له وإعداد جيوشه إعداداً تاماً[٣]. ومن جهته استعدَّ أرغون استعداداً كافياً على الرغم من تفوُّق خصمه في العدة والعدد.

وأرسل أحمد قائد جيشه علي ناق ـ اليناق ـ على رأس خمسة عشر ألف جندي للاقتصاص من أرغون والقبض عليه، وعندما وصل إلى الري وقزوين، وهما من الأماكن التي تدخل ضمن دائرة نفوذه، شرع جنده في الإغارة على تلك الأماكن، فأسرع أرغون للتصدي له. وجرت بين الطرفين رحى معركة ضارية عند قرية آق خواجه من نواحي قزوين، يوم الخميس (١٦ صفر ٦٨٣هـ/ ٤ أيار ١٢٨٤م)، دارت الدائرة فيها على أرغون، ففرَّ من أرض المعركة في جو الهزيمة القاتم، إلى بسطام، فتعقَّبه علي ناق وجنوده، فأغاروا على النواحي العامرة بين قزوين ودامغان[٤].

ويبدو أن علي ناق اغترَّ بانتصاره على الرغم من أنه لم يحقق هدفه بالقبض على أرغون، فأهمل احتياطات الدفاع والسلامة العامة وانهمك في الطعام والشراب والسكر، ما أعطى خصمه فرصة طيبة لمفاجأته، ففرَّ مع أتباعه عائداً إلى أذربيجان[٥]. وأُخبر أحمد تكودار بذلك الخبر السيء، فحشد هذا جيشاً جراراً بلغ تعداده مائة وعشرين ألف جندي وخرج على رأسه قاصداً خراسان للقضاء على خصمه، وعندما علم أرغون بذلك فرَّ إلى قلعة كلات[٦] واحتمى

(١) شبولر: ص٨٤، ٨٥. (٢) ابن العبري: ص٣٤٧.
(٣) إقبال: ص٤٥١.
(٤) الهمذاني: م٢ ج٢ ص١٠٥. المستوفي، حمد الله القزويني: نزهة القلوب: ص١٧٣.
(٥) ابن الفوطي: ص٣٠٠، ٣٠١.
(٦) كلات: قلعة على جبل فسيح قريب من طوس في خراسان، ليس لها طريق إلا من جهة واحدة، ولا سور عليها.

بها، وتفرَّق عنه معظم أتباعه والتحقوا بالإيلخان[١]، فعند ذلك راسله الإيلخان يدعوه إلى طاعته ووعده بتعيينه حاكماً على خراسان، فاستسلم. ونصح علي ناق الإيلخان بالإجهاز عليه، فرفض بحجة أنه، أي أرغون، لا يملك جنداً ولا مالاً، فماذا عساه أن يفعل[٢]، فكان هذ الرفض خطأ فادحاً دفع الإيلخان حياته ثمناً له.

وحدث في غضون ذلك أن غادر أحمد تكودار خراسان وترك مهمة حراسة أرغون لعلي ناق والقائد بوقا، وحاك هذا الأخير مؤامرة مع بعض الأمراء لعزل أحمد تكودار وتنصيب أرغون مكانه بحجة أنه يعمل على توطيد دعائم الإسلام بتأثير من صاحب الديوان، ويُقوِّض أسس الدولة المغولية التي أسسها جنكيز خان ويقضي عليها، فأقام حفلاً كبيراً للهو والشراب، وقدَّم مزيداً من الشراب لعلي ناق ومعاونيه فثملوا وغابوا عن الوعي، فقتلهم وحرَّر أرغون، وذلك في (١٨ ربيع الآخر ٦٨٣هـ/ ٤ تموز ١٢٨٤م)، وبهذا «أضحى أرغون الذي كان محبوساً في الليل ملكاً للعالم في الصباح»[٣].

وعندما أُبلغ أحمد تكودار بهذه الأنباء، أُسقط في يده، وفرَّ هائماً على وجهه قاصداً أذربيجان وهو ينوي الالتجاء إلى بركة خان القبجاق، فتعقبه جنود أرغون وقبضوا عليه، وحملوه إلى أرغون، فسلَّمه إلى أبناء قونغرتاي للأخذ بثأر أبيهم، فقبضوا عليه، وذلك يوم الخميس (٢٦ جمادى الأولى ٦٨٣هـ/ ١٠ آب ١٢٨٤م)[٤].

وعلى هذا الشكل لقي أحمد تكودار مصيره غير المتوقع، والواضح أن نهايته كانت نتيجة أخطاء ارتكبها، بالإضافة إلى عدم استغلاله الفرص التي أتيحت له للتخلص من خصمه فعاجله هذا وقضى عليه.

(١) ابن الفوطي: ص٣٠١. (٢) الهمذاني: م٢ ج٢ ص١١٢.
(٣) الهمذاني: م٢ ج٢ ص١١٦. ابن العبري: ص٣٤٨. ابن الفوطي: ص٣٠١.
(٤) ابن الفوطي: ص٣٠١.

أرغـــون بـــن أبـــاقـــا

(٦٨٣ - ٦٩٠هـ/ ١٢٨٤ - ١٢٩١م)

الأوضاع الداخلية

اعتلاء أرغون عرش الإيلخانية

على أثر هزيمة الإيلخان أحمد تكودار والقضاء عليه، اجتمع جماعة المتآمرين، وفي مقدمتهم طغاجار وبوقا وأولغاي خاتون، في آب شور، الواقعة في هشت رود بأذربيجان، واتفقوا على تولية أرغون عرش المغول في إيران، وعقدوا جلسة للقوريلتاي يوم الجمعة (٢٧ جمادى الأولى/ ١١ آب) لانتخابه رسمياً، وقد أخذ هولاجو بن هولاكو خان بيده اليمنى، وأخذ أينارجي بيده اليسرى، وأجلساه على العرش[١].

والواقع أن الأمير هولاجو كان أحق بالعرش من أرغون بوصفه أكبر الأبناء من أسرة هولاكو خان، كما تقضي بذلك تعاليم الياسا، غير أن أرغون خالف أحكام الياسا واعتلى العرش بالقوة المسلحة، وكان يعدُّ ذلك ميراثه الشرعي وحقاً له بعد وفاة أبيه أباقا خان[٢].

شرع أرغون بعد اعتلائه العرش، في توزيع الإقطاعات وحكومات الولايات. فأصدر فرماناً دعا فيه الناس إلى المسالمة وأمَّنهم على حياتهم، ومنع التعرض للفارين من أتباع الإيلخان السابق أحمد تكودار، وفي مقدمتهم صاحب الديوان شمس الدين محمد الجويني، وولّى الأمير بايدو، حفيد هولاكو خان، حكم بغداد، وعهد بحكومة بلاد الروم إلى الأمير هولاجو والأمير كيغاتو، وولّى ابنه غازان إدارة خراسان ومناطق الري ومازندران

---

(١) الهمذاني: م٢ ج٢ ص١٢٦. (٢) شبولر: ص٨٦.

وقومس، وعيَّن الأمير نوروز بن أرغون آقا، الحاكم من قبل المغول على إيران، نائباً له، وكرَّم الأمير بوقا ورفع قدره بسبب مواقفه السابقة في تأييده ضد عدوه أحمد تكودار، فقلَّده منصب الوزارة[١].

نكبة آل الجويني

عندما استقر أرغون في الملك، هرب شمس الدين محمد الجويني إلى قم، ثم فكَّر بالرحيل إلى شيراز وهرمز تمهيداً للذهاب إلى الهند، حيث يقضي بقية حياته، ولكنه عدل عن هذه الفكرة خشية أن يثير غضب أرغون فيصبُّ جام غضبه على أفراد أسرته، ويستأصل شأفتهم، وقرَّر الالتجاء إلى صديقه القديم بوقا للتوسط له لدى أرغون.

وحدث أن لحق به إمام الدين القزويني، موفداً من قبل أرغون، لتفقُّد أحواله، فرأى في ذلك أملاً في العفو عنه. فذهب إلى ساوة، فاستقبله أحد أمراء أرغون موفداً من قبله فطمأنه وأمَّنه على حياته وأبلغه بعفو الإيلخان عنه، فذهب عندئذ إلى تبريز في (رجب ٦٨٣هـ/ أيلول ١٢٨٤م) ونزل ضيفاً عند صديقه بوقا، فاصطحبه في اليوم التالي إلى بلاط الإيلخان ليؤدي له فروض الولاء والطاعة، غير أن أرغون لم يأبه به كثيراً، كما أنه لم يُبدِ غضباً عليه، ولم يزاول عملاً خلال ذلك سوى النيابة عن بوقا، آملاً بأن يقضي بقية حياته في أمان بعيداً عن صخب الملك وكيد الحاسدين، لكن سرعان ما دبَّ الخلاف بينه وبين حاميه بوقا نتيجة الوشاية، فاتهمه عند أرغون بأنه جرَّع والده أباقا السم، فأمر الإيلخان بمحاكمته، وأُلصقت به تهم كثيرة، ولم ينفعه دفاعه عن نفسه، فقُتل على باب مدينة أهر بأذربيجان بعد صلاة عصر يوم الاثنين (٤ شعبان/ ١٦ تشرين الأول)، وأرسل قبل مقتلة إلى بوقا يحذِّره «... فإنهم اليوم يقتلونني، وسرعان ما يقتلونك أنت أيضاً، فتأكد من ذلك»[٢].

وعلى هذا الشكل كانت نهاية هذا الرجل الكبير الذي خدم المغول ووزر لهم على مدى تسعة وعشرين عاماً، وكان الوزير الأعظم والشخص الأول في المملكة.

---

(١) الهمذاني: ص١٢٨. إقبال: ص٤٥٢. الصياد: ص١٥٢، ١٥٣.

(٢) الهمذاني: م٢ ج٢ ص١٣٠، ١٣١. ابن العبري: ص٣٤٩. وهو يجعل مقتله يوم الثلاثاء ٥ شعبان.

كان مقتل شمس الدين محمد الجويني إيذاناً بملاحقة أفراد أسرته والتخلص منهم، فقتل أولاده، يحيى وفرج الله ومسعود وأتابك وهارون، كما قتل حفيده علي بهاء الدين، وأُصيب أخوه بعلة الصرع، ومات متأثراً بها عندما سمع بتلك الكوارث التي حلَّت بأفراد أسرته، وقُتل أخ له يدعى نوروز(١).

لا شك بأن قتل هذه الصفوة المختارة من الجوينيين كان نذيراً بانحطاط السياسة الداخلية في دولة المغول الإيلخانيين، وبخاصة في المسائل المتعلقة بالشؤون المالية، لأن معظم من تولى الإدارة المالية كانت تنقصهم الكفاءة والخبرة والإخلاص والنزاهة(٢).

التخلص من بوقا

فوَّض أرغون بوقا القيام بأعمال الإمارة والوزارة اعترافاً بجهوده التي قضت على الإيلخان أحمد تكودار وأتاحت له اعتلاء عرش الإيلخانيين، وأمر بمنع محاكمته إلا من الإيلخان نفسه.

وأخذ بوقا يتصرف في شؤون الدولة كما يشاء من دون رقيب ولا حسيب، وازداد نفوذه يوماً بعد يوم إلى حد أن أوامر الإيلخان لم تكن تُنفَّذ إذا لم تُختم بخاتمة الأحمر، وعظمت سطوته حين منحه الخان الأعظم قوبيلاي لقب الأمير الكبير، تقديراً لجهوده في خلع الإيلخان أحمد تكودار والقضاء على حركة انتشار الإسلام بين المغول، والتي باتت تُهدِّد الكيان المغولي، كحكم وثني، بالزوال. ووصل نفوذه إلى الذروة بعد مقتل منافسه شمس الدين محمد الجويني، وقد دفعه غروره إلى تجاوز حدِّه، فراح ينظر إلى حاشية أرغون وأعوانه بعين الازدراء والاحتقار، ما ألَّب عليه هؤلاء، فعملوا على الإيقاع به.

وهكذا تعرَّض بوقا لحملات عدائية من جانب ثلاث شخصيات هامة في الدولة الإيلخانية بعد أن مسَّ مصالحها وامتيازاتها وهي: طغان بن طراغاي، شحنة قهستان، صدر الدين أحمد الزنجاني، نائب طغاجار في حكم إقليم فارس والطبيب اليهودي سعد الدولة(٣)، وكان في عداد الأطباء الذين يشرفون على علاج أفراد الأسرة الحاكمة في عهد أرغون.

وسمت منزلة سعد الدولة بعد أن أشرف على علاج الإيلخان. وكان أرغون

(١) الهمذاني: م٢ ج٢ ص١٥٠. ابن الفوطي: ص٣١٥.
(٢) شبولر: ص٨٨. (٣) اسمه العبري: مردخاي.

شرهاً جداً في الحصول على الأموال والنفائس، شديد الميل إلى تكديسها، فأسرَّ له يوماً، بأسلوب مؤثِّر، قضية إسراف النواب والكتَّاب في كل أنحاء البلاد، لا سيما في ولاية بغداد، وأوحى له بأن بوقا وأقاربه يستولون على أموال الدولة ولا يتركون شيئاً منها يصل إلى الخزانة العامة(١).

أثَّرت هذه الحملات العدائية سلباً على أوضاع بوقا السياسية من واقع إقدام أرغون على اتخاذ إجراءات عدة، مالية وإدارية ضده، نذكر منها:

- أرسل سعد الدولة إلى بغداد في أواخر عام (٦٨٦هـ/ ١٢٨٧م) لتقويم الأعمال المالية وتحصيل المتأخرات، فجمع الأموال الطائلة في مدة وجيزة من خلال تحصيل باقي أموال العام السابق وخراج العام الجديد، فقدَّر أرغون جهوده وخلع عليه، وتأكد من أن أروق، أخا بوقا، المسؤول المالي في بغداد، كان يستولي على هذه المبالغ لنفسه، فما كان منه إلا أن عزله وعيَّن سعد الدولة مسؤولاً عن إحصاء الدخل والخرج في بغداد(٢).

- كانت الاتهامات التي وجِّهت إلى أروق، موجَّهة أيضاً إلى أخيه بوقا، فتغير موقف الإيلخان منه، وأخذ يضيِّق عليه، ويحدُّ من سلطته، وعزل نوابه وعماله من مناصبهم في الديوان.

أضحى موقف بوقا حرجاً بعد هذه الإجراءات، وتأكَّد أن الأمر سوف يخرج من يده، فحاول الالتفاف على الإيلخان من واقع تدبير مؤامرة تطيح به وتنصيب الأمير جوشكاب حفيد هولاكو مكانه، فاتصل به ووضعه في جو المؤامرة. وحتى يُزيل الشك من نفسه، ويحمله على الوثوق به، أرسل إليه وثيقة تتضمَّن أسماء الأمراء المتعاونين معه، فحملها جوشكاب إلى أرغون وأطلعه على كل ما يحاك ضده، فثارت ثائرته وأمر باعتقال بوقا والتخلص منه، فقتله جوشكاب في (ذي الحجة ٦٨٧هـ/ كانون الثاني ١٢٨٩م) وتتبَّع أنصاره، وقبض على أخيه أروق وقتله(٣).

اشتد القلق بالأمراء على أثر مقتل بوقا، وتصدَّعت العلاقات بينهم بسبب رواج سوق الوشاية، وأخذهم بالشك والتهمة، فخافوا على أنفسهم وبادروا

(١) ابن العبري: ص٣٥٣، ٣٥٤. الصياد: ص١٦٠ ـ ١٦٤.
(٢) ابن الفوطي: ص٣٠٩، ٣١١.
(٣) الهمذاني: م٢ ج٢ ص١٤٠ ـ ١٤٧. ابن الفوطي: ص٣١٣.

بالهرب، كان من بينهم الأمير نوروز بن أرغون أقا، وهو من أخلص أعوان بوقا ويتولى الإشراف على خراسان باسم غازان، وكانت ثورته من القوة بحيث عجزت جيوش الدولة عن إخضاعه، وتوفي الإيلخان أرغون قبل أن يُخضعَه ويُنهي تمرده[1].

سطوع نجم سعد الدولة

ازدادت ثقة أرغون بسعد الدولة بعد أن أثبت جدارة وخبرة وبُعد نظر وحسن تصريف للأمور، فأسند إليه منصب الوزارة، وولَّاه شؤون الملك والمال، وأمر بألَّا يعرض الأمراء أي موضوع على الإيلخان من دون مشورته، وله أن يتصرف في كل أمر يريده من دون استشارة أحد[2].

انتهج سعد الدولة، في بداية الأمر، سياسة ماكرة وذكية بهدف السيطرة على أجهزة الدولة والتحكم بالسياسة العليا للإيلخانية، ثم رفع شأن اليهود، فأصدر تعليمات تقضي:

- بإجراء الأحكام وفقاً للشريعة الإسلامية.
- بتحقيق العدالة التامة.
- برفع الغبن عن المغبونين.
- بإجراء الصدقات.

فعمَّ الرخاء في البلاد وشعر جميع الناس بالأمن والاستقرار. ولما اطمأن إلى هدوء الوضع الداخلي ورضاء الناس عنه، خطا خطوته التالية لتحقيق هدفه الحقيقي، فعيَّن أقاربه وأبناء جلدته من اليهود في المناصب الهامة، ومكَّن لهم في أجهزة الدولة، ورفعهم إلى مرتبة الأمراء، فعيَّن أخاه فخر الدولة حاكماً على بغداد، وهو الذي اتصف بالجهل المطبق، ونصَّب أخاه الصغير حاكماً على دياربكر وربيعة، وولَّى لبيد بن أبي ربيعة أذربيجان، وقد اتصف بالحمق السياسي، ونصَّب أحد أقاربه، ويُدعى شمس الدين، على ولاية فارس[3]. ثم انقلب على المسلمين في خطوة توافقية مع سياسة أرغون الذي كان يكره هؤلاء، فطرد جميع الموظفين المسلمين من البلاط الإيلخاني ووظائف الدولة الأخرى بحجة أنه يُنفِّذ إرادة الإيلخان وأحلَّ محلهم موظفين من اليهود.

(١) تاريخ وصَّاف: ص٢٣٧. (٢) المصدر نفسه.
(٣) المصدر نفسه: ص٢٣٧، ٢٣٨. الصياد: ص١٦٧.

وتمادى سعد الدولة في سياسته المتشدِّدة ضد المسلمين حين:

- اقترح على أرغون أن يُحوِّل الكعبة إلى معبد للأصنام، ليصرف المسلمين عن عبادة الله ويحولهم إلى الوثنية، بهدف القضاء على الإسلام كدين.
- أدخل في روع الإيلخان أن يتخلَّص من كل شخص في دولته يرفض الدخول في ديانته، وذلك بهدف استئصال شأفة المسلمين كأمة[1].
- تخلَّص من بعض الأعيان والموظفين الكبار الذين رأى فيهم خطراً على مشروعه، نذكر منهم: زين الدين الخطائري، عميد بغداد وضامن التمغات، ومنصور بن علاء الدين، صاحب الديوان ببغداد، والملك ناصر الدين قتلغ شاه الصاحبي في تبريز وغيرهم، وعزل نور الدين ابن الصياد من واسط[2].
- أرسل قوائم إلى حاكمي خراسان وفارس تتضمَّن أسماء أعيان وعلماء المسلمين في بلادهما، وأمرهما بالتخلص منهم بالقتل.
- استورد يهوداً من تفليس للإشراف على تركاتهم، وهي وظيفة إسلامية، فحكموا بعدم توريث ذوي الأرحام، ما أدى إلى قيام ثورة هاجم العوام خلالها متاجر اليهود ونهبوها.
- طلب من اليهود التجهز للتوجه إلى مكة ضمن جيش مغولي راح يعده من أجل هذه الغاية، وأمر بصنع السفن اللازمة لنقل الجنود، في بغداد[3].

وهكذا يُعَدُّ سعد الدولة مسؤولاً عن السياسة التعسفية التي سلكها أرغون ضد المسلمين، وقد ملأت نفوسهم بالحقد على اليهود.

بالإضافة إلى التعصب الديني والعنصري، كان سعد الدولة شخصاً متعجرفاً متعالياً حتى على الأمراء أنفسهم، ولما وجد هؤلاء أنفسهم مُبعدين عن أجهزة الدولة، وقد حصر ذلك اليهودي كافة السلطات في يده، نقموا عليه. كما اتصف بالحقد والطموح، فأبعد الشخصيات الكفوءة من البلاط حتى لا ينافسونه ويشاركونه النفوذ، وحرص على أن يظهر وحده في الصورة أمام الإيلخان[4]. فعندما وجد في شخص فخر الدين المستوفي رجلاً جديراً باعتلاء

(١) تاريخ وصَّاف: ص٢٤٢.
(٢) ابن الفوطي: ص٣١٣، ٣١٤. الهمذاني: تاريخ الإيلخانيين: م٢ ج٢ ص١٥٠.
(٣) الصياد: ص١٧٠. (٤) المرجع نفسه: ص١٧٢.

منصب الوزارة خشي من منافسته وتخلَّص منه بالقتل في (أول رمضان ٦٨٩هـ/ ٧ أيلول ١٢٩٠م) في مدينة وان[(١)].

القضاء على سعد الدولة

تعرَّض سعد الدولة، في أواخر حياته السياسية، لنقمة عارمة بسبب أعماله السيئة والاستفزازية، لكن أحداً لم يجرؤ على المسِّ به بسبب ثقة أرغون، لذلك راح أعداؤه الكثر يترقبون الفرصة للإيقاع به والانقضاض عليه. وحدث أن مرض أرغون في تبريز واشتد المرض عليه حتى عجز الأطباء عن معالجته، فأدرك سعد الدولة أن نهايته باتت قريبة بفعل أنه ربط مصيره بمصير الإيلخان، إلا أنه حاول أن يستدرك ذلك بالعودة إلى سيرته الحسنة الأولى والتقرب من المسلمين، لكن الناس لم يكن ليتناسوا الأحقاد ويدفنوا الضغائن من شدَّة ما لاقوه من ذلٍّ على يديه.

وأدرك سعد الدولة حرج وضعه، فأراد أن ينقذ حياته برمي آخر سهم في جعبته؛ فأرسل إلى غازان بن أرغون يستدعيه إلى أذربيجان ليتولى الحكم، واعتقد أن الأمير سيحفظ له هذا الصنيع فيغمره بعطفه، ثم يواجه أعداءه المتربصين به، لكن هؤلاء فوَّتوا عليه هذه الفرصة. وفي الاجتماع الذي عُقد في منزل طغاجار تقرَّر القضاء عليه قبل أن يصل غازان، فقُبض عليه وسيق إلى منزل طغاجار وقُتل في (صفر ٦٩٠هـ/ شباط ١٢٩١م)، وتمَّ التخلص من أنصاره، ولما سأل أرغون عن غيابه، وهو على فراش الموت، أجابه الحاضرون بعذر غير مقبول، فأدرك عندئذ حقيقة الأمر[(٢)].

كان لمقتل سعد الدولة صدى إيجابي في كل البلاد الإسلامية، فقد تخلَّص المسلمون من أكبر عدو لهم، وكان موته إيذاناً بالقضاء على اليهود، وقد طوردوا في كل مكان باستثناء شيراز[(٣)]، وتعرَّضوا لمذابح رهيبة ومروعة، وصودرت أموالهم، وقُتل في بغداد وحدها ما يزيد على مائة من أعيانهم[(٤)].

---

(١) المستوفي القزويني، حمد الله: تاريخ گزيدة: ص٥٩٨، ٥٩٩. الآقسرائي، محمود بن محمد، المشتهر بالكريم: مسامرة الأخبار ومسايرة الأخيار: ص١٥٦.

(٢) ابن الفوطي: ص٣١٦، ٣١٧. الصياد: ص١٧٥.

(٣) لم يتعرض اليهود في شيراز للملاحقة بفعل حسن سياسة حاكمها اليهودي شمس الدولة، فقد كان متسامحاً مع السكان، يقيم العدالة بينهم ويعاملهم برفق.

(٤) تاريخ وصاف: ص٢٤٦. ابن الفوطي: ص٣١٧. Brown: III P34.

العلاقات الخارجية

العلاقة مع النصارى الغربيين

تمهيد

دفع حرص أرغون على قتال المماليك وانتزاع بلاد الشام منهم والاستيلاء على بيت المقدس وإعادته إلى النصارى؛ إلى ضرورة التحالف مع الغرب الأوروبي وتكوين حلف مغولي ـ صليبي تكون له القدرة والقوة على مواجهتهم والانتصار عليهم.

والواقع أن قوة المغول الإيلخانيين قد تراجعت بعد وفاة أباقا في الوقت الذي تعاظمت فيه قوة المماليك، وأضحت الدولة المملوكية أكبر قوة ضاربة في الشرق الأدنى، ولم يتسنَّ للمغول مواجهة المماليك إلا بالتعاون مع عدوٍ يأتي من وراء البحار. أما الغرب الأوروبي فكان أيضاً بحاجة ماسة للتعاون العسكري مع المغول لأن المماليك كانوا يُسقطون، عاماً بعد آخر، واحداً من مواقع الصليبيين الهامة في بلاد الشام، في الوقت الذي انهمك فيه بحروبه الإقليمية ومشكلاته الداخلية.

وقضت خطة الإيلخان أن يقوم الطرفان بهجوم مشترك في وقت واحد؛ فيغير المغول على بلاد الشام، وينزل الصليبيون في عكا أو دمياط، على أن يقتسما أملاك المماليك في بلاد الشام، فتكون حلب ودمشق من نصيب المغول، ويستأثر النصارى ببيت المقدس. والواضح أن الاتصالات التي كانت تتكرر بين المغول بعامة وملوك أوروبا والبابوية، تتمحور حول التحالف ضد المسلمين ومساعدة الأرمن والسعي إلى استعادة بيت المقدس.

ولتحقيق هذا الهدف، شرع أرغون بإرسال الرسائل، وبَعْث السفراء إلى ملوك أوروبا والبابوية، وفي المقابل، كانت الوفود الأوروبية تأتي إلى الشرق الأدنى من أجل وضع خطة التحرك المناسبة، والاتفاق على سياسة موحَّدة لمحاربة المماليك.

ففي عام (٦٨٤هـ/ ١٢٨٥م) أرسل أرغون رسالة إلى البابا هونوريوس الرابع (٦٨٤ ـ ٦٨٦هـ/ ١٢٨٥ ـ ١٢٨٧م)، يقترح عليه القيام بإجراء مشترك لقتال المماليك وانتزاع مصر وبلاد الشام والأراضي المقدسة منهم، غير أنه لم يتلقَّ رداً، والواضح أن البابا لم يكن بوسعه أن يحقِّق هذا المشروع الذي يهدف

إلى قيام تحالف مغولي ـ صليبي[1]، وبخاصة بعد اندلاع الثورة في صقلية في (محرم ٦٨١هـ/ آذار ١٢٨٢م) ضد الحاكم الفرنسي شارل أنجو.

سفارة رابان صوما

ازداد موقف الأرمن والصليبيين سوءاً في مواجهة المماليك بين عامي (٦٨٤ ـ ٦٨٦هـ/ ١٢٨٥ ـ ١٢٨٧م)، إذ إن المنصور قلاوون قرَّر، منذ انتصاره على المغول، معاقبة حلفائهم. فأرسل في (صفر ٦٨٢هـ/ أيار ١٢٨٣م) جيوشاً أغارت على الحدود الجنوبية لأرمينيا الصغرى سبَّبت كثيراً من الخراب والدمار، وقتلت وأسرت كثيراً من جنودها. ونتيجة لازدياد الضغط على الأرمن مال ليو الثالث، ملك أرمينيا الصغرى، إلى المهادنة، فراسل السلطان المملوكي، بشأن تحقيق صلح بين الطرفين بعد توسط مقدم الداوية، ووافق على دفع جزية سنوية للسلطان قدرها مليون درهم وإطلاق سراح الأسرى المسلمين والتجار المحتجزين عنده، وألَّا يعتدي أو يساعد أحداً ضد المسلمين[2].

وكان مصير الصليبيين أشد سوءاً، فقد استعاد المماليك حصن المرقب الكبير التابع للأسبتارية في (ربيع الأول ٦٨٤هـ/ أيار ١٢٨٥م) كما فتحوا اللاذقية في عام (٦٨٦هـ/ ١٢٨٧م) وحصون صهيون وبرذيه وكانتا[3]، من دون أن يتدخل أحد من الصليبيين، في المعاقل الأخرى، لنجدتهم.

استغل أرغون أوضاع النصارى المتدهورة في الشرق، فقرَّر إرسال سفارة

---

(١) العريني: المغول: ص٣٠٥، ٣٠٦.

Chabot: Relation du Roi Argoun avec L'occident. In Revue de L'orient Latin, vol II p571.

(٢) ابن عبد الظاهر: ص٩٢ ـ ١٠٣. وهو يورد نص الهدنة بتفاصيله الدقيقة.

والداوية طائفة دينية عسكرية. تأسست في بيت المقدس في عام ١١١٨م، وسمح الملك بلدوين الأول لأعضائها النزول في جناح بالقصر الملكي بساحة المعبد فعرفوا من أجل ذلك بفرسان المعبد. اتخذوا الصليب الأحمر شعاراً لهم ونذروا أنفسهم لقتال المسلمين.

(٣) ابن عبد الظاهر: ص٧٧ ـ ٨١، ١٤٨ ـ ١٥٣. المنصوري: ص١١٣، ١١٤، ١١٧. والأسبتارية: إحدى الطوائف الدينية العسكرية. تأسست في بيت المقدس في عام ١٠٧٠م وتدين للبابا مباشرة بالطاعة، اقتصرت مهمتهم في بادئ الأمر على إرشاد الحجاج وإيوائهم وعاهدوا الله على التقشف والطهارة والطاعة، ثم تحولوا بعد ذلك إلى فرقة عسكرية لقتال المسلمين، واتخذوا إشارة تميزهم عن سائر الطوائف، بأن جعلوا صليباً أبيض على ستراتهم التي يرتدونها فوق أدواتهم العسكرية.

إلى الغرب الأوروبي لإقناع قادته بمدِّ يد العون للمغول ضد المماليك، فاختار سفيراً له هو رابان صوما[1] للقيام بهذه المهمة. كان هذا السفير المغولي الرجل الثاني في الكنيسة النسطورية في بغداد، وصديقاً حميماً لمرقس، الذي انتُخب جاثليقاً ـ بطريركاً ـ بالعراق في عام (٦٨٠هـ/ ١٢٨١م) وتلقب بلقب جيلاها الثالث.

بدأ السفير رحلته في أوائل (٦٨٦هـ/ ١٢٨٧م)، فأبحر من طرابزون على البحر الأسود إلى القسطنطينية، فاستقبله الامبراطور البيزنطي أندرونيقوس الثاني باليولوغوس بالترحاب. وبعد أن مكث بضعة أيام، أبحر إلى نابولي، فوصل إليها في (١٧ جمادى الأولى/ ٣٠ حزيران)، وتوجه منها إلى نابولي ثم إلى روما، فوجد البابا قد توفي منذ وقت قريب، فاستقبله الكرادلة استقبالاً حافلاً، لكنه سرعان ما اكتشف أن هؤلاء غارقون في الجهل ولا يعلمون شيئاً عن انتشار النصرانية بين المغول، وقد صُدموا عندما علموا بأنه يخدم سيداً وثنياً. ولما حاول أن يناقشهم في الأمور السياسية، التي أتى من أجلها، جابهوه بالسؤال حول إيمانه وعقيدته، وانتقدوا انحرافات إيمانه عن عقيدتهم، فضاق بهم ذرعاً، وأوضح لهم بأنه لم يأتِ للبحث في العقائد الدينية وإنما ليؤدي احترامه للبابا ويسلمه رسالة الإيلخان والجاثليق، ويرسم الخطط للمستقبل.

وبعد أن أدَّى الشعائر الدينية في الكنائس الرئيسية في روما، وأدرك أن لا جدوى من بقائه فيها، غادرها إلى جنوة، فاستقبله الجنويون باحتفال كبير، إذ إن التحالف مع المغول كان أمراً بالغ الأهمية عندهم، فأولوا اقتراحاته اهتماماً خاصاً[2].

وفي (٢٠ رجب/ ٣١ آب)، أبحر رابان صوما إلى فرنسا، فبلغ باريس في (شعبان/ أيلول)، ونزل ضيفاً على الملك الشاب فيليب الرابع لوبل، الذي بالغ في تكريمه، وأبدى اهتماماً كبيراً في الاستماع إلى رسالته، وتلقَّى منه وعداً بأن يتولى بنفسه قيادة حملة لتخليص بيت المقدس، ولما همَّ بالمغادرة، عيَّن الملك الفرنسي سفيراً ليرافقه إلى الشرق، يدعى جوبرت هلفيل، كي يعقد اتفاقية التحالف مع المغول.

---

(١) اسمه الأصلي: بارصوما، وهو تركي الأصل من قبيلة الأنغوت، لكنه اشتهر باسم رابان صوما.

(٢) رنسيمان: جـ٣ ص٦٧٤.

واجتمع المبعوث المغولي بالملك الإنكليزي أدوارد الأول في بوردو، عاصمة أملاك إنكلترا في فرنسا، وقد رحَّب هذا الملك بمقترحات رابان صوما، وهو الذي سبق له أن حارب في الشرق[1]، وطالما دافع عن التحالف مع المغول، على أن هذا الملك راوغ، حين تقرَّر وضع جدول زمني، والواضح أنه لم يكن بوسعه، ولا بوسع ملك فرنسا، أن يحدِّد موعداً دقيقاً للقيام بالحملة الصليبية. ونتيجة لذلك، عاد رابان صوما قلقاً، وإذ توقف في جنوة، حتى موعد عيد الميلاد، تصادف أن التقى بالكاردينال يوحنا توسكلوم، فأنهى إليه بمخاوفه، إذ كان المماليك يستعدون، في تلك اللحظة، لاستئصال شأفة ما تبقَّى من الإمارات الصليبية في بلاد الشام، وما من أحد في الغرب الأوروبي كان يعير هذا التهديد شيئاً من الاهتمام[2].

وفي (٢٧ ذي الحجة ٦٨٦هـ/ ٤ شباط ١٢٨٨م) تمَّ اختيار نيقولا الرابع بابا (٦٨٦ ـ ٦٩١هـ/ ١٢٨٨ ـ ١٢٩٢م) خلفاً للبابا هونوريوس الرابع، وكانت فاتحة أعماله أنه استقبل السفير المغولي، الذي عاد إلى روما كي يقضي عدة أسابيع في ضيافة البابا الجديد، وهناك سُمح له بالمشاركة في المراسم الدينية التي تُقام في كنيسة القديس بطرس، وتوثَّقت العلاقات الشخصية بينهما. وقبل أن يغادر روما في طريقه إلى الشرق في (٢ ربيع الأول ٦٨٧هـ/ ٦ نيسان ١٢٨٨م)، وبصحبته جوبرت هلفيل، حمَّله البابا رسائل خاصة إلى الإيلخان والجاثليق وإلى الأميرتين النصرانيتين المقيمتين في بلاط أرغون، وإلى دنيس، أسقف اليعاقبة في تبريز، كما زوَّده ببعض الهدايا، وأوصاه بأن يُدخل أرغون في الديانة النصرانية[3]، من دون أن يشير إلى الهدف الأساسي لسفارة أرغون.

لم تُحدث هذه الرسائل الأثر المطلوب، ولم تُخرج مشروع إعداد حملة مشتركة، من المغول والنصارى الأوروبيين، إلى حيز التنفيذ، وكل ما أسفرت عنه هو زيادة الارتباط بين ملوك أوروبا والبابوية من جهة، وبين مغول إيران

(١) قاد أدوارد الأول في عام ١٢٧١م ـ وكان آنذاك ولياً لعهد إنكلترا ـ حملة صليبية إنكليزية من ألف مقاتل، وتوجَّه إلى الشرق لحرب المماليك، غير أنه مُني بفشل ذريع، كما لم يكن موفَّقاً في علاقته مع المغول. انظر: رنسيمان: جـ٣ ص٥٧٣ ـ ٥٧٩.

(٢) رنسيمان: جـ٣ ص٦٧٥.

(٣) Budge, E.A.W: The Monks of Kublai Khan, Emperor of China: pp164-197. Moule: Christians in China Before the year 1550: pp112-115.

من جهة أخرى. ونتيجة لهذا الارتباط اشتدَّ نفوذ رجال الدين النصارى، ونشط التبشير بهذا الدين في ممالك الإيلخانيين.

والواقع أن رابان صوما أدرك، خلال زيارته لأوروبا الغربية، أن لدى ملوكها من الأمور ما يشغلهم عن إرسال حملة صليبية، إذ انهمكت فرنسا والبابوية بحرب مع جنوة وأراغون لاسترداد جزيرة صقلية، ولم يكن كلٌّ من فيليب الرابع لوبل ونيقولا الرابع مستعداً للتفكير في حملة صليبية إلا بعد تسوية هذه المسألة. وانتاب أدوارد الأول، ملك إنكلترا، القلق طالما استمر القتال في إيطاليا، فسعى إلى عقد هدنة بين فرنسا وأراغون. يضاف إلى ذلك، فقد كانت لدى هذا الملك مشكلاته الخاصة، إذ كان يتوق إلى استعادة الأراضي المقدسة، غير أنه أدرك أن استيلاءه على مقاطعة ويلز ومحاولة الاستيلاء على أسكتلندة، تفوق في الأهمية، لذلك تحوَّل إلى الشمال، بعد وفاة الإسكندر الثالث ملك أسكتلندة، في عام (٦٨٥هـ/ ١٢٨٦م)[1].

سفارة بوسكاريل جيزولف

استقبل أرغون رابان صوما، بعد عودته، بكل مظاهر التشريف، وأظهر مودته لجوبرت هلفيل، غير أنه انزعج من استخفاف النصارى الغربيين مما يحيق بهم بالأراضي المقدسة من مصير خطر، على الرغم مما اشتهروا به من التظاهر الديني بالتعلق بهذه الأراضي، كما ساءه أن السفير الأوروبي لم يكن بوسعه أن يبذل من الوعود الدقيقة ما يمكن الركون إليها والاعتماد عليها في حرب المماليك، لذلك رأى أن يقوم بمزيد من الاتصالات والمباحثات، فانتهز فرصة سقوط طرابلس في أيدي المماليك في (ربيع الأول ٦٨٨هـ/ نيسان ١٢٨٩م) وأرسل في الشهر نفسه، عقب عيد الفصح، سفيراً آخر إلى الغرب الأوروبي جنوي الجنسية، أقام مدة طويلة في إيران، يدعى بوسكاريل جيزولف، وحمَّله رسائل إلى البابا وملكي فرنسا وإنكلترا، وقد كتبها باللغة المغولية وبحروف أويغورية، وصدَّرها باسم الخان الأعظم قوبيلاي. ولعل اختياره لبوسكاريل، الجنوي، مرده إلى أن:

ـ الجنوية كانوا الأكثر تضرراً بسقوط طرابلس.

(١) Grousset: Histoire de Croisades: III pp711-721.

- مقدرته في إقناع الغربيين بخطورة الموقف في الشرق.
- البعد عن مشكلات المترجمين، وبخاصة أن هذا السفير كان عليه مناقشة تفاصيل العمليات العسكرية المقترحة بين المغول والأوروبيين، والتنسيق بين موعد وصول الجيوش المختلفة، بوصفه خبيراً عسكرياً.
- قطع الطريق على البابا في التغاضي عن الأهداف الحقيقية لسفاراته، والحديث في الدين واللاهوت، لأنه كان حينئذ بحاجة لقوات الأوروبيين أكثر من حاجته للكتب والقرابين المقدسة[1].

وأعلن أرغون في رسالته إلى الملك الفرنسي فيليب الرابع لوبل بأنه سوف يتوجّه إلى بلاد الشام في (محرم ٦٩٠هـ/كانون الثاني ١٢٩١م)، وأنه سوف يصل إلى دمشق في الشهر التالي، وأكّد له أنه إذا لبّى طلبه بإرسال قوات مساعدة، واستولى المغول على بيت المقدس، فسوف يترك له هذه المدينة. أما إذا لم يتعاون فسوف تتبدّد الحملة ويؤول أمرها إلى الفشل، وإن دلَّ ذلك على شيء، فإنه يدل على التراجع المريع لقوة المغول الإيلخانيين كلما توغلنا في المدى الزمني. فقد تهيَّب الإيلخان المغولي الدخول منفرداً في معركة مع المماليك يعلم مسبقاً أن نتائجها ستكون لغير صالحه.

وعمد بوسكاريل جيزولف، حتى يشجِّع الدول الغربية على تلبية نداء المساعدة والاشتراك مع المغول في حملة صليبية، إلى إضافة حاشية باللغة الفرنسية تتضمَّن تحيات الإيلخان أرغون إلى الملك الفرنسي، وأنه سوف يصحب معه ملكي الكرج وأرمينيا الصغرى النصرانيين على رأس جيش يتراوح عديده بين عشرين وثلاثين ألفاً من الفرسان، وأنه سوف يتكفَّل بتزويد الجنود الصليبيين بما يلزمهم من مؤن، ولا بد أن رسالة مماثلة بمضمونها قد وُجِّهت إلى الملك الإنكليزي أدوارد الأول.

لم يصل إلينا ردُّ الملك الفرنسي فيليب الرابع لوبل، في حين أن ردَّ الملك الإنكليزي أدوارد بات معروفاً، إذ تضمَّن بذل التهنئة للإيلخان على حملته لصالح النصارى، ويهديه التحيات الودية، غير أنه لم ينطوِ على وعود، إنما جرت الإشارة إلى التجاء الإيلخان إلى البابا الذي لن يفعل شيئاً إلا بتعاون الملكين[2].

(١) هلال: ص١٢٤.
(٢) Chabot: II pp593, 594, 604-616.

الواقع أن ردود الفعل على سفارة بوسكاريل جيزولف كانت غامضة ولا توحي بإجابات تُبشِّر بشيء من التعاون. والحقيقة أن البابا نيقولا الرابع كان أعجز من أن يُحرِّك ملوك الغرب الأوروبي وأمراءه لحشد الجيوش وإرسالها إلى الشرق للتحالف مع الإيلخان المغولي، حتى ولو كان هذا الأمر يعني أيضاً المساعدة الحاسمة للصليبيين في الشرق بعد سقوط طرابلس، والاستثناء الوحيد جاء من البنادقة الذين خشوا على امتيازاتهم في عكا من أن تضيع، ولهذا قدَّموا عشرين مركباً لنقل الصليبيين الذين استطاع أعوان البابا حشدهم لنجدة اللاتين في بلاد الشام[1].

لذلك اضطر أرغون إلى إرسال سفارته الرابعة إلى الغرب الأوروبي، على رأسها اثنان من المغول النصارى هما أندرياس زاكان وسبادين، ظهرت في البلاط البابوي في (ذي الحجة ٦٨٩هـ/كانون الأول ١٢٩٠م) وانضم إليها بوسكاريل جيزولف، الذي بقي في روما على الأغلب، مهمتها التأكد من تواجد الأوروبيين بجيوشهم في المواعيد والأماكن المحددة من قبل، حتى لا تحدث كارثة للجيوش المغولية عندما تهاجم المماليك في بلاد الشام[2]، فاستقبلهم البابا الذي أرسل أحد كرادلته إلى الملك الفرنسي فيليب الرابع لوبل لحثه على سرعة إرسال نجدة إلى الأراضي المقدسة، ثم وجَّه أعضاء السفارة إلى إنكلترا وزوَّدهم بخطابين إلى الملك الإنكليزي أدوارد الأول معتقداً أن هذا الملك كان أقرب إلى الاشتراك في حملة صليبية ترسل إلى الشرق، غير أن أدوارد الأول كان منهمكاً في الاستيلاء على أسكتلندا بعد وفاة ملكتها مارغريت، ولم يكن عنده ما يقوله لسفراء أرغون، وربما أبلغهم أنه سيُعلم ملكهم، فيما بعد، بموعد قيامه إلى الشرق، وكذلك فعل البابا شفوياً لأنه لم يرد على كتب أرغون إلا في (شعبان ٦٩٠هـ/آب ١٢٩١م)، على أثر سقوط عكا في أيدي المماليك، فأعلمه بأن أدوارد، ملك إنكلترا، على استعداد الآن لركوب البحر إلى الشرق، وتوسَّل إليه أن يستعيد عكا[3].

والواقع أنه فات الوقت على الاستمرار بالمهمة، إذ إن مصير الشرق الصليبي قد تقرَّر على أثر استعادة المماليك مدينة عكا وتصفيتهم الوجود

(١) هلال: ص١٢٦. (٢) المرجع نفسه: ص١٢٧.
(٣) Chabot: II pp619, 620. Howorth: III pp353, 354.

الصليبي في الشرق الأدنى، كما أن الإيلخان أرغون توفي قبل خمسة أشهر من كتابة الردِّ البابوي وأن الملك الإنكليزي خارت عزائمه عندما سمع بهذه الأنباء، وبدأ يركِّز على مشكلاته الداخلية وبخاصة الحرب ضد أسكتلندا[1].

والواضح أن كل ما كان يأمله أرغون من التحالف مع الصليبيين هو محاولة الإبقاء على بقايا الإمارات الصليبية وسحق قوة المماليك وضمّ بلادهم إلى إيلخانية إيران، ولو أن هذا الأمل قد تحقَّق، وأخلص الغرب الأوروبي في إنجازه، فإنه يكاد يكون من المحقق أن يطول أمد الوجود الصليبي في الشرق الأدنى، وأن يُقضى على قوة المماليك أو يتم تدمير دولتهم، وأن تبقى إيلخانية إيران صديقة للنصارى وللغرب، على أن ما حدث فعلاً هو أن دولة المماليك ظلَّت قائمة نحو ثلاثة قرون وتحوَّل مغول إيران إلى الإسلام بعد حوالي أربعة أعوام على وفاة أرغون، لذلك كان على العلاقات المغولية ـ الأوروبية أن تتخذ مساراً جديداً بعد عام (٦٩٠هـ/ ١٢٩١م) على ضوء التطورات السياسية الجديدة.

العلاقة مع المماليك

اضطهد الإيلخان أرغون المسلمين في دولته لأنه كان لا يثق بهم، وكان عهده عهد محنة لهم. فقد ذاقوا الأمرَّين على أيدي البوذيين المتنصرين، وتعرَّضوا للضغط والظلم الذي لم يشهدوه في عهد أباقا، فأُبعدوا عن كافة المناصب التي كانوا يشغلونها في القضاء والمالية كما حُرِّم عليهم الظهور في بلاطه.

كان لهذه السياسة الخرقاء أسوأ الأثر في نفوس المماليك، فعادت العلاقة بين الطرفين إلى سابق عهدها من العداء، لكن الجبهات العسكرية ظلت هادئة نسبياً، فلم تشهد اصطدامات تُذكر، ولعل مرد ذلك يعود إلى انهماك الطرفين بأمور أخرى، وحاجتهما إلى الهدوء على جبهة بلاد الشام.

ففيما يتعلق بالمماليك:

ـ لقد انهمك المماليك بالخلافات الداخلية التي نشبت بينهم، لا سيما بين قلاوون والمماليك الظاهرية، بالإضافة إلى عصيان الأمير سنقر الأشقر، وثورات الأرمن.

(١) رنسيمان: جـ٣ ص٦٧٧، ٦٧٨. Chabot: II pp617-619.

ـ أراد المماليك التفرغ لمهمة طرد الصليبيين من بلاد الشام أولاً طالما كان الخطر المغولي لا يتعدى المناطق الحدودية.

وفيما يتعلق بالإيلخانيين:

ـ حاول أرغون التقرب من القوى النصرانية الشرقية والغربية، إلا أنه لم يتلقَّ منهم سوى الوعود.

ـ كان أرغون منهمكاً في جمع المال وتكديسه، وهي غريزة اتصف بها، ورعاية العنصرين النصراني واليهودي، والاشتغال بالكيمياء وغيرها.

ـ انقطع أرغون عن الاتصال بالعالم الخارجي، تاركاً الأمور تجري على هوى وزيره سعد الدولة اليهودي[1].

العلاقة مع الجيران الآخرين

كانت علاقة أرغون بجيرانه هادئة نسبياً، وقد أرسل، في (صفر ٦٨٥هـ/ نيسان ١٢٨٦م)، جيشاً إلى منطقة جبال هكاري في كردستان لقمع ثورة الأكراد الذين استغلوا حالة الفوضى التي سادت البلاد خلال الصراع على السلطة بينه وبين عمِّه أحمد تكودار، فقطعوا طرق المواصلات، ونهبوا القوافل التجارية، فاصطدمت القوات المغولية بالثائرين وتغلبت عليهم وأقرَّت الأمن والنظام[2].

وشهدت مناطق الحدود الإيلخانية في الجنوب الشرقي والشمال بعض المناوشات العسكرية المحدودة. ففي (محرم ٦٨٧هـ/ شباط ١٢٨٨م) عبرت قوات مغولية جغتائية، تقدر بثلاثين ألف مقاتل بقيادة قايدو، البنجاب، وهاجمت بلخ ومرو وشبورغان وبلغت خواف وسنكان، فتصدَّى لها أرغون وأجبرها على العودة، كما تصدَّى هذا الإيلخان لكافة الهجمات التي كان يشنها قايدو على أملاك الإيلخانية، وبخاصة في خراسان، وبرز في هذه الاشتباكات القائد طغاجار الذي قاد معظم هذه الحروب[3]. وفي (جمادى الأولى ٦٨٩هـ/ أيار ١٢٩٠م) أرسل تلابوقا، خان القبيلة الذهبية، جيشاً إلى منطقة إيران بقيادة نماتوقتا، وكان أرغون قد توجه من مشتى أرَّان إلى المصيف، فلما بلغه خبر هجوم أعدائه من ناحية دربند، رجع، وسيَّر الأمراء في مقدمة جيش جرار، اشتبك مع الجيش القبجاقي في رحى معركة ضارية،

(١) الصياد: ص١٩٩، ٢٠٠.
(٢) ابن العبري: ص٣٥٣.
(٣) الصياد: ص١٨٩، ١٩٠.

انهزم فيها نماتوقتا وقُتل عدد كبير من جنود مقدمته، وعاد الباقون يجرون أذيال الهزيمة[١].

وفاة أرغون

مرض أرغون في أواخر حياته وتوفي في (٦ ربيع الأول ٦٩٠هـ/ ٩ آذار ١٢٩١م)، أي بعد مقتل سعد الدولة بأيام[٢]. وتجري الرواية بأنه أحب دين البراهمة، وعبادة الأصنام وانتحال السحر. ووفد عليه بعض سحرة الهند فركبوا له دواء لحفظ صحته وإطالة عمره، فتسبَّب هذا له في اشتداد المرض عليه وإصابته بالفالج ثم وفاته، أو أنه أصابه منه صرع، فمات[٣]، ودُفن في جبل سجاس جنوبي مدينة السلطانية[٤].

(١) الهمذاني: جامع التواريخ، تاريخ خلفاء جنكيز خان: ص١٢٦.

(٢) إقبال: ص٤٥٤.

(٣) ابن العبري: ص٣٦٤. ابن خلدون: تاريخ: جـ٥ ص٥٤٦، ٥٤٧. وقارن بابن كثير الذي يذكر أنه مات من شراب مسموم، وأن المغول اتهموا سعد الدولة بقتله: جـ١٣ ص٣٢٤.

(٤) حمد الله المستوفي القزويني: نزهة القلوب: ص٦٩، ٧٠.

كيغاتو بن أباقا

(٦٩٠ ـ ٦٩٤هـ/ ١٢٩١ ـ ١٢٩٥م)

اعتلاء كيغاتو عرش الإيلخانية

لم يفكر أرغون، خلال مدة مرضه، في تعيين خلف له، ويبدو أنه كان هناك أكثر من طامع في اعتلاء العرش، لذلك ما إن توفي حتى عادت الأوضاع إلى ما كانت عليه عام (٦٨٠هـ/ ١٢٨١م)، في ظل اختلاف الأمراء في هذا الشأن[١]. وبرز غازان، ابن الإيلخان المتوفى، كمرشح محتمل، فاستدعاه قادة الجيش من خراسان، غير أن الأمراء عارضوا اختياره نظراً لشدة بأسه وجبروته، وتداولوا اسم بايدو بن طرغاي بن هولاكو، فأرسلوا بايتان لاستدعائه من بغداد، إلا أن وقاره وحياءه جعلا منه شخصية لينة، لا تستطيع فرض هيبتها على الأمراء والجنود.

وحدث، في غضون ذلك، أن اندلعت الثورات في أماكن الأطراف ضد الحكم المغولي، وبخاصة في لورستان حيث تزعم الثورة أفراسياب فضلوئي، واستطاع الثائرون قتل شحنة أصفهان المدعو جلال الدين، والحاكم المغولي بايدو، واستولوا على المدينة، كما هاجموا جنود المغول المعسكرين بنواحي خلاط[٢]. وبات الأمر يتطلب انتخاب إيلخانٍ على وجه السرعة يعيد الأمور إلى نصابها، وبعد مداولات حثيثة بين أفراد الأسرة الحاكمة، واستشارة الخواتين، وفي مقدمتهم أوروك خاتون، أرملة الإيلخان الراحل، استقر الرأي على استدعاء كيغاتو بن أباقا، أخي أرغون، على عجل، من بلاد الروم، وكان والياً على آسيا الصغرى، وتوليته حكم المغول في إيران، وأرسلوا

(١) شبولر: ص٩١.

(٢) المرجع نفسه. الهمذاني: م٢ جـ٢ ص١٧٢، ١٧٣.

ليغاسي لاستدعائه واصطحابه، وفي الاجتماع الذي عُقد في ألاتاغ تقرَّر توليته الحكم، وذلك في (٢٩ جمادى الآخرة ٦٩٠هـ/ ٢٩ حزيران ١٢٩١م)[١].

المشكلات التي واجهت كيغاتو في بداية حياته السياسية

بعد الانتهاء من مراسم احتفالات التنصيب، جرَّد كيغاتو الجيوش لمعاقبة الأمراء الذين أثاروا الشغب والفتن في أواخر عهد أرغون، كما أخضع أفراسياب الفضلوئي وقضى على ثورته[٢]. ولعل الثورة التي أقضَّت مضاجعه تلك التي اندلعت في بلاد الروم. فقد ثار القرمانيون التركمان وهاجموا الحاميات المغولية في الأناضول، لذلك ذهب بنفسه في (٥ رمضان/ ١ أيلول) لإخضاعهم وعين سيكتور نوين نائباً عنه في إدارة شؤون الحكم أثناء غيابه، وقد نجح في قمع الثورة القرمانية بمساعدة الكرج، وعاد إلى إيران منتصراً بعد غياب دام عشرة أشهر[٣].

وحدث أثناء غيابه في بلاد الروم، أن فشل نائبه سيكتور في القضاء على المناوئين، وعلى رأسهم الأمير طغاجار ونائبه صدر الدين الزنجاني، وقد استغلوا تلك الفرصة وروَّجوا إشاعات مفادها أن القرمانيين قتلوا الإيلخان وقضوا على قواته، وأن الأمراء اتفقوا على تنصيب أنبارجي إيلخاناً. غير أن الأوضاع سرعان ما انجلت وتبين أن الإشاعة كاذبة، وأن كيغاتو انتصر على أعدائه، وهو يتمتع بصحة جيدة وعازم على العودة إلى إيران، عندئذ أسرع سيكتور في القبض على طغاجار وصدر الدين الزنجاني وأرسلهما إلى كيغاتو، إلا أن هذا كان متساهلاً في حكمه عليهما فسامحهما وأطلق سراحهما وعفا عنهما وجعلهما موضع ثقته وعنايته، كما طمأن الأمراء الذين اشتركوا معهما، وشملهم برعايته[٤].

وأثناء عودة كيغاتو من بلاد الروم أصابه المرض، ولما شُفي انغمس في اللهو والشراب ومجالسة النساء، وأطلق سراح السجناء، ووزع الثروات الطائلة والنفائس على الأمراء والخواتين، وأعفى العلماء والسادات والأئمة

(١) ابن العبري: ص٣٦٥، ٣٦٦. وقد ذكر أن التولية تمت في ٢٩ حزيران ١٢٩٢م. إقبال: ص٤٥٤. وقد ذكر أن التولية تمت في ٢٣ رجب ٦٩٠هـ الموافق ٢٢ تموز ١٢٩١م.
D'ohsson: IV pp84-85. Von Hammer: Ilkhans: I p398.

(٢) Howorth: III pp358, 359.

(٣) ابن العبري: ص٣٦٥.

(٤) D'ohsson: IV pp87-89.

من دفع الضرائب، وأعطى المحتاجين الأموال والصدقات، وذلك في خطوة غير مدروسة، لأن هذا البذل والعطاء أدَّى إلى إفراغ الخزانة العامة من الأموال، وتضاؤل الدخل، وكان لهذه السياسة أسوأ الأثر على الناس[١].

وزارة صدر الدين الزنجاني

وشرع كيغاتو، بعد ذلك، في تنظيم دولته، فعيَّن الأمير آقبوقا في منصب أمير الأمراء، وعيَّن كل من سيكتور نوين وطغاجار معاونين له، وأسند منصب الوزارة إلى صدر الدين أحمد الخالدي الزنجاني، المعروف بصدر جهان، أي صدر العالم، ومنحه سلطات واسعة ومطلقة، ونصَّب أخاه قطب الدين أحمد قاضياً للقضاة، وولَّاه نظارة أوقاف الممالك وأبواب الصدقات وسائر المعالم الدينية والمطالب الشرعية[٢].

أضحى صدر الدين الزنجاني، بحكم منصبه وسلطاته، الحاكم الفعلي للبلاد، فراح يضايق الأمراء والقادة والساسة، ويحجِّم دورهم السياسي، ما دفعهم إلى تحريض جماعة من أعيان تبريز على تأليب الإيلخان ضده، بحجة أنه يتصرف في الأموال العامة وفق مزاجه وأهوائه، مهملاً مصالح الدولة العامة وما يلزم للجند من العتاد والذخيرة والدواب، وأنه يقتطع لنفسه مبلغ ثلاثين توماناً، أي ثلاثمائة ألف دينار، من خراج تبريز البالغ ثمانين توماناً[٣].

والواقع أن الإيلخان كان يثق بوزيره ثقة مطلقة، لذلك لم يُعر هذه التقارير أذناً صاغية، بل إنه أطلع وزيره عليها وعلى أسماء الوشاة، وسلَّمهم له ليقتصَّ منهم، غير أن هذا عفا عنهم وقبل اعتذارهم، في خطوة لاستقطابهم، ثم أصدر الإيلخان أمراً بوضع الأمراء والحكام والعمال والكتَّاب تحت تصرف وزيره، وبألا يمنح الأمراء والخواتين أية إقطاعات بغير إذنه، وكان هذا الاهتمام الزائد بالوزير عاملاً مشجعاً على اتساع نفوذه، وامتداد سلطته، وإطلاق يده في جميع الشؤون[٤].

الأزمة النقدية

تعرَّضت إيلخانية إيران، في عهد كيغاتو، وفي ظل وزارة صدر الدين

(١) ابن العبري: ص٣٦٧. إقبال: ص٤٥٤.

(٢) تاريخ وصاف: ص٢٦٩. الصياد: ص٢٠٩، ٢١٠.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) المصدر نفسه: ص٢٦٥ ـ ٢٧٠.

الزنجاني، لأزمة مالية حادة بسبب الإفراط في النفقات المالية. واضطر الوزير المغولي، بعد مرور عامين من توليه منصب الوزارة، إلى اقتراض ما يقرب من خمسمائة تومان لسد نفقات الدولة الضرورية. ومما زاد الأزمة المالية حدة، انتشار الوباء بين قطعان الماشية، فنفق أكثرها، وبخاصة في دياربكر والموصل وبغداد وخراسان، والمعروف أن الماشية تشكل مورداً رئيسياً لدخل الإيلخانية[١].

وعجزت المالية العامة عن تأمين المال اللازم لسد نفقات إعداد الجيوش والحرب، بدليل أنه في (١١ رجب ٦٩١هـ/٢٨ حزيران ١٢٩٢م) استولى السلطان المملوكي، الأشرف بن قلاوون، على قلعة الروم[٢] من دون أن تتصدَّى له القوات المغولية[٣].

وبلغت الأزمة المالية في المدى الإنفاقي حداً بحيث عجز مطبخ الإيلخان عن تأمين خروف واحد من أجل الطعام، فاضطر الوزير إلى اختيار متعهد لتأمين لوازم مطبخ الإيلخان، هو رشيد الدولة اليهودي، لكن هذا المتعهد عجز بدوره عن الاستمرار طويلاً في تأمين ما يتوجب عليه، واضطر إلى الاستدانة على أمل أن يسترد ما أنفقه من خزانة الدولة، غير أن هذه الخزانة كانت فارغة، وبالتالي وجد نفسه عاجزاً عن تسديد ديونه، وهرب من دائنيه.

تجاه تفاقم الأزمة المالية، كان لا بد من إيجاد حل سريع يعيد الأمور المالية إلى نصابها، فاقترح عز الدين مظفر بن محمد بن عميد، المستشار المالي لصدر الدين الزنجاني، اتباع الأساليب المالية المطبقة في الصين، والتي تستند على العملة الورقية والتعامل بها بدلاً من الذهب والفضة، فتستقيم المالية العامة ويعود المال إلى الخزانة[٤].

وافق الوزير على هذا الاقتراح، وعرضه على الإيلخان، فوافق عليه وأصدر قانوناً في (جمادى الآخرة ٦٩٣هـ/ أيار ١٢٩٤م)، أجاز بموجبه التعامل بالعملة الورقية ـ الشاو ـ على النحو المتبع في الصين، وأجبر الناس على التعامل بها، وبنى دور الضرب في المدن الكبرى في كافة أنحاء الإيلخانية وأطلق على

(١) شبولر: ص٩٣.
(٢) قلعة الروم: قلعة حصينة في غربي الفرات مقابل البيرة بينها وبين سميساط. الحموي: ج٤ ص٣٩٠.
(٣) ابن كثير: ج١٣ ص٣٢٧، ٣٢٨.
(٤) تاريخ وصاف: ص٢٧٢.

كل منها اسم شاوخانه[١].

وحظَّر الإيلخان التعامل بالذهب والفضة، وأوقف كل عمل يستهلك هذين المعدنين، مثل نسج الأقمشة المقصبة، باستثناء ما يخص الإيلخان والأمراء، وصناعة الأواني الذهبية والفضية، وعوَّض على أرباب هذه الحرف من الشاو، وأمر بصرف مرتبات الحكام والموظفين منها.

كان رد الفعل العام هو الرفض، فلم يتقبَّل العامة والتجار وأصحاب المهن العملة الورقية الجديدة، واضطر سكان تبريز إلى استعمالها في البيع والشراء مدة أسبوع واحد خشية التعرض للقتل[٢]، ثم توقفوا عن التعامل بالشاو، ولما أُجبروا على استخدامها، غادرت طائفة منهم المدينة، وآثرت الرحيل على الإقامة، تجنباً لما يلحق بها من أضرار وخسائر، كما اختفت السلع من الأسواق، وتوقفت المعاملات، وشعر الناس بأنهم تعرَّضوا لمحنة قاسية.

ويشير ابن الفوطي إلى ما آلت إليه الأوضاع في مدينة تبريز بسبب التعامل بالشاو، فيقول: «. . . فتعامل به أهل تبريز اضطراراً لا اختياراً، بالقسر والقهر، فاضطربت أحوالهم اضطراباً أضرَّ بهم وبغيرهم حتى تعذَّرت الأقوات وسائر الأشياء، وانقطعت المواد من كل نوع، فكان الرجل يضع الدرهم في يده تحت الشاو ويعطي الخباز والقصاب وغيرهما، ويأخذ حاجته، خوفاً من أعيان السلطان. . .»[٣]. وما ينطبق على تبريز ينطبق أيضاً على المدن الكبرى في الإيلخانية.

نتيجة لهذه الفوضى الاقتصادية نشط الأوباش واللصوص، فعمدوا إلى سلب كل ما صادفوه في الشوارع والأزقة، فضجَّ الناس بالشكوى، وجهرت ألسنتهم بلعن الذين أوحوا بهذه الفكرة ونفَّذوها، وسخطوا عليهم، وصمَّموا على قتلهم وبخاصة عز الدين مظفر، فما كان منه إلا أن لاذ بالفرار مع أعوانه.

ورُفع الأمر إلى الإيلخان، ووُضع في أجواء السخط الشعبي الذي كاد يقترب من الثورة العامة، وصرَّحوا أمامه أنه إذا استمر الحال على هذا الشكل، فإنه يُخشى أن تسوء الأوضاع أكثر من ذلك وينقلب غضب الناس إلى ثورة عارمة قد تطيح بالحكم، وربما أدَّت إلى زوال دولة الإيلخانيين في إيران، فأسرع كيغاتو

(١) الصياد: ص٢١٥.
(٢) الهمذاني: م٢ ج٢ ص١٨٢.
(٣) الحوادث الجامعة: ص٣٢٤، ٣٢٥.

في معالجة الأمر وأصدر قانوناً قضى بإلغاء التعامل بالشاو والعودة إلى النظام النقدي القديم، وبذلك هدأ الناس، وعمرت الأسواق، وتيسَّرت الأقوات، وعاد إلى تبريز من كان قد غادرها، وأخذوا يباشرون أعمالهم[1].

والواقع أن الشاو كان جديداً في دولة الإيلخانيين، وفي الدولة الإسلامية بعامة، وظهر فاقداً ثقة حامله، والمعروف أن الثقة شرط أساسي في النقود الإئتمانية[2]، لأن الناس لم يكونوا قد تعوَّدوا على أن يجدوا بديلاً عن التعامل بالذهب والفضة. يقول المقريزي، في هذا الصدد: «إعلم، أرشدك الله إلى صلاح نفسك، وألهمك مراشد أبناء جنسك، أن النقود المعتبرة، شرعاً وعقلاً وعادة، إنما هي الذهب والفضة فقط، وما عداهما لا يصلح أن يكون نقداً، وكذلك لا يستقيم أمر الناس، إلا بحملهم على الأمر الطبيعي الشرعي في ذلك، وهو تعاملهم في أثمان مبيعاتهم، وإعواض قيم أعمالهم بالفضة والذهب لا غير، وذلك يسير على من يسَّره الله له»[3].

نهاية كيغاتو

كان كيغاتو ضعيف الشخصية، سكيراً، ينشد المتعة واللذة، عديم الكفاءة، مهملاً لشؤون الحكم، عاجزاً عن مواجهة الأحداث، غير جدير بحكم المغول في إيران. فكانت هذه الصفات، وذلك السلوك السيء، من أهم الأسباب التي دفعت أمراء المغول للثورة على حكمه، وقد تزعَّم بايدو بن طرغاي بن هولاكو الثورة التي أدَّت إلى قتله.

وقد ساءت العلاقة بين الرجلين في إحدى مجالس اللهو حين أفرط الإيلخان في الشراب، فشتم بايدو، وبادله هذا بالشتم وسمّاه ابن زانية، فاحتدم كيغاتو سخطاً وأمر حرسه بطرده من المجلس وضربه ضرباً مبرحاً، وعندما أفاق من سكره، في اليوم التالي، ندم على ما فعل في حقه، فاعتذر منه، وبالغ في إكرامه بأن خلع قلنسوته ووضعها على رأسه، والمعروف أن بايدو كان من بين المرشحين البارزين لمنصب الإيلخانية، فأسرَّ ذلك في نفسه، وأضمر الحقد عليه، وصمَّم على الانتقام منه[4].

وعندما علم كيغاتو بنبأ الثورة، عزم على الفرار إلى بلاد الروم حيث كان له

(١) ابن الفوطي: ص٣٢٥.
(٢) الصياد: ص٢٢٠.
(٣) إغاثة الأمة بكشف الغمة: ص٨٠.
(٤) ابن العبري: ص٣٦٧، ٣٦٨.

أتباع كثيرون، نتيجة للعطايا الكثيرة التي كان يغدقها عليهم عندما كان يتولى حكم هذا الإقليم، مبرهناً بذلك عن وهن في مواجهة الموقف، ولكن أفراد حاشيته أثنوه عن عزمه وزيَّنوا له تشكيل جيش لمواجهة الثائرين. وسار على رأس هذا الجيش من أرَّان إلى تبريز، وأرسل منه طليعة من خمسة آلاف مقاتل، بقيادة الأمير تيتاق، إلى همذان للاصطدام بطليعة جيش بايدو الزاحف إلى هذه المدينة. وجرى اللقاء بين الطليعتين خارج المدينة. وأتبع كيغاتو طليعته بعشرين ألف جندي بقيادة الأميرين آق بوقا وطغاجار، ثم خرج من تبريز على رأس القسم الرئيسي من الجيش في (٣ جمادى الأولى ٦٩٤هـ/ ٢١ آذار ١٢٩٥م) عبر وادي أهر.

وفي الوقت الذي كان جيش آق بوقا وطغاجار يزحف للقاء بايدو وقواته، أماط طغاجار اللثام عن وجهه وأعلن حقيقة موقفه المؤيد لبايدو، وانفصل مع أتباعه عن الجيش والتحق بجيش بايدو. وأضحى موقف آق بوقا ضعيفاً، فأخبر الإيلخان بذلك، فأُسقط في يده، واعتراه اليأس، وعجز عن التفكير للخروج من هذا المأزق، فعاد إلى معسكره ومعه عشرون فارساً من خواصه، حتى إذا بلغ موقان نزل متنكراً في منزل العمال الذين يشرفون على إصطبلات السلطان. وفي رواية أنه نزل في منزل كبار الموظفين الذين يشرفون على الخدم من الغلمان.

رجحت كفة بايدو في هذا الصراع، فأطلق سراح الأمراء المعتقلين بأمر من كيغاتو، فأسرعوا بتعقبه واستطاعوا أن يقبضوا عليه، فحملوه إلى إحدى الخيام في صحراء موقان وخنقوه بوتر القوس حتى لا يسيل دمه «المقدس» على الأرض، وذلك يوم الخميس (٧ جمادى الأولى/ ٢٤ أيلول)[1].

والواقع أن كيغاتو كان أسوأ فرد في أسرة هولاكو الذين تولوا عرش المغول الإيلخانيين، وآل الوضع في عهده إلى حالة أدَّت في نهاية الأمر، ودون إبطاء، إلى زوال حكم أسرة الإيلخانيين، باستثناء مدة حكم الإيلخان غازان، الذي اعتلى العرش بعد مدة قصيرة، فأوصل الدولة إلى أعلى درجات الرقي والازدهار[2].

(١) تاريخ وصاف: ص٢٧٩. ابن الفوطي: ص٣٢٧.
(٢) شبولر: ص٩٢.

بايدو بن طرغاي

(٦٩٤هـ/ ١٢٩٥م)

اعتلاء بايدو عرش الإيلخانية وأهم أعماله

على أثر مقتل كيغاتو، رفع كبار الأمراء المغول، وعلى رأسهم طغاجار، الأمير بايدو على العرش، فكانت فاتحة أعماله التخلص من الأمراء الذين ساندوا كيغاتو، وفي مقدمتهم آق بوقا وتماجي وسرتاق، واستدعى آيت طقلى، الذي كان قد ضربه بأمر كيغاتو، وذلك لاستجوابه بشأن فعلته، فقال لبايدو: «إن هذا حدث عندما كان كيغاتو خاناً يجلس على عرش الخانية، ولو أنه حكم أيضاً بقتلك لكنت أطيعه وأنفذ الأمر. واليوم أنا عبد الإيلخان بايدو، فإذا منَّ علي وأنقذ حياتي، فإني سوف أكون مطيعاً ومنقاداً له في كل ما يأمرني به»، فاستحس الإيلخان الإجابة وعفا عنه، وكلَّفه الاستمرار في أداء عمله[١].

وأرسل بايدو الفرمانات إلى أطراف الممالك، يعلمهم بمقتل كيغاتو الذي كان يسلك طريق الغفلة في إدارة المملكة، ويعرض عن آداب الحكم، ويهمل الياسا التي وضعها جنكيز خان؛ وتوليه السلطة خلفاً له، ووعدهم بتطبيق أحكام الياسا، والمحافظة على أرواح أرباب المذاهب المختلفة، وإعفاء الأوقات الإسلامية من الضرائب، وإعطاء الخيرات والأموال إلى مستحقيها[٢].

وشرع بايدو، بعد ذلك، في توزيع الإقطاعات وحكومات الولايات. فكافأ طغاجار وعيَّنه أميراً للأمراء، وعهد إليه الإشراف على الشؤون العسكرية،

---

(١) تاريخ وصاف: ص٢٨٢، ٢٨٣. D'ohsson: IV p116.

(٢) المصدر نفسه: ص٢٨٤. Howorth: III p378.

واختار جمال الدين الدستجرداني صاحباً للديوان ومسؤولاً عن الشؤون المالية، وقد فضَّل هذا لقب وزير بدلاً من لقب صاحب الديوان. وقسَّم المملكة إلى عدة أقسام، ونصَّب على كل قسم أميراً من الأمراء ومنحه حرية التصرف في إدارة قسمه على نحو ما كان متبعاً في عهد أباقا، وولَّى توداغو حكم بغداد وتوابعها.

وعيَّن طولاداي إيداجي والياً على العراق العجمي ولورستان وملحقاتها، وقونجقبال حاكماً على شيراز وشبانكاره، ووضع بلاد الروم وديار بكر وملحقاتها تحت سيطرة طغاجار نوين، على أن يكون صدر الدين الزنجاني نائباً له[١].

نهاية بايدو

قضى بايدو نحبه خلال الصراع على السلطة مع غازان بن أرغون، والمعروف أن الثاني كان طامعاً في العرش الإيلخاني، إلا أنه كان بعيداً عن مقر الحكم عندما توفي والده، فاتفق الأمراء على انتخاب بايدو منعاً لوقوع الفتن والقلاقل عقب وفاة الإيلخان، فغضب غازان، وشجعه الأمير نوروز على انتزاع حقه في الحكم بالقوة، وكان يده اليمنى في تحقيق ذلك.

كانت الدلائل تشير إلى عجز بايدو وضعفه، وأن حكمه بات وشيك السقوط، فراح أمراؤه ينفضون من حوله بعد أن أدركوا أن كفة غازان هي الراجحة. وتعقَّب نوروز بايدو وقبض عليه وقتله يوم الأربعاء (٢٣ ذي القعدة ٦٩٤هـ/ ٤ تشرين الأول ١٢٩٥م)، ودخل غازان العاصمة تبريز وسط ابتهاج السكان، واختاره الأمراء إيلخاناً يوم الأحد (٢٣ ذي الحجة/ ٢٢ تشرين الأول) وأجلسوه على العرش[٢].

---

(١) الصياد: ص٢٣٠، ٢٣١. D'ohsson: IV pp115-118.

(٢) ابن الفوطي: ص٣٢٨، ٣٢٩. الهمذاني: جامع التواريخ، تاريخ غازان خان: ص١٢٥ - ١٢٩. شبولر: ص٩٦.

الفصل الثامن

غازان بن أرغون

(٦٩٤ ـ ٧٠٣هـ/ ١٢٩٥ ـ ١٣٠٤م)

الأوضاع الداخلية

اعتناق غازان الإسلام

يُعدُّ غازان من بين أقوى الحكام المغول الإيلخانيين وأقدرهم، وهو من طراز هولاكو وجده أباقا. تولى الحكم بعد مقتل بايدو، حيث كان التطور الطبيعي لانتصاره عليه هو اعتلاؤه عرش الإيلخانية. وكان هذا الإيلخان، الذي نشأ بوذياً، قد اعتنق الإسلام قبل أن يتولى عرش إيران. وإذ واكبت مرحلة النصر النهائي للدين الإسلامي على غيره من الأديان، مرحلة انفصال مغول إيران عن قراقورم، حيث كان هذا من العوامل التي أدَّت إلى انتشار الإسلام في المجتمع المغولي وتغلغله داخل الأسرة المغولية الحاكمة، وقضائه على وثنية المغول، كما شكل حبل النجاة الذي تعلّق به غازان كي يُنقذ عرش إيران من مسيرة الوثنية المتحالفة مع النصارى، وتحوُّل مغول إيران إلى مدافعين أقوياء عن الدين الإسلامي، وأضحت ذرية هولاكو تدفع به إلى الأمام وتعمل جاهدة لتعويضه عما لحق به من خسارة على يد زعيمها هذا.

اعتنق غازان الإسلام على المذهب الحنفي السني يوم الجمعة (٤ شعبان ٦٩٤هـ/ ١٩ حزيران ١٢٩٥م) بتأثير أتابكه وقائد جيشه نوروز، وكان هذا القائد قد وعده، وهو ما يزال أميراً على خراسان، بمساعدته ضد بايدو مقابل وعد منه باعتناقه الإسلام، وقد أعلن غازان تحوُّله إلى هذا الدين على يد الشيخ صدر الدين إبراهيم ابن الشيخ سعد الدين حمويه الجويني، وتسمى باسم محمود، «وفشا الإسلام بذلك في التتار»[1]، واقتدى به معظم أمرائه وضباطه وجنده.

(١) المقريزي: جـ٢ ص٣٧٤، ٣٧٥. تاريخ وصاف: ص٣١٦.

تعقيب على اعتناق غازان الإسلام

ـ تمكَّن غازان، بفضل القوة الإسلامية التي التفَّت حوله، من التغلُّب على بايدو وقتله، واعتلاء عرش المغول الإيلخانيين. والواقع أنه منذ أن دفع الإيلخان أحمد تكودار حياته ثمناً لمحاولته الفاشلة، التحالف مع المسلمين، وبعد مرور عشرة أعوام على ذلك، تزايد خلالها عدد المسلمين ووصلوا إلى المراكز الهامة في الدولة، حملوا كثيراً من المغول على اعتناق الإسلام. وقد تقبَّل هؤلاء الدين الجديد بفعل تفكُّك الروابط التي كانت تربطهم بالصين، بلد الخان الأعظم، في الوقت الذي شهدت فيه الأسر المغولية الأخرى حالة من التنازع الداخلي، بالإضافة إلى اندماجهم في المجتمع الإسلامي وتشرُّبهم بالحضارة الإسلامية.

ـ وكان تحوُّل غازان إلى الإسلام نهائياً، وقد رأى فيه أمراً ضرورياً لاستمرار الحكم المغولي وسط محيط إسلامي[١]، كما قدَّم له المخرج الأمثل من المأزق الذي شعر الجميع بثقل وطأته على أثر التطورات السياسية والاقتصادية السلبية. إذ عندما اعتلى العرش كانت علائم الانهيار قد أضحت واضحة في جسم الدولة، ودفع الانهيار الاقتصادي الإيلخانيين إلى إصدار نقود ورقية تبعاً للنموذج الصيني، وقد أدَّى ذلك إلى جمود كامل في الأسواق أرغم الدولة على التراجع عن هذه الخطوة، كما ذكرنا، كما أن التشرذم في بنية الجيش المغولي استمر في التفاقم، بفعل تعدُّد مراكز القوى وتركَّزت الانقسامات حول الصراع على السلطة وانتقالها.

ـ أصدر غازان، فور اعتلائه العرش المغولي في إيران، عدة مراسيم نصَّت على:

أ ـ أن الدين الرسمي للدولة هو الإسلام.

ب ـ أن الآداب والرسوم يجب أن تُجرى وفقاً للشريعة الإسلامية.

جـ ـ أن على الأمراء والمسؤولين في الدولة أن يتوخَّوا العدالة التامة، ويمتنعوا عن إلحاق الأذى والضرر بالرعية، وغيَّر المغول، على أثر ذلك، زيَّهم، فلبسوا العمامة كشارة ملموسة لهذا التحول.

(١) Grousset: p404.

د ـ تدمير الكنائس النصرانية واليهودية، وتحطيم الهياكل والأصنام البوذية، ومجموعات الصور النصرانية، وضم حطامها بعضه إلى بعض، وتحويل كثير من الكنائس إلى مساجد، وخيَّر البوذيين بين اعتناق الدين الإسلامي أو المغادرة، ولم يعد باستطاعة النصارى واليهود أن يظهروا أمام الناس إلا في ثياب متميزة، فكانت علامة النصارى شدَّ الزنار في أوساطهم وعلامة اليهود خرقة صفراء في عمائمهم[١].

والواقع أن هذه التصرفات كانت رد فعل طبيعي نظراً لما لاقاه المسلمون من صنوف المهانة والذلة على يد هؤلاء، ونتيجة لسياسة التفرقة الدينية.

ـ كانت الظروف مؤاتية لقطع التقليد المغولي. ففي الصيف، توفي الخان الأعظم قوبيلاي، ونشبت ـ على إثر وفاته ـ صراعات حادة على العرش، الخالي، أسقطت عهود الإيلخانيين وشروط تحالفاتهم مع الصين المغولية، فاستغل غازان هذه الفرصة وأعلن استقلاله الكامل عن قراقورم، وتلقَّب بلقب خاقان، أي أنه رفض أن يستمر كنائب لحاكم غير مسلم حتى ولو كان ذلك الحاكم الخان الأعظم، والمعروف أن هذا اللقب كان محصوراً في امبراطورية المغول العظام في منغوليا والصين، وكتب اسمه على السكة «السلطان الأعظم غازان»، وأضاف إليه «بتأييد الله المتعال»[٢] ورفض أن ينقش اسم الخان الأعظم على عملة إيران لأنه كان كافراً وغير مسلم، وأصدر عملة نقش عليها عبارة «لا إله إلا الله محمد رسول الله» وخصَّ نفسه بالذكر على العملة وفي الخطبة من دون الخان الأعظم، وهي من مظاهر السيادة، ويعني هذا أن أسرة جنكيز خان لم تعد متماسكة.

ـ يُعدُّ اعتناق غازان وخلفائه للإسلام، واتخاذهم الدين الإسلامي، ديناً رسمياً للدولة، نقطة تحول هامة في تاريخ المغول بعامة وتاريخ الإيلخانيين في إيران بخاصة، إذ كان فاتحة عصر جديد يختلف عن سابقه بمميزات في مظاهر الحياة، من تغيير للنظم، ونبذ للعادات الوثنية، فانعكست آثاره على الداخل الإيراني وخارجه[٣].

ـ رَدَمَ إسلام غازان وخلفائه من بعده الهوة السحيقة التي كانت تفصل

(١) ابن الفوطي: ص٣٢٨.
(٢) شبولر: ص٢٧٣.
(٣) الصياد: ص٢٦٠.

الحكام والمحكومين بسبب الاختلاف الديني، ونَعِمَ الجميع بأخوة الإسلام، وبدلاً من المقاومة السلبية التي ظلَّ المسلمون يواجهون بها حكامهم الوثنيين، حلَّ تعاون إيجابي من جانب الرعية، فأُزيلت الحواجز الجنسية والطبقية الفاصلة بينهما، ما ساعد على فقدان الطبقة الحاكمة لمميزاتها، واندمجوا أكثر فأكثر في الحضارة الإسلامية[1].

ـ وضع إسلام غازان حداً لسياسة العطف على الأقليات النصرانية والبوذية، تلك السياسة التي كانت متبعة في عهد الإيلخانيين الأوائل، وانتهت الآن، كذلك فُرضت الجزية عليهم، وأضحوا يُعاملون كأهل الذمة[2].

ـ جاوزت التأثيرات الناتجة عن إسلام غازان، حدود إيران، فقد اعتنق الأمير المغولي «آننده»، حفيد قوبيلاي وحاكم إقليم التانغوت، الإسلام، مقتدياً بغازان[3].

غير أنه شاب هذا التحول إلى الإسلام شائبتان:

الأولى: تقرُّبه من البابوية وملوك أوروبا الغربية.

الثانية: موقفه العدائي من سلاطين المماليك، وهم الذين يُعدُّون حماة الإسلام ضد الصليبيين والوثنيين المغول في ذلك الحين.

والواقع أن هاتين المسألتين متداخلتان. فيما يتعلق بالمسألة الأولى، فقد كان غازان شديداً في معاملة أهل الذمة داخل مملكته، ولا يتناقض مع هذه السياسة، من وجهة نظره، ما عُرف عن اتصاله بالبابا بونيفاس الثامن (٦٩٣ ـ ٧٠٢هـ/ ١٢٩٤ ـ ١٣٠٣م) وبعض ملوك أوروبا، ذلك أن هذا الاتصال كان يخدم سياسته في بلاد الشام، وهي تتوافق في بعض جوانبها مع سياسة البابوية. فالبابا كان يسعى إلى محالفة المغول بعد أن نجح السلطان المملوكي الأشرف خليل بن قلاوون في استعادة آخر حصن صليبي في عام (٦٩٠هـ/ ١٢٩١م)[4]، ودعا إلى حرب صليبية ضد المماليك في عام (٦٩٩هـ/ ١٣٠٠م) للانتقام من هؤلاء واستعادة بيت المقدس، أما غازان فقد أراد أن يحقق حلم

(١) Grousset: p457. (٢) الصياد: ص٢٦١.
(٣) الهمذاني: جامع التواريخ: أز أغاز بيدايش قبايل مغول تا بايان دورة تيمور قان: جـ١ ص٦٧٣، ٦٧٤.
(٤) استعاد الأشرف خليل عكا وصور وصيدا والصرفند وبيروت وحيفا وجبيل وأنطرطوس وعثليت.

آبائه وأجداده في السيطرة على بلاد الشام ويحطِّم التحالف الذي كان يربط المماليك بأعدائه، مغول القبيلة الذهبية.

غير أن التحالف بين الطرفين لم يتحقَّق، ولم يصل غازان في استعانته بغير المسلمين في غزوه لبلاد الشام، لأكثر من ضم جنود من الأرمن والكرج، الذين كانوا تحت حكمه، إلى جيشه، وعلى الرغم من ذلك فقد سعى إلى تبرير غزوته إسلامياً، وهي التي جاءت رداً على «إغارة عسكر مصر على ماردين وبلادها في شهر رمضان المعظم... فطرقوا البلاد، وهتكوا محارم الله ﷻ... وأكلوا الحرام، وركبوا الآثام، وفعلوا ما لم تفعله عبّاد الأصنام: فأتانا أهل ماردين وبلادها مستصرخين... فوقفوا بأبوابنا ولاذوا بجنباتنا، فهزتنا نخوة الكرام، وحرَّكتنا حمية الإسلام...»، ويؤكد في رسالته، التي أرسلها إلى السلطان المملوكي الناصر محمد بن قلاوون في عام (٧٠٠هـ/ ١٣٠١م)، أن السبب الذي حمله على غزو بلاد الشام هو أخذ القصاص لأهل ماردين وديار بكر وفقاً للنصوص الشرعية[1].

هذا وقد اعترف الناصر محمد بن قلاوون بهجوم قام به بعض جنده ضد أهل ماردين، وارتكابهم ما أشار إليه غازان في رسالته، لكنه برَّر بأن ذلك لم يكن عن رأيه ولا بأمره[2]، كما أسند تلك الغارة لسبب آخر وهو عدم وجود الصلح أو موادعة بين الطرفين[3].

واستند غازان إلى سبب آخر حين اتهم سلاطين مصر بالعدوان والفساد وأشار إلى ظلمهم وخروجهم على الإيمان الصحيح، وأن في غزوه إنقاذاً للبلاد من هؤلاء الحكام الظلمة والفاسدين[4]، وهو حريص على إقامة العدل بين الرعية.

ومما لا شك فيه بأن بعض أمراء المماليك الذين فرُّوا إلى بلاط غازان، خوفاً على أنفسهم بعد مقتل السلطان المملوكي لاجين، وعلى رأسهم قبجق ـ قنجاق ـ أعطوا الخان المغولي صورة سيئة عن سياسة سلاطينهم في بلاد الشام، وحثُّوه على القيام بغزو تلك البلاد، لإنقاذها من ظلمهم، ولإقامة

(١) ابن أيبك، أبو بكر بن عبد الله الدوادار: كنز الدرر وجامع الغرر: جـ٩ ص٥٣ ـ ٥٥.
(٢) المصدر نفسه: ص٦٦، ٦٧. (٣) القلقشندي: جـ٧ ص٢٦٤ ـ ٢٧٢.
(٤) يُفهم ذلك من نص الأمان الذي أعطاه غازان لأهل دمشق في عام (٦٩٩هـ/ ١٣٠٠م). انظر: ابن أيبك: جـ٩ ص٢١.

الحق والعدل، وإعادة الإسلام إلى قلوب أهلها[1].

ولكن كيف يتفق ذلك مع عبث جنده في النواحي، وما قاموا به من فساد وإفساد وارتكاب أشنع الجرائم والمنكرات بحق السكان[2]، وما هو موقفه من تلك الأفعال التي جعلت البعض يتشكَّك في إخلاصه للإسلام؟

الراجح أنه لم يُبِحْ لجنده أن يقوموا بمثل تلك الأفعال، ولا ارتضاها منهم ولا أقرَّهم عليها، بل عاقبهم بالقتل، وأصدر مرسوماً حرَّم عليهم فيه التعرض لدمشق وأعمالها وسائر البلاد الشامية الإسلامية والتعدي على حرمات الناس[3].

تنظيم إدارة الدولة

عيَّن غازان نوروزاً أميراً للأمراء، عرفاناً بفضله، وفوَّض إليه الرقابة العامة على شؤون الدولة، وكان الإيلخان يعمل بمشورته، وأقدم بناء على طلبه، على:

- تغيير شكل الخاتم الكبير الأحمر - التمغا - فأضحى مستديراً بعد أن كان مربعاً، وذلك على سبيل التفاؤل.
- كتابة عبارة «بسم الله الرحمٰن الرحيم» في بدء الفرمانات والرسائل.
- كتابة أسماء الخلفاء الراشدين الأربعة على السكة، على نحو ما كان متبعاً في عهد الخلفاء العباسيين[4].

وولَّى غازان صدر الدين أحمد الخالدي الزنجاني الوزارة، ثم عزله بناء على وشاية نوروز بأنه يتلاعب بأموال الدولة، وولَّى مكانه جمال الدين الدستجرداني، وتمادى نوروز في وشايته لصدر الدين الزنجاني، فاتهمه بتدبير مؤامرة مع بعض الأمراء للإطاحة بحكم غازان، وصدر الأمر بقتله، لكن تدخل الأمير هرقداق، أحد قادة غازان، في هذه القضية لصالح الوزير، أقنع الإيلخان ببراءته، وصدر الأمر بالعفو عنه، وإعادة الاعتبار إليه، حيث أعيد إلى منصب الوزارة مرة أخرى في (محرم ٦٩٦هـ/ تشرين الثاني ١٢٩٦م)، بعد عزل جمال الدين الدستجرداني وقتله. وقد تمَّ هذا التغيير على الرغم من

(١) ابن الفوطي: ص٣٣٨. المقريزي: جـ٢ ص٣١٠.
(٢) ابن أيبك: جـ٩: ص٢٨، ٢٩، ٣١، ٤٦.
(٣) المصدر نفسه: ص٢٢، ٢٣. (٤) الصياد: ص٢٨٠.

معارضة نوروز الذي كان على علاقة سيئة بصدر الدين الزنجاني، ولا يرتاح له، وهذا يعني أن نجم الأمير نوروز بدأ بالأفول[1].

وعيَّن غازان طغاجار حاكماً على بلاد الروم، مدركاً بثاقب فكره أنه رجل سريع التقلُّب ويشكل مصدراً للقلاقل والفتن، لذلك أبعده عن مقر الحكم[2]، وأرسل الأمير هرقداق للإشراف على إقليم فارس، وعهد إليه بتنظيم أموره وجباية أمواله[3].

القضاء على نوروز

ذهب نوروز ضحية صراع الأمراء، ذلك أنه حدث تنافر بينه وبين تورين آقا، وكان هذا موضع سر غازان، يميل إليه ويثق به ويعتمد عليه، كما كان له سلطة ونفوذ كبيران في خراسان ومازندران.

وحدث آنذاك أن ثار بعض المتمردين في خراسان، بزعامة الأمير سوكا الذي اتهم نوروزاً بأنه كان السبب في تعيينه حاكماً على خراسان لإبعاده عن مركز الحكم، وسانده أمير التومان بارولا[4] فحقد عليه وقرَّر التخلُّص منه.

ومن جهته، اتهم نوروز تورين آقا بأنه كان السبب في ما حدث من تمرد، وحمَّله مسؤولية التقاعس وعدم الاكتراث بهدف الحط من منزلته وإضعاف موقفه أمام الإيلخان.

وحدث آنذاك أن مرضت زوجة نوروز، فذهب لعيادتها على الرغم من إلحاح غازان عليه أن يعدل عن الذهاب، ويعود مسرعاً إلى خراسان، وكان هذا الامتناع سبباً آخر جعل غازان يحقد عليه[5].

وعندما تحقَّق الأمراء من غضب غازان على نوروز، حذَّروه منه، ونصحوه بعدم إرساله إلى خراسان حتى لا يثير الفتن ويُعلن الثورة عليه، ويبدو أنه اقتنع بكلام أمرائه، إلا أنه لم يجاهر بالعداوة تجاهه، وترك الأمور تجري في مجراها الطبيعي حتى يحين الوقت المناسب.

وجاءت الفرصة عندما اتُّهم علم الدين قيصر، وهو غلام لأحد تجار بغداد، بأنه، بتكليف من نوروز، أجرى اتصالاً سرياً مع المماليك وأطمعهم

(١) الصياد: ص٢٨١.
(٢) الهمذاني: تاريخ غازان خان: ص١٣٠. (٣) المصدر نفسه: ص١٣٠، ١٣١.
(٤) المصدر نفسه: ص١٣٠. (٥) المصدر نفسه: ص١٣٦، ١٣٧.

في مهاجمة إيران، وقام الوزير صدر الدين الزنجاني بالاتفاق مع أخيه قطب الدين بتزوير رسائل على لسان نوروز موجهة إلى أمراء مصر والشام، تؤيد الاتهام الموجه إليه، فصدر الأمر بضرب علم الدين قيصر حتى الموت، وقتل نوروز مع جميع أفراد أسرته.

وكلَّف غازان قتلغ شاه بالقبض على نوروز والقضاء عليه، فاصطدم به بالقرب من نيسابور وتغلَّب عليه، فالتجأ إلى فخر الدين كرت، ملك هراة، وكان نوروز يثق به ويعتمد عليه، وتربطه به صلة قرابة[١]، ولكن هذا خشي من الدخول في نزاع مع المغول بسبب أمير معزول، فضرب بأعراف اللجوء السياسي عرض الحائط، فاعتقله وسلَّمه إلى قتلغ شاه الذي قتله في (٢٢ ذي القعدة ٦٩٦هـ/ ١١ تشرين الأول ١٢٩٧م)، كما قتل جميع أفراد أسرته[٢].

القضاء على الوزير صدر الدين الزنجاني

هوى الوزير صدر الدين الزنجاني نتيجة صراع الحاشية وأطماعها، فقد ارتفع شأنه بعد القضاء على نوروز، وشمله غازان برعايته، ومنحه الختم الأحمر ـ التمغا ـ[٣]. وفي غمرة التنافس بين أفراد الحاشية على المناصب والحظوة حدث أن حاول قطب الدين الشيرازي ومعين الدين الخراساني، وهما من العلماء المقرَّبين، أن يوقعا بالوزير صدر الدين، فاتهماه بالخيانة، وأنه يُنفق أموال الدولة وفق هواه من دون العودة إلى الإيلخان، غير أنهما فشلا في تسويق هذه التهمة بين الأمراء فضلاً عن الإيلخان، عندئذٍ لجآ إلى الإيقاع بينه وبين رشيد الدين الهمذاني، والمعروف أنه تربط الرجلين صداقة ومودة، وفشلا أيضاً في هذه المحاولة.

ويبدو أن هذا الصراع والتنافس بين الأمراء وأفراد الحاشية أثار أطماع صدر الدين للتخلص من صديقه رشيد الدين، وقد أساء الظن به، وحسده بفعل إيثار الإيلخان له، وراح يُدبِّر له المؤامرات، ولما أراد رشيد الدين أن يدافع عن نفسه أمام الإيلخان، أمره بالصمت قائلاً له: «لا تلوِّث لسانك بالرد عليه، وحافظ على سيرتك وطريقتك»[٤].

(١) كان فخر الدين كرت متزوجاً من ابنة أخي نوروز.
(٢) الهمذاني: ص١٤٢ ـ ١٤٤. المستوفي القزويني: تاريخ گزيدة: ص٦٠٤.
(٣) الهمذاني: ص١٤٩. (٤) المصدر نفسه: ص١٥١، ١٥٢.

وهدى تفكير صدر الدين أن يوقع بين رشيد الدين وبين أمير مغولي كبير، هو قتلغ شاه قائد الجيش، فشكا هذا الأخير إلى الإيلخان واتهمه بإساءة استعمال سلطته، وتسبَّب في خراب ولاية الكرج، فما كان من الإيلخان إلا أن عاتب قتلغ شاه، ولما سأل هذا الأخير الوزير صدر الدين عمن شكاه أجابه كذباً: «إنه رشيد الدين الطبيب، ففي هذه الأيام لا يوجد شخص غيره مقرباً من السلطان»[١].

وحدث أن التقى قتلغ شاه برشيد الدين، فعاتبه على سلوكه إزاءه ووشايته به عند غازان، على الرغم مما بينهما من مودة وصفاء، فأنكر رشيد الدين ذلك ونفى التهمة، وطلب منه أن يذكر له اسم الشخص الذي حمل إليه هذا الخبر الكاذب، وألمح له بعرض القضية على الإيلخان، ولما رفض قتلغ شاه أن يفصح عن اسم الواشي، قصد رشيد الدين غازان، وقصَّ عليه القصة، فاستدعاه الإيلخان وأجبره على البوح باسم ذلك الشخص، فاعترف قتلغ شاه بأنه الوزير صدر الدين، عندئذٍ غضب غازان وأمر بالقبض عليه وعلى أخيه قطب الدين.

والواقع أن غازان ضاق ذرعاً بمؤامرات صدر الدين ودسائسه ضد الأمراء. وبعد أن تمَّت محاكمته قُتل يوم الأحد (٢١ رجب ٦٩٧هـ/ ٤ أيار ١٢٩٨م)، وقتل أخوه في الشهر التالي[٢].

العلاقات الخارجية

العلاقة مع المماليك

تمهيد

الواقع أن اعتناق غازان للدين الإسلامي لم يكن رادعاً عن التفكير في تحقيق الهدف المغولي القديم الرامي إلى الاستيلاء على بلاد الشام ومصر. وقد استغل هذا الإيلخان حالة الضعف التي سادت مصر أثناء اغتصاب عرش الناصر محمد، على يد كل من كتبغا ولاجين[٣]، لمهاجمة بلاد الشام، والراجح أن العوامل التي شجَّعته على القيام بغاراته هي:

(١) الهمذاني: ص١٥٢.
(٢) ابن الفوطي: ص٣٣٤. تاريخ وصاف: ص١٤٦، ١٥٢، ١٥٣. الهمذاني: ص١٥١ ـ ١٥٤.
(٣) انظر كتابنا: تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام: ص٢١٢ ـ ٢١٩.

- التجاء الأمير سيف الدين قبجق، نائب دمشق المملوكي، مع أتباعه من الأمراء وخمسمائة من جنده، إلى غازان، وإطلاعه على ما آلت إليه الأوضاع في بلاد الشام ومصر من التدهور.
- العداوة التقليدية بين الإيلخانيين والمماليك.
- ترحيب كتبغا بالثائرين المغول العويراتية الوافدين إلى مصر، فارين من وجه الإيلخان المغولي.
- لقد أرسل الأمير بلبان الطباخي، نائب حلب، جيشاً إلى ديار بكر عاث فيها تخريباً، وحاصر ماردين، ما كان له أثر سيء في نفس الإيلخان.

والحقيقة أن العلاقات بين الدولتين الإيلخانية والمملوكية اتسمت بالعدائية، وعندما شعر غازان أن باستطاعته تحقيق الهدف الذي كان يرمي إليه مغول إيران منذ عهد هولاكو، وفي الوقت الذي كانت فيه الأوضاع الداخلية لدولة المماليك تمر في حالة ارتباك، بفعل الصراع على السلطة بين كتبغا ولاجين، قرَّر غزو بلاد الشام، وهذا يعني أن الإيلخان المغولي نظر إلى علاقاته مع المماليك المسلمين من المنظار السياسي وليس الديني، بهدف تحقيق طموحات المغول السياسية بالاستيلاء على بلاد الشام ومصر، وتحطيم الروابط بين هؤلاء وبين أعدائهم مغول القبيلة الذهبية في بلاد القبجاق، وإن كانت مواقفه الدينية من خلال تبادله الرسائل مع السلطان المملوكي، تنم عن نيته في تزعم العالم الإسلامي، واتخذ من مهاجمة الأمير سلامش المغولي[1]، بالاشتراك مع الأمير سيف الدين بلبان الطباخي نائب حلب، لقلعة ماردين ذريعة لتنفيذ مآربه[2].

واستردَّ الناصر محمد، في هذا الوقت (جمادى الأولى ٦٩٨هـ/ شباط ١٢٩٩م)[3]، سلطته في حكم مصر وبلاد الشام، فمال غازان إلى السياسة قبل الإقدام على الخطوة العسكرية، وحاول التفاهم مع السلطان المملوكي،

(١) سلامش: حاكم بلاد الروم من قِبل غازان، وقد سوَّلت له نفسه الخروج على حكمه والاستقلال بما تحت يده، فأرسل إليه غازان جيشاً بقيادة الأمير بولاي أنزل به الهزيمة، ففرَّ إلى مصر ملتجئاً بالسلطان المملوكي الذي ساعده على استرداد بلاد الروم، لكنه فشل، وقبض عليه غازان وقتله. المقريزي: جـ٢ ص٣١٣، ٣١٤.
(٢) المصدر نفسه: ص٣١٤. الهمذاني: ص١٥٩.
(٣) المقريزي: جـ٢ ص٣١٠، ٣١١.

فأرسل إليه وفداً من القضاة والأئمة والثقات بصحبة يعقوب الكرجي، من أجل هذه الغاية، ويبدو أن الناصر محمد لم يقتنع بنية غازان السلمية، فأهان أعضاء الوفد وسجنهم، ويعني ذلك في العرف السياسي، إعلاناً للحرب، ما أغضب غازان[1]، وهكذا فشلت محاولة التفاهم بين الطرفين، وكان لا بد من الصدام لتقرير المصير.

قام غازان بثلاث حملات عسكرية ضد بلاد الشام للسيطرة عليها، غير أنها فشلت في تحقيق الهدف المنشود، ولم ينتج عنها سوى القتل والتخريب والتدمير، ومزيد من العداء والتباعد بين الجانبين.

الحملة الأولى: معركة مجمع المروج[2]

غادر غازان عاصمته تبريز في (١٩ محرم ٦٩٩هـ/ ١٦ تشرين الأول ١٢٩٩م) على رأس جيش كثيف، وعلى مقدمته قتلغ شاه، فعبر نهر الفرات في (١٢ ربيع الأول/ ٧ كانون الأول)، وانضم إليه الملك الأرميني هيثوم الثاني على رأس خمسة آلاف مقاتل، ووصل إلى حلب[3].

ولما وصلت أنباء الزحف المغولي إلى مصر، عهد الناصر محمد إلى بعض الأمراء بالخروج إلى بلاد الشام للتصدي لهم، ثم تبعهم على رأس جيش كبير بعد أن أناب عنه في مصر الأمير ركن الدين بيبرس المنصوري الدوادار[4].

ويبدوا أن الأمراء الذين خرجوا مع السلطان الناصر محمد لم يكونوا على وفاق، وساد بينهم الحسد والتباغض، بدليل أنه لم يكد الموكب السلطاني يصل إلى غزة حتى اكتشف السلطان مؤامرة دبرها زعماء الطائفة العويراتية المغولية، وانضم إليهم الأمراء الناقمون، هدفها:
- التخلص من السلطان ووزرائه، وبخاصة الأميرين سلار وبيبرس.
- إعادة الملك العادل كتبغا إلى العرش بوصفه مغولي الأصل.
- الأخذ بثأر إخوانهم الذين قُتلوا في عهد لاجين.

نتج عن هذه المؤامرة انتشار الفوضى، وحصول ارتباك بين صفوف الجيش

(١) وردت الإشارة إلى هذا الوفد في الرسالة التي أرسلها غازان إلى الناصر محمد بعد معركة مجمع المروج. النويري: جـ٣١ ص٤٢٧.
(٢) مجمع المروج: يقع في وادي الخازندار بين حمص وحماة.
(٣) الهمذاني: ص١٦٠. (٤) المقريزي: جـ٢ ص٣١٩.

المملوكي، وفقدان كثير من تجهيزاته، الأمر الذي أخَّر زحفه، ولقد أُحبطت هذه المؤامرة، ولقي المتآمرون جزاء فعلتهم، وقُتل من العويراتية نحو خمسين رجلاً[1].

استأنف الجيش زحفه بعد أن أُعيد النظام إلى صفوفه حتى نزل بعسقلان، ومنها سار إلى دمشق فوصل إليها في (٨ ربيع الأول ٦٩٩هـ/ ٤ كانون الأول ١٢٩٩م)، وتابع زحفه شمالاً حتى وصل إلى حمص وعسكر عندها، وأرسل الكشافة لاستطلاع أخبار المغول الذين وصلوا في هذا الوقت إلى قرب سلمية من أعمال حماة، ثم استأنف الجيش المملوكي تقدمه حتى ظهرت أمامه طلائع الجيش المغولي.

والتقى الجيشان عند مجمع المروج، شرقي حمص، حيث دارت بينهما رحى معركة ضارية في (٢٧ ربيع الأول/ ٢٣ كانون الأول) أسفرت عن هزيمة المماليك وانتصار المغول، وغادر السلطان الناصر محمد أرض المعركة إلى بعلبك ومنها إلى دمشق تاركاً وراءه كميات وافرة من العتاد والمؤن[2].

لم يطارد غازان فلول الجيش المملوكي المنهزم، لأنه خشي أن يكون المماليك أعدُّوا كميناً للإيقاع به، وعسكر بعد انتهاء المعركة بالقرب من حمص، فحضر إليه حاكم المدينة وسلَّمه مفاتيحها، وقدَّم إليه أهل حمص الطاعة، وانتشرت قواته في القرى المجاورة تنهب وتدمر وتقتل، جرياً على عادتها.

ويبدو أن انهزام المماليك على هذا الشكل يعود إلى عدة عوامل أهمها:

- تفوق المغول في العدد والتجهيزات، إذ إن عدد أفراد الجيش المملوكي بلغ بضعة وعشرين ألفاً والمغول نحو مائة ألف[3].
- تسبَّبت المؤامرة التي دُبِّرت للتخلص من السلطان الناصر محمد وأمرائه في إضعاف الروح المعنوية لقواته.
- سطع في هذه المؤامرة، نجما الأمير سلار وبيبرس الجاشنكير، ما أثار حسد باقي الأمراء، فأحجم بعضهم عن الاشتراك في الحملة[4]، فتناقص عدد أفراد الجيش.

(١) النويري: جـ٣١ ص٣٨٣. المقريزي: جـ٢ ص٣١٨.
(٢) النويري: جـ٣١ ص٣٨٤، ٣٨٥. الهمذاني: ص١٦٠ - ١٦٣.
(٣) المقريزي: جـ٢ ص٣١٩. (٤) المصدر نفسه: ص٣١٧.

- سوء التدبير الذي رافق الحملة.
- افتقار الجيش للإعداد النفسي.
- إنهاك الرجال والدواب نتيجة سرعة انتقال الجيش. فقد حثَّ السلطان على السير لملاقاة المغول قبل وصولهم إلى دمشق، فقطع ثلاث مراحل في مرحلة واحدة[1].
- فشل الخطة العسكرية التي وضعها قادة المماليك لخوض المعركة، والقائمة على ضرب الجناحين وإخراجهما من ساحة القتال ثم ضرب القلب. وفعلاً تمكَّنت ميسرة المماليك من هزيمة ميمنة الجيش المغولي وطاردتها حتى حمص، إلا أن الميمنة فشلت في زحزحة ميسرة المغول عن مواقعها، فولَّت هاربة تحت ضغط القتال، وتمَّت هزيمتها. وكاد غازان أن يولِّي الأدبار في إحدى مراحل المعركة، إلا أنه ثبت في القلب وكرَّ على قلب الجيش المملوكي وبدَّده، فدبَّت الفوضى في صفوف المماليك وفرُّوا لا يلوون على شيء، وعلى رأسهم السلطان[2].

شجَّع هذا الانتصار غازان على مواصلة الزحف نحو دمشق، ولما علم الدماشقة بذلك، دبَّ الرعب في قلوبهم، وتزاحموا على أبواب مدينتهم يريدون الخروج منها؛ فسار بعضهم باتجاه مصر، واعتصم بعضهم الآخر بقمم الجبال والقرى النائية، باستثناء جماعة من العقلاء اتفقوا على اختيار وفد من أعيان المدينة وعلمائها للاجتماع بغازان، وطلب الأمان منه، كان من بينهم قاضي القضاة بدر الدين محمد بن جماعة، وشيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن تيمية، وقابلوه بالنبك[3]، فأخبرهم أنه أرسل أماناً، مع بعض رسله، إلى أهل دمشق فعادوا أدراجهم. وعُقِدَ في اليوم التالي اجتماع في المسجد الأموي تلا فيه رسول المغول كتاب الأمان. وقد أوضح غازان سبب الحملة، وهو معاقبة المماليك بفعل خروجهم عن الدين، وظلمهم للعباد، وتضمَّن أمراً إلى جنوده بعدم التعدي على أهل الشام، وأمَّن الناس جميعاً، على اختلاف أديانهم؛ على حياتهم وأرواحهم وأموالهم وحرياتهم، بشرط أن يؤدي أهل الذمة الجزية المقررة عليهم، ووعدهم بحكومة عادلة[4].

(١) النويري: جـ٣١ ص٣٨٤. (٢) المصدر نفسه: ص٣٨٥.
(٣) النبك: قرية بين حمص ودمشق. الحموي: جـ٥ ص٢٥٨.
(٤) انظر نص الأمان عند المقريزي: جـ٣١ ص٣٨٩ - ٣٩٢.

ووصل غازان إلى الغوطة في (١٠ ربيع الآخر ٦٩٩هـ/ ٦ كانون الثاني ١٣٠٠م)[1]، وخُطب له على منابر دمشق بهذه الألقاب «مولانا السلطان الأعظم سلطان الإسلام والمسلمين مظفر الدنيا والدين محمود غازان»[2] وكان ذلك إيذاناً بخضوع بلاد الشام لسيطرة المغول.

لكن الإيلخان المغولي لم يحافظ على العهود التي تضمنها الأمان لأهل دمشق، فسُرعان ما عاثت جيوشه فساداً في ظاهر المدينة، وأنزل جنوده المحن والبلايا بالسكان، فنُهبت الأموال، وندرت الأقوات وغلت الأسعار واشتطوا في جمع الأموال حتى عجز كثير من الناس عن دفع ما فُرض عليهم[3].

وحاول الشيخ أحمد بن تيمية الاجتماع بغازان ليشكو له ما فعل جنوده، بعد أمانه، غير أنه لم يتمكّن من ذلك، فاجتمع بالوزيرين سعد الدين ورشيد الدين، فقالا له: «لا بد من المال» فانصرف[4].

وعلى الرغم من أن دمشق خضعت تماماً للسيطرة المغولية، إلا أن قلعتها استمرت بالمقاومة بقيادة الأمير علم الدين سنجر المنصوري، المعروف باسم أرغواش، وقد حال دون استيلاء المغيرين عليها[5].

وامتدت أيدي المغول إلى بيت المقدس والخليل والكرك تنهب وتدمر وتأسر من دون رحمة، ودخلوا غزة[6].

وعيَّن غازان الأمير قبجق، الذي اتصف بالتقلُّبات السريعة، والياً على بلاد الشام، كما أسند إليه ولاية القضاء والخطباء، وأقام قتلغ شاه قائداً للحامية التي تركها في بلاد الشام والبالغة ستين ألفاً[7].

وبعد أن اطمأن الإيلخان على الأوضاع العامة عاد إلى بلاده في (جمادى الأولى ٦٩٩هـ/ شباط ١٣٠٠م)، ووعد أهل دمشق بأنه سيعود في فصل الخريف ليزحف إلى مصر. ولم يلبث قتلغ شاه أن غادر بلاد الشام بعد عشرة أيام من مغادرة غازان، فانفرد قبجق بحكومة دمشق، لكنه سرعان ما رأى أن مصلحته تقضي عليه بالعودة إلى حظيرة الدولة المملوكية، فغدر بالمغول وطردهم من بلاد الشام، وأبلغ السلطان الناصر محمد دخوله في طاعته،

(١) النويري: جـ٣١ ص٣٩٣.
(٢) المصدر نفسه: ص٣٩٤.
(٣) ابن كثير: جـ١٤ ص٧، ٨.
(٤) المصدر نفسه: ص٨.
(٥) المصدر نفسه: ص٧، ٨.
(٦) النويري: جـ٣١ ص٤٠٠، ٤٠١.
(٧) المقريزي: جـ٢ ص٣٢٤، ٣٢٥.

وبذلك عادت هذه البلاد مرة أخرى إلى حظيرة الدولة المملوكية واستبشر أهل دمشق[1].

الحملة الثانية

مما لا شكّ فيه أن الهزيمة التي حلَّت بالمماليك كانت درساً وعبرة للسلطان الناصر محمد، ودافعاً له إلى ضرورة استكمال النقص، والتخطيط السليم قبل الدخول في المعركة المقبلة التي كان ينوي خوضها ضد المغول لمحو العار الذي لحق به، ولم ينتظر طويلاً حتى شرع في الاستعداد للعودة إلى بلاد الشام، واتَّخذ عدة تدابير تنفيذية لتقوية الجهاز العسكري أهمها:

- فَرَضَ ضرائب جديدة.
- حثَّ الأغنياء على التبرع بالمال.
- دَعَمَ قوة الجيش بالتجهيزات الكافية التي تسمح له بخوض المعركة، فطلب من عمال الأقاليم في مصر أن يجمعوا الخيول والرماح والسيوف، من سائر الوجهين القبلي والبحري، كما استدعى قوات الاحتياط ممن تركوا الخدمة العسكرية.
- طلب من نواب بلاد الشام التشدُّد في حماية ما بحوزتهم، وأخبرهم بما استقر عليه الرأي من العودة مرة ثانية إلى هذه البلاد[2].

والواقع أن غازان استمرَّ في تصميمه على غزو بلاد الشام، ولم يُقلع نهائياً عن ضمِّها، هي ومصر، إلى أملاكه، وراح يتحين الفرص لتحقيق ذلك ما يدل على أن العداء لم ينتهِ بين المغول في إيران والمماليك.

ورأى الإيلخان في (محرم٧٠٠هـ/ أيلول ١٣٠٠م) أن الفرصة أضحت مؤاتية للقيام بحملة أخرى على بلاد الشام، وكان الفصل شتاء، فخرج من تبريز متوجهاً إلى حلب عن طريق الموصل، فأخلى الحلبيون مدينتهم، وعمَّ الذعر سائر مدن بلاد الشام[3].

ولما وصل الخبر إلى مسامع السلطان الناصر محمد، جهَّز حملة عسكرية وخرج على رأسها، ولما وصل إلى غزة ورده خبر عبور غازان نهر الفرات،

(١) النويري: جـ٣١ ص٣٩٧، ٣٩٨. ابن كثير: جـ١٤ ص٩.
(٢) النويري: جـ٣١ ص٤٠١ ـ ٤٠٣. Howorth: III pp446, 447.
(٣) ابن كثير: جـ١٤ ص١٤. الهمذاني: ص١٦٧، ١٦٨.

فأمر جنوده بالاستعداد للتصدي له[١].

ويبدو أن عامل المناخ أدَّى دوراً بارزاً في تحديد اتجاهات الطرفين، وحال دون لقهائهما في معركة. فقد حدث في ذلك الوقت أن هطل المطر بغزارة، وكثر الوحل، واشتدَّت البرودة، فهلك كثير من جند المغول، كما نفق أكثر خيلهم ودوابهم، وكان غازان قد وصل في غضون ذلك، إلى أنطاكية، فرأى نفسه عاجزاً عن الاستمرار في الزحف واضطر للعودة إلى إيران في (جمادى الأولى ٧٠٠هـ/كانون الثاني ١٣٠١م)، بعد أن نهبت قواته أنطاكية وجبل السماق[٢].

والواضح أنه على الرغم من اعتناق غازان الدين الإسلامي، فإن نظرته السياسية إلى طبيعة الصراع مع المماليك، لم تمنعه من الترحيب بحلفاء نصارى من أجل الحصول على مساعداتهم بهدف زيادة قوته، والتحالف معهم للقضاء على الدولة المملوكية، كما سنرى أثناء بحث علاقاته مع النصارى الأوروبيين. غير أن المفاوضات مع الغرب الأوروبي لم تؤدِّ إلى نتيجة إيجابية، وبالتالي فإن الإيلخان يئس أخيراً من مناصرة ملوك وأمراء أوروبا له، وكان قد نُمي إليه بأن المماليك يتهيَّؤون للأخذ بثأرهم، فمال إلى المهادنة، فأرسل في (رمضان ٧٠٠هـ/أيار ١٣٠١م) رسالة إلى السلطان الناصر محمد تتضمَّن أفكاراً تعبِّر عن وجهه نظره لتحسين العلاقات بين الدولتين ممزوجة بالتهديد والوعيد، وقد ردَّ السلطان المملوكي برسالة مماثلة[٣].

إن قراءة متأنية لرسالة الإيلخان، والرد عليها من قِبل السلطان المملوكي تُمكِّننا من رصد الملاحظات التالية:

فيما يتعلق بغازان

- أراد غازان أن يخضع بلاد الشام ومصر لكي يصبح وحده حامي الإسلام

(١) المنصور، بيبرس الدوادار: التحفة الملوكية في الدولة التركية: ص١٦٠.

(٢) النويري: جـ٣١ ص٤١٥. وجبال السماق سلسلة مرتفعات عظيمة بجهات حلب وتشتمل على مدن كبيرة وقرى وقلاع للإسماعيلية، ولعلها اتخذت هذا الاسم لكثرة ما ينبت بها من أشجار السماق التي تقارب أشجار الرمان في الطول، وتحمل عناقيد ذات حب شديد الحموضة. الحموي: جـ٢ ص١٠٢.

(٣) انظر نص رسالة غازان، والرد عليها من قِبَل السلطان الناصر محمد، عند النويري: جـ٣١ ص٤٢٦ ـ ٤٤١.

والمسلمين في المنطقة بدلاً من السلطان المملوكي الذي يشغل هذه المكانة.

- عاب على السلطان المملوكي إقدامه على مهاجمة أطراف بلاده من غير سبب، وتوعَّده بالانتقام إذا لم يكف عن تعدياته.

- اتَّهم حكام مصر بالظلم والخروج على مقتضيات الإيمان الصحيح، في الوقت الذي أظهر شدة تمسكه بالإسلام، ويبدو أنه هدف إلى إظهار أحقيته في ولاية أمر المسلمين جميعاً بدلاً من السلطان المملوكي.

- حاول أن يُبرِّر غزوه لبلاد الشام إسلامياً، وهي أن الغارة التي قام بها عسكر حلب على ماردين حصلت في شهر رمضان الذي يعظِّمه المسلمون في سائر الأقطار، فهتكوا بذلك محارم الله ﷻ، وأكلوا الحرام وارتكبوا الآثام، وفعلوا ما لا يفعله عبّاد الأصنام، فاستصرخه أهل ماردين واستنجدوا به، فقام ليأخذ القصاص لهم.

- ناشد السلطان باسم الدين أن يعمل على تلافي ما قد يقع ببلاده من الخراب، وما يحل بالعباد من البلاء.

- هدَّده وتوعَّده إذا لم يمتثل لأمره، وأخبره بأن المغول قد تجهَّزوا للمسير إلى بلاده عند الضرورة.

- طلب منه أن يرسل إليه الهدايا والتحف. وختم رسالته بقوله: «قد أعذر من أنذر وأنصف من حذَّر».

وفيما يتعلق بالناصر محمد

- حاول السلطان الناصر محمد أن يُبيِّن لغازان، من خلال رده، أسبقية المماليك في اعتناق الإسلام من المغول، وبالتالي فهم أخلص منهم في حمايته.

- رفض أن يتنازل عن المكانة الإسلامية التي يتمتع بها، وهي تبوُّء مركز الصدارة في حماية الإسلام والمسلمين، وهو بالتالي يرفض التَّبعية.

- تنمُّ عبارات رده على أنه لم يجبه على تلبية طلباته خشية من تهديده، وخاطبه مخاطبة الند للند[١].

- فنَّد مزاعمه وبرهن بالأدلة أن المغول هم الذين بدأوا بالشر وبادروا بالعدوان، وبرَّر أعمال جنوده في ماردين بأنه لم يكن عن رأيه، بالإضافة إلى

(١) الصياد: ص٢٩٠.

عدم وجود صلح بين الطرفين ما أطمع أمراء الأطراف بالغارة، وأن رسله جاؤوا في وقت اشتبكت فيه الأسنَّة بالرماح.

- رفض أن يرسل إليه ما طلب من الهدايا والتحف حتى يبدأ هو بإرسالها إليه وحينئذٍ يردها عليه مضاعفة.

- أعرب له عن استعداده لمصادقته إذا خفَّف من غلوائه وصرف الكفار من بطانته، وأرسل إليه الرسل لتؤكد رغبته في الصلح والعمل على خير البلدين.

لكن تبادل الرسائل لم يُسفر عن شيء إلا التراشق بالتهم والتهديد والوعيد وعرض القوة، ويبدو أن ردَّ الناصر محمد أوغر صدر غازان، وبدا أن الصلح بين الطرفين بعيد المنال، بل مستحيل، ولا بد من مواصلة الصراع. وهكذا فشلت محاولة التفاهم بين الطرفين.

ويبدو أن طبيعة كل من المغول والمماليك النفسية حالت دون اتفاقهما، فهما يشتركان بصفات بدوية خشنة، وطباع قاسية، وشجاعة إلى حد التهور، ومن الواضح أن الصراع بينهما كان أمراً طبيعياً بوصفهما جارين آمن كل منهما بفكرة الحرب ومبدأ الغزو، واتخذ هذا المبدأ محوراً لنشأته ومجالاً لحياته.

الحملة الثالثة: معركة عُرْض[1]

بعد فشل إحلال السلام بين الدولتين المغولية في إيران والمملوكية، قرَّر غازان غزو بلاد الشام للمرة الثالثة، فقاد في (جمادى الآخرة ٧٠٢هـ/ شباط ١٣٠٣م) جيشاً جراراً عبر به الفرات ونزل في الحلَّة حيث زار مشهد الإمام حسين في كربلاء، ووزَّع الهدايا، وتعطَّف على العلماء والمشايخ، ثم تقدَّم إلى عانة على شاطئ الفرات، فوصل إليها في شهر (رجب/ آذار)، وبعد أن أمضى فيها عدة أيام انتقل إلى الرحبة على الشاطئ الأيمن لنهر الفرات، بين عانة والرقة، وحاصرها فاستسلمت له، وحاول استقطاب الأمير عز الدين أيبك الأفرم، نائب الشام، فأرسل إليه كتاباً يُوضِّح فيه أنه حين هاجم بلاد الشام من قبل لم يكن معتدياً، وأن السلطان أخطأ في تقدير الموقف السياسي، فلم يتبع طريق اللباقة في رده، ويضيف بأن بلاد الشام كانت تابعة

(١) عُرْضَ: بليدة في برية الشام من أعمال حلب بين تدمر والرصافة. الحموي: جـ٤ ص١٠٣.

فيما مضى للروم[1] تارة، وللعراق تارة أخرى، ولم تكن تابعة لمصر، وطلب منه أن تكون غزة والرملة من ثغور مصر، وبرَّر تصرف جنوده السيء أنه حصل بغير أمره، وعرض عليه الدخول في طاعته[2].

ومهما يكن من أمر، فقد غادر غازان الرحبة عائداً إلى إيران بعد أن ترك مهمة الاستيلاء على بلاد الشام لقائده قتلغ شاه، فعبر الفرات وسار إلى سنجار، ثم عبر دجلة وتوجَّه إلى مدينة كشف، التي تقع على مسيرة يومين من أردبيل، وأقام فيها ينتظر نتيجة المعركة.

ويبدو أنه عانى من تهديد حدود بلاده الشرقية، أو أنه علم بمحاولة السلطان محمد الناصر استقطاب بعض قادته المقرَّبين منه، ومستشاريه الذين حذَّروه من حرِّ بلاد الشام، ومن المتاعب التي سيصادفها هناك[3].

وسار قتلغ شاه إلى بلاد الشام على رأس جيش جرار بلغ تعداده ثمانين ألف جندي، وقيل مائة ألف، ونزل على نهر الفرات[4]. ومن جهته استعدَّ السلطان الناصر محمد للقاء العدو، فاختار صفوة أمرائه لقيادة الجيش، وأرسل في مقدمته الأمير بيبرس الجاشنكير، فدخل دمشق في (شعبان/ نيسان)، ولما اطلع على الأوضاع العسكرية فيها، وعلم باقتراب المغول كتب إلى السلطان يستحثه على الخروج[5].

ووصل قتلغ شاه في هذه الأثناء إلى حماة وأرسل فرقة عسكرية مؤلفة من أربعة آلاف جندي إلى القريتين[6] بهدف القتل والنهب وفرض هيبته في قلوب السكان، فتصدَّى لهم نائب طرابلس في موضع عُرْض، ومعه ألف وخمسمائة جندي، وأخذهم على حين غرَّة. استمرت المعركة من منتصف النهار حتى العصر، وأسفرت عن هزيمة الفرقة المغولية، ووقع ألف وثمانمائة جندي مغولي في الأسر، بالإضافة إلى مائة وثمانين من الأرمن، وتمَّ إنقاذ ستة آلاف

(١) المقصود بالروم: السلاجقة.
(٢) انظر نص الكتاب عند: العيني، بدر الدين محمود: عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان: جـ٤ ص٢١٠ ـ ٢١٧.
(٣) الصياد: ص٢٩٩.
(٤) المرجع نفسه: ص٣٠٠. المقريزي: جـ٢ ص٣٥٥.
(٥) ابن كثير: جـ١٤ ص٢٣.
(٦) القريتان: بلدة كبيرة من أعمال حمص وتدعى حوارين. الحموي: جـ٤ ص٣٣٥، ٣٣٦.

أسير من التركمان كانوا قد وقعوا في قبضة المغول، وقد أُبلغ السلطان الناصر محمد نبأ هذا الانتصار الذي علَّق عليه المؤرخ أبو الفداء الذي حضر المعركة، بعد ذلك «وكان هذا النصر عنوان النصر الثاني»[1]، ويقصد النصر في معركة شَقْحَب[2]، كما سيمر معنا.

يُعدُّ هذا الانتصار مهماً للمماليك، فقد رفع روحهم المعنوية التي تراجعت عقب الخسارة التي لحقت بهم في مجمع المروج، وتشجَّعوا على قتال العدو بعدما دبَّ اليأس في قلوبهم.

معركة شَقْحَب

استأنف قتلغ شاه زحفه باتجاه دمشق، في حين خرج الناصر محمد من القاهرة على رأس خمسين ألف مقاتل قاصداً دمشق، واصطحب معه الخليفة العباسي المستكفي بالله، وكان قد سبقه إليها الأميران ركن الدين بيبرس الجاشنكير وحسام الدين لاجين الاستادار المنصوري، فاطمأنت قلوب الناس بعد أن خشوا عاقبة الأمر[3].

والواقع أنه حصل الارتباك في حلب وحماة وحمص بعد أن تقهقرت القوات الحلبية والحموية إلى حمص أمام تقدم المغول، ونزلت هذه القوات في مرج الصُفَّر[4] في (٥ شعبان ٧٠٢هـ/ ٢٥ آذار ١٣٠٣م)، ووصل المغول في هذا الوقت إلى حمص وبعلبك، وعاثوا فساداً فيهما[5]. وانتاب الناس القلق مجدداً لأن جيش الشام مع القوات التي قدمت من مصر لا تستطيع وحدها الوقوف في وجههم نظراً لكثرتهم العددية. وعلى الرغم من ذلك، قرَّر القادة والأمراء والأعيان وذوو الرأي، الخروج للقاء العدو، ثم خرج شيخ الإسلام ابن تيمية إلى المرج واجتمع بالجند القادمين من حماة، وأخبرهم بما تحالف عليه الأمراء والعامة، فتحالفوا معهم[6].

وخرجت العساكر الشامية في (٢٤ شعبان/ ١٣ نيسان) وخيَّمت على الجسورة من ناحية الكسوة، في الوقت الذي وصل فيه المغول إلى مشارف

(١) المختصر في أخبار البشر: جـ٧ ص٥٨.
(٢) شَقْحَب: قرية في الشمال الغربي من جبل غباغب من أعمال حوران، من نواحي دمشق في طرف مرج الصُفَّر. الحموي: جـ٤ ص١٨٤.
(٣) المقريزي: جـ٢ ص٣٥٥.
(٤) مرج الصُفَّر، بدمشق.
(٥) ابن كثير: جـ١٤ ص٢٣.
(٦) المصدر نفسه.

دمشق، فاضطرب أمر الناس مجدداً، وغرقت المدينة في بحر من الفوضى وانتشرت اللصوصية، ولم تهدأ الأوضاع، وتطمئن القلوب، إلا بوصول السلطان يوم السبت (٢ رمضان/ ١ أيار) حيث عقد اجتماعاً فورياً مع قادته، تقرَّر فيه لقاء العدو بشَقْحَب تحت جبل غباغب من أرض مرج الصُفَّر[1].

وتعبأ الجيشان استعداداً للمعركة، واستعرض السلطان، بصحبة الخليفة، الجيش ومعهما القرَّاء يتلون القرآن ويحثُّون على الجهاد[2]. والتقى الطرفان في رحى معركة رهيبة بدأت عصر يوم السبت واستمرت إلى الساعة الثانية من بعد ظهر يوم الأحد، أبلى فيها المماليك وجيوش الشام بلاءً حسناً، فتمَّ لهم النصر المؤزَّر، وهلك عدد كبير من المغول، وأُسر بعضهم، وطارد المنتصرون فلول المنهزمين حتى الرحبة وقتلوا الكثير منهم، وحتى الذين استطاعوا النجاة صادفهم نهر الفرات فلم يتمكَّنوا من العبور، وغرق أكثرهم، واختار بعضهم السير بمحاذاة النهر قاصدين بغداد، ولكن هلك أكثرهم جوعاً، ولم يصل إلى غازان سوى واحد من كل عشرة، بمعنى أن عدد الذين قتلوا وأُسروا بلغ تسعة أعشار الجيش[3].

دخل السلطان الناصر محمد، بعد المعركة، مدينة دمشق وسط مظاهر الابتهاج، وأوفد مبعوثاً خاصاً إلى مصر ليقوم بتبليغ هذه البشارة، ومكث فيها حتى عيد الفطر أنعم خلالها على الأمراء وصلَّى فيها صلاة العيد ثم غادرها في (٣ شوال/ ٢١ أيار) عائداً إلى القاهرة[4].

ولما وصل خبر الهزيمة إلى غازان اغتمَّ لأنه لم يذق طعم الهزيمة من قبل، وازداد غضبه حين وصل إليه كتاب من السلطان المملوكي يُحقِّر من شأنه، ويتهكَّم عليه في سخرية لاذعة، ويطلب منه الجلاء فوراً عن العراق وتركها للخليفة العباسي، وهدَّده قائلاً: «وإن سوَّلت لك نفسك بخلاف ذلك، فأنت لا محالة هالك، وعما قليل يخلو منك العراق والعجم وتندم حيث لا ينفع الندم»[5].

أما عامة المغول فقد أُسقط في أيديهم، واضطربوا اضطراباً شديداً،

(١) ابن كثير: جـ١٤ ص٢٤.
(٢) المنصوري: ص١٦٥، ١٦٦.
(٣) ابن كثير: جـ١٤ ص٢٥، ٢٦. المقريزي: جـ٢ ص٣٥٦ ـ ٣٥٨.
(٤) ابن كثير: جـ١٤ ص٢٦. المنصوري: ص١٦٨ ـ ١٧٠.
(٥) انظر نص الكتاب في: عقد الجمان، للعيني: جـ٤ ص٢٤٧ ـ ٢٥١.

وخرج أهل تبريز للقاء المنهزمين أسوأ استقبال، ليطَّلعوا منهم على أسباب الهزيمة، وليعرفوا من فُقِدَ منهم، حتى إذا وقفوا على الحقيقة القاسية، علت الصرخات، وعمَّ الحزن، وقامت النياحة على القتلى مدة شهرين كاملين[١].

ودفع الحزن بغازان إلى أن ينزل العقاب بقادته المقصِّرين، ولم ينجُ قتلغ شاه من سخطه، وأمر بقتله، ثم تراجع عن ذلك بعد تدخل الأمراء، فعفا عنه، لكنه طرده من مجلسه ونفاه إلى جيلان[٢].

كانت معركة شَقْحَب إيذاناً بأفول نجم غازان. فبالإضافة إلى الخسارة الجسيمة التي مني بها، فقد كثرت الدسائس والمؤامرات من قِبَل الأمراء المغول لخلعه عن العرش، فكان من الطبيعي أن يكون لهذه الأحداث تأثير كبير عليه.

العلاقة مع المغول العظام

اتسمت العلاقة بين غازان وأباطرة المغول العظام في الصين بالجيدة على الرغم من أنه انفصل نهائياً عن هؤلاء وخرج من تبعيته لهم، وكان السفراء يترددون بين الدولتين. والواقع أن قوة المغول العظام قد تراجعت، ولم يعد للخانات العظام سوى هيمنة اسمية على الأسر المغولية التي قامت على أنقاض امبراطورية جنكيز خان، واعترف هؤلاء بالأمر الواقع.

أرسل غازان في عام (٦٩٧ ـ ٦٩٨هـ/١٢٩٨م) رسولين إلى الصين، هما الملك المعظم فخر الدين أحمد وبوقاي إيلجي، وحمَّلهما رسالة ودية وهدايا قيمة إلى الخان الأعظم تيمور، الذي خلف قوبيلاي، وهي عبارة عن أحجار كريمة وفهود، فأكرمهما الخان الأعظم، وحمَّلهما عند عودتهما، رسالة تقدير لغازان وهدية هي عبارة عن حرير صيني مطرَّز، كما أظهر مباركته لهذه الخطوة، وتوفي فخر الدين أثناء رحلة العودة[٣].

العلاقة مع النصارى الغربيين

أرسل غازان في (صفر ٦٩٩هـ/تشرين الثاني ١٢٩٩)، وقبل اصطدامه بالمماليك، السفير إيسول البيزي إلى ملك قبرص ومقدمي الداوية والأسبتارية،

---

(١) المقريزي: جـ٢ ص٣٥٩، ٣٦٠.
(٢) المصدر نفسه: ص٣٦٠.
(٣) D'ohsson: IV pp320, 321.

وحمَّله رسالة تتضمن الطلب منهم الانضمام إليه في حملته، لكن هؤلاء رفضوا التحالف معه، ومن ثَمَّ اضطر إلى الاعتماد على قواته بالإضافة إلى الأرمن حلفاء المغول الطبيعيين[١].

وكان الإيلخان قد أرسل إلى القبارصة يعلمهم بأنه سيغزو بلاد الشام في شتاء العام التالي، ويطلب منهم مقابلته في أرمينيا الصغرى مقابل إعطائهم بيت المقدس. وقام القبارصة والداوية والأسبتارية بغارات ضد عكا وطرسوس وجزيرة أرواد، وأرسلوا قوة صغيرة إلى أرمينيا الصغرى، ولكن المغول لم يلحقوا بهم إذ أنهم أغاروا على بلاد الشام حتى حمص، ومن ثَمَّ تراجعوا بسرعة، ولم تثمر هذه الاتصالات عن شيء[٢].

ابتهج الغرب الأوروبي والأرمن في الشرق بانتصار المغول في معركة مرج المروج، ونظروا إلى هذا الانتصار على أنه انتقام لهزائمهم المتكررة على يد المماليك. وكنوع من التعويض النفسي، لدى هؤلاء الذين رفضوا أن يعترفوا بهزيمتهم أمام المسلمين، وفي غمرة الشعور بالفرح، كتب البابا بونيفاس الثامن إلى ملوك وأمراء الغرب الأوروبي يبلغهم فيها بالأخبار السارة عن استعادة الأراضي المقدسة بواسطة غازان وإعادتها للنصارى، ويطلب منهم حثَّ رعاياهم على الرحيل إلى الأراضي المقدسة. ووصلت إلى روما في هذا الوقت المفعم بالفرح (أواخر ٦٩٩هـ/ صيف ١٣٠٠م)، سفارة مغولية برئاسة جويسكارد بوستاري الفلورنسي تعرض التحالف مع الأوروبيين[٣].

وجاء رد الفعل الأوروبي العملي لاستيلاء غازان على بلاد الشام من أراغون. فقد كتب الملك جيمس الثاني في (٢٧ شعبان ٦٩٩هـ/١٨ أيار ١٣٠٠م) رسالة إلى غازان وصفه فيها بامبراطور الشرق، وبأنه أقدر وأكبر سلاطين المغول، وأعلن عن استعداده بتقديم السفن والبحارة والفرسان، وكل مواد التموين اللازمة لجيش المغول، وأكَّد له بأن جميع رعاياه الذين طلبوا زيارة فلسطين مستعدون لأن يساندوه في حروبه ضد المسلمين والتمس منه:

ـ أن ينال هؤلاء الرعايا حرية زيارة بيت المقدس.

---

(١) Saunders, JJ: Muslims and the Mongols: pp88, 89.
(٢) Riley, Smith, j: The knights of St-John in Jerusalem and Cyprus 1050-1310: p199.
(٣) Howorth: III p488.

- إعفاؤهم من دفع الضرائب والرسوم.
- يمنح النصارى خمس الأراضي التي استولى عليها من المسلمين[1].

والواقع أن رد ملك أراغون يعبر عن التفكير السياسي الجديد في بداية القرن الرابع عشر الميلادي الذي يولي المصالح الشخصية الأهمية الأولى، بعيداً عن الروح الصليبية التي بدأت بالفتور منذ بداية القرن الثالث عشر الميلادي، بدليل أن هذا الملك أرسل في العام نفسه سفارة إلى مصر للطلب من السلطان الناصر محمد العمل على:

- توثيق عرى الصداقة بينهما.
- التأمين على حياة التجار الأراغونيين وبضائعهم حين ترددهم على بلاده.
- تسهيل السبل لحجاج أراغون عند زيارتهم لبيت المقدس.

وردَّ الناصر محمد على هذا الطلب في (١٣ شوال ٦٩٩هـ/ ٢ تموز ١٣٠٠م) بالموافقة[2].

والواقع أن رسالة جيمس الثاني إلى غازان لم يكن لها أي أثر إيجابي فيما يتعلق بالتعاون المغولي ـ النصراني بالإضافة إلى تطور الأحداث، لأن القوات المغولية قد طُردت من بلاد الشام في الشهر نفسه لتاريخ الرسالة.

وأرسل غازان سفارته الثانية إلى الغرب الأوروبي في عام (٧٠١هـ/ ١٣٠٢م)، برئاسة بوسكاريل جيزولف، وأشار في رسالته، المؤرخة في (شعبان/ نيسان)، لمراسلات أسلافه مع الغرب الأوروبي وحثَّ البابا بونيفاس الثامن على إعداد قوات لمهاجمة المماليك معاً. وظهر أعضاء السفارة في لندن في (رجب/ آذار) فاجتمعوا مع أدوارد الأول وسلموه رسالة الإيلخان التي اشتكى فيها من طول مدة انقطاع الاتصال بالمغول والتعاون معهم لاسترداد الأراضي المقدسة.

وبرَّر الملك الإنكليزي هذا الانقطاع في رسالته الجوابية إلى غازان، بأن الممالك النصرانية كانت في حال حرب مع بعضها، وأن السلام بدأ يسود في أوروبا، وأن هذه الممالك سوف تتحد مرة ثانية لاسترداد الأراضي المقدسة، وفيما عدا ذلك لم يحمل السفراء المغول أية ردود عملية لأن الملك الإنكليزي كان منهمكاً بمشكلة أسكتلندا، والملك الفرنسي فيليب الرابع، الملقب

(١) Howorth: III p488.

(٢) Atiya, Aziz Suryal: Egypt and Aragon: pp17,18.

بالجميل، كان في نزاع مع البابا بونيفاس الثامن[1].

والواقع أن تبادل السفراء والرسائل لم يُسفر عن نتائج إيجابية، وبخاصة أن غازان كان قد اعتنق الإسلام واتخذه ديناً رسمياً للدولة، وأضحى أحد المدافعين عنه، على أنه قد يكون لهذه الاتصالات السياسية فائدة، ولكن لم يتحقَّق شيء من هذا القبيل. وضاعت الفرصة على الغرب الأوروبي للتقارب مع المغول بعد هزيمة هؤلاء في معركة مرج الصُفَّر. ولم تعرض أية دولة أوروبية التحالف مع الإيلخان، وعلى الرغم من أن البابا بونيفاس الثامن والملك الفرنسي فيليب الرابع كانا يجهران آنذاك بالإعلان عن حملتهما الصليبية المرتقبة، فإن الغرب الأوروبي بعامة لم يبادر بالتفاوض مع المغول، في حين أضحت قبرص بالغة الضعف بسبب النزاعات التي نشبت بين الملك هنري وأخيه[2].

ومهما يكن من أمر، فإن المحاولات التي بذلها النصارى الغربيين والشرقيين لاستقطاب المغول، سياسياً ودينياً، أخذت تتضاءل شيئاً فشيئاً ولم تؤدِّ في النهاية إلى النتيجة المرجوة منها.

إصلاحات غازان

الشؤون المالية والاقتصادية

أجرى غازان، خلال حياته السياسية، إصلاحات تناولت الشؤون المالية والقضائية والاجتماعية، كفلت لرعاياه حياة أفضل، ووضعته في مصاف كبار المصلحين في الشرق، وقد استوحاها من المبادئ الإسلامية.

كانت الخزانة العامة خالية من المال عندما تولى غازان الحكم، والبلاد يعمُّها الخراب، وأوضاع الدولة مختلَّة، وأموال الديوان عرضة للنهب والضياع، بدليل أنه اضطر إلى الاقتراض لتجهيز حملة لمحاربة المغيرين الذين كانوا يُهدِّدون إقليم خراسان[3].

وكان الولاة يشتطون في جباية الضرائب ويحصلونها من الأهالي عشر

(١) Howorth: III p489. تعود أسباب هذا النزاع إلى الجهود التي بذلتها البابوية منذ أيام جريجوري السابع لإنشاء دولة عالمية أوروبية بإخضاع الملوك للبابوات.

(٢) رنسيمان: جـ٣ ص٧٣٦، ٧٣٧.

(٣) ميرخواند: روضة الصفا: جـ٥ ص٣٧٨.

مرات في العام، وأحياناً عشرين وثلاثين مرة، كما يُحمِّلونهم نفقات إقامة مبعوثي الإيلخان - إيلجي - الذين يتردَّدون عليهم لتنفيذ أمور الدولة الهامة وقبض الأموال المستحقة. واتصف جباتهم بالغلظة والشدَّة، والمعروف أن الولاة كانوا يحتفظون بمعظم الأموال المجباة، ولا يرسلون إلى الخزانة العامة سوى القليل منها، وذلك بالتواطؤ مع موظفي الديوان الذين يغضُّون النظر عن هذه التجاوزات والمخالفات لقاء حصة معلومة[1].

أدَّت هذه السياسة المالية المتعسِّفة إلى فرار كثير من السكان والفلاحين من قراهم وخراب شبه كامل في المدن والقرى، واستعان الولاة بالأراذل والسفلة والأشرار للقبض عليهم وإعادتهم، وإذا فشلوا فإنهم يعمدون إلى القبض على نسائهم وأطفالهم[2].

تأثَّر غازان بهذا الوضع الشاذ، وقرَّر العمل على رفع الظلم عن الأهالي وإصلاح الشؤون المالية والاقتصادية، ومنع كبار موظفي الدولة من الاستيلاء على أموال الديوان بطرق غير شرعية، واتخذ عدة تدابير من أجل ذلك منها[3]:

- حظَّر تحصيل الضرائب من الأهالي أكثر من مرة واحدة في العام، في الوقت المحدد تحت طائلة المسؤولية وإنزال العقاب بالمخالفين.

- مسح الأراضي واتخذها أساساً لتحديد مقدار الضريبة، والمعروف أن الخراج كان يُفرض، حتى عهده، وفقاً لأهواء الولاة.

- أحاط الرعية علماً بكل ما يتصل بالضرائب، وذلك عن طريق تعليق البيانات الخاصة بها عند مداخل القرى أو في المساجد ومعابد اليهود والنصارى، وأحاط البدو الرحَّل علماً بما في مراعيهم بواسطة النقش على الخشب أو الحجارة أو المعدن أو الألواح المكتوبة.

- أدخل عنصر الثقة في الحقل التجاري، حيث ألغى الأوراق المالية التي استخدمها أسلافه على الطريقة الصينية، وأحلَّ مكانها نقداً معدنياً صحيح الوزن والقيمة، ما أثَّر إيجاباً على موارد الدولة، فارتفعت من ألف وسبعمائة تومان

(١) الهمذاني: ص٢٨٠ - ٢٨٢.
(٢) المصدر نفسه: ص٢٨٥. خواندامير: حبيب السير: م٣ ج١ ص١٦٨.
(٣) الهمذاني: ص٢٨٠ - ٣٢٨.

إلى ما يزيد على ألفين ومائة تومان، وأضحى دخل الدولة يزداد عاماً بعد عام.

- أعاد إحياء الأراضي الزراعية التي خربت بفعل هجرة السكان لها، بسبب الحروب، ووزَّع الأراضي البور على الفلاحين لاستصلاحها وزراعتها، بشروط سخية، بحيث لا يتم تحصيل الضرائب منهم إلا بعد مرور ثلاثة أعوام من حيازتها، كما وضع تحت تصرفهم ما يلزمهم من بذور وآلات زراعية.

- نظَّم وسائل الري وحفر الترع والأنهار، فأنعش الزراعة، وأعاد ارتباط الفلاحين بالأرض التي كانوا قد هجروها.

- ألغى رسوم إقامة المبعوثين إلى الولايات، وبنى لهم محطات خاصة على الطرق التي يسلكونها بمقدار ثلاثة فراسخ بين المحطة والأخرى، ووضع في كل منها خمسة عشر جواداً لاستعمالها من قِبَل البريد، وأمر بأن يصرف لكل مبعوث نفقات سفره، وبنى لهم منازل في المدن تسمى «إيلجي خانه» أي بيوت المبعوثين، ليقيموا فيها.

- أصدر مرسوماً في عام (٦٩٨هـ/ ١٢٩٩م) حظَّر بموجبه التعامل بالربا، وأمر المراقبين والولاة بإنزال العقوبة بالمخالفين، والمعروف أن الربا كان متفشياً بشكل واسع في المجتمع المغولي.

- قضى على ظاهرة تزوير العملة التي كانت متفشية في الإدارة المغولية وأمر بتصفية الذهب والفضة من الغش، وصكَّ نقوداً جديدة متساوية الوزن والقيمة ليتعامل الناس بها من دون غيرها، ووضع عليها علامة لا يتيسر تقليدها أو تزويرها، وكلَّف الولاة بضبط النقود المخالفة، وإرسالها إلى دار الضرب لصهرها وإعادة صياغتها، وكتب على وجه النقود اسم الله والرسول والإيلخان، بالخطوط العربية والأويغورية والصينية، ونتيجة لهذا الإجراء السليم راجت العملة الجديدة في إيران خلال عام، وانقرضت السكة المغشوشة، كذلك، كثر الذهب والفضة بعد أن كانا نادرين، وأخذ التجار يستبدلون الأمتعة بالنقود التي كانوا يدَّخرونها، وحملوا البضائع إلى كل بلد، فرخصت، واعتدلت الأسواق وتمتع جميع الناس بفوائدها.

وسكَّ غازان نوعاً خاصاً من العملة قيمتها مائة مثقال من الذهب الخالص نقش عليها اسمه وبعض آيات القرآن الكريم، وأسماء الأئمة الإثني عشر، وهذا يعني أنه مال، في أواخر حياته، إلى التحول من المذهب السني الحنفي إلى المذهب الشيعي الإثني عشري.

- وحَّد غازان وحدات المكاييل والمقاييس في كل البلاد، وأن تصنع كلها من الحديد وتُختم وتُضبط على النحو الذي قرَّره، وأن تُصنع على شكل مثمن، وكانت المكاييل والموازين قبل غازان تختلف في كل ولاية عن غيرها من الولايات، وفي كل ناحية من النواحي داخل الولاية ما أدَّى إلى اختلال الأسعار وتفاوتها، وقرَّر أن يكون المن التبريزي أساس الوزن المعمول به، ووحَّد المكاييل لكل نوع من الغلات كالقمح والشعير والأرز والحمص والسمسم والذرة، وأن يُكتب على كل مكيال اسم الغلة التي تُكال به ويُنقش على حافته علامة خاصة يصعب تزويرها، واعتمد الذراع المطابق للذراع التبريزي، كمقياس تُقاس به الأقمشة.

الشؤون القضائية

يُعدُّ إصلاح القضاء من بين أولَيَّات غازان بهدف تحقيق العدالة والمساواة للجميع أمام القانون، وقد بلغ الجهاز القضائي، حتى اعتلائه العرش، درجة كبيرة من السوء نتيجة الرشوة، وإصدار أحكام مصلحية خاصة. كان القضاة يشترون مناصبهم بالمال ثم يتقاضون الرشاوى لإصدار أحكام لصالح الراشي، كما كان كبار أمراء المغول وقادتهم يستغلون نفوذهم للتدخل لدى القضاة لإصدار أحكام خاصة أيضاً، ولم يتورَّع بعض القضاة عن إصدار حُكمين متناقضين في القضية الواحدة. ونتيجة لاندثار العدالة في الأجهزة القضائية، أحجم الناس الذين يقع عليهم الظلم، عن رفع شكاواهم إلى المحاكم، كما شاع تزوير المستندات، وفُقِدت الذمم، وصار يتقدَّم للشهادة من لا أمانة ولا صدق له، ولا يتورَّع عن الإدلاء بشهادة زور، ما هدَّد الناس في أموالهم وممتلكاتهم وأرواحهم وأعراضهم، فكان لا بد من القيام بحركة إصلاح تضع حداً لهذه المساوئ والتجاوزات من أجل تحقيق العدالة[١].

أصدر غازان أربعة فرمانات نظَّم بموجبها الشؤون القضائية، ووضع حلولاً عملية تستند على أحكام الشرع الإسلامي تناولت تفويض القضاة في أمر القضاء، وتحديد زمن للنظر في القضايا، وعدم عرض القضايا التي مضى عليها ثلاثون عاماً، وضرورة إثبات ملكية البائع قبل البيع، وتأكيد الأحكام السابقة، وتمهيد الشرائط اللاحقة[٢].

(١) الصياد: ص٣٢٣، ٣٢٤.
(٢) الهمذاني: ص٢٥٣ ـ ٢٧٢.

حرص غازان على اختيار من يتولى منصب القضاء على أن يكون بعيداً عن كل تأثير، وألا يكون هناك رقيب عليه إلا ضميره، وقرَّر منح القضاة مرتبات مرتفعة لإبعادهم عن المغريات، وحرَّم عليهم أن يتقاضوا أموالاً أو هدايا. وحتى لا يقعوا تحت تأثير المتقاضِين، حرَّم على هؤلاء الذهاب إلى بيوتهم، كما منعهم من اصطحاب أفراد كثر معهم إلى المحكمة، ومعاقبة كل من يتفوَّه بكلام جارح أو غير لائق أمام القاضي، وإذا حرَّر القاضي وثيقة جديدة عليه أن يُتلف الوثائق القديمة، ونبَّه على أهمية تأدية الشهادة، وشدَّد على ضرورة تأكد القضاة من صدق الشاهد وسلامة نواياه وبُعده عن كل شك أو ريبة، كما عليه أن يسأل كلا الشاهدين على انفراد حتى يقف على التباين في أقوالهما، لأن وسيلة تحقيق الأمور منوطة بتناقض أقوال المتكلمين، ويؤدي هذا الاجتهاد إما إلى الصحة، التي يمكن إصدار الحكم بموجبها، وإما إلى الشبهة، التي تكون سبباً في عدم إصدار الحكم. أما من تثبت عليه تهمة التزوير فتُحلق لحيته، ويُحمل على ثور ويطاف به في المدينة، ويُعزَّر تعزيراً تاماً حتى يتَّعظ ويكون عبرة لغيره[١].

وعلى الرغم من كل ذلك، عمد غازان إلى بثِّ العيون والمخبرين في الدوائر القضائية لاستقصاء الأحوال وإرسال تقارير بحق كل من يثبت عليه الانحراف حتى يُنزل العقاب به.

الشؤون الاجتماعية

حرص غازان على تنقية المجتمع من الشوائب التي تعيق تقدمه، وإزالة العوائق التي تُعَرِّض حياة الناس وأمنهم للخطر[٢]. كان اللصوص وقطَّاع الطرق يهاجمون القوافل التجارية والمارة ويسلبونهم أمتعتهم وأموالهم ويتخلَّصون منهم بالقتل، وذلك بالتواطؤ مع حراس الطرق، فأصدر عدة مراسيم كانت كفيلة بالقضاء على هذه الفئة من اللصوص، وحذَّر كل من يتواطأ معها، وعدَّه مجرماً يستحق العقاب، وعيَّن موظفاً مغولياً معروفاً بشدته لتعقب أفرادها والقضاء عليهم، كما عيَّن الحراس للمرابطة على مفارق الطرق والأماكن النائية، وخصَّص عشرة آلاف رجل لحراسة طرق القوافل الرئيسة[٣].

(١) الهمذاني: ص٢٥٥. الصياد: ص٣٢٤، ٣٢٥.
(٢) الصياد: ص٣٣١.
(٣) الهمذاني: ص٣١٥ ـ ٣١٨.

كان أرباب الحرف الصغيرة والحمّالين والجمّالين والمكارين وحراس الكلاب ومُروِّضي الحيوان، يبتزون الأغنياء ويضايقونهم بمطالبهم المتكررة بدفع الأموال، ويترصدون الناس في الأعياد والمناسبات على مفترق الطرق، ويعدُّون أنفسهم فوق المحاسبة، ويتعرَّض كل من يمتنع عن الدفع للشتائم والإهانة، وقد يصل الأمر إلى حد الضرب.

فلما آل الحكم إلى غازان، قضى على هذه الظاهرة الاجتماعية السيئة، وحظَّر على أي شخص أن يعطي نقوداً إلى من ينتمي إلى هذه الجماعات، وإذا حدث أن اغتصب أحد منهم نقوداً من أي شخص، فإن على المسؤولين أن يستعيدوها منه بضربه بالهراوات، وإنزال العقاب به، وبذلك تخلَّص الناس من متاعب هؤلاء المفسدين والمعتدين ومضايقاتهم[١].

ومن العادات الاجتماعية السيئة التي كانت متفشية في المجتمع المغولي، شرب الخمر، وغالباً ما يتبع ذلك سكر وعربدة في الطرق العامة وفي أماكن تجمُّع الناس في المتاجر والأسواق، وينجم عن ذلك عراك بين السكارى، فتتعطَّل المصالح، فأصدر غازان قانوناً حرَّم بموجبه شرب الخمر في الطرق والأماكن العامة، ومن يخالف ذلك يُقبض عليه، وتُنزع عنه ثيابه، ويُطاف به في الطرقات، ثم يُربط إلى شجرة في الساحات العامة حتى يشاهده الناس ويتعرَّض لتوبيخهم، ولكن غازان منع المراقبين والمحتسبين من دخول بيوت الناس للبحث عمن يشرب الخمر، وذلك صوناً لحرمة المساكن[٢].

ورفع غازان من مكانة الأسرة بوصفها عماد المجتمع، وعمل على ترابط أفرادها وعدم تفكُّكهم، وكان حرصه عليها من واقع عدم تعرُّض العلاقات الزوجية لخطر الخلاف، والفراق، إذا تعذَّر التوفيق بين الزوج والزوجة. ولما كان مؤخر الصداق المبالغ فيه يشكل عقبة تحول دون الفراق، بحيث تصبح الحياة الزوجية جحيماً، فإنه أصدر أمراً بتقليل مؤخر الصداق، وجعل حدَّه الأقصى تسعة عشر ديناراً ونصف، وأمر القضاة بعدم عقد زواج يزيد مؤخر صداقه عن هذا المبلغ[٣].

والواقع أن مسألة تحديد الصداق ومؤخره هي من شؤون الحياة الموكول

(١) الهمذاني: ص٤٠١ ـ ٤٠٣.
(٢) المصدر نفسه: ص٣٦٤، ٣٦٥.
(٣) المصدر نفسه: ص٣٦١، ٣٦٢.

معظمها إلى اجتهاد المفكرين والمصلحين، ومتى رأى الحاكم تحديد ذلك بقدر معلوم يتلاءم مع مصلحة الأمة، فإنه جائز قطعاً، وليس في الشرع ما يمنعه، إذ هو من المصالح التي تتفق مع مقصد الشارع[١].

وحارب غازان الرذيلة، وكانت العادة أن تُجبر العاهرات على السكن في المدن الكبيرة بجوار المساجد والخوانيق وبيوت الناس، ورأى أن فتح المواخير وإجبار العاهرات على السكن فيها لممارسة الرذيلة؛ أمر مذموم ومخالف لأحكام الشريعة الإسلامية، لذلك تصدَّى لهذه الظاهرة، وعمل على القضاء على هذه البيوت. ولما كانت هذه العادة قديمة ومتجذرة في المجتمع، ولا يمكن مكافحتها دفعة واحدة، فإنه اتبع أسلوب التدرج في علاجها، فأصدر قراراً بإطلاق سراح النسوة اللائي لا يردن البقاء في هذه الدور، ويرغبن في الخروج منها ليعشن حياة شريفة، كما قرَّر تزويجهن بمن يقع عليه اختيارهن من الرجال، كذلك منع بيع الجواري اللائي لا يُردن أن يتعاطين هذه المهنة المذمومة واحتراف البغاء، إلى جماعة المشرفين عليهن[٢].

وفاة غازان

كانت معركة مرج الصُفَّر ثقيلة بنتائجها على غازان، وأحدثت نقلة نوعية من واقع أفول نجمه وبداية نهاية حكمه الذي استمر نحو تسعة أعوام. ومما زاد وضعه حرجاً كثرة الدسائس والمؤامرات لخلعه عن العرش وتنصيب ألافرنك بن كيغاتو مكانه، ذلك أنه أهان الأمراء والقادة بعد هزيمتهم أمام المماليك، فأمر بجلدهم وألبسهم ثياب النساء، وإذا كان هؤلاء قد تقبَّلوا الإهانة على مضض والتمسوا عفوه إلا أنهم أسرُّوا ذلك في أنفسهم، وراحوا يحيكون الدسائس لخلعه.

كان من الطبيعي أن يكون لهذه الأحداث تأثير كبير على صحة الإيلخان التي بدأت بالتدهور، وتوفي في قزوين يوم الأحد (١١ شوال ٧٠٣هـ/ ١٧ أيار ١٣٠٤م)[٣] ولم يتجاوز الثالثة والثلاثين من العمر، وحُمل جثمانه إلى تبريز، ودُفن في شم غازان حيث القبة التي أنشأها، في قبر ظاهر، على خلاف تقاليد المغول البدوية[٤]، وهو يُعدُّ من ألمع الإيلخانات الذين حكموا إيران بعد هولاكو.

(١) الصياد: ص٣٣٤، ٣٣٥.
(٢) الهمذاني: ص٤٠٤.
(٣) المصدر نفسه: ص١٩٥، ١٩٦.
(٤) المصدر نفسه: ص١٩٦.

الفصل التاسع

أولغايتو ـ أبو سعيد

أولغايتو محمد خدابنده
(٧٠٣ـ٧١٦هـ/ ١٣٠٤ ـ ١٣١٦م)

الأوضاع الداخلية

اعتلاء أولغايتو عرش الإيلخانية

أوصى غازان قبل وفاته بولاية العهد لأخيه أولغايتو، وطلب من الأمراء والوزراء وكبار رجال الدولة أن يولُّوه العرش بعد وفاته، كما أوصى سائر الرعايا بالانقياد إليه وطاعته ومساندته، وأمرهم بالحرص على تنفيذ القوانين والفرمانات التي أصدرها وعدم تحريفها أو تجاوزها، والعمل على تقوية الدين الإسلامي ورفعة شأن المسلمين[١].

كان أولغايتو عند وفاة غازان في خراسان، فأطلعه الأمير مولاي سراً على أوضاع البلاط، وما يراود الأمير آلافرنك بن كيغاتو من طموح وتطلُّع نحو السلطة بمساعدة الأمير هرقداق، قائد جيش خراسان، ونصحه بالتخلُّص منهما، فعهد إلى ثلاثة من أمرائه فقتلوهما مع أبناء هرقداق الثلاثة.

وهكذا تمهَّد الطريق أمام أولغايتو لاعتلاء العرش من دون منافس، فغادر خراسان قاصداً تبريز يرافقه عشرة آلاف جندي من أتباعه وعدد من كبار الأمراء، أمثال مولاي وسونغ وأيسن قتلغ وعلي القوشجي وحسين بك. ولما وصل إلى مدينة أوجان جلس على عرش الخانية، وذلك يوم الإثنين (١٥ ذي الحجة ٧٠٣هـ/ ١٩ تموز ١٣٠٤م)، وعمره ثلاثة وعشرون عاماً[٢]، واتخذ

---

(١) القاشاني، عبد الله: تاريخ أولغايتو: ص١٣، ١٤.

(٢) تاريخ وصاف: ص٤٦٧. ميرخواند: روضة الصفا: جـ٥ ص٤٢٥.

لنفسه اسماً إسلامياً إيرانياً هو محمد خدابنده[١]، وتلقَّب بغياث الدين، وتُبين النقود التي ضربها أن اسمه المنقوش عليها هو «غياث الدنيا والدين أولغايتو سلطان محمد»، والمعروف أنه كان نصرانيا قبل ذلك بفعل تأثير والدته أوروك خاتون، واستمر على هذا الدين إلى أن توفيت، فاختار زوجة مسلمة، وقد حثَّته على اعتناق الإسلام، فاعتنق هذا الدين على المذهب الحنفي متأثراً بعلماء الحنفية في خراسان، وذلك قبل أن يتولى العرش[٢].

وجرياً على عادة المغول في تغيير أسماء الذين يحبونهم حتى يكونوا في مأمن من الحسد، أطلقوا عليه اسم تمودر، ثم عادوا فأسموه خربنده[٣] والمراد المكاري، أو أن المغول كانوا يسمون المولود باسم أول داخل عند ولادته، فلما وُلد هذا الإيلخان كان أول داخل، الزُمَّال، وهم يسمونه خربنده فسمي به[٤]. ولما اعتنق الإسلام لُقِّب خدابنده، وقد اشتهر بهذين الاسمين، وعندما تحوَّل إلى المذهب الشيعي تمسَّكَ أنصار السنة بلقبه القديم، خربنده، بدافع السخرية والاستهزاء على حين تمسَّك أنصار الشيعة بلقبه الجديد خدابنده[٥].

تنظيم إدارة الدولة

شرع أولغايتو، فور اعتلائه العرش، في ممارسة سلطاته، فأصدر فرماناً يقضي بإقامة المراسم الدينية والشعائر الإسلامية، والمحافظة على ما أصدره غازان من قوانين، وكافأ كبار الأمراء والقادة؛ فعيَّن قتلغ شاه قائداً عاماً للجيش، وقدَّمه على جميع رجال البلاط والحكومة، ووضع تحت إمرته، الأمراء: جوبان وفولادقيا وحسين بك وسونغ وأيسن قتلغ، وعهد إلى رشيد الدين فضل الله الهمذاني وسعد الدين محمد الساوجي بمنصب الوزارة، على أن يتقدم الأول على الثاني كما كان الوضع في عهد أخيه غازان، وكلَّف قتلغ قيا وبهاء الدين يعقوب بالإشراف على الأوقاف، وعهد إلى حسين بك

(١) خدابنده: كلمة فارسية مركَّبة من كلمتين: خدا بمعنى: الله، وبنده بمعنى: عبد، وتعني الكلمة عبد الله.

(٢) Howorth: III pp535, 580.

(٣) خربنده: كلمة فارسية مركبة من كلمتين: خر: بمعنى الحمار، وبنده: بمعنى عبد، وتعني عبد الحمار أو المكاري.

(٤) رحلة ابن بطوطة: جـ١ ص٢٤٦. (٥) الصياد: ص٣٤٦، ٣٤٧.

بالإشراف على أملاكه الخاصة[١].

واستقبل أولغايتو في تبريز سفراء الخان الأعظم تيمور، ورسلاً من أسرتي جغتاي وأوكتاي، وقد ناقشوا معه إقامة اتحاد يضم جميع الدول المغولية من أسرة جنكيز خان. ويبدو أن مغول آسيا الوسطى، ومن بينهم خانات القبيلة الذهبية، كانوا بحاجة إلى منفذ بحري لتصريف ما يزيد عن حاجاتهم عبره إلى الدول الأخرى، وبخاصة دول الشرق الأدنى والغرب الأوروبي، وأن قيام دولة مغولية متحدة كان كفيلاً بأن يضمن حرية التنقل للتجار من دولة إلى أخرى من دون أن يتعرضوا للمصادرة، وربما كان الخان الجغتائي دووا هو أول من نادى بهذا المشروع الاتحادي، وأقنع الخان الأوكتائي جابان به، وأرسل السفراء إلى دول المغول المختلفة لإقناع حكامها بفوائده[٢].

بناء مدينة السلطانية

كان غازان قد خطَّط لبناء مدينة في المكان المسمى قنقور آلانك في منطقة السلطانية، بين قزوين وهمذان، حيث ينبع نهرا أبهر وزنجان القصيران، وشرع في وضع خططها، غير أنه توفي قبل أن ينفِّذ مشروعه، فقام أخوه أولغايتو بتنفيذ هذا المشروع.

كانت منطقة السلطانية ومروجها، في عهد المغول، مرتعاً لأمرائهم ومحطة يقيمون فيها أثناء عبورهم من العراق إلى أذربيجان وبالعكس، وهي تقع على بعد خمسة فراسخ من زنجان وتسعة من أبهر. وبدأ أولغايتو في بناء المدينة في (أواخر ٧٠٤هـ/ ربيع ١٣٠٥م)، وخصَّص دخل الولايات للإنفاق على عملية البناء واستقدم المهندسين والبنائين من مختلف الأنحاء، لا سيما تبريز وبغداد، ونزحت جماعات كثيرة من أرباب الحرف والفنيين مع نسائهم وأطفالهم للمشاركة في التشييد. واستمر العمل في عملية البناء مدة تسعة أعوام تقريباً، حيث انتهى في عام (٧١٣هـ/ ١٣١٣م)، وسماها السلطانية نسبة إلى اسم البقعة التي شُيِّدت فيها[٣].

ضمَّت المدينة كثيراً من الإنشاءات المعمارية، كالمنازل والمساجد

(١) D'ohsson: IV pp481-483. Howorth: III pp535, 536.

(٢) بارتولد: تاريخ الترك في آسيا الوسطى: ص٢٢٠، ٢٢١.

(٣) تاريخ وصاف: ص٤٧٧، ٤٧٨.

والمدارس والحمامات والأسواق، وسكنها جمع غفير من السكان من مختلف الطبقات، بحيث أضحت من بين أعظم المدن الإسلامية، وضارعت مدينة تبريز.

وسوَّر أولغايتو المدينة بسور ضخم مربع الشكل، وشيَّد في وسطها قلعة كبيرة تتناسب مع عظمتها، وبنى في داخلها قبة ليُدفن فيها بعد وفاته، وبنى لنفسه قصراً فخماً، جعل إيوانه على طراز إيوان كسرى.

وجاءت الأعمال الفنية تتويجاً للفن المعماري الإسلامي في العهد الإيلخاني الذي يتميز بالأبراج المثمنة، وأوقف الإيلخان على تلك المؤسسات كثيراً من الأملاك بحيث أن دخلها بلغ، في عهده، مائة تومان، واختار الوزير رشيد الدين ليكون نائباً عنه في الإشراف عليها.

اتخذ أولغايتو مدينة السلطانية عاصمة لدولته، وجلب إليها جماعة من أرباب الحرف والصناعات والمهرة من الصين، مع أسرهم ورغَّبهم في استيطانها ليقوموا بممارسة الصناعات المختلفة، والعمل على ترويجها.

وشارك الأمراء والوزراء، كلٌ بحسب طاقته، في بنائها، ومن بينهم الوزير رشيد الدين الذي شيَّد محلة على نفقته الخاصة اشتملت على ألف منزل، وبنى فيها مسجداً فخماً، فضلاً عن مدرسة، وداراً للشفاء وخانقاه. وبعد أن تمَّ بناء المدينة سكنها أولغايتو، غير أن إقامته فيها لم تطل أكثر من خمسة أعوام، بسبب وفاته المبكرة.

تحول أولغايتو إلى المذهب الشيعي وعودته عنه

اعتنق أولغايتو الدين الإسلامي على المذهب الحنفي بتأثير الأئمة الذين أحاطوا به، عندما كان والياً على خراسان أثناء حكم أخيه غازان، ولما توفي هذا الأخير، واعتلى أولغايتو عرش الإيلخانية، تحوَّل إلى المذهب الشافعي في عام (٧٠٧هـ/ ١٣٠٧م)، بتأثير وزيره رشيد الدين فضل الله الهمذاني، الذي كان يعتنق هذا المذهب ويعمل على نشره، واستطاع أن يقنعه بتعيين أحد الأئمة الشافعيين، ويُدعى نظام الدين عبد الملك المراغي، قاضياً للقضاة في جميع أنحاء إيران[1] على أن يأتمر بأمره جميع أنصار المذاهب الأخرى.

استغل نظام الدين منصبه هذا لنشر مذهبه والترويج له عن طريق المناظرات

(١) القاشاني: ص٩٦، ٩٧.

والمحاورات، مظهِراً بذلك حجة قوية وسعة اطِّلاع ما يؤهله للانتصار على خصومه وبخاصة أئمة الحنفية، الأمر الذي دفعهم إلى الحنق عليه. واتخذ هذا الحنق طابع الصخب والسفه والسخرية حين انبرى أحد الأئمة الحنفية، وهو ابن الوزير المقتول صدر جهان، لمناظرة نظام الدين بحضور الإيلخان، ما كان له تأثير سلبي في نفسه، وفي نفس أمرائه لدرجة أنهم تساءلوا لماذا تركوا ديانة آبائهم وأجدادهم واعتنقوا هذه الديانة التي ينقسم أتباعها شيعاً ومذاهب تسفِّه كل واحدة منها الأخرى[1].

وانتهز الكهنة البوذيون هذه الفرصة، وأشاروا على أولغايتو بالتخلي عن عقيدة الإسلام والارتداد إلى دين آبائه مرة أخرى، لكنه رفض ذلك، واستجاب لدعوة أحد أمرائه، المدعو طرمطاز بن بايجو بخشي، بأن يتحول إلى مذهب الشيعة الإمامية الإثني عشرية، والمعروف أن هذا الأمير تربى في بلاط غازان، ونشأ بين الشيعة في الري، فاعتنق مذهبهم وأضحى من أبرز الداعين له والمدافعين عنه.

رفض أولغايتو، في بادئ الأمر، أن يصبح شيعياً يخالف أهل السنة والجماعة، غير أن تدخل بعض أئمة الشيعة، وبخاصة تاج الدين الآوجي وجمال الدين بن مطهر الحلي، الذين ضربوا على وتر نظام الوراثة عند كل من الشيعة والمغول، المستند على حصر الحكم في البيت الحاكم، بيت النبوة وبيت جنكيز خان، وأن أهل السنة يخالفون ذلك ويجيزون للناس، من غير بيت الحاكم، أن يتولوا الحكم ما يتناقض مع قوانين المغول في وراثة الحكم، فاقتنع الإيلخان، وتحوَّل إلى مذهب الأئمة الإثني عشرية، وذلك في عام (٧٠٧هـ/ ١٣٠٧م)، وتأكيداً لتحوله هذا ضرب نقوداً نقش عليها أسماء علي وأبنائه وبقية الأئمة الإثني عشر، وهو أول سلطان مغولي اعتنق هذا المذهب وسعد به[2].

واقتدى أمراء المغول وعظماؤهم بإيلخانهم باستثناء الأميرين جوبان وأيسن قتلغ، اللذين ثبتا على مذهب أهل السنة، ولم يستطع أئمة الشيعة التأثير عليهما. وأمر السلطان بحمل الناس على التحول إلى المذهب الشيعي، وكتب

(١) القاشاني: ص٩٧، ٩٨.

(٢) ابن أيبك: جـ٩ ص٣٤٦. ابن بطوطة: جـ١ ص٢٢٤، ٢٢٥. Howorth: III pp557, 558, 580.

بذلك إلى العراقين[1] وفارس وأذربيجان وأصفهان وكرمان وخراسان، وبعث الرسل إلى البلاد، فكان أول بلد وصلوا إليه بغداد وشيراز وأصفهان. فأما أهل بغداد فامتنع أهل باب الأزج منهم، وهم أهل السنة وأكثرهم على مذهب الإمام أحمد بن حنبل، وقالوا «لا سمع ولا طاعة»، وأتوا المسجد يوم الجمعة وهدَّدوا الخطيب إن هو غيَّر الخطبة المعتادة. وكان الإيلخان أمر بتغيير صيغة خطبة الجمعة لتتفق مع مذهبه الشيعي الجديد، بإسقاط أسماء الخلفاء الراشدين وسائر الصحابة من الخطبة، وذكر اسم علي ومن تبعه، كعمار، فخاف الخطيب من القتل وخطب الخطبة المعتادة، وفعل أهل شيراز وأصفهان كفعل أهل بغداد، فرجعت الرسل إلى السلطان، وأخبروه بما جرى في ذلك، فأمر باستدعاء قضاة هذه البلاد كي يحاسبهم ويعاقبهم على عصيان أوامره. فكان أول من أتي به منهم القاضي مجد الدين، قاضي شيراز، وكان أولغايتو في مصيفه بقراباغ، فأمر بإلقائه طعمة لكلاب شرسة لتأكل لحمه، كان يقتنيها لمثل هذه الأمور، فلما أُطلقت الكلاب على القاضي «بصبصت إليه وحرَّكت أذنيها بين يديه ولم تهجم عليه بشيء»، ولم تنله بسوء، ولما علم الإيلخان بذلك خرج حافي القدمين، فأكبَّ على رجلي القاضي يقبلهما، وأخذ بيده وخلع عليه جميع ما كان عليه من ثياب، وهي عادة عند المغول كانوا يفعلونها مع من يودون المبالغة في تكريمه ورفع شأنه «وهي من أعظم كرامات السلطان عندهم»، ثم قام الإيلخان وأدخله إلى داره، وأمر نساءه بتعظيمه والتبرك به، وتراجع عن مذهب الشيعة الإمامية، وكتب بذلك إلى جميع أنحاء دولته، وأمر الناس أن يسيروا على مذهب أهل السنة والجماعة، وأجزل العطاء لذلك القاضي وأعاده إلى بلاده معزَّزاً مكرَّماً، وأعطاه، ضمن ما أعطاه، مائة قرية من قرى جمكان[2]، وألزم نفسه بزيارة قبر الإمام أحمد بن حنبل في بغداد أثناء الليل، فكان يذهب إلى هناك حيث يجلس ويبكي عند القبر ويستغفر ربه من الذنوب ويعود من دون أن يشعر به أحد[3]، وهكذا عاد المغول وسلاطينهم إلى مذهب أهل السنة مرة أخرى.

(١) العراق العربي والعراق العجمي.
(٢) جمكان هو خندق بين جبلين، طوله أربعة وعشرون فرسخاً، يشقه نهر، والقرى منتظمة بجانبيه، وهو أحسن موضع بشيراز.
(٣) ابن بطوطة: جـ١ ص٢٢٥، ٢٢٦.

نهاية الوزير سعد الدين الساوجي

كان الوزيران سعد الدين ورشيد الدين صديقين حميمين يعملان معاً في الوزارة منذ عهد غازان، واستمرت هذه العلاقة الجيدة بينهما قرابة ثلاثة عشر عاماً. وفي عام (٧١١هـ/ ١٣١١م)، بدأ سعد الدين يفقد ثقة أولغايتو بسبب ما ارتكب من أخطاء شخصية، كانت أولاها محاولته إبعاد منافس جديد ظهر في بلاط الإيلخان واكتسب ثقته المطلقة، وكان هذا المنافس، الذي يُدعى علي شاه الجيلاني، رجلاً ماكراً سرعان ما استطاع أن يتغلَّب على سعد الدين ويشغل منصبه، وبقدر ما كانت ترتفع مكانة علي شاه لدى أولغايتو يوماً بعد يوم كانت منزلة سعد الدين تتراجع.

ووقف رشيد الدين، من هذا النزاع بين الرجلين، موقف المساند لعلي شاه، فعامله بكل احترام وأثنى عليه وذلك بهدف:

- إرضاء الإيلخان ومجاملته لاتقاء خطر علي شاه بعد أن أصبح من المقرَّبين منه.
- أن يكيد لسعد الدين الذي طغى عليه بنفوذه منذ أن اعتنق أولغايتو المذهب الشيعي.

ولا شك بأن سلوك رشيد الدين هذا أغضب سعد الدين وخلق فجوة بينهما.

وحدث ذات يوم أن أقام علي شاه حفلاً كبيراً لأولغايتو في أحد المصانع التي يشرف عليها ببغداد. وجرياً على العادة المتَّبعة وزَّع الهدايا الثمينة على الإيلخان والأمراء والوزراء، وخصَّ رشيد الدين بثلاثة أردية جيدة قدَّمها له قبل أن يُسلِّم الوزير سعد الدين هديته، فغضب هذا واعتقد أنه أُهين في هذا الحفل، فوبَّخ علي شاه لسوء تصرفه، كما جرَّح رشيد الدين واتهمه بأنه مُضلِّل ومُزوِّر ويهودي وساحر كيميائي، ما أدَّى إلى اتساع الهوة بينهما، وانقلبت الصداقة إلى عداوة شديدة. وفي المقابل لم يجارِ رشيد الدين زميله سعد الدين، وأظهر حلماً وقوة احتمال لفتت نظر الإيلخان، حيث التزم الصمت، واكتفى بالقول: «حتى اليوم كان عبداً مطيعاً بغير أجر، أما الآن فقد حرَّرته، والحمد لله»[1].

(١) القاشاني: ص١٢٣.

وتألم أولغايتو بسبب الإهانة البالغة التي لحقت بوزيره رشيد الدين، فحقد على سعد الدين، ولم يحاول هذا أن يصلح موقفه واستمر على عناده وارتكب أخطاء أخرى تتعلق بالشؤون الإدارية والمالية، فوشى به رشيد الدين إلى أولغايتو الذي صمَّم على التخلص منه، فلما وصل إلى بغداد أصدر أمراً باعتقاله مع أتباعه ومحاكمتهم. وبعد أن تمَّت المحاكمة أمر بقتله وقتل شركائه، وذلك يوم الثلاثاء (١٠ شوال ٧١١هـ/ ١٩ شباط ١٣١٢م) في قرية محول على بُعد فرسخ من بغداد[١].

خلافة علي شاه لسعد الدين

شغر مكان سعد الدين في منصب الوزارة بعد مقتله، فأشار رشيد الدين على أولغايتو أن يُعيِّن علي شاه شريكاً له في الوزارة، وظن أنه سوف يكون وزيراً اسمياً لا ينازعه سلطاته، وهذا تفكير سطحي في العمل السياسي. وتفرَّد رشيد الدين في تصريف الشؤون الوزارية مدة ثلاثة أعوام قبل أن ينقلب عليه علي شاه، فسنَّ القوانين واختار حكام الولايات؛ فعيَّن المؤرخ حمد الله المستوفي القزويني والياً على قزوين وأبهر وزنجان وطارمين، وعين ابنه جلال الدين والياً على أصفهان[٢].

الواقع أن رشيد الدين كان واهماً، إذ إن عدم تدخل علي شاه في الشؤون العامة كشريك له كان مؤقتاً، ووفقاً لخطة مُدبَّرة تقضي بالإطاحة به والقضاء عليه، وفعلاً حاك هذا الرجل الطموح مؤامرة عن بُعد، للقضاء على رشيد الدين، غير أن هذا اكتشف المؤامرة وأخبر الإيلخان بهوية المتآمرين، فقبض عليهم وقتلهم، وظل علي شاه بعيداً عن أي شبهة.

العلاقات الخارجية

الاستيلاء على جيلان[٣]

ظلَّت ولاية جيلان الغنية خارج نطاق توسعات المغول منذ عهد جنكيز خان، وفشلت حملات هولاكو وخلفائه في السيطرة عليها بسبب طبيعتها

(١) القاشاني: ص١٢٦.

(٢) تاريخ وصاف: ص٥٤٠. المستوفي القزويني: تاريخ گزيدة: ص٦٠٨.

(٣) جيلان: اسم لبلاد كثيرة من وراء بلاد طبرستان، وتمتد من حدود أردبيل وخلخال حتى حدود كلاردشت ومنطقة مازندران.

الجبلية الوعرة المسالك وكثرة الغابات ووجود الجبال الشاهقة واستمرار الأمطار[١].

كانت الولاية تنقسم إلى اثنتي عشرة مدينة، على كل منها أمير مستقل، تحت إمرته جيش جرار، وتتوسط إيلخانية إيران، ولما كانت غنية بثروتها، وبخاصة بإنتاج الحرير، ما يسدُّ حاجة الخزينة العامة، أضحى فتحها ضرورة سياسية واقتصادية.

وأرسل أولغايتو قبل غزوها سفراء إلى أمرائها يطلب منهم الدخول في طاعته فاستجابوا له، ولكنهم أدركوا، بعد قليل من الوقت، أن المغول سوف يستولون على ثروات البلاد ويحرمونهم منها، لذلك راحوا يتذرَّعون بالحجج للتخلص من هذه الطاعة، ما أغضب الإيلخان، فصمَّم على غزوها. فجهَّز أربعة جيوش لتجتاحها من أربعة محاور، وذلك في عام (٧٠٦هـ/ ١٣٠٦م):

الأول: بقيادة جوبان ويدخلها عن طريق أردبيل وطالش.

الثاني: بقيادة قتلغ شاه، ويدخلها من ناحية خلخال ليهاجم فومن وتولم ورشت.

الثالث: بقيادة كل من طوغان ومومن، ويسلك طريق رستم دار وقزوين وكلارشت.

الرابع: بقيادة أولغايتو نفسه، ويدخلها عن طريق لاهيجان[٢].

سارت الجيوش لتنفيذ مهمتها، غير أنها صادفت مقاومة ضارية من جانب السكان، كما شكَّلت العوامل الطبيعية عائقاً آخر، ولم تتمكَّن هذه الجيوش، في النهاية، من إخضاعها إلا بعد أن تكبَّدت خسائر فادحة[٣].

الاستيلاء على هراة

في الوقت الذي أرسل فيه أولغايتو الجيوش للاستيلاء على جيلان، أرسل جيشاً آخر بقيادة دانشمند بهادور، إلى خراسان ليستولي على منطقة هراة ويقضي على حاكمها الملك فخر الدين. وكانت هذه المنطقة، التي تقع ضمن أملاك الإيلخانية، خارج نطاق السيطرة المغولية، فأراد أولغايتو أن يضمها إلى أملاكه فاتخذ من امتناع الملك فخر الدين عن تهنئته، عندما تولى العرش، بالإضافة إلى سلوكه المخادع؛ حجة لمهاجمته.

(١) القاشاني: ص٥٥. (٢) إقبال: ص٤٧٨.

(٣) آبرو، حافظ: ذيل جامع التواريخ: رشيدي چاپ دوم: ص٦٩ ـ ٧٢. إقبال: ص٤٧٩.

زحف دانشمند بهادور على رأس عشرة آلاف مقاتل، باتجاه مدينة هراة، وأرسل رسالة إلى الملك فخر الدين تتضمن المطالبة بتلبية رغبات الإيلخان والدخول في طاعته، وتهديداً بانتزاع الملك منه إذا رفض. تلقَّى الملك فخر الدين رسالة القائد المغولي بغضب لكنه أبدى استعداده بتقديم واجب الضيافة للجيش، ورفض أسلوب التهديد، وأنه سيقاوم استعمال القوة ضده[1].

امتعض دانشمند بهادور من تلك الإجابة، وتابع زحفه باتجاه مدينة هراة، وعندما وصل إليها ضرب حصاراً مركزاً عليها، وجرت اشتباكات متفرقة بين جنوده وجنود الحامية لم تُسفر عن نتائج حاسمة، واضطر القائد المغولي، تحت ضغط المقاومة، إلى الطلب من الملك فخر الدين أن يغادر المدينة إلى قلعة أمان كوه، وتعهَّد له بأن يعود إليها معزَّزاً مكرَّماً حين تهدأ الأمور وتستقر الأوضاع. ويبدو أن وضعه الداخلي كان حرجاً بسبب تفشي المجاعة بين السكان، فقبل الطلب، وأبقى أحد أتباعه، المدعو جمال الدين محمد سام الغوري، على القلعة وأوصاه بعدم تسليمها للمغول[2].

واعتقد دانشمند بهادور أن خروج الملك فخر الدين من المدينة من شأنه أن يعجِّل بسقوطها، غير أنه كان مخطئاً، إذ ما إن دخل إليها حتى استرعى نظره قلعتها الشامخة، ولما طلب من محمد سام الخروج منها والمثول بين يديه، رفض ذلك وصمَّم على القتال، فلجأ عندئذٍ إلى الملك فخر الدين وطلب منه أن يوعز إلى تابعه بفتح أبواب القلعة ليدخلها هو وأتباعه من دون إراقة دماء، فامتثل الملك لهذا الطلب إلا أنه حذَّر تابعه سراً من غدره، وأوصاه باتخاذ الحيطة والحذر، فنزل محمد سام على رأي مليكه، واستعدَّ لاستقبال بهادور، غير أنه عمد إلى الحيلة للتخلُّص منه، فنصب له ولأتباعه، الذين دخلوا معه، وعددهم مائة وثمانون رجلاً، كميناً وقتلهم جميعاً. ولما بلغ الملك فخر الدين أنباء تلك المذبحة الرهيبة تظاهر باستنكار ما فعله محمد سام، ولامه على فعلته وأنَّبه[3].

لم يركن أولغايتو إلى الهدوء عندما علم بنبأ المجزرة، فأسرع بتجهيز جيش آخر بقيادة بوجاي بن دانشمند بهادور، وأرسله إلى هراة للثأر لمقتل والده

(١) آبرو: ص٧٩. (٢) ميرخواند: ج٥ ص٤٤٦، ٤٤٧.

(٣) آبرو: ص٨٩. ميرخواند: ج٥ ص٤٥٤.

وتأديب سكان المدينة، كما عيَّن الأمير يساول حاكماً على خراسان، وأمره بأن يتابع قضية هراة.

تقدم بوجاي باتجاه هراة، واصطدم بقوات محمد سام في عدة معارك طاحنة كانت سجالاً، وعجز عن اقتحام المدينة. وحدث في تلك الأثناء أن مرض الملك فخر الدين وأشرف على الموت، فاستبشر بوجاي بهذا النبأ، وحاول أن يقنع محمد سام بالاستسلام مقابل الأمان، لكنه فشل في ذلك، فشدَّد عندئذٍ حصاره على المدينة، وسدَّ مداخلها ومخارجها منعاً لدخول المؤن إليها، وتوقَّع أن يؤدي الحصار الشديد إلى نفاد الأقوات وتراجع قوة المقاومة، واستسلام السكان، وهذا ما حصل. وعندما رأى محمد سام أنه فقد السيطرة على الوضع، سلَّم المدينة إلى بوجاي، ولكنه ظل متحصناً بالقلعة، وعرض تسليم نفسه إلى الأمير يساول إذا حضر بنفسه إلى المدينة، فاستجاب يساول إلى عرضه، وعندما وصل إلى المدينة استدعاه للمثول بين يديه وأعطاه العهود والمواثيق بالمحافظة على حياته وحمايته من بوجاي، إلا أنه لم يفِ فوعده، إذ عندما نزل مع أهله ومثل أمامه، قبض عليه وسلَّمه إلى بوجاي الذي قتله مع أهله ومرافقيه[1].

وهكذا دخل المغول مدينة هراة بعد عدة حملات وسيطروا على كامل خراسان.

العلاقة مع المماليك

تمهيد

انتهج أولغايتو نهج أسلافه من حيث الوقوف موقف العداء من المماليك، إلا أنه حرص في بداية عهده على توثيق عرى الصداقة مع السلطان الناصر محمد، وتأكيد حسن نيته نحوه، فأرسل إليه رسالة تضمَّنت تهديداً وترغيباً، على عادة خانات المغول يعلمه فيها بجلوسه على العرش، وخاطبه بالأخوة، وطلب منه إخماد الفتن، والإقلاع عن الحرب، والدخول في الصلح على قاعدة عفا الله عما سلف، ومن عاد فينتقم الله منه، وبذلك تُفتح الطرق والمعابر أمام الرسل والتجار بين الدولتين، كما بعث إليه بهدية، لكنه لم يتورَّع عن أن يلجأ إلى أسلوب التهديد والوعيد بكلمات عنيفة قاسية قال في

(١) ميرخواند: ج٥ ص٤٦٢ ـ ٤٦٤.

نهايتها: «فإذا لم تلقَ هذه النصائح أذناً مصغية فدونهم السيف». وقد استقبل السلطان المملوكي رسله وأكرم وفادتهم، وأعادهم إلى تبريز برفقة سفيرين من قبله يحملان رده وهديته[1].

ويبدو أن أولغايتو لم يكن مخلصاً في تودُّده، فقد اعتنق المذهب الشيعي وغلا فيه، وعمل على نشره في المناطق الغربية من بلاده، ما كان سبباً في اشتداد العداء بينه وبين المماليك السُّنَّة، كما أنه طمع في الاستيلاء على الشام ومصر، وهي السياسة التقليدية لمغول إيران منذ عهد هولاكو.

وحاول، قبل الإقدام على غزو بلاد الشام، التحالف مع الغرب الأوروبي، العدو التقليدي للمماليك، لتطويق هؤلاء، والحصول على مساعدة عسكرية. فوجَّه، من أجل ذلك، رسائل عدة إلى ممالك الغرب الأوروبي، إلى البابا كليمنت الخامس، وإدوارد الأول ملك إنكلترا، وفيليب الرابع لوبل ملك فرنسا؛ يؤكد فيها الاستمرار في الاحتفاظ بالعلاقات الطيبة التي اتبعها أسلافه معهم، ويُعرب عن استعداده للتحالف معهم.

ويبدو أن تبادل الرسائل لم يؤدِّ إلى نتيجة إيجابية على الرغم من اعتقاد البابا وملوك أوروبا بأن أولغايتو كان يميل إلى الدين النصراني، وقد كوَّنوا هذا الانطباع نتيجة إخفاء مبعوثه إليهم نبأ اعتناقه الإسلام حتى يضمن مساعدتهم[2].

الحملة على بلاد الشام

حصار الرحبة[3]

حدث، في أوائل عام (٧١٢هـ/ ١٣١٢م) أن شقَّ الأمير قراسنقر، نائب دمشق، عصا الطاعة على الناصر محمد، وأخذ يؤلِّب عليه نواب الشام، فانضم إليه جمال الدين أقوش الأفرم والأمير عز الدين الزردكاش، وبعض الجنود. وحتى يكون هؤلاء في مأمن التجأوا إلى إيران حيث استقبلهم أولغايتو ورحَّب بهم، وأقطعهم الإقطاعات[4]، وهؤلاء اللاجئون هم الذين

(١) المنصوري: ص١٧٦. (٢) Howorth: III pp450, 451.

(٣) الرحبة: بين الرقة وبغداد على شاطئ الفرات أسفل قرقيسياء، بينها وبين دمشق ثمانية أيام، وإلى حلب خمسة أيام، وإلى بغداد مائة فرسخ، وإلى الرقة نيف وعشرون فرسخاً. الحموي: جـ٣ ص٣٤.

(٤) أقطع أولغايتو مراغة لقراسنقر، وأقطع همذان للأفرم. المقريزي: جـ٢ ص٤٧٩.

حثُّوه على مهاجمة بلاد الشام «بعدما هوَّن قراسنقر عليه الأمر، وحسَّن له الأفرم الاستيلاء على هذا البلد» بهدف الانتقام من السلطان المملوكي[1].

رحَّب أولغايتو بهذه الفكرة، ووجد فيها فرصة سانحة لتحقيق أطماعه بالاستيلاء على بلاد الشام، فأعدَّ جيشاً جراراً توجه به إلى الموصل، واصطحب معه أشهر قادته، بالإضافة إلى أمراء الشام الذين التجأوا إليه، وانضم إلى هذا الجيش جنود من الكرج والأرمن.

وتابع الجيش زحفه إلى شاطئ الفرات، فألفى أفراده أنفسهم أمام مدينة الرحبة، فحاصروها في (١٦ رمضان ٧١٢هـ/ ١٥ كانون الثاني ١٣١٣م)، وكان الأمير الأفرم قد تعهد للإيلخان بإقناع صديقه بدر الدين، قائد حامية القلعة، بعدم المقاومة والمبادرة إلى التسليم، لكن هذا الأخير رفض الإذعان لنصائح صديقه، وقرَّر سلوك سبيل المقاومة لمنع أولغايتو من الاستيلاء على الرحبة. وصمد السكان أمام ضغط المغول، ولكن عندما اشتد الحصار وحمي وطيس المعركة، لم يجد قاضي المدينة مفراً من التسليم، فأرسل يستعطف أولغايتو لعله يستجيب لندائه فيأمر بوقف القتال. وأدَّى رشيد الدين، وزير أولغايتو، دوراً كبيراً في إقناعه بأن يفك الحصار عن الرحبة، وفعلاً أصدر الإيلخان أوامره بفك الحصار عنها، وعاد مسرعاً إلى إيران. وفي رواية أن رشيد الدين أشار من تلقاء نفسه على الإيلخان بالعفو عن أهل الرحبة، كما نصح المحاصَرين بالخضوع للمغول[2].

فما الذي حدث في المواقف السياسية حتى أَقدَم أولغايتو على فك الحصار عن الرحبة والعودة مسرعاً إلى بلاده؟

الواقع أنه كانت هناك عدة عوامل دفعت الزعيم المغولي إلى ذلك، لعل أهمها:

ـ المقاومة الضارية التي واجهته من جانب حامية الرحبة، وفشله في الاستيلاء عليها بالقوة، ولما كانت أول قلاع الشام من ناحية العراق، فإنه قدَّر بأن حملته سوف تصادف الفشل.

ـ إنه علم بأن السلطان المملوكي الناصر محمد أعدَّ جيشاً جراراً «حتى لم يبقَ في مصر أحد من العسكر»[3]، وخرج على رأسه من القاهرة قاصداً بلاد

(١) المقريزي: جـ٢ ص٤٧٩. (٢) الصياد: ص٣٩٠.

(٣) المقريزي: جـ٢ ص٤٨٢.

الشام بهدف الاصطدام به، ووقف تقدمه. ويبدو أنه خشي من قوة الجيوش المملوكية وبخاصة أنه فشل في الحصول على مساعدات من أوروبا الغربية.

ـ وقع أولغايتو تحت تأثير وزيره رشيد الدين الذي أقنعه بفك الحصار عن الرحبة والعودة إلى إيران. وقد أشاد المؤرخ ابن كثير بموقف هذا الوزير حين قال: «وكانت له يد جيدة يوم الرحبة، فإنه صانع عن المسلمين، وأتقن القضية في رجوع ملك التتار عن البلاد الشامية سنة اثنتي عشرة»[١].

ـ يبدو أن أولغايتو تعرَّض لضغط شديد على حدود بلاده الشرقية من جانب الجغتائيين، حكام بلاد ما وراء النهر، وأن الهزيمة قد حلَّت بجيشه الذي يعسكر هناك، وترتب على ذلك أن ساءت الأوضاع في خراسان، وتعرَّض السكان لكثير من المتاعب والمشقات، كما تعرَّضت حدود بلاده الشمالية لضغط من القبيلة الذهبية بزعامة أوزبك خان، لذلك حرص على فك الحصار عن الرحبة.

ـ كان لعامل المناخ أثر واضح على اتجاهات الحملة، فقد كان الفصل شتاء، والحرارة متدنية، والطرقات موحلة، ففقد الجيش المغولي عنصر حرية الحركة الضروري لخوض المعركة وتحقيق الانتصار.

معركة ماردين

ترتَّب على الولاء المزدوج لأمراء الأراتقة[٢]، لكل من المماليك والمغول، أن تأرجحت علاقتهم بالمماليك بين العدائية والجيدة، لا سيما بعد أن بلغوا درجة عالية من القوة، فراحوا يتلكأون في إجابة المماليك حول بعض القضايا التي تمَّ الاتفاق بشأنها.

لذلك أرسل الناصر محمد، في عام (٧١٥هـ/ ١٣١٥م)، قوة عسكرية من حلب قوامها ستمائة فارس، بقيادة الأمير شهاب الدين قراطاي، لإخضاع والي ماردين الأرتقي الذي خالف أوامره.

تقدم الأمير قراطاي وأغار على تلك البلاد مدة يومين، وصادف أن قدمت إلى المنطقة آنذاك قوة مغولية قوامها ألفي فارس لتحصيل الأموال السنوية

(١) البداية والنهاية: ج١٤ ص٨٧.

(٢) ينتمي الأراتقة إلى أرتق بن أكسك، من قبيلة الدقر التركمانية، وهي إحدى القبائل الكبيرة التي تنتمي إلى الغز.

المفروضة على الأراتقة، كعادتهم كل سنة، فهاجم قراطاي أفرادها وقتل منهم ستمائة رجل وأسر ما يزيد على مائتين، وقدم بالرؤوس والأسرى والغنائم إلى حلب، فلما علم السلطان «سُرَّ سروراً زائداً» وأرسل الخلع والهدايا إلى نائب حلب وقراطاي[١].

العلاقة مع القبيلة الذهبية

كان خانات مغول القبيلة الذهبية لا يزالون يدَّعون ملكية منطقة القوقاز، ويهاجمون مناطق الحدود لانتزاعها من مغول إيران بالقوة، وعلى الرغم من خلو عهد غازان من الأحداث العسكرية التي تعكِّر صفو السلام بين الدولتين، إلا أن الاستقرار كان مُهدَّداً باستمرار بسبب طموح خان القبيلة الذهبية طقطاي بن منكوتيمور، ومطالبته بحقوق آبائه في بلاد الإيلخانية في أرَّان وأذربيجان، وقد أرسل سفارة إلى بلاط أولغايتو في (جمادى الأولى ٧٠٣هـ/ كانون الأول ١٣٠٣م) من أجل هذه الغاية. ولما كان الإيلخان يستعد للحرب مع المماليك، فقد تساهل في ردِّه على رسالة طقطاي واحترم رسله وحمَّلهم رسالة رقيقة إليه، تتضمن الصفح وتناسي الأحقاد وإحلال الصفاء بين الدولتين[٢].

وعلى الرغم من ذلك فقد اضطر الإيلخان إلى التصدي لجيش طقطاي الذي أرسله إلى إيران بقيادة جوبان، وقد سار إلى دربند عن طريق الكرج، ويبدو أنه هاله ضخامة وقوة الجيش الإيلخاني، فلم يصطدم به. ومال طقطاي إلى الصلح وأرسل رسالة بهذا المعنى إلى أولغايتو في (٢٩ ذي الحجة ٧٠٩هـ/ ٣٠ أيار ١٣١٠م)[٣].

توفي طقطاي في عام (٧١٢هـ/ ١٣١٢م) وخلفه ابن أخيه محمد أوزبك، فسار على نهجه في المطالبة بأراضي القوقاز، وأرسل سفارة إلى أولغايتو من أجل هذه الغاية، فكان رد الإيلخان، الرفض المطلق. ويبدو أن محمد أوزبك كان عاجزاً عن تحصيل ما يدَّعيه من حقوق بالقوة، لذلك عمد إلى السياسة، فأرسل سفارة ثانية إلى أولغايتو في (٢٥ محرم ٧١٤هـ/ ١١ أيار ١٣١٤م)

(١) المقريزي: ج٢ ص٥٠٥.

(٢) تاريخ وصاف: ص٣٩٨. D'ohsson: IV pp317-319. Howorth: III p537.

(٣) القاشاني: ص٨٩.

للتفاهم حول النزاع على القوقاز، عن طريق الصلح، وتوطيد أواصر المحبة والمودة بين الدولتين[1]، غير أن المباحثات اصطدمت بتصلب المواقف، وظلّت العلاقات بين الدولتين متوترة، إلا أنه، منذ ذلك الوقت، تراجع حماس القبجاقيين بالإصرار على ادعائهم بتملك القوقاز[2].

العلاقة مع الغرب الأوروبي

انتهج أولغايتو نهج أسلافه في التقرُّب من الغرب الأوروبي، من واقع العداء المشترك للمماليك وحلفائهم مغول القبيلة الذهبية، وما حدث من فشل التقارب الإيلخاني المملوكي، وإحلال السلام بينهما، بالإضافة إلى ظهور بوادر خلافات حادة بين الإيلخانيين ومغول القبيلة الذهبية بسبب التنازع على منطقة القوقاز، وطلب الخان القبجاقي طقطاي، عن طريق سفارته إلى الناصر محمد في عام (٧٠٤ ـ ٧٠٥هـ/ ١٣٠٥م)، التحالف معه ضد مغول إيران الذي زرع الأشواك في طريق السلام، فضلاً عن أنه كان شيعياً متطرفاً ضد أنصار المذهب السني، بالإضافة إلى استياء أولغايتو من قيام المماليك بشن الغارات ضد حلفائه الأرمن في قيليقيا، فضلاً عن إيوائهم الفارين من وجهه والمتمردين عليه؛ كل ذلك دفعه إلى البحث عن حلفاء ضد المماليك، ولم يكن أمامه سوى الأوروبيين جرياً على عادة أسلافه، فأرسل رسائل عدة إلى ملوك الغرب النصراني، من أجل هذه الغاية، حملها له السفيران توماس أوجي السيني، الدوتشي، ومالغ. والواضح أن التجار الإيطاليين أقنعوا الإيلخان بأن الأوضاع السياسية في أوروبا باتت مستقرة، وأن فرصة نجاح إقامة تحالف مغولي ـ أوروبي، متقدمة، الأمر الذي شجَّعه على إرسال أول سفارة في عام (٧٠٤هـ/ ١٣٠٥م).

ففي الرسالة التي حملها توماس إلى فيليب الرابع لوبل، ملك فرنسا، يُذكِّر أولغايتو هذا الملك بالعلاقات الودية التي نشأت بين أسلافهما، ويؤكد العزم على المحافظة عليها، وأنه يُقر ويحترم الاتفاقيات التي أبرمها أسلافه والتزم بها أخوه الأكبر غازان، ويخبره بالتفاهم الحاصل بين أحفاد جنكيز خان، وعن تكوين حلف بينهم في كل أنحاء البلاد التي يسيطرون عليها، وأن سبب

(١) القاشاني: ص١٦٥. (٢) الصياد: ص٣٨٧. شبولر: ص١١٨.

الحروب الماضية بينهم كانت نتيجة مؤامرات الرعايا وافتراءاتهم، ولم تكن مسؤولية الخانات أو حرصهم على الكسب المادي، وقد فُتحت الطرق كلها للتواصل السياسي والحضاري، ويطلب منه تبادل السفراء وتكثيف الاتصالات بين الطرفين، لأنه نمي إلى علمه، أن ملوك الفرنجة متفاهمون جميعاً مع بعضهم، فيقفون جميعاً صفاً واحداً ضد أعدائهم[1]. على أن هذه الرسالة لا تتضمن أية إشارة إلى طلب التعاون المشترك ضد المماليك، إلا أن بعض المؤرخين اعتقدوا أنها بمجملها تحمل هذا المعنى، من دون التصريح به. والواقع أن الملك الفرنسي لم يردَّ على هذه الرسالة لأن أمور الشرق بعامة والأراضي المقدسة بخاصة لم تعد تعنيه في شيء.

وأرسل أولغايتو في عام (٧٠٧هـ/ ١٣٠٧م) رسالة إلى ملك إنكلترا إدوارد الثاني، الذي كان قد خلف والده إدوارد الأول في (محرم ٧٠٧هـ/ تموز ١٣٠٧م) وردَّ الملك الإنكليزي عليها في رسالتين، الأولى مؤرخة في (١٧ ربيع الآخر/ ١٦ تشرين الأول) أعرب فيها عن رغبته في الاستمرار في علاقات الصداقة مع الإيلخان المغولي، لكنه لم يُلزم نفسه بتعهدات جديدة[2].

والواضح أن السفير توماس قد تناقش مع الملك الإنكليزي ومستشاريه في الأوضاع الداخلية لإيلخانية إيران، ولكن من المؤكد أنه لم يُبلِّغ إدوارد الثاني وغيره باعتناق أولغايتو للإسلام، ويبدو أن هذا الأمر كان بتعليمات من الإيلخان نفسه، بدليل أن عبارات رسائله إلى ملوك الغرب الأوروبي تخفي إسلامه[3].

واعتقاداً من إدوارد الثاني بأن أولغايتو نصراني، أو يميل إلى النصرانية، أو على الأقل ليس مسلماً، فإنه في رسالته الثانية المؤرخة في (٣٠ جمادى الآخرة/ ٣٠ تشرين الثاني) هاجم العقيدة الإسلامية ووصف النبي محمد ﷺ بصفات نابية، وطلب من أولغايتو التخلص من أتباعه المسلمين وكتابهم، القرآن الكريم، وأبلغه أنه لولا بُعد المسافة بينهما، بالإضافة إلى عوائق أخرى، لما تأخَّر عن مساعدته في تخليص وجه الأرض منهم، كما أبلغه بأن

(١) هلال: العلاقات بين المغول وأوروبا، مرجع سابق: ص١٣٨. Howorth: III pp574, 575. D'ohsson: IV pp588, 589.

(٢) Howorth: III p575. D'ohsson: IV pp591, 592.

(٣) Brown: III p49. Howorth: III p577.

جماعة من الفرنسيسكان ستصل إلى بلاده برفقة سفارته كي تنشر العقيدة النصرانية الكاثوليكية في بلاده، وطلب منه أن يحسن استقبالهم ورعايتهم وحمايتهم؛ مبرهناً بذلك عن جهل مطبق بحقيقة الأوضاع في إيلخانية إيران، وهو الوحيد الذي كانت تعتمد عليه البابوية لاسترداد الأراضي المقدسة، ولم يعلم أن عكس ما يريد من تغيير ديني بتحويل المغول والمسلمين معاً إلى النصرانية، قد حدث في إيلخانية إيران[1].

واستدعى البابا كليمنت الخامس (٧٠٤ ـ ٧١٤هـ/ ١٣٠٥ ـ ١٣١٤م) في تلك الأثناء هيتون، ابن أخي الملك الأرميني هيثوم الأول، الذي كان موجوداً آنذاك في فرنسا، وطلب منه وضع تقرير مفصَّل عن فوائد ومخاطر التعاون مع المغول، بوصفه قد شارك مع جنوده الأرمن في بعض المعارك ضد المماليك بالتحالف مع المغول، ومن ثَمَّ فإنه على اطِّلاع تام بالظروف والملابسات السياسية في الشرق الأدنى، وقد سلَّم هيتون تقريره إلى البابا في (صفر/آب) وهو تحت عنوان «زهرة تواريخ الشرق» واقترح في تقريره تنفيذ خطة عسكرية بالتفاهم مع المغول تقضي بمهاجمة الصليبيين والأرمن السواحل الشامية بحراً، في الوقت الذي يهاجم فيه المغول المماليك براً من جهة الشرق[2].

وعندما عادت سفارة أولغايتو من فرنسا ووصلت إلى روما في (أواخر عام ٧٠٧هـ/ أوائل عام ١٣٠٨م)، فإن البابا كتب إلى الإيلخان رسالة مؤرَّخة في (٦ رمضان/الأول من آذار) أعرب فيها عن سروره وسعادته باستلام رسالته التي تتضمَّن معلومات قيِّمة تفيد بأنه سيجهِّز مائتي ألف حصان، ومائتي ألف كيس من القمح ويضعها تحت تصرف مملكة أرمينيا الصغرى لإمداد الجيوش الصليبية حين قدومها لتخليص الأراضي المقدسة، بالإضافة إلى أنه ـ أي الإيلخان ـ سيقود مائة ألف فارس لتدعيم هذه القوة لطرد المسلمين من الأراضي المقدسة، وأن هذا العرض قد قوَّى عزيمته مثل الغذاء الروحي، وأبلغ البابا السفيرين بأنه متى يأتي موسم مناسب لعبور البحر، فإنه سيبلغه عن طريق سفارة من جانبه بموعد وكيفية وصول القوات الأوروبية إلى الشرق، ونصح الإيلخان بأن يواصل مساعيه وجهوده ليخلِّص تلك الأراضي من «أعداء

(١) هلال: ص١٣٩.

(٢) Howorth: III pp578-580. Sinor, Denis: The Mongols and Western Europe, in K. Setton: A History of the Crusades: III pp528, 529.

الرب الذين دنَّسوها» وأن الكنيسة الرسولية والبابا سوف يسعدان بنجاحه ومجده في الدنيا والآخرة[1].

الراجح أن تلك المعلومات عن التجهيزات التي سوف يؤمنها ويقدمها الإيلخان المغولي، مبالغ فيها، وهي من إضافات السفير توماس الإيطالي الأصل، لأن رسالة أولغايتو لم تتضمَّن كلمة واحدة عن هذا الأمر، ثم إن أرغون خان نفسه، وكان بوذياً، وبحاجة ماسة للتحالف مع الغرب الأوروبي، عرض على الأوروبيين إمدادهم بعشرين ألفاً من الخيول بأسعار معتدلة، فكيف يعرض عليهم أولغايتو أضعاف هذا الرقم ومثله من إمدادات القمح، ومائة ألف من الفرسان، مجاناً، وهو مسلم وفي حالة صلح مع المماليك، ولا يحتاج إلى أية مساعدة عاجلة أو تحالف مُلحٍّ مع الأوروبيين[2].

والواقع أن التجار الأوروبيين في البلاد المغولية، وغالبيتهم من الإيطاليين، هم الذين وراء إقناع إيلخانات إيران بإرسال العديد من السفارات إلى أوروبا وذلك بهدف:

ـ تأمين تنقلهم مع تجارتهم بحرية بين الشرق والغرب.

ـ حرص المدن التجارية الإيطالية على أن يتم التحالف بين الطرفين، لأن نقل آلاف الفرسان والمشاة من أوروبا إلى الشرق سيتم على سفن تابعة لها مع ما يتطلب ذلك من نفقات تموينهم وإمدادهم بضرورات الحياة، فضلاً عن حصولهم على امتيازات تجارية واسعة في الموانئ الشامية.

ـ السيطرة على تجارة الشرق الأقصى المارة بإيران والخليج العربي، وحرمان التجار المسلمين من دور الوسيط في نقل السلع الشرقية إلى الغرب الأوروبي، وتعويض خسائرهم الفادحة في هذا المجال بعد أن استعاد المسلمون تلك الموانئ من أيدي الصليبيين. والمعروف أن المدن الإيطالية، البندقية وجنوة وبيزا، كانت الرابح الوحيد، تقريباً في أوروبا من الحملات الصليبية السابقة، وإن ازدهارها يرجع إلى هذا الأمر[3].

والحقيقة أنه حتى تلك العروض الخيالية، لم تحرك الأوروبيين لإرسال

(١) Howorth: III pp576, 577. Boyle: The Ilkhans of Persia and the Christian West, op.cit: p563, Sinor: The Mongols and Western Europe, III p538.

(٢) هلال: ص١٤٠. (٣) المرجع نفسه: ص١٤١.

حملة صليبية، وذلك لانهماكهم بمشكلاتهم الإقليمية واهتماماتهم الجديدة الناتجة عن الانكباب على دراسة التقارير التي وضعها الفلاسفة والمنظرين وأرباب السيف والقلم، حول أسباب فشل الصليبيين في الاحتفاظ بمواقعهم في الأراضي المقدسة، وأنجع السبل لاسترداد هذه البقاع، والمعروف أن تلك التقارير لم تثمر بسبب صعوبة تطبيقها على أرض الواقع في ظل تغيُّر ظروف كل من الشرق الإسلامي والغرب الأوروبي.

وفاة أولغايتو

توفي أولغايتو يوم الأربعاء في (٢٧ رمضان ٧١٦هـ/ ١٣ كانون الأول ١٣١٦م) بسبب إفراطه في اللهو والشراب وتناول الأغذية الدسمة، ومن الطبيعي أن يكون لكل هذا تأثير سيء على صحته، الأمر الذي يؤدي في النهاية إلى وفاته في سن مبكرة، شأنه شأن الكثيرين من أسلافه الإيلخانيين[١].

وعندما كان أولغايتو على فراش الموت أصدر قراراً يقضي بإعادة ذكر أسماء الخلفاء الراشدين في الخطبة والسكة[٢]، وكان معنى ذلك أنه ترك مذهب الشيعة، ورجع إلى مذهب أهل السنة.

(١) القاشاني: ص١٢٢. ابن كثير: جـ١٤ ص٧٧. تاريخ وصاف: ص٦١٧.

(٢) تاريخ وصاف: ص٦١٦.

أبو سعيد بهادور

(٧١٧ - ٧٣٦هـ/ ١٣١٧ - ١٣٣٥م)

الأوضاع الداخلية

اعتلاء أبي سعيد عرش الإيلخانية

كان أولغايتو قد عيَّن في عام (٧١٣هـ/ ١٣١٣م) ابنه وولي عهده أبا سعيد، البالغ من العمر تسعة أعوام، حاكماً على خراسان، واختار الأمير سونغ مرافقاً له وأتابكاً، وكان يثق به ثقة مطلقة، وأمره بالتصدي لغارات الجغتائيين، وإعادة الأمن والاستقرار إلى ربوعها، والمعروف أن هذا الإقليم كان يتعرض لغارات الجغتائيين، حكام بلاد ما وراء النهر، بفعل مجاورتهم له[١].

وعندما اشتدَّ المرض على أولغايتو، أرسل الأمراء والوزراء إلى أبي سعيد يستدعونه على عجل إلى العاصمة السلطانية لعيادة والده، حتى إذا توفي تكون الفرصة سانحة لتولي العرش منعاً لنشوب صراع على السلطة[٢].

ولما توفي أولغايتو كان أبو سعيد في مازندران والأمير سونغ، في سرخس ومرو، فأرسل كبار رجال الدولة، إلى هذا الأمير، رسولاً على عجل ليخبره بحادثة الوفاة، وما إن سمع هذا النبأ حتى سار على الفور إلى مازندران واجتمع بأبي سعيد، فأخبره الخبر وتوجَّها مسرعين إلى السلطانية. وعندما بلغا الري، أرسل سونغ شخصاً يثق به يدعى زنبوري، لاستطلاع رأي الأمراء والقادة المغول، وفي مقدمتهم جوبان وقتلغ شاه خاتون، زوجة الإيلخان المتوفى، بشأن الخلافة، فرحَّب الجميع بتولي أبي سعيد[٣].

وهكذا رُفع أبو سعيد على عرش الإيلخانية في (أوائل صفر ٧١٧هـ/ منتصف

(١) Howorth: III p587.

(٢) ميرخواند: روضة الصفا: جـ٥ ص٤٧٨.

(٣) D'ohsson: IV pp599-603. Howorth: III pp585, 586. Brown: III p51.

نيسان ١٣١٧م) خلفاً لوالده، وكان في الثالثة عشرة من عمره[١]، وشرع فور اعتلائه العرش، في توزيع الإقطاعات والمناصب الإدارية والعسكرية، وكان يميل إلى تعيين سونغ أميراً للأمراء، غير أن هذا اعتذر عن قبول المنصب، وفضَّل أن يظل أتابكاً للإيلخان يمده بنصائحه ويشرف بنفسه على شؤونه، لذلك اختار جوبان لهذا المنصب، وعهد إليه بالإشراف على كل ما يتصل بشؤون الملك والحكم. ونصَّب تيمورتاش بن جوبان حاكماً على بلاد الروم، واختار جلال الدين، الابن الأكبر لرشيد الدين، وزيراً ومتصرفاً بالشؤون المالية. وخصَّص لكل ولاية أميراً، فعهد إلى إيرنجين بحكومة ديار بكر، وعيَّن سوتاي حاكماً على ممالك الأرمن، واختار أيسن لحكومة خراسان، وأبقى الوزيرين رشيد الدين وعلي شاه في منصبيهما على نحو ما كان متبعاً في عهد والده، ولكنه عهد إلى الثاني بالإشراف أيضاً على المباني العامة والقصور السلطانية والاصطبلات والترسانات، وكان معنى ذلك الحط من شأن الأول، وعيَّن قادة الفرق العسكرية وأرسلهم إلى الأماكن المخصَّصة لهم[٢].

حركة الأمير يساور

تعرَّضت إيلخانية إيران، في بداية عهد الإيلخان أبي سعيد، لاضطرابات داخلية، أثارها تنافس بعض الأمراء وأطماعهم. وكان الأمير يساور الجغتائي قد عبر نهر جيحون في عهد أولغايتو باتجاه باذغيس وهراة، فأقطعه الإيلخان بعض الأراضي هناك وعقد معه اتفاقية سلام، وقد جُدِّدت في عهد أبي سعيد[٣].

وكان أبو سعيد قد عيَّن الأمير يساول حاكماً على خراسان، وقد أراد هذا أن يتزوج ابنة أخي يساور، فتقرَّب إليها بالهدايا والأموال التي اشتط في الحصول عليها، ما عرَّضه لغضب السكان. وأقام يساول مأدبة فخمة على شرف الفتاة، وبرز في هذه الأثناء الأمير بكتوت، أحد أمراء يساور، كمنافس له في الحصول على يد الفتاة، فراحُ يشوّه صورة يساول أمامه ويحذره منه، ويدخل في روعه أنه ينوي القضاء عليه خلال المأدبة. وأقدم يساول من جهته

(١) ولد أبو سعيد في (١٥ شوال ٧٠٣هـ/ ٢ حزيران ١٣٠٤م). Howorth: III p586

(٢) تاريخ وصاف: ص٦١٨ ـ ٦٢٠. D'ohsson: IV pp599-603. Howorth: III p587.

(٣) آبرو، حافظ: ذيل جامع التواريخ: ص١٢٩ ـ ١٣٣.

على عمل حمل يساور على أن يفقد ثقته به، وذلك حين عزل أبا يزيد بن بوجاي، أحد أصدقاء يساور، عن قيادة جيش والده بحجة أنه طفل لا يصلح لتولي إمارة بوجاي، وولَّى مكانه الأمير طغان بن دانشمند، ما دفع كل واحد منهما للتآمر على الآخر بهدف التخلص منه[١].

ونجح يساور في التخلص من يساول وقتله على ضفاف نهر فراسو وهو في طريقه إلى نيسابور، وذلك في (١٠ ذي الحجة ٧١٦هـ/ ٢٣ شباط ١٣١٧م)، وارتفع شأنه بعد هذا النجاح وراودته أحلام السيطرة والاستقلال، فهاجم مازندران، واستولى على عدة قلاع في سجستان، الأمر الذي دفع أبا سعيد للتصدي له، فأرسل إليه قوة عسكرية، بقيادة الأمير أيسن قتلغ، وعيَّنه حاكماً على مازندران[٢].

اتبع أيسن قتلغ سياسة التفرقة بين يساور وبكتوت بهدف إضعافهما، فاستقطب الثاني وهادن الأول ما عُدَّ تآمراً على الدولة، فحامت حوله الشكوك والشبهات واتهمه الأمراء بالتواطؤ معهما، فاستدعاه الإيلخان إلى أرَّان لمحاسبته، غير أن القدر أراحة منه حيث توفي في الطريق في (١٣ شعبان ٧١٨هـ/ ١٠ تشرين الأول ١٣١٨م)[٣].

دفعت هذه التطورات السلبية الإيلخان أبا سعيد إلى تعيين الأمير حسين كوركان الجلائري حاكماً على خراسان، وأمره بالتصدي لحركة يساور التي توسعت باستيلاء قائدها على كامل منطقتي خراسان وسجستان، ويبدو أنه تهيَّب الموقف، فطلب نجدة عاجلة، فأمدَّه الإيلخان بقوة عسكرية إضافية. ولما حاول يساور الاستيلاء على هراة، تصدَّى له حاكمها غياث الدين كرت بالاشتراك مع حسين الجلائري وكبك خان بن دووا براق، حاكم بلاد ما وراء النهر، الذي خشي من طموحات يساور وأطماعه في بلاده، وهكذا اتحدت كافة القوى المغولية في المنطقة للقضاء على هذا الثائر[٤].

واستقطب الحلفاء أمراءه وجنوده، فانفضُّوا من حوله، كما قتلوا ساعده الأيمن بكتوت، ولما رأى نفسه وحيداً لاذ بالفرار، فطاردوه حتى قبضوا عليه وقتلوه[٥].

(١) آبرو: ص١٢٤، ١٢٥.

(٢) المصدر نفسه: ص١٣٩.

(٣) المستوفي القزويني: ص٦١٣. شبولر: ص١٢٣.

(٤) آبرو: ص١٣٩. خواندامير: م٣ جا ص٢٠٤.

(٥) المصدران نفساهما.

مقتل رشيد الدين الهمذاني

سيطر جوبان على مقاليد الأمور في الدولة، وازدادت قوته حتى لم يبقَ لأبي سعيد من السلطة سوى الاسم[1]. وبرزت، في هذه الأثناء، الخلافات العميقة بين رشيد الدين وعلي شاه، وتفاقمت في ظل التحالفات الجديدة لرجال البلاط. والواقع أنه كان من الصعب أن يستمر الوزيران معاً في العمل السياسي، وسرعان ما دبَّ الخلاف بينهما بفعل عدة عوامل لعل أهمها:

- تفاهم رشيد الدين، الذي أدركته الشيخوخة وزهد في الحكم، مع جوبان وقد رأى علي شاه أن هذا التفاهم موجَّه ضده.
- استقطاب رشيد الدين لسونغ.
- اتخاذ أبي سعيد عبد اللطيف بن رشيد الدين نديماً له، وقرَّب أخاه إبراهيم وجعله ساقياً في البلاط.

وخشي علي شاه على نفسه من هذه العصبة، فراح يبذر بذور الشقاق بين رشيد الدين وجوبان.

ونتيجة لهذا النزاع المتجدِّد:

- ازدادت الهوة اتِّساعاً بين الرجلين مع مرور الوقت.
- تأثَّر عمال الديوان الذين واجهوا مشكلة حقيقية فيما لو انضموا إلى أحد الطرفين.
- اختلَّ العمل الديواني.

أدرك عمّال الديوان سوء نية علي شاه، عندما راح يُحرِّضهم ضد رشيد الدين، فحاولوا وضع حد لهذا النزاع بالكشف عن غدره وسوء تصرفه وإقامة الحجة عليه، أمام الإيلخان، فرفض رشيد الدين ذلك بفعل حسن نيته ونبل أخلاقه.

وتمادى علي شاه في مؤامرته ضد رشيد الدين بهدف التخلص منه، فأغرى حاشية جوبان بالمال والهدايا، وعلى رأسهم أبو بكر آقا، فأوغروا صدره ضده، فجرى عزله في (رجب ٧١٧هـ/ أيلول ١٣١٧م)[2]، ولم تمضِ مدة طويلة على عزله حتى قُدِّم إلى المحاكمة بحضور أبي سعيد، وحُكم عليه

(١) ابن بطوطة: جـ١ ص٢٤٦.
(٢) خواندامير: حبيب السير: م٣ جـ١ ص٢٠٠.

بالإعدام بتهمة قتل أولغايتو، بإعطائه جرعة من شراب مسموم تسبَّبت بوفاته. وقبل إعدامه، جرى قتل ابنه الشاب إبراهيم أمامه بحجة أنه ناول الإيلخان تلك الجرعة، وذلك في (١٧ جمادى الأولى ٧١٨هـ/ ١٧ تموز ١٣١٨م)[1].

والواقع أن وفاة أولغايتو سبَّبت الارتباك في الدولة المغولية في ظل حكم إيلخان قاصر، ما جعل الباب مفتوحاً على مصراعيه أمام ظهور زعماء جدد كانت أولى خطواتهم قتل الوزير رشيد الدين[2].

وهكذا ذهب رشيد الدين، الوزير والإداري القدير، ضحية الفتن التي صاحبت تسلُّط جوبان على أمور الدولة. وبعد إعدامه، أُحرقت المكتبة التي أقامها في المسجد الذي شيَّده في تبريز، وكانت تحوي أكثر من خمسين ألف كتاب، وقد التهمت النيران، مع بقية الكتب، مؤلفات رشيد الدين التي قيل إنها تزيد على سبعين مصنفاً، ومنها كتاب جامع التواريخ[3].

ذيول مقتل رشيد الدين الهمذاني

تعرَّضت إيلخانية إيران، بعد مقتل رشيد الدين، إلى سلسلة من الفتن والاضطرابات الداخلية، بين مختلف الجماعات المغولية، أشرف خلالها كيان الدولة على الانهيار، إلا أنها شكَّلت علامة فارقة على بداية النهاية لمسيرتها السياسية، ذلك أن جماعة من الأمراء، استاؤوا من تسلط الأمير جوبان في معاملته السيئة لهم، إثر عودته منتصراً من حرب محمد أوزبك، خان مغول القبيلة الذهبية، وقرَّروا التخلص منه، والمعروف أن هذا الأمير اتَّهم هؤلاء وعلى رأسهم قورميشي بن إليناق، بالإهمال والتقصير ما عرَّض الإيلخانية لخطر هؤلاء المغول[4].

وحدث أن انفصل جوبان عن الجيش العائد من الحرب، وذهب إلى بلاد الكرج للصيد والقنص، فانتهز خصومه هذه الفرصة وساروا في إثره يريدون قتله، لكنهم لم يستطيعوا اللحاق به. وشعر جوبان بالخطر الذي يلاحقه، فأرسل رسولين من قِبَله ليتحرَّى الأمر، فقبض عليهما خصومه وقتلوهما، ولما

(١) خواندامير: ص٢٠١. المستوفي القزويني: تاريخ گزيدة: ص٦١٣.
(٢) شبولر: العالم الإسلامي في العصر المغولي: ص٧٨.
(٣) الرفيعي، عبد الأمير: العراق بين سقوط الدولة العباسية وسقوط الدولة العثمانية: جـ١ ص١٦٨.
(٤) خواندامير: م٣ جـ١ ص٢٠٥. الصياد: ص٤٣٩.

علم بالأمر، التحق بمعسكر ابنه الأكبر حسن الذي كان يقود الجيش العائد[1].

وهاجم أعداؤه دياره للبحث عنه، ونهبوا معسكره، وقبضوا على جماعة من أتباعه وقتلوهم، واعتقلوا أحد نوابه، ويدعى دقماق، غير أنهم أطلقوا سراحه واستمالوه إلى جانبهم، ثم جدُّوا في البحث عنه حتى التقوا به في مكان بالقرب من كوكجة دنكيز[2]، فاصطدموا به، وكادوا ينالون منه لولا أن فرَّ من ميدان المعركة مع ابنه حسن، فطاردوه، لكن من دون جدوى. وأخيراً وصل إلى تبريز، غير أنه لم يمكث فيها طويلاً لإدراكه أن أعداءه سوف يلحقون به، فغادرها متوجهاً إلى السلطانية[3].

عند هذه المرحلة من الصراع الدامي، رأي قورميشي استقطاب الأمير إيرنجين لتقوية موقفه، فأبلغه أن جوبان عزله عن حاكمية ديار بكر وولى مكانه الأمير سوتاي، واتهم الرجلان الإيلخان بأنه وراء هذه المتغيرات السياسية، فحقدا عليه وشرعا في الاستعداد لحربه وخلعه عن العرش، وزوّرا مرسوماً سلطانياً يقضي بالتخلص من جوبان وأتباعه، وانضم إليهما عدد من الأمراء والقادة العسكريين بوصفهما ينفذان إرادة الإيلخان.

وصلت أنباء هذه الاضطرابات إلى بلاد الروم، فقرَّر المغول الذين كانوا يقيمون هناك، أن ينقضوا على تيمورتاش بن جوبان، غير أن جلال الدين بن رشيد الدين استطاع أن يكفَّ أيديهم عن ذلك ويخمد الفتنة[4].

وحتى يبررا سلوكهما العدائي تجاه جوبان، أرسلا إلى أبي سعيد يبلغانه أنهما أقدما على محاربته لأنه تمرَّد على حكمه، غير أن الإيلخان علم بحقيقة الأمر فدافع عن جوبان، وقرَّر محاربة المتمردين، وساند علي شاه جوبان لتخطِّي هذه المحنة.

وخرج أبو سعيد على رأس جيش جرار لمحاربة المتمردين، والتقى بهم بالقرب من قرية ميانة، في أذربيجان بين مراغة وتبريز، وجرى قتال بين الطرفين في (ربيع الآخر ٧١٩هـ/ حزيران ١٣١٩م) بعد فشل مساعي التهدئة

---

(١) ميرخواند: جـ٥ ص٤٩٣. المستوفي القزويني: ص٦١٤.

(٢) كوكجة دنكيز: البحيرة الخضراء. (٣) المستوفي القزويني: ص٦١٥.

(٤) ميرخواند: جـ٥ ص٤٩٣.

التي قامت بها قتلغ شاه خاتون، زوجة أبي سعيد وابنة إيرنجين، وأسفر عن انتصار واضح للقوات الحكومية، وقتل قورميشي وإيرنجين بعد أن وقعا في الأسر، وكذلك قُتلت زوجة هذا الأخير كيجيك خاتون التي اشتركت في القتال[1].

وبفعل شجاعة أبي سعيد التي أبداها في القتال استحق لقب بهادور[2] الذي أضيف إلى اسمه، وأضحت المراسيم والمنشورات تصدر منذ ذلك الوقت، متضمنة هذا اللقب، في كل أنحاء البلاد الواقعة تحت سيطرة الإيلخان، وقد حُرِّرت الرسائل بهذا الانتصار وأُرسلت إلى كافة الولايات، وقد سُرَّ السلطان المملوكي الناصر محمد بن قلاوون بتلك الاضطرابات لما فيها من وقوع الوهن في المغول[3].

القضاء على جوبان

ارتفعت مكانة جوبان بعد انتصاره الكبير على الأمراء المتمردين، وكافأه أبو سعيد بأن أطلق يده وأيدي أبنائه في إدارة الدولة والبلاد. والواقع أن جوبان كان مخلصاً للإيلخان، وبذل جهداً كبيراً في المحافظة على البلاد ومحاربة الأعداء واستتباب الأمن وتعميم الاستقرار، وليس أدل على إخلاصه من موقفه من ابنه تيمورتاش، حاكم بلاد الروم، الذي خرج على حكم أبي سعيد في عام (٧٢٢هـ/ ١٣٢٢م) واستقلَّ بحكم البلاد، وضرب السكة باسمه، وأطلق على نفسه اسم مهدي آخر الزمان، وأرسل الرسل تباعاً إلى بلاد الشام ومصر لطلب المساعدة كي يبسط سيطرته على العراقين وإقليم خراسان[4]، فلم يتردَّد جوبان في محاربته والقبض عليه، وقاده مكبلاً إلى الإيلخان ليرى فيه رأيه، فعفا عنه إكراماً لوالده، وجدَّد له حكم بلاد الروم[5].

وما كاد جوبان يصل إلى الذروة حتى بدأ نجمه بالهبوط، إذ تعرَّض فجأة لغضب الإيلخان، فشنَّ عليه حملة استأصلته، ولعل أبرز الدوافع لنقمة الإيلخان تكمن فيما يلي من أحداث:

---

(١) ميرخواند: جـ٥ ص٤٩٤ ـ ٤٩٧. المستوفي القزويني: ص٦١٥. تاريخ وصاف: ص٦٤٢. يذكر أن المعركة جرت في شهر جمادى الآخرة. D'ohsson: IV pp632-641

(٢) بهادور: أي الشجاع. (٣) المقريزي: جـ٣ ص٦، ١٧.

(٤) ميرخواند: جـ٥ ص٥٠٤، ٥٠٥.

(٥) العسقلاني، ابن حجر: الدرر الكامنة: جـ١ ص٥١٨.

- كان لجوبان ابنة رائعة الجمال تُدعى بغداد خاتون، وقد تزوَّجت في عام (٧٢٣هـ/ ١٣٢٣م) من الأمير الشيخ حسن بن حسين كوركان الجلائري، ولم يكد يمضي عامان على زواجهما حتى هام بها أبو سعيد، وكان آنذاك في العشرين من عمره، وقرَّر الزواج بها، فطلب من جوبان أن يطلقها من الشيخ حسن ليتزوجها، وذلك وفقاً لأحكام الياسا[١]. دُهش جوبان من هذا الطلب وأجابه إجابة فهم منها الإيلخان أنه لا يوافق على رأيه، فحنق عليه، إلا أنه كظم غيظه وأضمر الحقد عليه، وحتى يُبعد ابنته عن نظر الإيلخان أرسلها مع زوجها للعيش في قراباغ.
- حسد الأمراء لجوبان وأولاده على ما بلغوه من منزلة رفيعة في دولة الإيلخان أبي سعيد، فاستغلوا فرصة رفضه زواج ابنته منه وغضب هذا الأخير عليه، فراحوا يشهِّرون به، وأدخلوا في روع أبي سعيد أنه ملأ مناصب الدولة بأتباعه.
- ارتكاب حسن بن جوبان أخطاء قاتلة حين سمح لجنوده باستباحة مدينة غزنة، بعد إنقاذها من هجوم مغولي جغتائي ـ قبجاقي مشترك، فارتكب جنوده الفواحش من القتل والنهب والفسق والفساد، وحطَّموا قبر السلطان محمود الغزنوي، ومزَّقوا أوراق المصاحف، وحوَّلوا المدينة إلى خراب، فاستغل أعداؤه ذلك وأوغروا صدر الإيلخان عليه وعلى والده[٢].
- شكَّل غياب جوبان وأولاده عن العاصمة فرصة لأعدائهم لتوجيه ضربتهم القاتلة، فأخبروا أبا سعيد بأن دمشق خواجة بن جوبان، القائم بأعمال أبيه في العاصمة أثناء غيابه، يقيم علاقات غرامية مع محظياته في قلعة السلطانية. فأرسل أبو سعيد أشخاصاً للتحقق من هذا الأمر، وقد أكَّدت دنيا خاتون، زوجة أبيه، هذه المعلومات، وأضافت بأنه واعدها هذه الليلة للمبيت عندها، وأنه بات البارحة عند طغى خاتون، واقترحت أن يتصدَّى له عند دخوله ويُقبض عليه. وفعلاً أرسل أبو سعيد قوة عسكرية قبضت عليه وهو يهم بالخروج من القلعة، فَقَتَله فوراً وأمر بنهب داره[٣].

(١) تقضي الياسا بأن كل امرأة متزوجة يقع نظر الخان عليها ويعجب بها، يسرع زوجها طوعاً إلى تطليقها ويرسلها إلى الخان عن طيب خاطر.

(٢) خواندامير: م٣ جـ١ ص٢١٠.

(٣) ابن بطوطة: جـ١ ص٢٤٦، ٢٤٧. المستوفي القزويني: ص٦١٧، ٦١٨.

عرَّض تصرف دمشق خواجة وضع أبيه وإخوته للخطر، حيث قام الإيلخان بحملة شعواء لاستئصال هذه الأسرة، فأرسل إلى الأمراء المرافقين لجوبان يطلب منهم أن يقتلوه، غير أن هؤلاء رفضوا الغدر به، بل إنهم وقفوا إلى جانبه في هذه المحنة، غير أن القلق انتاب هذا الأمير، فعقد اجتماعاً مع أركان حربه وابنه حسن للتشاور في أفضل السبل للخروج من هذا المأزق، وتقرَّر الزحف نحو العاصمة لحسم الأمر.

وقاد جوبان في (أوائل ٧٢٨هـ/ أواخر ١٣٢٧م) جيشاً جراراً بلغ تعداده سبعين ألف مقاتل، متوجهاً إلى العراق لقتال الإيلخان. ومن جهته خرج أبو سعيد من السلطانية على رأس جيش كبير للتصدي له، وعسكر في قزوين.

وحاول جوبان التفاهم مع أبي سعيد لحل الخلاف بينهما بطريقة سلمية، فأرسل الشيخ ركن الدين علاء الدين السمناني إلى معسكر الإيلخان من أجل أن:

- يوضِّح له موقفه المسالم منه.
- يطلب منه أن يسلمه المتسببين في مقتل ابنه ليقتص منهم، وبذلك تنطفئ جذوة الفتنة.

وفي المقابل طلب أبو سعيد أن:

- يُسرح جوبان جنده.
- يُعلن خضوعه والدخول في طاعته من دون قيد أو شرط، وإلا فالسيف هو الحكم بينهما.

والواقع أن المفاوضات فشلت، وكان لا بد للسيف أن يحكم بينهما. وتقدم جوبان إلى الري، غير أنه عانى من تصدع قواته. فقد انفصل عنه بعض الأمراء والقادة وانضموا إلى جيش الإيلخان، وسلخوا معهم ثلاثين ألف جندي، إذ عدُّوا طاعته فرضاً عليهم[١]، فتحرج موقفه وشعر بالضعف، وأضحى لا قِبَل له بالدخول في معركة ناجحة، فانسحب من المكان وعاد إلى خراسان، ثم اخترق صحراء سجستان وأوغل فيها حتى بلغ ضفاف نهر مرغاب عن طريق الطبسين، وقرَّر اللحاق بملك هراة، غياث الدين كرت، مستجيراً به ومتحصناً بمدينته، على الرغم من تحذير ولديه حسن وطالش من غدره، إذ أن

(١) المستوفي القزويني: ص٦١٩.

ملوك هراة لا عهد لهم ولا ذمة ولا أمانة، وقد جُبلوا على المكر والخديعة، ولما أصرَّ على ذلك فارقاه، وبقي معه ابنه الصغير جلوخان[1].

رحَّب الملك غياث الدين بجوبان، وأدخله المدينة على الأمان، غير أنه ما لبث أن ضرب بقواعد الضيافة والحماية عُرض الحائط، حين وصل إليه أمر من أبي سعيد بقتله مقابل أن يُزوِّجه زوجته الأميرة كردوجين، ويمنحه حق التصرف في أملاك أتابكة فارس، فقتله خنقاً وأرسل إصبعه، الذي له رأسان، إليه كدليل على قتله، وسجن ابنه جلوخان ثم قتله[2].

وحقَّق أُبو سعيد غايته غصباً بعد مقتل جوبان، وهي الزواج من ابنته بغداد خاتون، بعد أن أجبر الشيخ حسن الجلائري على طلاقها. وسرعان ما شغلت هذه السيدة منزلة سامية في بلاط الإيلخان، وأضحت لها الكلمة الأولى في إدارة الشؤون العامة حتى أنها لُقِّبت بلقب «ربة الدار» أو «رئيسة العائلة».

وأمرت هذه السيدة بنقل جثمان أبيها وأخيها إلى مكة بكل مظاهر الاحترام، فأُرسل النعشان مع المحمل إلى عرفة أثناء تأدية مناسك الحج، ثم طيف بهما حول الكعبة، وبعد أن أدَّى الحجاج صلاة عيد الأضحى صلُّوا عليهما ودعوا لهما بالرحمة والمغفرة، وأُرسل النعشان بعد ذلك إلى المدينة، ودُفن الجثمانان في البقيع بجوار الخليفة عثمان بن عفان، والإمام الحسن بن علي[3].

يُعدُّ سقوط رجل قوي مثل جوبان، بعد مقتل الوزير رشيد الدين، ضربة قاصمة للإيلخانيين، إذ افتقرت الإيلخانية بعدهما، إلى الرجال القادرين على المحافظة على كيانها من الانهيار، ما كان إيذاناً ببداية نهايتها.

القلاقل في إيلخانية إيران في أواخر حكم أبي سعيد

شغر منصب الوزارة بعد مقتل دمشق خواجة بن جوبان، وكان من الطبيعي أن يحدث الارتباك في دوائر الدولة نتيجة التغيير السريع في رجال الإدارة، وبخاصة الأكفاء منهم، وقد أدرك أبو سعيد هذه الظاهرة، وشعر بأنه تسرَّع في قتل رشيد الدين، وعدَّ ذلك خسارة كبرى لدولة المغول الإيلخانيين. وحتى

(١) ابن بطوطة: جـ١ ص٢٤٧.
(٢) المصدر نفسه: ص٢٤٨. العسقلاني: جـ١ ص٥٤١.
(٣) المصدران نفساهما: ص٢٤٨. ص٥٤١ ـ ٥٤٣. ميرخواند: جـ٥ ص٥٢٢، ٥٢٣.

يُعزِّي أسرته عيَّن ابنه غياث الدين محمد في منصب الوزارة، وكان آنذاك الشخص الوحيد الجدير بهذا المنصب[1].

وقرَّر أبو سعيد، بعد مقتل جوبان، أن يتخلَّص نهائياً من سيطرة الأمراء من واقع عدم تعيين أحد في منصب أمير الأمراء على أن يباشر السلطة بنفسه. وبرز آنذاك الأمير ناري طغاي كرجل طموح يريد الحصول على هذا المنصب والاقتداء بجوبان، فأبعده أبو سعيد عن بلاطه بأن عيَّنه حاكماً على خراسان، فذهب إلى مقر عمله الجديد مُكرهاً، إلا أنه لم يركن إلى الهدوء، فراح يثير الفتن والقلاقل ويشيع بأن إقليم خراسان مُهدَّد من جانب الجغتائيين، وكتب إلى الإيلخان يطلب إمدادات على وجه السرعة، فأرسل إليه مدداً عسكرياً على رأسه بعض كبار الأمراء، لكن هذا الأمير استطاع التأثير عليهم وأقنعهم بالعدول عن الزحف إلى خراسان، وراح يؤلِّبهم على زوجة الإيلخان، بغداد خاتون، والوزير غياث الدين محمد، وأرفق ذلك بالإغارة على نيسابور حيث استولى على مبالغ طائلة من كل منطقة خراسان.

وخشي أبو سعيد من هذه الحركة التي عدَّها تمرداً على سلطته ورأى ضرورة القضاء عليها، وحدث أن قدم الأمير ناري طغاي إلى العاصمة في محاولة للتخلص من الوزير غياث الدين محمد، غير أنه فشل واكتُشِف أمره، واعتُقل مع زميل له يُدعى تاش تيمور، كان مشتركاً معه في المؤامرة، وقُتلا بموجب أمر من الإيلخان في (أواخر ٧٢٩هـ/ صيف ١٣٢٩)[2].

وتعرَّض الشيخ حسن الجلائري، في غضون ذلك، لمؤامرة، فقد وشى به جماعة من الساعين إلى الفساد، فاتهموه بأنه يراسل بغداد خاتون سراً بهدف التخلص من الإيلخان، فصدَّق هذا تلك الوشاية واعتقل الأمير حسن ونفاه إلى قلعة كماخ، إحدى قلاع بلاد الروم، وغضب على زوجته بغداد خاتون حتى ثبتت براءتها، فأمر عندئذٍ بإطلاق سراح الأمير حسن وعيَّنه حاكماً على بلاد الروم في (أوائل ٧٣٣هـ/ أواخر ١٣٣٢م)[3].

وفاة أبي سعيد

توفي الإيلخان أبو سعيد في قراباغ، من أعمال أرَّان، في (١٣ ربيع الآخر

(١) القزويني: تاريخ گزيدة: ص٦٢١. (٢) الصياد: ص٤٦٨ ـ ٤٧٠.
(٣) المرجع نفسه: ص٤٧٠، ٤٧١.

٧٣٦هـ/ ٣٠ تشرين الثاني ١٣٣٥م)، وهو في طريقه لمحاربة أوزبك، خان القبيلة الذهبية، وكانت الأمراض والأوبئة قد انتشرت بين أفراد جيشه الزاحف إلى بلاد القبجاق وقضت على معظمهم، وأصيب الإيلخان نفسه بمرض شديد رقد على أثره في الفراش لمدة أسبوعين قبل أن يتوفى، فحُمل جثمانه إلى السلطانية ودفن تحت القبة التي كان قد أقامها بالقرب من هذه المدينة بجوار قبر أبيه، ولم يتجاوز الثانية والثلاثين من العمر[١].

وهناك قرائن قوية تدل على أن أبا سعيد توفي مسموماً من قِبَل زوجته بغداد خاتون لأسباب عائلية، والمعروف أنه تزوج في أواخر حياته من ابنة أخيها دمشق خواجة، المسماة دلشاد خاتون، وفضَّلها عليها، واتخذها أثيرة، فحقدت عليه وصمَّمت على الانتقام منه ثأراً لمقتل أبيها وإخوتها، ولما علم الأمراء بذلك حكموا عليها بالموت، فقتلها الأمير لؤلؤ بدبوسه في الحمام بأمر من الإيلخان الجديد[٢].

العلاقات الخارجية

العلاقة مع المماليك

مال الإيلخان أبو سعيد إلى التفاهم مع المماليك في مصر، وسعى إلى الدخول في مفاوضات مع السلطان الناصر محمد بهدف عقد صلح بينهما، لأنه لم يكن على استعداد للدخول في صراع مسلح معه، وذلك بفعل ثلاثة دوافع:

الأول: داخلي، ويتمثل باضطراب الأوضاع الداخلية للإيلخانية نتيجة الصراع الدامي بين الأمراء، من أجل تحقيق مصالح شخصية.

الثاني: خارجي، ويتمثل في التهديد المستمر لإيلخانية إيران من قِبَل أبناء أعمامه في بلاد ما وراء النهر والقبجاق، الذين يطمعون في الاستيلاء على مناطق نفوذه.

الثالث: توالي الخسائر المادية نتيجة الاصطدامات بالمماليك.

رأى أبو سعيد وأعوانه أنهم عاجزون عن السير في السياسة التقليدية

(١) ميرخواند: جـ٥ ص٥٣٤. خواندامير: م٣ جـ١ ص٢١٩.

(٢) ابن بطوطة: جـ١ ص٢٤٨، ٢٤٩.

المعادية للمماليك في بلاد الشام ومصر، الذين صمدوا في وجههم، وتغلَّبوا على أسلافهم في عدة معارك حاسمة.

وكان الناصر محمد من جهته، لا يزال يكنُّ العداوة للمغول على الرغم من المفاوضات السلمية التي ابتدأت بين الطرفين منذ عام (٧١٨هـ/ ١٣١٨م)، حتى أنه أرسل في عام (٧٢٠هـ/ ١٣٢٠م) ثلاثين رجلاً من طائفة الحشاشين إلى إيران لاغتيال قراسنقر، حاكم مراغة[١].

وعلى الرغم من فشل هذه المؤامرة إلا أنها أخافت المغول إلى حد كبير، وأحدثت في نفوسهم أثراً سيئاً. فقد انتشرت الإشاعات في تبريز أن هؤلاء الإسماعيلية حضروا لاغتيال الإيلخان أبي سعيد نفسه، بالإضافة إلى جوبان والوزير علي شاه وقرا سنقر وأمراء مغول آخرين، فاحتجب الإيلخان أحد عشر يوماً في خيمته خشية على نفسه[٢].

وكان من المتوقع أن يؤدي هذا الحادث إلى قطع مفاوضات الصلح واستئناف سياسة العداء بين البلدين، غير أن الخوف الشديد الذي اعترى أبا سعيد ورجال دولته، كان دافعاً للتعجيل بطلب عقد الصلح.

وبعد ثلاثة أعوام من المفاوضات المستمرة، جنح الناصر محمد إلى الصلح، بعد أن عبَّر له أبو سعيد عن نواياه الطيبة، ورغبته الصادقة في قيام علاقات بينهما على أسس من المحبة والاحترام المتبادل.

وأوفد الإيلخان المجد السلامي مبعوثاً له إلى القاهرة لإجراء مفاوضات الصلح بشروط محدَّدة، ثم قدمت الرسل بصحبة نصير الدين، قاضي القضاة، ومعهم كتاب الصلح الذي تضمَّن شروطاً منها[٣]:

- الامتناع عن إرسال الإسماعيليين الحشاشين إلى البلاد التي يحكمها المغول.
- عدم المطالبة بتسليم أي شخص قدم إلى بلاد المغول من مصر.
- من يفد إلى مصر من المغول، لا يعاد إلى بلده إلا برضاه.
- لا يسمح سلطان مصر للأعراب من البدو، ولا التركمان بالإغارة على بلاد الإيلخانيين.

(١) كان الناصر محمد يحاول، بشتى الوسائل، أن يعتقل قراسنقر أو يقضي عليه لأنه كان متهماً بالاشتراك في قتل أخيه الملك الأشرف.

(٢) المقريزي: جـ٣ ص٢٨. (٣) المصدر نفسه: ص٢٩.

ـ تسهيل التبادل التجاري بين البلدين، وتأمين انتقال التجار بينهما مع توفير الحرية التامة لهم.

ـ تسيير المحمل كل عام من العراق إلى الحجاز رافعاً علمين: أحدهما باسم سلطان مصر، والآخر باسم إيلخان إيران.

ـ وقف مساعي السلطان الناصر محمد في القبض على قراسنقر أو محاولة التخلص منه.

كان من مظاهر هذا الصلح بين البلدين أن:

ـ توطَّدت العلاقات الطيبة بين المماليك وإيلخانيي إيران، ويعدُّ ذلك تحولاً في العلاقات بين الدولتين، إذ هدأت المنطقة، ولم تعد تشهد حروباً طاحنة من نوع الحروب التي شهدها القرن الثالث عشر الميلادي، وسادها جو من الهدوء والسلام[١].

ـ صار يُدعى لأبي سعيد في مكة بعد الدعاء للناصر محمد[٢].

ـ صرف الإيلخانيون النظر عن التحالف مع الغرب الأوروبي، على الرغم من إلحاح البابا يوحنا الثاني والعشرين (٧١٦ ـ ٧٣٥م/ ١٣١٦ ـ ١٣٣٤م) للتعاون المثمر بين الطرفين ضد المماليك، ولعل لذلك علاقة بمدى ما كانت تتعرَّض له أرمينيا الصغرى من هجمات المماليك. فقد أرسل هذا البابا رسالتين في (جمادى الآخرة ٧٢٢هـ/ تموز ١٣٢٢م) إلى أبي سعيد يدعوه في الأولى إلى اعتناق النصرانية، ويذكِّره بالعلاقات الودية بين البابوية وأسلافه، ويطلب منه إعادة سفرائه إلى روما والاتصال بالملك الفرنسي، ويركِّز في الثانية على القضية الأرمينية، فيذكِّره بأن الأرمن هم حلفاء سابقون لأسلافه ضد عدوهم المشترك المسلمين، ويحثه على تقديم المساعدة العاجلة لهم ضد المماليك الذين خرَّبوا بلادهم[٣].

غير أن أبا سعيد لم يردَّ على سفارة البابا لأنه لم يعد بحاجة له أو لغيره بعد عقد الصلح مع المماليك. وإذا كانت العلاقات السياسية قد توقفت مع الغرب الأوروبي إلا أن البعثات التبشيرية الكاثوليكية استمرت ناشطة، وازدادت كثافة في عهد أبي سعيد، وقد نتج عنها قيام هيئة للأساقفة في مدينة

(١) عاشور، سعيد عبد الفتاح: العصر المماليكي في مصر والشام: ص٥١.

(٢) المقريزي: جـ٢ ص٥٢٦.

(٣) Howorth: III pp602, 603.

السلطانية تحت زعامة رئيس لهم، كما استمرت العلاقات التجارية قائمة، لكن فرص التحالف بين الجانبين قد تضاءلت[١].

ـ اتَّبع أبو سعيد سياسة مزدوجة مع المماليك، فيما يتعلق بالقضية الأرمينية، فقد استجاب لنداء البابا بحماية الأرمن من اعتداء المماليك، وبخاصة بعد أن تلقَّى طلباً بالمساعدة من قِبَل الملك الأرميني ليون، فأرسل جيشاً تعداده عشرين ألف جندي من أجل هذه الغاية، متبعاً في ذلك سياسة أسلافه على الرغم من وجود معاهدة سلام مع المماليك، كما حثَّ سلطان مصر على عقد صلح مع ملك أرمينيا، ولكن قبل أن يصل الجنود المغول إلى أرمينيا كانت العساكر المملوكية قد اجتاحتها، واضطر الملك ليون إلى عقد الصلح[٢].

(١) رنسيمان: جـ٣ ص٧٣٧.

(٢) The Cambridge History of Iran: V p413. العريني: المغول: ص٣٣١.

الفَصل العَاشِر

خلفاء أبي سعيد ـ سقوط إيلخانية إيران

تمهيد

أصيبت الدولة الإيلخانية، بعد وفاة أبي سعيد، بالتصدع، وتمزَّقت إلى أقاليم لكل منها وضع خاص. والواقع أن علائم الانهيار كانت قد بدأت تظهر على جسم الدولة خلال حكم أبي سعيد، الذي يُعدُّ آخر الإيلخانيين الكبار، وذلك بفعل تنازع الأمراء والوزراء والقادة، وظهرت أزمة السقوط بعد وفاته المفاجئة إذ لم يكن هناك من المرشحين رسمياً لولاية العهد أحد من أبناء الأسرة، لأنه لم يعقب، فانقطعت ذرية هولاكو من الذكور، فضلاً عن أن وفاته لم تكن متوقعة في مثل هذا السن، وحلَّ الأمراء الأقوياء مكان بقايا الملوك الإيلخانيين من الذين كان آباؤهم قد اختفوا بين أوساط العامة خوفاً من بطش الإيلخانات بهم، وأمسكوا بزمام الأمور يتلاعبون بهؤلاء ويحركونهم كالدمى.

وانقسمت إيران، في هذا العهد، إلى قسمين كبيرين بين عائلتين، عائلة جوبان وورثته، وعائلة حسن الجلائري، وكان في كل أسرة أمير يُدعى حسن، وللتفرقة بينهما سُمي حفيد جوبان باسم «حسن الصغير» وسُمي مؤسس الدولة الجلائرية بـ«حسن الكبير»، وسرعان ما طغى اسماهما على أسماء الإيلخانيين الذين نُصِّبوا في تلك الحقبة.

ويصف ابن بطوطة وضع الإيلخانية بعد وفاة أبي سعيد، ويذكر المتغلبين على أقاليمها فيقول: «استقل الشيخ حسن ـ ويقصد حسن الجلائري ـ بملك عراق العرب، ومنهم إبراهيم شاه، ابن الأمير سنيته، تغلب على الموصل وديار بكر، ومنهم الأمير أرتنا، تغلب على بلاد التركمان المعروفة أيضاً ببلاد الروم، ومنهم حسن خواجة بن الدمرطاش بن الجوبان، تغلب على تبريز والسلطانية، وهمدان وقم وقاشان والري ورامين وفرغان والكرج، ومنهم الأمير طغتيمور تغلب على بعض بلاد خراسان، ومنهم الأمير حسن ابن الأمير

غياث الدين، تغلب على هراة ومعظم بلاد خراسان، ومنهم ملك دينار، تغلب على بلاد مكران وبلاد كبج، ومنهم محمد شاه بن مظفر، تغلب على يزد وكرمان وورقو، ومنهم الملك قطب الدين يمهتن، تغلب على هرمز وكيش والقطيف والبحرين وقلهات، ومنهم السلطان أبو إسحاق، تغلب على شيراز وأصفهان وملك فارس، وذلك مسيرة خمسة وأربعين يوماً، ومنهم السلطان أفراسياب أتابك، تغلب على أيذج وغيرها من البلاد»(١).

والواقع أنه ساد هذه الحقبة، التي سبقت السقوط، اضطراب شديد، حيث الإيلخانات يتعاقبون على العرش بشكل متسارع، وقد اتصفوا بالضعف والتخاذل وأضحوا ألعوبة في أيدي الأمراء يحركونهم وفقاً لأهوائهم ورغباتهم، كما انتشرت الفتن والقلاقل في كل أنحاء إيران، وراودت المتغلبين فكرة الانفصال عن الحكومة المركزية والاستقلال بما تحت أيديهم.

أربــا خــان

(٧٣٦هـ/ ١٣٣٦م)

عندما توفي أبو سعيد، لم يكن في الإيلخانية أمير يصلح لتولي الحكم من بعده، والمعروف أنه لم يعقب أولاداً من الذكور، وكان غازان قد تخلَّص، خلال حياته السياسية، من أمراء أسرة هولاكو، إما بقتلهم وإما بتجريدهم من امتيازاتهم.

وبرز في هذه الظروف الوزير غياث الدين محمد كأعظم شخصية في الإيلخانية، وقد استمر يزاول عمله بعد وفاة الإيلخان، وأخذ على عاتقه الإمساك بزمام الأمور، وأظهر مقدرة فائقة في تكييف الموقف والتغلب على الصعوبات. وبحكم سيطرته على أجهزة الدولة قدَّم أرباخان كمرشح لخلافة أبي سعيد، وهو حفيد أريق بوقا بن تولي خان بن جنكيز خان، معللاً ذلك بأن الإيلخان كان قد اختاره، قبيل وفاته، ولياً لعهده بوصفه أحد أحفاد جنكيز خان، وأقنع أركان الدولة والأمراء بذلك(٢).

والواقع أن وضع الدولة كان يتطلَّب السرعة في تعيين إيلخان جديد لمواجهة التهديد الخطير الذي شكَّله أوزبك، خان القبيلة الذهبية، ولذلك جاءت موافقة أركان الدولة سريعة ومن دون نقاش، الأمر الذي سينعكس بعد ذلك سلباً على وضع الإيلخان ووزيره.

(١) رحلة ابن بطوطة: جـ١ ص٢٤٩.

(٢) ميرخواند: جـ٥ ص٥٣٥.

وهكذا تمَّ تنصيب أربا إيلخاناً على عرش إيران، وتلقَّب بلقب معز الدنيا والدين، كما حمل لقب السلطان الأعظم. وخدمت الظروف الإيلخان، فانتصر على عدوه، وخلَّص البلاد من خطره الأمر الذي عزَّز مكانته. وعلى الرغم من ذلك، فقد تعرَّض لحملة عدائية من جانب بعض الأمراء المنافسين له، وعلى رأسهم علي شاه، حاكم العراق العربي وديار بكر، خال الإيلخان أبي سعيد، الأمر الذي دفعه إلى انتهاج سياسة التخلُّص ممن يشك في ولائه له من أبناء الأسرة الإيلخانية، وملاحقة زعماء المغول من أصحاب المكانة الرفيعة، فأمر بقتل توكال قتلغ، من أحفاد أوكتاي خان مع ولديه، وكان قد لجأ إليه يطلب الحماية خوفاً من بني عمه مغول بلاد ما وراء النهر، وقتل أيضاً بعض المنتسبين إلى أسرة هولاكو، بالإضافة إلى الأمير محمود إينجو، أحد كبار الأغنياء، بحجة أنه يحمي شخصاً من نسل جنكيز خان ممن قد ينافسه على الحكم(١).

أثارت سياسة الإيلخان الريبة في قلوب الأمراء، الذين شعروا بأن نهايتهم باتت قريبة، فهرب بعضهم إلى أطراف البلاد يحتمون بأمرائها ويشجعونهم على القيام بإجراءٍ ما ضده، في حين ظل آخرون في العاصمة وهم حذرون.

والتفَّ الأمراء الفارون حول علي بادشاه الذي عارض تنصيب أربا إيلخاناً وراح يعمل على تقويض حكمه.

ويبدو أن لذلك علاقة برفض أربا تعيينه أميراً للأمراء، والواقع أنه ساوم على هذا المنصب ليرجع عن معارضته، لكن الوزير غياث الدين محمود، الذي كان يسيطر على مقاليد الأمور، رفض العرض وأصرَّ على إخضاعه بالقوة.

وادعى علي شاه بأن أخته، والدة الإيلخان أبي سعيد، أُكرهت على البيعة، كما أعلن بأن زوجة الإيلخان دلشاد خاتون حامل منه، وأن الوليد المنتظر هو صاحب الحق الشرعي بالعرش إذا جاء ذكراً، وبالتالي فقد رفض الاعتراف بحكم أربا، لكن المولود جاء أنثى، فرشَّح عندئذٍ موسى خان بن علي، حفيد بايدو خان(٢).

(١) Howorth: III p635.

(٢) آبرو: ص١٩٤ ـ ١٩٦. ميرخواند: جـ٥ ص٥٣٨، ٥٣٩.
D'ohsson: IV pp719-723. Howorth: III p636. Brown: III p59.

واشتعلت نار الحرب بين الطرفين في (١٧ رمضان ٧٣٦هـ/ ٢٩ نيسان ١٣٣٦م)، فانتهز الأمراء الناقمون هذه الفرصة وانسلخوا عن جيوش الإيلخان وانضموا إلى المعسكر المناوئ له، ولما رأى نفسه وحيداً فرَّ من أرض المعركة مفضلاً النجاة بنفسه، بينما وقع وزيره أسيراً في قبضة أعدائه الذين أجهزوا عليه فوراً، كذلك تمَّ اعتقال الإيلخان خلال فراره في ولاية سجاس، وسُلِّم إلى أُسرة محمود إينجو، حكام شيراز، ليقتصوا منه، فقتلوه في (٣ شوال/ ٩ أيار)، وقد حكم مدة تقلُّ عن ستة أشهر، لم يتسنَّ له خلالها القيام بأية إصلاحات.

موسى خان

خلا الجو السياسي لعلي شاه بعد مقتل الإيلخان أربا ووزيره غياث الدين محمود، فسيطر على مقاليد الأمور في الدولة وعيَّن موسى إيلخاناً في مدينة أوجان، ونصَّب جمال الدين بن تاج الدين الشرواني وزيراً.

كانت فاتحة أعمال الإيلخان الجديد مكافأة علي شاه على جهوده، فعيَّنه أميراً للأمراء ونائباً له، والواقع أنه لم يكن باستطاعته فعل غير ذلك، وتخبَّط الرجلان في إدارة الدولة، وأبدى علي شاه فظاظة وغلظة في التعامل مع الأمراء، وسلَّط قومه من قبيلة الأويرات المغولية على شؤون الحكم، الأمر الذي أزعج الأمراء فحقدوا عليه فانقسمت البلاد إلى فريقين متنازعين، فريق علي شاه وفريق معارض تزعَّمه حسن الجلائري، وانضم إليه الأمير سونتاي حاكم أرمينيا وديار بكر.

وسعى الفريق المعارض إلى القضاء على خصومه والوثوب إلى السلطة، والواقع أن حسن الجلائري لم يكن زاهداً في الحكم لكنه كان ينتظر الفرصة المناسبة، وقد جاءته الآن فاستغلها وقرَّر الاستيلاء على أرَّان وأذربيجان وإيران، ومهَّد لذلك بتنصيب محمد قتلق بن تيمور بن أنبارجي بن منكو تيمور بن هولاكو إيلخاناً، وعيَّن الأمير أرتنا نائباً عنه في بلاد الروم[1]، وسار لمواجهة موسى خان وعلي شاه في (١٤ ذي الحجة ٧٣٦هـ/ ٢٤ تموز ١٣٣٦م) في نواحي آلاتاغ[2].

وحاول علي شاه أن يخدع خصمه قبل اللقاء، فدعاه إلى الانسحاب من

(١) ابن حجر: جـ١ ص٣٤٨، ٣٤٩.
(٢) ميرخواند: جـ٥ ص٥٤١.

المعركة مع قواتهما الخاصة حقناً لدماء المسلمين وترك الإيلخانين يتقاتلان على أن يخضعا للمنتصر. وكاد حسن الجلائري يُضيِّع الجهود التي بذلها بسبب موافقته على هذا الحل الذي رجَّح كفة خصمه، فقد انسحب مع ألفين من أتباعه إلى ربوة عالية تشرف على ساحة المعركة، ولما نشب القتال رجحت كفة موسى خان الذي طارد أعداءه. وظنَّ علي شاه أنه حقَّق النصر، فنزل إلى شاطئ هناك وهو مطمئن، فأثار ذلك غضب حسن الجلائري، فنزل من مكانه وفاجأ خصمه وقضى عليه، بينما هرب موسى خان ناجياً بنفسه، ولاذ بالفرار إلى بغداد، فانقضى بذلك حكمه بعد أن عمَّر ثلاثة أشهر، وعاد حسن الجلائري إلى تبريز مصطحباً معه محمد وعيَّنه إيلخاناً[1].

محمد خان

اعتلى محمد عرش الإيلخانية في (٢٤ ذي الحجة ٧٣٦هـ/ ٣ آب ١٣٣٦م)، فعيَّن حسن الجلائري أميراً للأمراء ونائباً له، وقبض هذا الأمير على مقاليد السلطة بيد من حديد، ولم يكن للإيلخان محمد إلا الاسم فقط، فأعاد الاعتبار إلى عائلة غياث الدين محمد، وعيَّن أحد أفرادها في منصب الوزارة، وأعدم حفيد نوروز، الذي كان قد أساء إلى أسرة الوزير المقتول، ثم تعقَّب الفارين من أتباع علي شاه.

أثارت سيطرة حسن الجلائري المطلقة على مقدرات الإيلخانية حسد بعض الأمراء، إذ شعروا بالخطر يتهدَّد مصالحهم ومكانتهم بفعل أنه حال دون تحقيق أطماعهم وطموحاتهم، فانفضُّوا من حوله وتوزعوا في البلاد، فتوجَّه بعضهم إلى خراسان والتحقوا بأميرها طغاي تيمور، الذي يُعدُّ من أمراء الأسرة الجنكيزية، وأغروه بأحقيته بالزعامة والسلطان، وكان يقيم في مازندران فنصَّبوه إيلخاناً، فزحف بهم في (شعبان ٧٣٧هـ/ آذار ١٣٣٧م) حتى السلطانية، وهزم فرقة عسكرية من الأويرات، حلفاء موسى خان. وعلى الرغم من ذلك، فقد انضم إليه هذا الأخير وتعاونا معاً في محاربة محمد خان وحسن الجلائري، واتفقا على تقسيم البلاد فيما بينهما في حال انتصارهما، بحيث تكون مناطق خراسان والعراق من نصيب طغاي تيمور، وتكون منطقة أذربيجان

(١) ميرخواند: جـ٥ ص٥٤٢.

من نصيب موسى خان، وانضم إليهما علي قوشجي، حاكم خراسان، والطامع في اعتلاء منصب أمير الأمراء، إلا أنه بقي في خراسان كنائب للإيلخان الجديد[1].

اصطدمت قوى التحالف بجيش السلطة بالقرب من مدينة مراغة في (١٥ ذي القعدة/ ١٥ حزيران)، إلا أنها تعرضت للهزيمة، فترك طغاي تيمور ميدان المعركة ولاذ بالفرار، وعجز موسى خان عن الفرار ووقع أسيراً في يد حسن الجلائري فقتله في (١٠ ذي الحجة/ ١٠ تموز)[2].

أضحى حسن الجلائري وصنيعته الإيلخان محمد، بعد هذا الانتصار، أبرز الممثلين للحكم الإيلخاني والناطقين باسمه، وبخاصة بعد اختفاء الكثير من الطامعين فيه وعلى رأسهم علي قوشجي، الذي قُتِلَ على يد أرغون شاه بن الأمير نوروز، وخلصت له مناطق أذربيجان والعراق، أما طغاي تيمور فقد أسَّس حكومة في خراسان وجرجان استمرت حتى عام (٧٥٣هـ/ ١٣٥٢م)[3].

لم ينعم حسن الجلائري بالاستقرار مدة طويلة، فقد ظهر له عدو جديد اتصف بالحنكة السياسية أكثر من القوة، راح يُهدِّد سلطته، هو الشيخ حسن الصغير بن تيمورتاش بن جوبان، وكان قد اختفى في بلاد الروم على أثر مقتل والده، واستمر مختفياً حتى عام (٧٣٨هـ/ ١٣٣٨م)، حين راودته فجأة حلاوة السلطة؛ واتبع لتحقيق ذلك كل الوسائل والأساليب، فقد تاجر باسم أبيه تيمورتاش حين ادَّعى بأنه لا يزال على قيد الحياة[4]، وجاء بغلام يشبهه يُدعى قراجر، فأعلن أنه الأمير تيمورتاش الذي استطاع الفرار من سجن القاهرة، واستعان بأحد رجال أبيه على تأكيد صحة ذلك أمام الناس، وحتى يقطع الشك عليهم زوَّج والدته من هذا الغلام ووقف في خدمته موقف الابن المطيع وسار وراءه مترجلاً، فاستقطب بذلك أبناء الجوبانية وكثيراً من أنصارهم، كما انضم إليه أمراء قبيلة الأويرات وأتباع علي شاه، حتى أن الأميرة ساتي بيك تخلَّت عن تأييدها لحسن الجلائري متأثرة بهذه

(١) شبولر: تاريخ مغول در إيران: ص١٣٦. (٢) ميرخواند: جـ٥ ص٥٤٣.
(٣) المصدر نفسه.
(٤) كان تيمورتاش بن جوبان قد لجأ إلى السلطان المملوكي الناصر محمد خشية من بطش أبي سعيد، الذي قتل أباه وإخوته، ولكن الناصر غدر به وقتله تقرباً إلى أبي سعيد.

الدعايات[1]. ونهض الجميع لمناوئة حسن الجلائري، وجرى اللقاء بين الطرفين في منطقة ألاتاغ بنخجوان في (٢٠ ذي الحجة/ ٩تموز)، حيث دارت بينهما رحى معركة ضارية. وحدث أن غادر حسن الجلائري ميدان المعركة، والقتال دائر، بعد أن شكَّ في ولاء بعض قادته له، والذين انضم بعضهم إلى خصمه تاركاً الإيلخان محمد يلقى مصرعه فيها، وذهب إلى تبريز، والمعروف أن بير حسين بن محمود بن جوبان قائد جيشه انضم قبيل بدء القتال إلى قوات حسن الصغير، ودخلت، نتيجة هذا الانتصار، مناطق أذربيجان والعراق في حوزة الجوبانيين[2].

وحدث آنذاك أن انقلب قراجر على حسن الصغير وحاول اغتياله لكي ينفرد وحده بالسلطنة، لكن هذا نجا من القتل وفرَّ هارباً، فأفشى سِرَّه وبيَّن حقيقة قراجر، وحذَّر الناس من الانخداع بقوله، وحثَّهم على مخالفته، ثم ذهب إلى بلاد الكرج وانضم إلى الأميرة ساتي بيك، زوجة الأمير جوبان، وابنها الأمير سيورغان[3].

ورأى تيمورتاش المزيف أن يزحف نحو تبريز كي يتخذها قاعدة له قبل أن ينتشر نبأ اكتشاف حقيقته، فتصدَّى له حسن الجلائري وأجبره على الفرار، كما هرب أمراء الأويرات عندما سمعوا بهذا النبأ وعادوا إلى مواطنهم، ولحق بهم تيمورتاش المزيف، ثم توجهوا إلى بغداد، ودخل حسن الجلائري مدينة السلطانية واستقر بها[4].

ساتي بيك خان

عندما دخل حسن الصغير مدينة تبريز، ومعه عدد من أمراء الجوبانية، طلب منه هؤلاء أن يختار أحد أفراد أسرة جنكيزخان ليكون إيلخاناً، وحيث أنه لم يبقَ أحد من الذكور من أفراد هذه الأسرة وقع اختياره على ساتي بيك لتكون إيلخاناً، ويبدو أن الذي شجَّعه على اختيارها خلافها مع حسن الجلائري. وخُطب لساتي بيك على المنابر ونُقش اسمها على السكة، وجُعلت وزارتها مشاركةً بين ركن الدين شيخي الرشيدي وغياث الدين محمد عليشاهي[5].

(١) ميرخواند: جـ٥ ص٥٤٤. (٢) إقبال: ص٥٠٠.
(٣) ميرخواند: جـ٥ ص٥٤٦. (٤) المصدر نفسه: ص٥٤٦.
(٥) خواندامير: م٣ جـ١ ص٢٢٨. إقبال: ص٥٠٠.

بعد أن استقرت ساتي بيك في الحكم، نهض حسن الصغير لقتال حسن الجلائري، وكان في طريقه إلى السلطانية، فلما علم بذلك ذهب إلى قزوين، فاستولت ساتي بيك وحليفها حسن الصغير على السلطانية وأذربيجان، ثم توجَّها إلى قزوين لقتال حسن الجلائري، ويبدو أن الطرفين مالا إلى التفاهم واتفقا على ما يلي:

- اعتراف حسن الجلائري بسلطنة ساتي بيك.
- يبقى حسن الجلائري في السلطانية، في حين يذهب حسن الصغير وساتي بيك إلى أرّان.
- عقد مجلس القوريلتاي في الربيع للنظر في ترتيب أوضاع الإيلخانية[1].

طغاي تيمور خان

لم يَثق حسن الجلائري في حسن الصغير، وداخله الشك في إخلاصه لبنود الصلح الذي تمَّ بينهما، ورأى أن هذا التفاهم جاء على حسابه ومصلحته، إذ أنه يحدُّ من نفوذه، من جهة، ويعطي خصمه نفوذاً أكبر بحكم علاقته الشديدة بالإيلخانة ساتي بيك، من جهة أخرى، الأمر الذي قد يؤدي إلى القضاء عليه، لذلك فضَّل أن يتعاون مع شخصية ضعيفة وجدها في طغاي تيمور، حاكم مازندران وبعض ولايات من إقليم خراسان، فاستدعاه إلى السلطانية ونصَّبه إيلخاناً في عام (٧٣٩هـ/ ١٣٣٨ ـ ١٣٣٩م)[2]، متحلِّلاً من الاتفاق، غير أنه اكتشف، بعد قليل من الوقت، أنه أخطأ في تقديره للموقف السياسي عندما رأى الإيلخان الجديد ألعوبة في يد وزيره علاء الدين محمد، فندم على استدعائه ومساندته له، ومع ذلك فإنه قَبِلَ هذا الوضع على مضض وقرَّر أن يقاتل به ريثما تتغير الظروف[3].

وشعر حسن الصغير بتغير موقف حسن الجلائري، فسعى إلى التفرقة بينه وبين الإيلخان حتى لا يتَّحدا ضده، فأرسل إليهما يطلب إحلال السلام معهما، وبعث، في الوقت نفسه، رسالة في السر إلى الإيلخان حذَّره فيها من خداع حسن الجلائري، وحثَّه على الانفصال عنه والانضمام إليه لمحاربته والقضاء عليه، وذكَّره بالعلاقة الجيدة التي كانت تربط جدَّه جوبان بأبيه، وأكَّد له بأنه

(١) إقبال: ص٥٠١. (٢) خواندامير: م٣ ج١ ص٢٢٨.
(٣) المصدر نفسه.

أصلح من يتولى حكم الإيلخانية في هذا الظرف، ووعده بأن يُزوِّجه ساتي بيك.

قبل طغاي تيمور هذا العرض وكتب وثيقة بذلك بخط يده مبرهناً عن سذاجة وقصر نظر في الحقل السياسي، وسُرَّ حسن الصغير بهذا الإنجاز الذي يصبُّ في مصلحته، ولم يتأخر بإرسال الوثيقة إلى خصمه حسن الجلائري الذي دُهِش من هذا التحول من جانب الإيلخان. ولما أطلعه على هذه الحقيقة المؤلمة، وموقفه المخزي، لم يتمالك نفسه خجلاً مما فعل، فانسحب في الليلة نفسها عائداً إلى خراسان، في حين رحل حسن الجلائري إلى بغداد ليبحث عن صنيعة أخرى[1].

وخلال الأحداث المؤلمة التي كانت تشهدها الساحة السياسية، تمزَّقت الوحدة الجغرافية والسياسية لإيلخانية إيران، وتوزَّعت على عدد من القوى المحلية. فدخلت أذربيجان وأرَّان في دائرة نفوذ ساتي بيك وحسن الصغير، وسيطر حسن الجلائري على السلطانية والعراق العجمي، وآلت ديار بكر إلى حاجي طغاي، وأضحت بغداد والعراق تحت حكم قبيلة الأويرات، وحكم أرتنا بعض ممالك الروم، نائباً عن حسن الجلائري، ووقع البعض الآخر في يد ملك أشرف، وهو ابن آخر لتيمورتاش، وسيطر أبناء الأمير أكرنج على ولاية كردستان وخوزستان، وخضعت فارس لأسرة إينجو، ويزد للأمير مبارز الدين محمد المظفري، وحكم قطب الدين الغوري كرمان، والملك شجاع الدين في بمَّ[2]، وكانت هراة وقسم من خراسان في يد آل كرت، وحكم طغاي تيمور مازندران وقسماً من خراسان، والأمير أرغونشاه طوس، والأمير عبد الله مولاي قهستان، وكانت أصفهان في يد بعض الأمراء المحليين[3].

شاه جهان تيمور خان

بعد انفكاك التحالف بين حسن الجلائري والإيلخان طغاي تيمور، قرَّر الأول البحث عن صنيعة أخرى يدافع بها عن نفسه أمام منافسه فوجدها في عز الدين بن ألافرنك بن كيغاتو، الملقب بشاه جهان تيمور، فنصَّبه إيلخاناً للمغول في إيران، واختار شمس الدين زكريا وزيراً، وأمر بأن يُخطب له في

(١) خواندامير: م٣ ج١ ص٢٢٩. Howorth: III pp643-645.
(٢) بَمّ: مدينة من مدن كرمان.
(٣) آبرو: ص٢٠٤، ٢٠٥. ميرخواند: ج٥ ص٥٤٦.

المناطق التي يسيطر عليها ثم رحل إلى بغداد، واستولى على خوزستان والعراق العربي وديار بكر واضعاً بذلك أساس دولة خاصة به.

واقتدى حسن الصغير به، فعزل ساتي بيك من منصبها بحجة أن المرأة لا تصلح وحدها للحكم، وتخلَّص من بعض أنصارها وأنصار ابنها سيورغان ممن كان يخشى خطرهم، ونصَّب سليمان خان بن يوسف شاه بن سوكاي بن يشموت بن هولاكو إيلخاناً، وأجبر ساتي بيك على الزواج به، وقرَّر أن ينفرد غياث الدين بن محمد عليشاهي بمنصب الوزارة، وعزل شريكه ركن الدين محمود، وذلك في (أواخر ٧٣٩هـ/ منتصف ١٣٣٩م)[١].

تجدَّد الصراع بين الحسنين، كلٌّ يستتر وراء صنيعة له من أبناء الأسرة الإيلخانية. وجرى اللقاء الدامي بينهما في (٢٨ ذي الحجة ٧٤٠هـ/ ٢٨ أيار ١٣٤٠م) في نواحي نهر جغاتو قرب مراغة، وأسفر عن انتصار حسن الصغير وإيلخانه سليمان، وفرَّ حسن الجلائري في جو الهزيمة القائم إلى بغداد، فعزل الإيلخان شاه جهان تيمور بحجة عدم قدرته على القيام بأعباء الحكم، وأعلن قيام الدولة الجلائرية في العراق العربي وخوزستان وديار بكر[٢].

أما حسن الصغير فقد غادر إلى تبريز في جو الانتصار، وأجرى تعيينات إدارية وعسكرية تتوافق مع الوضع الجديد، فعيَّن الأمير سيورغان وأخاه الأمير أشرف حاكمين على بلاد العجم، ونصَّب ابن عمه بير حسين، ابن الشيخ محمود بن جوبان، على رأس حكومة فارس[٣].

سليمان خان

لم يركن حسن الجلائري إلى الهدوء في الصراع مع حسن الصغير، فراح يؤلب حكام الولايات ضده، ثم التفت إلى الخارج مفضِّلاً الاستعانة بالمماليك وناقلاً ولاءه لهم، فأرسل سفارة إلى الناصر محمد يطلب منه مساعدة عسكرية. والواقع أن الاتصالات بين الرجلين بدأت في عام (٧٣٧هـ/ ١٣٣٧م) حيث قدمت بعثة جلائرية إلى القاهرة تحمل هدية إلى السلطان المملوكي وتخبره بانتصار حسن الجلائري على خصومه، فأكرم الناصر محمد رسله

(١) آبرو: ص٢٠٨.

(٢) إقبال: ص٥٠٢. D'ohsson: IV pp732, 733.

(٣) شبولر: ص١٣٩. D'ohsson: IV pp732, 733.

وجهزهم بهدية سنية، وكتب يهنئه[١].

وأبدى الناصر محمد في عام (٧٤٠هـ/ ١٣٣٩ - ١٣٤٠م) استعداده لإرسال قوة عسكرية لمساعدة حسن الجلائري ضد خصمه العنيد، لكنه اشترط، مقابل ذلك، أن يدخل حسن الجلائري وأعيان البلاد، وعلى رأسهم طغاي بن سوتاي وحافظ الدين، أخو علي شاه، في طاعته وأن يُذكر اسمه في الخطبة، ويُنقش على السكة ثم تقديم رهائن من أبنائهم يقيمون في القاهرة، فوافق الجميع على ذلك[٢].

وأصدر الناصر محمد أوامره بإرسال النجدة، وكتب بتجهيز جند دمشق وحلب بقيادة طشتمر، نائب حلب، على أن يوافيه بعساكر مصر، غير أن تطور الأحداث السياسية في إيلخانية إيران أوقف إرسال المساعدة العسكرية، ذلك أن الملك الصالح شمس الدين ابن المنصور غازي، صاحب ماردين، وأحد الموالين سراً للناصر محمد أخبره بوقوع الصلح بين الحسنين، واتفاقهما على القيام بحملة مشتركة على بلاد الشام. وعلى الرغم من طعن الرهائن بصاحب ماردين، فقد كان لهذا النبأ وقع سيء في نفس السلطان فانزعج انزعاجاً شديداً، واضطرب مزاجه، فحدث له إسهال دموي أدَّى إلى وفاته في (١١ ذي الحجة ٧٤١هـ/ ٢٩ أيار ١٣٤١م)، وتوقف إرسال الحملة إلى تبريز[٣].

والحقيقة أن قرائن الأحداث تنفي وقوع الصلح وتؤكد استمرار الحرب، فقد هاجم حسن الجلائري في (ذي الحجة ٧٤١هـ/أيار ١٣٤١م) أذربيجان غير أن عقدة الفشل كانت قد سيطرت على تفكيره، فلم يعد يثق بقدرته على تحقيق الانتصار بمفرده، واستعدَّ حسن الصغير، من جانبه، للقائه، فأرسل قوات، بقيادة سليمان خان، عسكرت في أوجان، والمعروف أنه كان آنذاك منهمكاً في محاربة طغاي تيمور في خراسان.

وحدث آنذاك أن انشقَّ الأمير ياغي باستي بن جوبان عن سليمان خان، بفعل اعتقاده بأنه يواجه خطراً من جانب ابن أخته حسن الصغير، ولاذ بالفرار، واستولى خلال فراره على ستة آلاف من الجياد أخذها معه وهو في طريقه إلى العراق. وصادف أنه مرَّ بالقرب من معسكر حسن الجلائري، فأثار

(١) المقريزي: جـ٣ ص٢٢١. (٢) المصدر نفسه: ص٢٧٧، ٢٩٧.

(٣) المصدر نفسه: جـ٣ ص٢٩٨ - ٣٠٠.

تحرك الجياد غباراً كثيفاً فتوهَّم أن عدوه حشد قوات كثيفة لا قِبَل له بها، فلم يتمالك نفسه، وقرَّر التراجع قبل اللقاء حتى لا تتكرَّر هزيمته، وهرب منهزماً إلى بغداد[1].

توجَّه حسن الصغير، بعد ذلك، إلى ماردين فأسرع حاكمها بإعلان الدخول في طاعته، ثم زحف إلى ناحية العراق ليواجه خصمه حسن الجلائري، غير أنه تعرض للهزيمة أمام جيوشه التي قادها اثنان من أشهر قادته هما قرة حسين وعلي جعفر، غير أن هذه الهزيمة لم تثنه عن الاستمرار في تعدياته، فذهب إلى بلاد الروم، فهاجم أرزن الروم وسلب خراجها وقتل سكانها، واعتدى على المساجد، فأحرق المحراب والمنبر اللذين كان حاجي طغاي قد أقامهما منذ مدة قصيرة، ونبش قبر ابنه وأخرج رفاته منه، ثم هاجم سيواس لإخضاع الأمير أرتنا، غير أنه عجز عن ذلك، وحلَّت به الهزيمة، فعاد إلى تبريز بصحبة سليمان خان حيث أمضيا فصل الشتاء[2].

لم تستقر الأوضاع بعد ذلك لحسن الصغير بسبب اختلافه مع أخيه ملك أشرف وعمه ياغي باستي، اللذين لجآ إلى حسن الجلائري خوفاً من مكره وبطشه، كما اختلف مع بعض قادته، وعلى رأسهم يعقوب شاه بسبب فشله في الاستيلاء على بلاد الروم، فاتهمه بالتقصير واعتقله وزجَّ به في السجن. وكانت زوجة حسن الصغير عزت ملك، على علاقة غير مشروعة به، وتُمنِّي نفسها بالزواج منه، فظنَّت أن زوجها اكتشف ما كان بينهما من صلة، وخشيت افتضاح أمرها، وحتى تحمي هذه العلاقة السرية قرَّرت التخلص منه، فقتلته بالتعاون مع ثلاث نسوة في (٢٧ رجب ٧٤٤هـ/ ١٦ كانون الأول ١٣٤٣م)، وبعد مرور ثلاثة أيام علم أتباعه بحقيقة مقتله، فقبضوا عليها وقتلوها[3].

يُعدُّ مقتل حسن الصغير إيذاناً بانتهاء إيلخانية إيران، إذ إن صنيعته، سليمان شاه، عجز عن الاستمرار في الحكم أمام أطماع أبناء أسرة جوبان، وانتصر ملك أشرف في هذا النزاع، فخلعه عن العرش وعيَّن أنوشروان بن تيمورتاش على عرش الإيلخانية، وتلقب بلقب العادل[4].

(١) آبرو: ص٢١٠. شبولر: ص١٣٩. (٢) Howorth: III p647.
(٣) ميرخواند: جه ص٥٥٥. ابن حجر: ج٢ ص٥١. إقبال: ص٥٠٤.
(٤) إقبال: ص٥٠٥.

وتخبَّط ملك أشرف في أعماله السيئة وسيرته البشعة حتى ضاق سكان تبريز ذرعاً به، وضجُّوا بالشكوى، وكرهوا عهده، فاستعانوا بجاني بيك ابن أوزبك، خان القبجاق، على التخلص منه، فزحف إلى أذربيجان عن طريق دربند شروان وانتصر عليه وأجبره على الفرار إلى خوى حيث تمَّ اعتقاله في عام (٧٥٨هـ/ ١٣٥٧م) وقُتِل وحُمِل رأسه إلى تبريز، فابتهج سكانها لخلاصهم من شروره، وانتهت بمقتله دولة الأمراء الجوبانيين[1].

أما نهاية أنو شروان العادل فغير معروفة، وقد وجِدت سكة تحمل اسمه حتى عام (٧٥٦هـ/ ١٣٥٥م)، وهو العام الذي انقرضت فيه الدولة الإيلخانية في إيران[2].

وعلى هذا الشكل سقطت الدولة الإيلخانية، وزالت من الوجود بعد أن سارت بخطى سريعة نحو التدهور والانحلال، واقتسم عدد من الأمراء المحليين أملاكها، حيث أشاعوا الدمار والخراب في إيران بسبب النزاعات الداخلية فيما بينهم.

أسباب زوال الدولة الإيلخانية[3]

إن سقوط دولة الإيلخانيين في إيران وزوالها هو ظاهرة طبيعية إذا أخذنا بعين الاعتبار أن الدول، كالأفراد والكائنات الحية، تمر في أدوار ومراحل مختلفة من نمو وقوة وضعف ثم فناء، بالإضافة إلى ما تتصف به الكيانات البدوية القائمة على القوة والبطش.

والواقع أن زوالها لم يكن فجائياً بعد وفاة الإيلخان أبي سعيد من دون عقب، وإنما كانت عوامل الضعف قد بدأت تنخر كيانها قبل ذلك، ولعل العوامل التي أطالت أمد عمرها هي ضعف القوى السياسية المجاورة وانقسامها على نفسها، وظهور شخصية غازان القوية الذي استطاع تجديد شبابها.

والحقيقة أن هذا الزوال لا يمكن أن يُعزى إلى حادث فرد، ولا بد أن تكون هناك أسباب أدَّت إلى هذه النهاية المحتومة، كان من بينها:

- عدم وجود قانون ينظم وراثة العرش، الأمر الذي سبَّب الكثير من

(١) إقبال: ص٥٠٥. شبولر: ص١٤٢.
(٢) إقبال: ص٥٠٥. وقارن بشبولر: ص١٤٢. (٣) القزاز: ص٤٦٥ ـ ٤٨٨.

المشكلات التي أثَّرت سلباً على كيان الإيلخانية، والمعروف أن قانون الياسا، الذي وضع أساسه جنكيز خان، ظل جامداً من دون تطوير يتلاءم مع حاجة الكيانات السياسية والاجتماعية الجديدة التي طرأت على المجتمع المغولي بعد جنكيز خان. وقد ورث الإيلخانيون هذا القانون، وكانوا بعيدين عن الروح التي رافقت وضعه في ظل توسع المصالح والرغبات الخاصة، وأضحى العرش من نصيب كل طامع فيه من أبناء الأسرة، يستطيع امتلاك القوة التي تفرض التفسير الملائم لأحكامه وتبرير اعتلائه سدة الحكم من دون الخضوع لقاعدة معينة، فنشبت الحروب الطاحنة بينهم، فلا هم أخذوا بنظام الوراثة الذي لم يتولَّ العرش بموجبه إلا إيلخانان، هما أباقا وأبو سعيد، ولا هم تقيدوا بالنظام القبلي الذي يعتمد على الكبر والكفاءة، والذي نلمح بعض ملامحه في تولي أحمد تكودار وأولغايتو، أما الإيلخانات الباقون فقد اعتمدوا في وثوبهم على العرش على القوة وإراقة الدماء.

ـ نشأ عن الصراع الدامي حول العرش انتشار روح البغضاء والعداوة بين أفراد الأسرة، وتجرَّأ بعضهم على قتال بعض، وبدأ ذلك في عهد أحمد تكودار الذي واجه منافسة من ابن أخيه، وغدْر إخوته به، فتآمر عليه أخوه كنغرتاي، واضطر الإيلخان إلى قتله، فكان أول أمير إيلخاني يلقى مصرعه على يد أخيه بسبب الصراع على العرش.

واقتدى أرغون بعمه للمحافظة على عرشه، فتخلَّص من أبناء الأسرة الذين ظنَّ أنهم قد ينافسونه على العرش، وقد بلغ عدد هؤلاء ثلاثة عشر أميراً، كان على رأسهم عمه هولاجو وابن عمه جوشكاب، ولم يترك وراءه، عند وفاته، أحداً قد ينافس أخاه أولغايتو على العرش سوى الصبي ألافرنك بن كيغاتو الذي عفا عنه، وقد ثقل بقاء الصبي على أولغايتو فقتله عندما وصل إليه نعي أخيه.

ـ أدّى أمراء المغول دوراً كبيراً في إذكاء الفوضى التي رافقت تطور الإيلخانية في أواخر أيامها، وكانت أطماعهم الشخصية ومآربهم الخاصة سبباً مباشراً في توتير الأجواء السياسية، وتطورت مكانتهم بحكم توليهم المناصب الرئيسة، مثل قيادة الجيش ونيابة الإيلخان، وشجَّعهم انقسام أفراد الأسرة الحاكمة وتنافسهم على العرش على التمادي، فساندوا بعضهم ضد البعض الآخر، ولعل أبرز هؤلاء كان بوقا الذي أدّى دوراً مميزاً في إسقاط أحمد

تكودار، واعترف أرغون بفضلهم في إيصاله إلى العرش، فمكَّن لهم في الحكم، ووزَّعهم على كل البلاد، وسلَّمهم مقاليد الأمور، وأضحى بوقا بما جمع بين يديه من منصبي النيابة والوزارة الحاكم الفعلي للبلاد، وكافأه الخان الأعظم قوبيلاي بأن منحه لقب أمير الأمراء. وكانت أوامر الإيلخان لا تُنفَّذ إلا بعد مرورها بين يديه وختمها بختمه الأحمر، وكان هذا التنامي في القوة والصلاحيات سبباً في مقتله على يد أرغون. وجرَّد هذا أعوانه من امتيازاتهم وصلاحياتهم، وبخاصة التدابير التي اتخذها الوزير اليهودي سعد الدولة لتجريدهم من أسباب القوة، فتحالفوا ضده وتربصوا به، واستغلوا حال الغيبوبة، التي دخل فيها الإيلخان قبل وفاته، فتخلصوا منه ومن أعوانه، ونصَّبوا أنفسهم أوصياء على الإيلخان حتى وفاته. وأضحوا المتصرِّفين الفعليين في الشؤون العامة طيلة المدة التي أعقبت ذلك وحتى اعتلاء غازان الحكم، وقد تخلَّص هذا منهم بعد أن قضى مدة عامين تحت وصايتهم، ولم يستعيدوا مكانتهم إلا في ظل عهد الطفل أبي سعيد. وتقلَّد جوبان مقاليد منصب النيابة عن الإيلخان الصغير أكثر من عشرة أعوام، قام خلالها بتصريف شؤونه حتى أنه حجر عليه، وأشغله برحلات الصيد ومجالس الطرب والنساء. وعلى الرغم من تخلُّص أبي سعيد منه إلا أن الأمراء أدُّوا دوراً في تقطيع أوصال الإيلخانية وتمزيقها بعد وفاة أبي سعيد.

ـ أدّى احتكاك المغول الإيلخانيين بحضارات الشعوب التي أخضعوها إلى اقتباسهم الكثير من عاداتها وتقاليدها، ولكنهم، وبفعل بداوتهم، لم يسخِّروها لرفع مستواهم الحضاري وإنما اندفعوا بعواطفهم نحو استنزاف خيراتها المادية، في حين تركوا ما فيها من تراث علمي وقيم روحية بأيدي أبنائها، ونشأ نتيجة ذلك، أن ارتفع المستوى المادي للمغول بعامة بينما بقي تكوينهم الحضاري على ضعفه، واستمرت شريعة الصحراء التي لا تعرف غير البطش وسفك الدماء والنهب والتخريب تتحكم في علاقاتهم مع بعضهم كما تتحكَّم في علاقاتهم مع الآخرين. ولم ينبغ من بينهم عالم واحد في أي علم من العلوم سوى الحرب، واقتصر اقتباسهم من هذه الحضارات على أسباب المتعة فقط، فانصرفوا إليها وانغمسوا في تذوقها حتى الإفراط، فانتقلوا بذلك من حياة الجدّ والنشاط إلى حياة الكسل والفراغ حتى أصبح الكأس والجنس رفيقاً لهم في حلهم وترحالهم. من ذلك أن أباقا توفي من فرط الشراب، وقُتل

كيغاتو بسبب إباحيته واعتدائه على نساء وبنات أقرب الناس إليه، أما أولغايتو فقد بنى دار الفردوس ووضع فيها أربعين بنتاً من البنات الحسناوات ومثلهن من الغلمان لكي يقضي بينهم وطره، أما أبو سعيد فلم تكفه العشرات من النساء اللواتي كان يتمتع بهن.

ونتيجة لإسراف الإيلخانات في هذه المباذل، تأثرت صحتهم وقصرت أعمارهم بحيث كانت نسبة الانخفاض فيها تنازلية كلما توغلوا بُعداً عن حياة الصحراء وانغماساً في هذا النمط من الحياة الجديدة، بالإضافة إلى عجزهم عن تحمُّل مسؤوليات الحكم ومشكلاته الكثيرة التي أرهقتهم.

ـ سيطر المغول على البلاد الإسلامية، وأخضعوا شعوبها لسلطانهم، ولكنهم لم يستطيعوا كسب ثقة المحكومين، ولعل مرد ذلك يعود إلى المسلمين من جهة، وإلى المغول من جهة أخرى.

فالمسلمون لم ينصاعوا للحكم المغولي بسهولة، ولم يرضوا عنه بسبب وثنية المغول التي لا تبيح لهم موالاتهم، فضلاً عن التفاوت الحضاري بين الطرفين وانعكاس ذلك على سلوك كل منهما.

وأما المغول، من جهتهم، فقد اتصفوا بالعنجهية والغرور بعد انتصارهم الساحق على جميع الشعوب التي هاجموها والتي جعلتهم يعتقدون بأنهم يملكون من المزايا التي رفعتهم فوق مستوى هؤلاء، وعزَّز هذا الاعتقاد ما رأوه من تهالك بعض الوصوليين، من أبناء البلاد الخاضعة لهم، الذين راحوا يعملون على نشرها بين الناس وتأكيدها، مثلما فعل النصير الطوسي وسعد الدولة اليهودي، ونشأ عن ذلك أن بقي المغول يمثلون طبقة عسكرية حاكمة منعزلة عن المحكومين الذين لا يهمها منهم سوى الطاعة ودفع الضريبة، ولم يؤدِّ اعتناق المغول الدين الإسلامي إلى إزالة هذه النظرة وإذابة الفوارق بين الحاكمين والمحكومين.

ثبت المصادر والمراجع

أولاً: المصادر والمراجع باللغة العربية

أ ـ المصادر

- ابن الأثير، أبو الحسن علي . . . بن عبد الواحد الشيباني، المعروف بابن الأثير الجزري:
  - **الكامل في التاريخ**، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٩٩٧م.
- ابن إياس، محمد بن أحمد:
  - **بدائع الزهور في وقائع الدهور**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٤م.
- إقبال، عباس:
  - **تاريخ إيران بعد الإسلام**، تعريب: محمد علاء الدين منصور، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٩٠م.
- ابن أيبك، أبو بكر عبد الله الدوادار:
  - **كنز الدرر وجامع الغرر**، جـ٩، تحقيق: هانس روبرت رويمر، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٦٠م.
- بولو، ماركو:
  - **رحلات ماركو بولو**، تعريب: عبد العزيز توفيق جاويد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٧م.
- ابن تغري بردي، جمال الدين أبو المحاسن يوسف:
  - **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٣٦م.
- ابن حبيب، الحسن بن عمر:
  - **تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه**، تحقيق: محمد أمين وسعيد عبد الفتاح عاشور، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة.
- الحموي، شهاب الدين، أبو عبد الله ياقوت الحموي الرومي البغدادي:
  - **معجم البلدان**، دار صادر، بيروت.

- ابن خلدون، عبد الرحمٰن بن محمد:
  - **تاريخ العبر وديوان المبتدأ والخبر...، المعروف بتاريخ ابن خلدون**، مؤسسة جمّال للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٧٩م.
- الرمزي، م.م:
  - **تلفيق الأخبار وتلقيح الآثار في وقائع قزان وبلغار وملوك التتار**، تحقيق: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ٢٠٠٢م.
- ابن شداد، عز الدين محمد بن علي بن إبراهيم:
  - **تاريخ الملك الظاهر**، باعتناء: أحمد حطيط، المعهد الألماني للأبحاث الشرقية، فيسبادن، ١٩٨٣م.
- ابن طباطبا، محمد بن علي، المعروف بابن الطقطقا:
  - **الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية**، القاهرة، ط٢، ١٩٣٨م.
- ابن عبد الظاهر، محيي الدين:
  - **الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر**، تحقيق: عبد العزيز الخويطر، الرياض، ط٢، ١٩٧٦م.
  - **تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور**، تحقيق كامل مراد، القاهرة، ط١، ١٩٦١م.
- ابن العبري، غريغوريوس الملطي:
  - **تاريخ الزمان**، دار الشروق، بيروت، ١٩٨٦م.
- ابن عربشاه، أبو العباس شهاب الدين أحمد بن محمد الدمشقي:
  - **عجائب المقدور في نوائب تيمور**، تحقيق: أحمد فايز الحمصي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١. ١٩٨٦م.
- العسقلاني، شهاب الدين أحمد بن علي، المعروف بابن حجر:
  - **الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة**، دار الجيل، بيروت.
- العيني، بدر الدين محمد:
  - **عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان**، تحقيق: محمد أمين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٥ ـ ١٩٩١م.
- أبو الفداء، إسماعيل بن علي عماد الدين:
  - **المختصر في أخبار البشر**، دار الفكر، دار البحار، بيروت، ١٩٥٦م.
- ابن الفوطي، كمال الدين عبد الرزاق:
  - **الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة**، تحقيق: مهدي النجم، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ٢٠٠٣م.

- القلقشندي، أحمد بن علي:
  - **صبح الأعشى في صناعة الإنشا**، تحقيق: محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٨٧م.
- ابن كثير، الحافظ عماد الدين أبو الفدا:
  - **البداية والنهاية**، دار المعارف، بيروت، ط٢، ١٩٧٧م.
- اللواتي، محمد بن عبد الله، المعروف بابن بطوطة:
  - **رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار**، تحقيق: علي المنتصر الكتاني، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٤، ١٩٨٥م.
- المقريزي، تقي الدين أبو العباس أحمد بن علي بن عبد القادر:
  - **السلوك لمعرفة دول الملوك**، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٧م.
  - **كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، المعروف بالخطط المقريزية**، تحقيق: خليل المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٨م.
  - **إغاثة الأمة بكشف الغمة**، تحقيق: مصطفى زيادة وجمال الدين الشيال، القاهرة.
- المنصور، الدوادار:
  - **التحفة الملوكية في الدولة التركية**، تحقيق: عبد الحميد صالح حمدان، الدار العربية اللبنانية، القاهرة، ط١، ١٩٨٧م.
- النسوي، محمد بن أحمد بن علي:
  - **سيرة جلال الدين منكبرتي**، تحقيق: حافظ حمدي، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٥٣م.
- النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب:
  - **نهاية الأرب في فنون الأدب، ج٢٩**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة.
- الهمذاني، رشيد الدين فضل الله:
  - **جامع التواريخ، تاريخ خلفاء جنكيز خان**، تعريب: فؤاد عبد المعطي الصياد، دار النهضة العربية، بيروت، ط١، ١٩٨٣م.
  - **تاريخ غازان خان**، تعريب: فؤاد عبد المعطي الصياد، الدار الثقافية للنشر، القاهرة، ط١، ٢٠٠٠م.
  - **تاريخ المغول الإيلخانيين، تاريخ أبناء هولاكو من أباقا إلى كيغاتو**، تعريب: محمد صادق نشأت وفؤاد عبد المعطي الصياد، القاهرة، ١٩٦٠م.
- ابن واصل، جمال الدين أبو عبد الله محمد بن سليم الشافعي:
  - **مفرج الكروب في أخبار بني أيوب**، تحقيق: جمال الدين الشيال، القاهرة، ١٩٥٣ـ١٩٥٧م.
- اليونيني، موسى بن محمد البعلبكي:
  - **ذيل مرآة الزمان**: دائرة المعارف الإسلامية، الهند، ١٩٥٤ ـ ١٩٦١م.
- **مذكرات جوانفيل**، تعريب: حسن حبشي، دار المعارف، مصر، ط١، ١٩٦٨م.

ب ـ المراجع

❑ أرمسترونغ، كارين:

- **الحرب المقدسة**، تعريب: سامي الكعكي، دار الكتاب العربي، بيروت، ٢٠٠٤م.

❑ بارتولد، فاسيلي فلاديميروفتش:

- **تركستان من الفتح العربي إلى الغزو المغولي**، تعريب: صلاح الدين عثمان هاشم، الكويت، ١٩٨١م.
- **تاريخ الترك في آسيا الوسطى**، تعريب: أحمد السعيد سليمان، القاهرة، ١٩٥٨م.

❑ برّوي، أدوار:

- **تاريخ الحضارات العام ـ القرون الوسطى، ج٣**، تعريب: يوسف أسعد داغر وفريد م. داغر، منشورات عويدات، بيروت، ط٣، ١٩٩٤م.

❑ جاكسون، بيتر:

- **سلطنة دلهي**، تعريب: فاضل جتكر، مكتبة العبيكان، ٢٠٠٣م.

❑ حمدي، حافظ:

- **الدولة الخوارزمية والمغول**، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٤٩م.

❑ الرفيعي، عبد الأمير:

- **العراق بين سقوط الدولة العباسية وسقوط الدولة العثمانية، ج١**، الفرات للنشر، ط١، ٢٠٠٢م.

❑ رنسيمان، سيتفن:

- **تاريخ الحروب الصليبية**، تعريب: السيد الباز العريني، دار الثقافة، بيروت، ط٢، ١٩٨١م.

❑ سرور، محمد جمال الدين:

- **دولة بني قلاوون في مصر**، دار الفكر العربي، القاهرة.

❑ شبولر، بارتولد:

- **العالم الإسلامي في العصر المغولي**، تعريب: خالد أسعد عيسى، دار حسان، دمشق، ط١، ١٩٨٢م.

❑ صفا، محمد أسد الله:

- **جنكيز خان**، دار النفائس، بيروت، ط١، ١٩٨٨م.

❑ الصياد، فؤاد عبد المعطي:

- **المغول في التاريخ**، دار النهضة العربية، بيروت، ج١، ١٩٨٠م.
- **الشرق الإسلامي في عهد الإيلخانيين**، منشورات مركز الوثائق والدراسات الإنسانية، جامعة قطر، ١٩٨٧م.

❑ طقوش، محمد سهيل:

- **تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام**، دار النفائس، بيروت، ط٢، ١٩٨٩م.
- **تاريخ الفاطميين في شمالي إفريقية ومصر وبلاد الشام**، دار النفائس، بيروت، ط١، ٢٠٠١م.

❑ عاشور، سعيد عبد الفتاح:

- **العصر المماليكي في مصر والشام**، النهضة العربية، القاهرة، ط١، ١٩٦٥م.

❑ العبادي، أحمد مختار:

- **قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام**، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٦٩م.

❑ عبد الحليم، رجب محمد:

- **انتشار الإسلام بين المغول**، دار النهضة العربية، القاهرة.

❑ العريني، السيد الباز:

- **المغول**، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٧٩م.

❑ العزاوي، عباس:

- **تاريخ العراق بين احتلالين**، بغداد.

❑ عمران، محمود سعيد:

- **المغول وأوروبا**، دار النهضة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٩٧م.

❑ الغامدي، سعد بن محمد حذيفة:

- **المغول، بيئتهم الطبيعية وحياتهم الاجتماعية والدينية**، الرياض، ط١، ١٩٩٠م.

❑ غروسيه، رينيه:

- **جنكيز خان قاهر العالم**، تعريب: خالد أسعد عيسى، دار حسان، دمشق، ١٩٨٢م.

❑ فامبري، أرمينيوس:

- **تاريخ بخارى منذ أقدم العصور حتى الوقت الحاضر**، تعريب: محمود الساداتي، المؤسسة العربية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، ١٩٦٥م.

❑ القزاز، محمد صالح داوود:

- **الحياة السياسية في العراق في عهد السيطرة المغولية**، النجف، ١٩٧٠م.

❑ نسيم، جوزيف:

- **لويس التاسع في الشرق الأوسط**، القاهرة، ١٩٥٦م.

❑ هلال، عادل إسماعيل محمد:

- **العلاقات بين المغول وأوروبا وأثرها على العالم الإسلامي**، عين للدراسات، القاهرة، ط١، ١٩٩٧م.

ثانياً: المصادر والمراجع باللغات الإسلامية

❑ آبرو، حافظ:
- **ذيل جامع التواريخ رشيدي**، باهتمام: خانبابا بياني، تهران، ١٣٥٠هـ ش (الفارسية).

❑ الآقسرائي، محمود بن محمد، المشتهر بالكريم:
- **مسامرة الأخبار ومسايرة الأخيار**، تحقيق: عثمان توران، أنقرة، ١٩٤٣م (الفارسية).

❑ باشي، منجم:
- **صحائف الأخبار**، إستانبول، ١٢٨٥هـ (التركية).

❑ ابن بيبي، ناصر الدين يحيى بن محمد:
- **الأوامر العلائية في الأمور العلائية**، تحقيق: هوتسما، ١٩٠٢م (الفارسية).

❑ الجوزجاني، أبو عمر منهاج الدين عثمان بن سراج الدين:
- **طبقات ناصري**، نشر: وليم ناسوليس ومولوي خادم حسين ومولوي عبد الحي، كلكتا، ١٨٦٤م (الفارسية).

❑ الجويني، علاء الدين عطا ملك بن بهاء الدين محمد:
- **تاريخ جهانكشاي**، بسعي واهتمام: محمد بن عبد الوهاب القزويني، مطبعة بريل، ليدن، جـ١، ١٣٢٩هـ/ ١٩١١م؛ جـ٢، ١٣٣٤هـ/ ١٩١٦م؛ جـ٣، ١٣٥١هـ/ ١٩٣٧م (الفارسية).

❑ خواندامير، غياث الدين محمد بن همام الدين:
- **حبيب السير في أخبار أفراد البشر**، تحقيق: محمود دبيرسياقي، تهران، ١٣٣٣هـ ش (الفارسية).

❑ شبولر، بارتولد:
- **تاريخ مغول در إيران**، ترجمة: محمود مير آفتاب، تهران، ١٣٥١هـ (الفارسية).

❑ القاشاني، عبد الله:
- **تاريخ أولغايتو**، باهتمام: مهين هميلي، تهران، ١٣٤٨هـ ش (الفارسية).

❑ القزويني، حمد الله بن أبي بكر بن أحمد بن نصر:
- **تاريخ گزيدة**، نشر: عبد الحسين نوائي، تهران، ١٣٣٦ ـ ١٣٣٩هـ (الفارسية).
- **نزهة القلوب**، نشر: لي سترينغ، ليدن، ١٣٣١هـ/ ١٩١٣م (الفارسية).

❑ ميرخواند، محمد بن خاوندشاه بن محمد:
- **روضة الصفا**، چاب بنجم، تهران، ١٣٣٩هـ ش (الفارسية).

❑ الهمذاني، رشيد الدين فضل الله:
- **جامع التواريخ، جـ١**: أز آغاز بيدايش قبايل مغول تا بايان دوره تيمور قاآن، نشر: بهمن كريمي، تهران، ١٣٢٨هـ ش، ١٩٥٩م (الفارسية).

- **تاريخ المغول في إيران، تاريخ هولاكو**، نشر كاترمير، باريس، ١٨٣٦م (الفارسية).

❑ وصاف الحضرة، أديب شرف الدين عبد الله بن فضل الله الشيرازي:
- **تاريخ وصاف**، بمباي، ١٢٦٩هـ (الفارسية).

ثالثاً: المصادر والمراجع باللغات الأوروبية

- Armenian Documentary: in R.H.C. vol III.
- Atiya, Aziz Suryal: **Egypt and Aragon,** Leipzig, 1938.
- Boyle, J.A: **The Il-Khans of Persia and the Christian west,** History today, 1973.
- Broswell, A: **Territorial Division and the Mongol Invasions, 1202-1300,** in the Cambridge History of Poland.
- Brown, E.G: **A Literary History of Persia,** Cambridge university press, 1951.
- Budge, E.A.W: **The Monks of Kublai Khan, Emperor of China,** London, 1928.
- Cahen, Claude: **La Syrie du Nord à L'epoque des Croisudes et la Principauté d'Antioch,** Paris, 1942.
- Cambridge Medieval History, IV.
- Cambridge Medieval History, History of Iran, V.
- Caprini, J.P: **The Mongol's History,** Ed Dawson, The Mongol Mission, New-York, 1955.
- Chabot: **Relations du Roi Argoun avec L'occident,** in Reuve de L'orient Latin, Paris, 1894.
- Chambers, James: **The Devil's Horseman, The Mongol Invasion of Europe,** London, 1979.
- Chechire, Harold: **The Great Tartar Invasion of Europe,** in Slavonic Review, 1926-1927.
- Chechire, Harold: **The Chronicle of Novgorod,** Trans by Robert Michell and N. Farbes, London, 1914.
- Debrida, Friar: **The Vinland map and Tartar Relation,** Ed and Trans by R.A Skelton and others, Yale University press, 1965.
- Dmytryhym, Basil: **Medieval Russia,** A Source book, NewYork, 1967.
- D'ohsson, Constantine: **Histoire des Mongols depuis Tchinguiz Khan jusqu'a Timour Bey, ou Tamerlan,** Amesterdam, 1834-1836.
- Edermann, M: **The Life of Jingis Khan, under the Title Temudschin der Unerschutterliche,** Leibzig, 1862.
- Grousset, René: **L'Empire de la Steppes,** Paris, 1948.
- Grousset, René: **Histoire de Croisades et du Royaume,** Paris, 1934-1936.
- Howorth, Sir Henry Hayle: **History of Mongols from the 9th to the 19th Century,** London, 1876-1927.

- Mathew of Paris: **Chronica Majora,** Trans by John Gayles, London, 1852-1854.
- Morfill, W.R: **Russia,** London, 1863.
- Moule, A.C: **Christians in China before the year, 1550,** London, 1930.
- Polo, Marco: **The Description of the world,** Trans and Ed by Ch.Moule and Paule Pelliot, London, 1938.
- Powicke, F.M: **King Henry III and the Lord Edward II,** Oxford, 1947.
- Rachewitze, Igore de: **Papal Envoys to the Great Khans,** London, 1970.
- Rambaud, A: **Histoire de la Russie depuis les origines jusqu'a L'anné, 1877,** Paris, 1878.
- Richard, Jean: **The Mongols and the Franks,** Journal of Asian History, 1969.
- Rubruck, W: **The Journey of William Rubruck,** Ed C. Dawson, Rokhill, London, 1962.
- Saunder, J.I: **The History of the Mongol Conquest,** London, 1971.
- Sinor, Denis: **History of Hungary,** London.
- Sinor, Denis: **The Mongols and Western Europe,** in K, Setton: **A History of the Crusades,** Wisconsin university press, 1965.
- Spular, B: **History of the Mongol,** Trans from the German by Helga and Stuart Drummond, London, 1972.
- Sykes, Sir Percy: **A History of Persia,** London, 1963.
- Thompson, J.W: **The Middle Ages,** London, 1931.
- Vasiliev, A.A: **History of the Byzantine Empire,** Madison, 1928, 1937.
- Vernadsky: **The Mongols and Russia,** 1953.
- Von Hammer: **II-Khans-Golden Horde,** Pesth, 1840.

دليل الخرائط الواردة في الكتاب

الخريطة	الصفحة
١ ـ أقاليم الصين في القرن السادس	٤٦
٢ ـ الدولة الخوارزمية في أقصى اتساعها	٥٣
٣ ـ أوراسيا، حوالي سنة ١٢١٠م ـ بداية الفتوح المغولية	٧٤
٤ ـ أوراسيا، بين سني ١٢٦٠ ـ ١٢٨٠م (ممتلكات المغول)	٧٨
٥ ـ امبراطورية المغول	١٧٢
٦ ـ إيران	١٩٠
٧ ـ دولة الإيلخانيين والممالك المجاورة لها	٢٢٩

محتوى الكتاب

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٥

الباب الأول

المغول العظام

(٦٠٢ ـ ٧٧٢هـ/١٢٠٦ ـ ١٣٧٠)

الفصل الأول: ظهور جنكيز خان	١٧
ـ تمهيد	١٧
ـ أصل المغول	٢٢
ـ بروز جنكيز خان على المسرح السياسي	٢٦
تنظيمات جنكيز خان	٣٢
ـ التنظيمات الخاصة بالبلاط	٣٢
ـ التنظيمات العسكرية	٣٣
ـ التنظيمات المدنية	٣٥
ـ القانون المغولي ـ الياسا	٣٦
الدين في المجتمع المغولي	٤٠
الفصل الثاني: التوسع المغولي في عهد جنكيز خان	٤٣
التمدد المغولي باتجاه الصين	٤٣
ـ تمهيد	٤٣
ـ دوافع التمدد المغولي	٤٤
ـ حملات جنكيز خان ضد الصين الشمالية ونتائجها	٤٤
التمدد المغولي باتجاه الغرب	٥٠
ـ القضاء على كوشلوك خان	٥٠
ـ الاستيلاء على بلاد ما وراء النهر	٥١
ـ تأسيس الدولة الخوارزمية	٥١

- تدهور العلاقات بين المغول والخوارزميين ... ٥٤
- استعدادات الحرب ... ٥٧
- سقوط أوترار ... ٥٨
- سقوط جند ... ٥٩
- سقوط بنكت وخجندة ... ٦٠
- سقوط بخارى ... ٦١
- سقوط سمرقند ... ٦٢
- نهاية السلطان محمد خوارزمشاه ... ٦٤
- سقوط خوارزم ... ٦٦
- سقوط خراسان ... ٦٦
- الحرب بين جنكيز خان والسلطان جلال الدين منكبرتي ... ٦٧

التسرب المغولي إلى أوروبا ... ٧٠

- حملة المغول ضد الأقاليم الشمالية الغربية وجنوبي روسيا ... ٧٠
- الانسياب المغولي باتجاه روسيا ... ٧١

الحرب الأخيرة ضد التانغوت ـ وفاة جنكيز خان ... ٧٥

وفاة جوجي بن جنكيز خان ... ٧٦

تقسيم امبراطورية جنكيز خان ... ٧٦

شخصية جنكيز خان ... ٧٩

الفصل الثالث: أوكتاي بن جنكيز خان ـ كيوك بن أوكتاي ... ٨١

أوكتاي بن جنكيز خان (٦٢٦ ـ ٦٣٩هـ/ ١٢٢٩ ـ ١٢٤١م) ... ٨١

- اعتلاء أوكتاي عرش المغول ... ٨١

التوسع المغولي في عهد أوكتاي ... ٨٢

التمدد باتجاه الغرب ... ٨٢

- إعادة إحياء الدولة الخوارزمية ... ٨٢
- القضاء على الدولة الخوارزمية ... ٨٣
- الغزو المغولي لديار بكر والجزيرة الفراتية ... ٨٥
- استيلاء المغول على أذربيجان ... ٨٦
- المغول على أبواب العراق ... ٨٦
- استيلاء المغول على الكرج وأرمينيا ... ٨٧

الغزو المغولي لآسيا الصغرى ... ٨٧

- الفوضى في شمالي بلاد الشام وإقليم الجزيرة ... ٨٧
- التسرُّب المغولي إلى آسيا الصغرى ... ٩٠
- معركة كوساداغ (الجبل الأقرع) ... ٩١

التوسع المغولي في الصين ... ٩٣

الغزو المغولي لأوروبا الشرقية ... ٩٦

- السيطرة على القبجاق والبلغار ... ٩٦

العمليات العسكرية على الجبهة الروسية ... ٩٧

- الأوضاع الداخلية للإمارات الروسية قبيل الغزو المغولي ... ٩٧
- السيطرة على الإمارات الروسية ... ٩٨

المرحلة الأولى ... ٩٨

المرحلة الثانية ... ١٠٠

- العمليات العسكرية في أوروبا الشرقية ... ١٠١

غزو بولندا ... ١٠١

غزو المجر ... ١٠٣

الإنجازات المدنية لأوكتاي ... ١٠٦

إنشاء العاصمة قراقورم ... ١٠٦

نظام البريد ... ١٠٧

النظم المالية والضرائبية ... ١٠٩

صفات أوكتاي ... ١٠٩

وفاة أوكتاي ... ١١٠

كيوك بن أوكتاي: (٦٤٤ ـ ٦٤٧هـ/ ١٢٤٦ ـ ١٢٤٩م) ... ١١١

الأوضاع السياسية عقب وفاة أوكتاي ... ١١١

انتخاب كيوك خاناً أعظم ... ١١٢

التغيير الإداري ... ١١٣

وفاة كيوك ... ١١٤

محاولات الغرب الأوروبي التحالف مع المغول ... ١١٤

- بعثات البابا أنوسنت الرابع ... ١١٤

تمهيد ... ١١٤

بعثة لورانس البرتغالي ... ١١٤

بعثة يوحنا الكاربيني ... ١١٥

الموضوع — الصفحة

بعثة أندريه لونجومو ١١٧
بعثة آسيلين اللومباردي ١١٨
ـ بعثات لويس التاسع ملك فرنسا ١١٩
بعثة أندريه لونجومو ١١٩
الفصل الرابع: منكو بن تولوي: (٦٤٩ ـ ٦٥٧هـ/ ١٢٥١ ـ ١٢٥٩م) ١٢٣
انتخاب منكو خاناً أعظم ١٢٣
القضاء على المعارضة ١٢٤
إصلاحات منكو ١٢٥
نزعات منكو الدينية ١٢٧
تجدد اتصال الملك الفرنسي لويس التاسع بالمغول ١٢٩
ـ تعقيب على الاتصالات السياسية بين المغول والغرب الأوروبي ١٣١
التوسع المغولي في عهد منكو ١٣٢
التوسع باتجاه الغرب ١٣٢
ـ القضاء على الحشيشة ١٣٢
أصل الحشيشة ١٣٢
علاقة المغول بالحشيشة ١٣٣
استعدادات التجهيز ١٣٥
الاستيلاء على قلاع الحشيشة ١٣٦
القضاء على الخلافة العباسية ١٣٩
ـ أوضاع الخلافة العباسية عشية الزحف المغولي ١٣٩
ـ التمهيد للزحف على بغداد ١٤٤
ـ سقوط بغداد ١٤٦
ـ تعقيب على سقوط بغداد ١٤٨
المغول في بلاد الشام ١٤٩
التوسع المغولي باتجاه الصين الجنوبية ـ وفاة منكو ١٥٢
الفصل الخامس: قوبيلاي بن تولوي: (٦٥٧ ـ ٦٩٣هـ/ ١٢٥٩ ـ ١٢٩٤م) ١٥٥
انتخاب قوبيلاي خاناً أعظم ١٥٥
التوسع المغولي في عهد قوبيلاي ١٥٧
استئناف القتال على الجبهة الغربية ١٥٧
ـ قيام دولة المماليك البحرية ١٥٧

الموضوع — الصفحة

ـ معركة عين جالوت ووقف الزحف المغولي ١٦٠
ـ نتائج معركة عين جالوت ١٦٥
إخضاع الصين الجنوبية ١٦٧
التوسع في جنوب شرقي آسيا وبعض الجزر اليابانية ١٦٩
إصلاحات قوبيلاي ١٧١
ـ تنظيم الإدارة ١٧١
ـ تنظيم التجارة ١٧٥
نزعات قوبيلاي الدينية ١٧٧
العمارة في عهد قوبيلاي ١٨٠
وفاة قوبيلاي ١٨١
تصدع وانحطاط امبراطورية المغول العظام ١٨١

الباب الثاني

المغول الإيلخانيون

(٦٥١ ـ ٧٥٦هـ/ ١٢٥٣ ـ ١٣٥٥م)

الفصل السادس: هولاكو ـ أباقا بن هولاكو ١٨٧
هولاكو: (٦٥١ ـ ٦٦٣هـ/ ١٢٥٣ ـ ١٢٦٥م) ١٨٧
السمات العامة لدولة المغول الإيلخانيين في إيران ١٨٧
الوضع السياسي لهولاكو بعد وفاة منكو ١٩١
هولاكو بين بيبرس وبركة خان ١٩١
استيلاء هولاكو على الموصل ١٩٣
هولاكو يهاجم شمالي بلاد الشام ١٩٥
العلاقة مع القبيلة الذهبية في القبجاق ١٩٧
محاولة التحالف بين هولاكو والنصارى ٢٠٠
وفاة هولاكو ٢٠٢
توزيع المناصب ٢٠٢
أباقا بن هولاكو: (٦٦٣ ـ ٦٨٠هـ/ ١٢٦٥ ـ ١٢٨٢م) ٢٠٣
اعتلاء أباقا عرش الإيلخانية ٢٠٣
العلاقات الخارجية ٢٠٤
العلاقة مع المماليك ٢٠٤

الموضوع الصفحة

- محاولة التحالف المغولي ـ النصراني ٢٠٤
- نشاط بيبرس في شمالي بلاد الشام ٢٠٨
- معركة البيرة ٢١٢
- المغول بين المماليك وسلاجقة الروم ٢١٤
- معركة البستان ٢١٦
- التبدلات السياسية في دولة المماليك ٢٢٠
- معركة حمص ٢٢١

العلاقة مع القبيلة الذهبية في القبجاق ٢٢٤

العلاقة مع المغول الجغتائيين في وسط آسيا ٢٢٥

وفاة أباقا ٢٣٠

الفصل السابع: أحمد تكودار بن هولاكو ـ أرغون بن أباقا ـ كيغاتو بن أباقا ـ بايدو بن طرغاي ٢٣١

أحمد تكودار: (٦٨١ ـ ٦٨٣هـ/ ١٢٨٢ ـ ١٢٨٤م) ٢٣١
- اعتلاء تكودار عرش الإيلخانية ٢٣١
- بداية التحول الديني نحو الإسلام عند الإيلخانيين ٢٣٢
- العلاقة مع المماليك بعد التحول الديني ٢٣٣
- الصراع بين أحمد تكودار وأرغون، ومقتل الأول ٢٣٥

أرغون بن أباقا: (٦٨٣ ـ ٦٩٠هـ/ ١٢٨٤ ـ ١٢٩١م) ٢٣٨

الأوضاع الداخلية ٢٣٨
- اعتلاء أرغون عرش الإيلخانية ٢٣٨
- نكبة آل الجويني ٢٣٩
- التخلص من بوقا ٢٤٠
- سطوع نجم سعد الدولة ٢٤٢
- القضاء على سعد الدولة ٢٤٤

العلاقات الخارجية ٢٤٥

العلاقة مع النصارى الغربيين ٢٤٥
- تمهيد ٢٤٥
- سفارة رابان صوما ٢٤٦
- سفارة بوسكاريل جيزولف ٢٤٩
- العلاقة مع المماليك ٢٥٢

الموضوع الصفحة

- العلاقة مع الجيران الآخرين ٢٥٣

وفاة أرغون ٢٥٤

كيغاتو بن أباقا: (٦٩٠ ـ ٦٩٤هـ/ ١٢٩١ ـ ١٢٩٥م) ٢٥٥

اعتلاء كيغاتو عرش الإيلخانية ٢٥٥

المشكلات التي واجهت كيغاتو في بداية حياته السياسية ٢٥٦

وزارة صدر الدين الزنجاني ٢٥٧

الأزمة النقدية ٢٥٧

نهاية كيغاتو ٢٦٠

بايدو بن طرغاي: (٦٩٤هـ/ ١٢٩٥م) ٢٦٢

اعتلاء بايدو عرش الإيلخانية وأهم أعماله ٢٦٢

نهاية بايدو ٢٦٣

الفصل الثامن: غازان بن أرغون: (٦٩٤ ـ ٧٠٣هـ/ ١٢٩٥ ـ ١٣٠٤م) ٢٦٥

الأوضاع الداخلية ٢٦٥
- اعتناق غازان الإسلام ٢٦٥
- تعقيب على اعتناق غازان الإسلام ٢٦٦
- تنظيم إدارة الدولة ٢٧٠
- القضاء على نوروز ٢٧١
- القضاء على الوزير صدر الدين الزنجاني ٢٧٢

العلاقات الخارجية ٢٧٣

العلاقة مع المماليك ٢٧٣
- تمهيد ٢٧٣
- الحملة الأولى: معركة مجمع المروج ٢٧٥
- الحملة الثانية ٢٧٩
- الحملة الثالثة: معركة عُرْض ٢٨٢
- معركة شَقْحَب ٢٨٤

العلاقة مع المغول العظام ٢٨٦

العلاقة مع النصارى الغربيين ٢٨٦

إصلاحات غازان ٢٨٩
- الشؤون المالية والاقتصادية ٢٨٩
- الشؤون القضائية ٢٩٢

ـ الشؤون الاجتماعية ٢٩٣
وفاة غازان ٢٩٥
الفصل التاسع: أولغايتو ـ أبو سعيد ٢٩٧
أولغايتو محمد خدابنده: (٧٠٣ ـ ٧١٦هـ/ ١٣٠٤ ـ ١٣١٦م) ٢٩٧
الأوضاع الداخلية ٢٩٧
ـ اعتلاء أولغايتو عرش الإيلخانية ٢٩٧
ـ تنظيم إدارة الدولة ٢٩٨
ـ بناء مدينة السلطانية ٢٩٩
ـ تحول أولغايتو إلى المذهب الشيعي وعودته عنه ٣٠٠
ـ نهاية الوزير سعد الدين الساوجي ٣٠٣
ـ خلافة علي شاه لسعد الدين ٣٠٤
العلاقات الخارجية ٣٠٤
ـ الاستيلاء على جيلان ٣٠٤
ـ الاستيلاء على هراة ٣٠٥
العلاقة مع المماليك ٣٠٧
ـ تمهيد ٣٠٧
الحملة على بلاد الشام ٣٠٨
ـ حصار الرحبة ٣٠٨
ـ معركة ماردين ٣١٠
ـ العلاقة مع القبيلة الذهبية ٣١١
ـ العلاقة مع الغرب الأوروبي ٣١٢
وفاة أولغايتو ٣١٦
أبو سعيد بهادور: (٧١٧ ـ ٧٣٦هـ/ ١٣١٧ ـ ١٣٣٥م) ٣١٧
الأوضاع الداخلية ٣١٧
ـ اعتلاء أبي سعيد عرش الإيلخانية ٣١٧
ـ حركة الأمير يساور ٣١٨
ـ مقتل رشيد الدين الهمذاني ٣٢٠
ـ ذيول مقتل رشيد الدين الهمذاني ٣٢١
ـ القضاء على جوبان ٣٢٣
ـ القلاقل في إيلخانية إيران في أواخر حكم أبي سعيد ٣٢٦

وفاة أبي سعيد ٣٢٧
العلاقات الخارجية ٣٢٨
ـ العلاقة مع المماليك ٣٢٨
الفصل العاشر: خلفاء أبي سعيد ـ سقوط إيلخانية إيران ٣٣٣
ـ تمهيد ٣٣٣
أربا خان (٧٣٦هـ/ ١٣٣٦م) ٣٣٤
موسى خان ٣٣٦
محمد خان ٣٣٧
ساتي بيك خان ٣٣٩
طغاي تيمور خان ٣٤٠
شاه جهان تيمور خان ٣٤١
سليمان خان ٣٤٢
أسباب زوال الدولة الإيلخانية ٣٤٥
ثبت المصادر والمراجع ٣٤٩
أولاً: المصادر والمراجع باللغة العربية ٣٤٩
أ ـ المصادر ٣٤٩
ب ـ المراجع ٣٥٢
ثانياً: المصادر والمراجع باللغات الإسلامية ٣٥٤
ثالثاً: المصادر والمراجع باللغات الأوروبية ٣٥٥
دليل الخرائط الواردة في الكتاب ٣٥٧
محتوى الكتاب ٣٥٩

من منشورات دار النفائس التاريخية

* **الأيام الحاسمة في الحروب الصليبية** ـ بسام العسلي.
* **التاريخ الإسلامي الوجيز** ـ د. محمد سهيل طقوش.
* **تاريخ الأيوبيين في مصر وبلاد الشام وإقليم الجزيرة** ـ د. محمد سهيل طقوش.
* **تاريخ الخلفاء الراشدين** ـ د. محمد سهيل طقوش.
* **تاريخ الدولة الأموية** ـ د. محمد سهيل طقوش.
* **تاريخ الدولة العباسية** ـ د. محمد سهيل طقوش.
* **تاريخ الدولة العلية العثمانية** ـ محمد فريد (تحقيق د. إحسان حقي).
* **تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام** ـ د. محمد سهيل طقوش.
* **تاريخ السلاجقة في بلاد الشام** ـ د. محمد سهيل طقوش.
* **تاريخ سلاجقة الروم** ـ د. محمد سهيل طقوش.
* **تاريخ العلاقات العثمانية الإيرانية** ـ د. عباس إسماعيل صباغ.
* **تاريخ الفاطميين في شمال أفريقيا ومصر وبلاد الشام** ـ د. محمد سهيل طقوش.
* **تاريخ فلسطين القديم** ـ ظفر الإسلام خان.
* **تاريخ القوقاز** ـ د. محمود عبد الرحمٰن.
* **تاريخ المسلمين في الأندلس** ـ د. محمد سهيل طقوش.
* **تاريخ المغول العظام والإيلخانيين** ـ د. محمد سهيل طقوش.
* **تاريخ مغول القبيلة الذهبية والهند** ـ د. محمد سهيل طقوش.
* **تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام** ـ د. محمد سهيل طقوش.
* **حدائق الياسمين في ذكر قوانين الخلفاء والسلاطين** ـ محمد بن عيسى بن كنان (ت: عباس صباغ).
* **الحضارة الإسلامية في بغداد في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري** ـ د. محمد حسين شندب.
* **حوادث الزمان ووفيات الشيوخ والأقران** ـ ابن الحمصي (ت: عبد العزيز فياض حرفوش).
* **السلطة في بلاد الشام (في القرن الثامن عشر)** ـ د. عبد الغني عماد.
* **العثمانيون (من قيام الدولة إلى الانقلاب على الخلافة)** ـ د. محمد سهيل طقوش (توزيع).
* **الفتنة ووقعة الجمل** ـ رواية: سيف بن عمر الضبي الأسدي، تصنيف وتقديم: أحمد راتب عرموش.
* **القادسية** ـ أحمد عادل كمال.
* **محاسن الوسائل في معرفة الأوائل** ـ تصنيف: محمد عبد الله الشلبي الدمشقي (ت: د. محمد ألتونجي).
* **المدخل إلى التاريخ الإسلامي** ـ د. محمد فتحي عثمان.
* **قيادة الرسول السياسية والعسكرية** ـ أحمد راتب عرموش.

رقم: 484 - 07

ما زالت أسماء: جنكيزخان، وهولاكو، وتيمورلنك تثير الخوف والاشمئزاز معاً في نفوس المسلمين، على الرغم من انقضاء قرون على تلك الظاهرة، التي أذهلت العالم، إذ انطلقت جحافل تلك الشعوب المتوحشة من منغوليا في قلب آسيا، وانقضَّت على مراكز الحضارة في الصين وإيران والعراق وآسيا الصغرى، وبلاد الشام، وشرقي أوروبا، فاجتاحت البلاد، وقتلت العباد، وزرعت الفوضى والدمار في كل بلد مرَّت عليه، وأقامت امبراطورية مترامية الأطراف بسرعة ملفتة.

ثم ما لبثت في مدَّة قصيرة نسبياً، أن تفككت تلك الامبراطورية وانهارت، وذاب أهلها في البلدان المفتوحة، ولم يعد لبعضها الآخر ذكر في التاريخ أو الوجود.

والدراسات بالعربية التي تتناول تاريخ المغول قليلة وهزيلة، ما دعا المؤلف المؤرخ أ.د. محمد سهيل طقوش إلى وضع هذه الدراسة المهمة، لتلقي الضوء على حقبة مهمة في تاريخ البلاد الإسلامية، على أن يتبعها بدراسة أخرى عن مغول القبيلة الذهبية والهند. فعسى أن تكون هذه الدراسة مفيدة لدارسي التاريخ ومحبيه.

الناشر

ISBN 9953-18-434-8
9789953184340